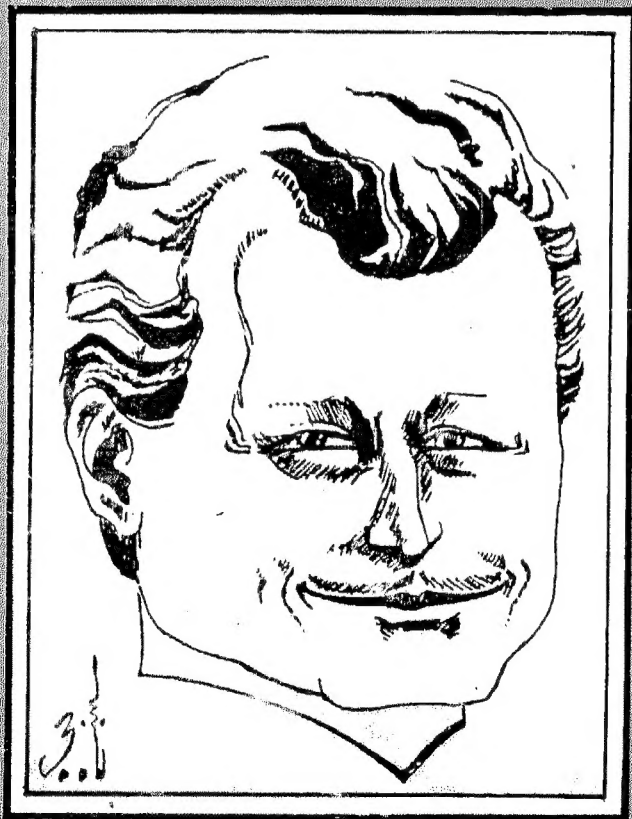


مؤلفيات

# عبد الله الطوي

• القصص القصيرة



Bibliotheca Alexandrina



# مؤلفات

عَبْدُ اللَّهِ الطَّوْحِي

---

● المجلد الأول  
● القصص القصيرة



الهيئة الوطنية للمكتبات والكتب

١٩٩١

الاخراج الفنى

---

ماجدة البنا



# الإهداء

الى مرآة الحب الصافية  
رفيقة الحلم والطوفان  
زوجتى وصديقتى  
فتحية العسال



# تقديم

## حياتي والقصة القصيرة

كتبت القصة القصيرة في مطلع شبابي الباكر .  
لم أكتبها بل اكتشفتها ، وكان اكتشافها حدثا هائلا  
وسعيدا . ان قلت أول وأعظم الأحداث السعيدة  
في حياتي ، لا أبالغ ! .. فقد كنت في فترة الحيرة  
والشك والبحث عن النفس ، وعن مبرر لوجودي  
في هذا العالم ! .. ومازلت أذكر - والقلب يخفق -  
أول قصة قصيرة خطتها بقلمى ونشرت في إحدى  
المجلات الجامعية عام ١٩٤٩ .. ذلك أنى تقدمت بها  
في مسابقة أعلنت عنها هذه المجلة ، وفازت بجائزة  
قدرها جنيه مصرى واحد ، طرت به فرحا ، واشتريت  
به هدية لحبيبتي التى أصبحت رفيقة عمرى ..  
كانت الهدية حقيبة يد جلدية .. بنية اللون أنيقة !

ليس فقط لهذه الواقعة العاطفية الفريدة ، بقيت ذكرى هذه القصة في نفسى ، وانما ايضا للظروف والملابسات التى كتبتها فيها : التى ملأتني بشحنة وجدانية وروحية هائلة جعلتني أخرج القلم والورق واكتبها - وما أنا بكاآب - وانصبت من نفسى على الورق فى جلسة واحدة .. واذا بى أمام مخلوق حى وجميل هو جزء من ذاتى . كانت فرحتى فرحة الأم التى خرج من رحمها مولودها الأول . كما كان احساسى أن القصة ليست هى وحدها التى ولدت ، بل أنا أيضا ولدت بها من جديد ! .. فها انذا أستطيع أن أقوم فى الحياة بعمل جميل متفرد بل وخطير .. لا أبرر به وجودى فحسب ، بل أمضى به وأنا منتشى وفخور !

الا أن الأمر يبقى أعمق دلالة من ذلك بكثير . فقد كان أخطر ما فى هذه القصة موضوعها : شاب على موعد مع امرأة متزوجة كان يعرفها قبل أن تتزوج ، والتقىا صدفة بعد أعوام من زواجها ، فتحرك الحنين ، ودعته الى زيارتها فى بيتها .. ولكن متى ؟ ! .. بعد أن يخرج زوجها فى الصباح الى عمله الذى لا يعود منه الا فى المساء ! ويندفع الشاب مغامرا ، تحت سحر اللحظات المرتقة ، ويكر فى الذهاب .. يتخفى داخل أحد المحلات المقابلة لباب بيت الزوجة ، راصدا ، وهو يشرب كوبا من اللبن : حركة الزوج ، منتظر خروجه .. ليدخل هو !!

واذ يرى الزوج يخرج من البيت ، رافعا ياقة معطفه لتحميه من برد الشتاء القارس ، موسعا خطاه ، يكاد يرتعش ، كى يلحق عمله ، تحدث فى نفسه هزة تجعله يتعاطف مع الرجل .. ويرى نفسه - لو قطعها - فى صورة ذئب يتسلل الى البيوت بعد أن يغادرها أصحابها . ليس هو وحده الذئب ، انما هى الأخرى أيضا ذئبة .. ورأى نفسه يخاطبها وهى تفتح له الباب : صباح

الخير يا ذئبتى العزيزة .. فترد عليه مرجبة بحرارة : صباح  
النور يا ذئبتى العزيز !

ما ان ارتسمت أمامه هذه الصورة ، حتى هتف به هاتف  
من داخله : هذه خاتمة لقصة قصيرة . ووجد نفسه مدفوعا  
بقوة خفية سحرية وشهوانية أيضا ، لأن يخرج من جيبه قلما  
ونوتة صغيرة يحتفظ بها دائما في جيبه ، ومضى يكتب .. يكتب  
قصة هذا الذى رآه يحدث لو أنه أوفى بالميعاد وذهب إليها .  
ولم يرفع رأسه من على الورق الا بعد أن انتهى ، وأعطاهها أيضا  
حنوانها : اللدب ! .. وحينذاك نهض من مخبئه ولم يذهب الى  
المرأة ، بل انطلق في الشوارع فرحان بقصته !

كان هذا الشاب فى الحقيقة هو انا ، ومازلت اذكر الفرحة  
التي احتاجت بها روحى بعد أن انتهيت من كتابة القصة . ليس  
فقط لأنى ، لأول مرة كتبت قصة ، وانما أيضا لأنى ، بفضل  
كتابتها ، نجحت فى مقاومة الاغراء وقهر غريزتى .. لكنما  
انصبت الشهوة على الورق ، وبمتعة أروع . ونجوت من ارتكاب  
أبشع أنواع الخطايا .. وهو الزنا !!

تلك كانت البذرة الأولى للفكرة التى سيطرت على كل  
كتاباتى وفنى فيما بعد : ان الانسان بالفن يمكنه مقاومة الشر ..  
فبدلا من أن يرتكبه ، يتأمله ويعلو عليه ، ثم يحوله من فعل حرام ،  
الى عمل فنى يشهد بطهارة أعماقه وبراءته ! .. وهكذا ارتبطت  
أول قصة قصيرة كتبتها بفكرة الفضيلة التى تسبغ على الانسان  
انسانيته ونقااه !

كما أنى خرجت من كتابتى لهذه القصة بدرس هام آخر فى  
الفن ، وهو أن « التجربة » الحية هى أعظم ينباع الفنان . كلما  
امتلات حياته بالتجارب ، امتلات وسخت ينباع فنه التى يغترف

منها .. ومن هنا كانت وما زالت للكلمة « التجربة » رنينها السحري في نفسى ، وقوة جذبها المغناطيسى ؛ كوعد أو بشر بقصة جديدة تلوح .. بل ان أية تجربة أو واقعة كانت تمر بحياتى ، لم تكن تكتسب في نفسى أى وزن أو أهمية ، ما لم أر قابليتها لأن تصبح قصة ، أو عنصرا فعلا في بنيان قصة .. ومن هنا كان نهى وتوقى الى « التجربة » والبحث عنها ، بل والعمل أحيانا على خلقها !

الا ان هذه القناعة كانت تحمل في نناياها تناقضا دراميسا واضحا وحادا .. التناقض بين ضرورة التجربة وضرورة الفضيلة في الوقت ذاته .. كيف يجتمع النور مع الظلام ، والماء مع النار في حيز واحد ؟ ! .. ولأن هواجس وتوترات العاطفة المقرونة بالجنس كانت في تلك المرحلة من الشباب هى المحرك والمثير للبحث عن التجربة واقتفاء اثرها ، فقد كانت ضرورة اقتران الفن بالفضيلة يحمل نوعا من المكابدة التى تبلغ حد العذاب .. فالتجربة لكى تكتب جيدا ، يجب ان تعاش الى اقصى اطرافها واعماقها .. كيف يتأتى الجمع بين الاثنين ؟ ! .. ان هربت من التجربة فهى خيانة للفن .. وان القيت بكل نفسى في اتونها ، كسبت الفن وخسرت طهارتى وراحة ضميرى ! كيف يمكن حل هذا التناقض؟!

كان لابد من ثورة لحله في نفسى . أجل . فقد كنت أحس من اعماقى ، وعلى نحو فطرى غامض ، أن الفضيلة والفن ليسا أبدا ضدّين متنافرين ، وأن ثمة موجة واحدة تحملهما وتدفع بهما معا في نهر الحياة .. كيف اذن يمكن حل هذا التناقض القائم في النفس وفي العقل ؟ !

كانت تربيتى الريفية المتدينة بالطبع هى المسؤولة عن هذه الرؤية .. فقد كان التناقض البادى في العملية الفنية ، هو في

الحقيقة انعكاس للتناقض القائم في نفسى منذ بدء فترة البلوغ ، بين الفرح بالحياة والرغبة العارمة في احتوائها ، وبين الخوف من الوقوع في الحرام وأن أكون لعبة في يد الشيطان . كان لابد من حل لانتهاء هذا العذاب ! ولم أكن أمثل حينذاك حالة فردية خاصة ، انما هى كانت حالة جيل كامل . بل قل حالة وطن بأكمله ، وطن عاش طويلا مكبلا تحت حكم غيره ويريد تحطيم الأغلال . انه لا يريد فقط ، بل ويهب أيضا نائرا لتحقيق ذلك . كانت الحرب أو المجزرة العالمية الثانية منتهية لتوها ، والحلفاء الذين انتصروا على الفاشية يجلسون في « بوتسدام » ليرسموا على الورق خريطة جديدة للعالم . والشعوب المستعمرة تنهض مناضلة من أجل استقلالها واسترداد حريتها ! كان طوفان الثورة المصرية على الاحتلال الانجليزى بدأ يندفع بقوة وعرامة ويفمر البلاد كلها . ورغم انى كنت لا أحب السياسة بل وأنفر منها ، الا اننى وجدتني مندفعا مع الطوفان .. واحدا ضمن عشرات الألوف من الطلبة والعمال والناس العاديين زاحفين الى ثكنات العدو في قصر النيل ، عزلا غير آبهين بمواجهة الحديد والنار ! كانت السياسة ملحمة مجيدة تخلق البطولة والأبطال ! كانت تعنى كلمات محددة : تحرير امنا الكبرى مصر ، وإخراجها من كفن عاشت طويلا فيه .. ولأننى عشت طويلا في هذا الكفن في قرىتى وما أكثر ما انتفضت نائرا عليه تأثقا للخروج وللانطلاق ، فقد وجدتني منجذبا شيئا فشيئا الى سياسة تلك الأمام والاندفاع مع الطوفان . كانت الثورة العامة متنفسا لثورتى الشخصية الفردية ، فامتزجت الاثنان .. وسرعان ما وجدتني ، بحكم كراهيتى الأولى للسياسة والسياسيين التقليديين ، انضم الى احدى الكتائب الجديدة في الثورة والنضال . وكانت كتيبة الشيوعيين :

ذلك فصل يستحق أن يكتب بالكامل وبالتفصيل ، لكن المهم منه الآن ، ونحن بصدد « القصة القصيرة » و « التجربة » و « ينابيع الفنان » انى رأيتنى فجأة أخرج من الكفن القديم وامزق فيه . واذا بالعالم قد اتسع أمامى ، والموضوعات تعددت ، والبطولات اكتسبت معنى مختلفا ، وتفسير الأحداث والظواهر حتى الكونية أخذ منطقا جديدا تماما ! .. لم تعد عاطفة الحب التقليدية ومغامرات الجنس النابعة من الكبت والحرمان هى نبع الانهام الأوحد لكتابة القصة . شرعت أخرج من أسر قصص « جى دى موباسان » و « الفونس دوديه » ومحمود كامل المحامى و ابراهيم الوردانى ومحمود تيمور الرومانسية ، مستقبيا ما اكتسبته من فهم وبراعتهم فى التعبير والقص ! أصبحت قضية التغيير واستمرار الثورة هى مرشدى ومنارى الذى اكتب فى ضوءه القصة ، متحمسا ومنتشيا أن القلم يمكنه المشاركة فى صنع واستمرار ثورة !

تلك مرحلة أخرى ، تستحق أيضا الكتابة عنها بالتفصيل .. ذلك انى سرعان ما وجدت نفسى واقعا فى أسر جديد .. أسر شعارات الكتيبة التى اكافح معها ، والتى تبشر مع مبادئ العدل الاجتماعى بدكتاتورية البروليتاريا ! .. ودخل علينا فى تلك الأيام خفية ، كاتب عتيد أصبح هو المثل الأعلى لى ولكل جيل النضال الوطنى : هو « مكسيم جوركى » ذلك الروسى اليتيم الشريد الذى اتخذ من الثورة أما وأبا ، فجعلت منه عملاقا من عمالقة الأدب والفن والثورة .. فمضينا نقتفى أثره . بات حلم كل واحد منا أن يصبح « جوركى مصر » ، أو على الأقل « بافل » بطل روايته « الأم » !

فى تلك الأيام ، وقع فى حياتى حدثان كبيران سعيدان .. وقعا فى وقت واحد تقريبا : التقيت بحبيبتي التى أصبحت رفيقة



عمرى .. وقامت الثورة التى كنا ننادى بها ونكافح من أجلها :  
ثورة ٢٣ يوليو .. وبدأت الحياة معزوفة رائعة وبهيجة . قامت  
الثورة اذن فلأنتفرغ للحب .. حب الحبيبة وحب الحياة ..  
وانطلقنا .. أنا وهى ! .. واذا نادانى الفن وكتبت فكتابتى  
أهازيج وأغنيات ، ووداعا للحيرة والحزن والقلق ؟

الا أن عاصفة عنيفة سرعان ما تجمعت وانقضت ، فأخذت  
الحبيب من الحبيبة ومن طفله الوحيد ، وألقت به مع عدد كبير من  
رفاق الكتيبة فى احدى الزنازين بسجن مصر !! .. تلك كانت تجربة  
التجارب فى حياتى كإنسان وككاتب . لقد غيرت الكتيبة فجأة ،  
وبعد أشهر قليلة من قيام الثورة ، غيرت تحليلها السياسى .  
وبعد أن اندفعنا من أول يوم نبشر بالثورة ونساندها ، انقلبنا  
على الوجه الآخر ، وأصبحنا نتهمها بأنها انقلاب امريكى .. فمن  
يعلق اثنين من العمال فى المشنقة ، خميس والبقرى ، ويعدمهما ،  
لا يمكن أن يكون الا عميلا لأمريكا .. قمة الرأسمالية العالمية !! ..  
وان من يجلس مع الانجليز ليفاوضهم على الجلاء والاستقلال ،  
لابد سينتهى بالخيانة والتنازلات .. فالتحرير الحق لا يمكن أن  
يتم الا بالكفاح المسلح .. شعارنا !! .. واقتنعت بالنطق ،  
وهتفت مع الهاتفين بسقوط « معاهدة جمال - هيد » .. وكان  
الشنن الفورى : عامان من عمرى فى السجن !

أقول كانت تجربة التجارب .. فقد خرجت منها الى مرحلة  
النضج ، أول علامة لهذا النضج الا ينقاد المرء - والكاتب  
بالذات ، لراى غيره ، فردا كان أو مجموعة . أن يكون هو نفسه  
أولا - أحاسيسه وفكره وعقله وحساباته هو أولا .. ألا يكون  
- دون أن يدري - واحدا فى قطيع . وباليته قطيع واحد ، بل  
جماعات متناحرة ومتنازلة بأشنع انواع الاتهامات والمسابات !  
وها نحن ننقلب على الوجه الآخر ونعود الى التحليل الأول ،

فها هو عبد الناصر يعقد صفقة الأسلحة التشيكية ، ويذهب الى « باندونج » يعلن شعار الحياد الايجابي ( وليس عدم الانحياز ) ويناطح أمريكا والاستعمار كله .. حسن هذا التغيير ، والاعتراف بالخطأ فضيلة ، الا أن ما برأيته بعد ذلك يحدث جعلنى أفر من هذه المنطقة فرارا وبشكل حاسم . كنا ، ونحن فى السجن ، قد نجحنا بعد جهود هائلة ومضنية فى توحيد معظم المنظمات وادماجها فى حزب واحد موحد . وكنا جميعا نرى فى ذلك انجازا رائعا وتاريخيا يثير فى النفس الأمل فى المستقبل .. الا اننى فوجئت : بعد أن خرجت من السجن بعدة أشهر بأحد القياديين الكبار يأتى الى ويهمس فى اذنى : لقد سيطر الانتهازيون على الحزب ، ولذا فقد قررنا الخروج منه وتشكيل حزب آخر مستقل .. حزب نورى ! يا الهى . انقسام مرة أخرى ؟ !

وانفجرت فيه : لا .. ليس فقط لتياركم الثورى ، بل لكل التيارات الأخرى . لم أعد أحتمل .. لم أعد أطيق .

واعلنت انفصالى الى الأبد .. انفصالى عن التنظيم ونيس عن الفكرة والمبدأ .

والحق ان بعدا نفسيا آخر مكن من نفسى هذا القرار .. بعد شخصى خاص بتركيبتى وتكوينى ! .. كنت أجدنى وأنا فى قلب اجتماعاتنا السرية ، كثير الشroud ، غير منجلب تماما الى ما يدور فيها ، انما أتأمل الرفاق كأشخاص وبشر ، لهم ملامح وظروف وتاريخ ، ثم أتنبه الى أن كثيرا مما قيل لم يدخل أذنى ، فأدأرى حرجى .. وما ان ينتهى الاجتماع ونخرج فرادى من مكمننا ، حتى امضى اننفس الهواء بعمق : حريتى : تعالى الى يا حريتى !

كنت قد بدأت أضيق بالمواعيد ، وبذلك الدقة وذلك الحذر

الذى يستوجبه العمل السرى ، فما أبشع أن أكون أنا ، دون أن أدرى ، مصيدة للآخرين .. حينذاك أوصم بأبشع الاتهامات .. تلك التى رأيتها وسمعتها بأذنى وأنا فى السجن تحول حياة البعض الى جحيم .. انك اليوم بطل .. وغدا عميل متستر ولثيم !!

الحرية .. الحرية .. دخلت نفسى من التنظيم خطعا ، صانعا لحياتى تنظيمها الخاص بها والملائم لها . وبلغ بى التوق الى الحرية انى لم أخلع نفسى من قيود التنظيمات ، فقط : بل خلعتها أيضا من مهنة المحاماة التى كنت أعمل بها .. فقد وجدت مهنة لا تزدهر فيها أحوال المحامى الا بازدهار المشاكل بين البشر !

تلك كانت احدى القرارات الخطيرة والمصيرية التى اتخذتها فى حياتى : لسوف أنذر عمرى بكل ما فيه ومن فيه للكتابة .. اننى لا أتخلى .. بل أوصل النضال بالكلمة .. الكلمة المكتوبة !

كانت الكتابة أيامها تعنى « القصة القصيرة » فاندفعت أعالجها واكتبها بنشوة وشراهة !

ومثلما أذكر حتى الآن أول قصة قصيرة كتبتها ونشرتها فى حياتى ، مازلت أذكر أيضا أول قصة كتبتها ونشرتها بعد خروجى من السجن ، ذلك أنها كانت ، بالصورة التى نشرت بها ، تحمل تلك الغمامة القاتمة التى ظلت تلاحقنى ، وتصمم نشاطى بالشك والارتباك وعدم الشرعية ، منذ خرجت من السجن صيف عام ١٩٥٥ ولادة طويلة ! .. فقد نشرت هذه القصة ، وبرضى باسم غير اسمى .. ومع هذا كنت سعيدا لمجرد أن أرى قصة قصيرة لى جذيرة بالنشر وعلى مساحة صفحة كاملة من جريدة سيارة واسعة الانتشار .. هى جريدة « أخبار اليوم » !!

ابتسم الآن للذكرى .. فما الذى كان يدفع برئيس تحرير كبير وشهير مثل الأستاذ مصطفى أمين ، لأن ينشر قصة لكاتب مبتدىء وخارج لتوه من السجن ، وبهذه الصورة التنكيرية ؟ !  
لذلك قصة بدأت أول خيوطها وأنا لا أزال فى السجن .

كانت هناك لجنة تابعة للتنظيم الذى أنتمى اليه ، اسمها لجنة رعاية عائلات المسجونين السياسيين ، إحدى مهامها جمع تبرعات من الأهالى وأساسا من الشخصيات الكبيرة والقادرة والمؤثرة اعلاميا ان أمكن .

وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير « الأهرام » ، والأستاذ مصطفى أمين رئيس تحرير « أخبار اليوم » ، ممن صدر التوجيه بالذهاب اليهم ! كانت زوجتى هى المكلفة بذلك ، فالتقت بهما وعادت من اللقاء سعيدة ومنتصرة ، فقد تبرع كل منهما بخمسة جنيهات ، استعمرنا من خلالها التعاطف معنا !!

وكان لهذا الاستشعار مبرره . ان حسنين هيكل ومصطفى أمين هما من رجال عبد الناصر . وعبد الناصر تصالحنا مع سياسته ، وتقدينا أنفسنا نقدا ذاتيا ، وبتنا نعترف بقيادته ! .. ما المانع إذن ، بعد الخروج من السجن ، وقرائى بهجر المحاماة ونذر نفسى للكتابة ، أن أذهب لأحدهما وأطلب منه العمل فى جريدته ؟ وبدأت بالأستاذ هيكل الذى رحب بى ، وأبدى موافقة مبدئية ، الا انه استمهلنى أياما ليسأل عن مدى امكانية تشغيل خريج سجون سياسى معه فى تلك القلعة العتيدة « الأهرام » ! .. وبعد أيام ، فى الموعد المحدد ، فوجئت به يقول منذ أول لحظة دخلت عليه فيها : « يا راجل .. دانت شخصية خطيرة .. والأخطر منك مراتك » . ولا أذكر ما قيل بعد ذلك .

نهضت شاكرًا اعتذاره بكل هذه الصراحة والوضوح ! ..  
خرجت من عنده واتجهت مباشرة الى الأستاذ مصطفى امين ..  
واذا بى امام نوعية أخرى تماما .. فقد احتفى بى الرجل وهو  
يستقبلنى ، حتى أننى فكرت ، لو لم أخرج من لقائه الا بهذا  
الاحتفاء ، وكل هذا الود ، سأكون راضيا ومكتفيا .. حكيت له  
موقفى .. قال بشكل مباشر : شوف - أن تعمل معنا الآن وبشكل  
رسمى ، هذا صعب .. أنا أرى أن نبدأ أولا بالنشر .. ومع  
توالى النشر ، قد تتحسن الظروف ، كن صبوراً .. هات قصة  
لنقرأها ، وإذا كانت - معلش - صالحة للنشر ، فسأشرها على  
الفوز !

وفى اليوم التالى كنت أقدم له القصة كانت مكتوبة وجاهزة .  
وفوجئت به يقرأها وأنا جالس امامه .. اتابع بدقة كل خلية  
فى وجهه ، ولم يلبث أن رفع رأسه عنها وقال : قصة جيدة .  
سأشرها فى عدد السبت القادم . كدت أطر فرحاً .. ولكنك  
تعرف المحظورات السياسية .. لهذا ، فانا أرى - درءاً لئى  
مشاكل ، أن نشرها باسم آخر غير اسمك .. ما رأيك ؟

قلت فوراً : موافق .. ليس الاسم الآن هو المهم . المهم  
هو نشر القصة . قال مبتسماً : ولكن لا بد لكل قصة من  
مؤلف .. فلتختر لنفسك اسماً !

وبدت المسألة كمغامرة أو لعبة سرية طريفة معاً .. واخترت  
اسم ولدى .. بديلاً لاسمى ! صلاح عبد الله .

وفى الموعد الذى حدده نشرت القصة ، وكان اسمها « أم  
مديولى » . طرت بها فرحاً وأنا أراها تملأ صفحة كاملة .. لم  
يكن عليها اسمى .. لكنها قصتى إليها الناس .. كلماتى .. وعدت  
أقرأها من جديد كلمة كلمة .. كأننا أؤكد من أننى كاتبها ..

وما أقساه من شعور ، حين يجد المرء نفسه محروما من الانتساب الى كلماته .. الكلمات التي صب فيها ذوب نفسه وسهر فيها الليالى .. وتنسب الى شخصية أخرى وهمية ! .. ومع ذلك فرحت .. فرحت بنفسى ككاتب .. وتراءى لى الأمل كبيرا فى القد .. وعدت الى الرجل اللطيف الطيب بقصة قصيرة أخرى .. ونشرت بنفس الاسم « صلاح عبد الله » .

الا ان تجربتى مع « أخبار اليوم » ، ومع هذا الرجل الذى دخل قلبى لم تتواصل . فقد كنت أيامها أكتب قصصى وإنها محمل بعقدة الذنب ، انى تركت « التنظيم » والكفاح مع الزملاء تحت الأرض ، واذن فلا بد أن تتضمن قصصى ما يعلن ويؤكد انى لم اتخل عن المبدأ ذاته ، وبهذه العقدة كنت أبالغ ، رحت التمس موضوعات أبطالها وشخصياتها من الطبقة العاملة ومن الناس الذين يعيشون فى القاع ، فنشر لى الرجل قصة أخرى ، ثم فترت حماسته لهذا النوع من قصصى .

وللحق ايضا ، فان حماسى أنا الآخر فتر ، ولكن من منطلق آخر : كيف اظل أنشر وأنا محروم من رؤية اسمى على ما اكتب ؟ ! كانت لعبة الاستخفاء الطريفة قد حققت أقصى غاياتها ، وهى اكتسابى لثقتى بنفسى ، ككاتب .. فتحولت بقصصى الى « روزاليوسف » . انها مجلة « اليسار » .. ويعمل بها اصدقاء شخصيون : حسن فؤاد ، وعبد الغنى أبو العينين .. ورايت قصصى منشورة باسمى .. يا لها من فرحة ، واكتمل إحساسى بذاتى ، وبدأت المسيرة الحق ! .. وتصاعدت الثقة بالنفس وأنا أسمع أحد النقاد اليساريين الكبار يهنئنى على قصة كتبها ، وكانت أحداثها تدور فى أحد المصانع وأبطالها جميعا من العمال والعاملات .. ويقول لى وهو يربت على ظهرى مشجعا ومحمسا : هذا هو الأدب الباقي الذى تحتاجه مصر .. وليس

الأدب البرجوازي الذي تفسخ وعفا عليه الدهر !! .. هزنتي  
كلماته ، ومضيت متحمسا أكتب على هذا المنوال !!

الا أن هذا النوع من القصص لم يكن يشبعني في الحقيقة  
أو يمتعني ، كنت أحس فيه بكذبة ما .. ادعاء ما .. انني  
لا أعرف شيئا عن حياة المصانع والعمال الا بالسماع . وما أكتبه  
ليس الا بالتصور والخيال .. انني أولف وأفرك قصصا لم أعشها  
باحساسي ووجداني .. انها ، بما تتضمنه من أفكار وتعاليم  
وشعارات زاعقة ، أقرب ما تكون الى منشور سياسي !

لا .. ليست هذه نغمتي الأثيرة في الفن .. نغمتي التي  
أحس معها اني أرفرف أو أنزلق خفيفا على سطح موجة ..  
نغمتي التي بدأت بها ، وأغرنتني بهجر مهنتي ونذر حياتي  
للفن !! .. لطالما تمنيت في صباي ومطلع شبابي ان أكون مغنيا ..  
وما أكثر ما غنيت لنفسي تحت الأشجار على شاطئ النيل في  
القرية ، ولأصدقائي هنا في ليالي القاهرة .. وانني لثائق لأن  
أحس بأنني أغني وأنا أكتب القصة .. كيف يتأتى لي هذا ؟ !  
كيف استرد نغمتي .. أين ألقاها فتحملني من جديد على  
موجاتها ؟ !

حتى وقع لي حادث جديد ! مجموعة قصص قصيرة لكاتب  
روسي اسمه « أنطون تشيكوف » .. ومضيت أقرأ فيها .. كانت  
القصة الأولى بعنوان « موت موظف » .. ولم تكن تشغل أكثر  
من صفحتين ، ومع هذا ، فما كل هذه البساطة والعذوبة  
والشجن الأسر الجميل ؟ ! ما كل هذه البصرة النفاذة التي  
تستشف ما تحت الجلد كأنها عين نسر ترقب وتكشف من أعالي  
القمم أدق تفاصيل ما يجري على أرض البشر وما يدور داخل  
أركان وجنابات النفس الانسانية .. أجل .. وما كل هذا المزيج  
الرائع الساري في قصصه بين الانسان وبين الطبيعة حتى يتحولان

الى عنصر كونى واحد .. وايضا .. ما كل هذا العشق للحياة  
حتى فى مناطق الكآبة والألم !

كان للحظ السعيد ان تشيكوف هذا ، روسى الجنسية ،  
فنهض على الفور فى نفسى كند خطير لمكسيم جوركى .. فرغم أنه  
يهمس ويرتل ، الا أنه فى النهاية يفجر ثورة ! .. هو أقرب الى  
روحى ومزاجى أكثر من جوركى .. جوركى يقول : جئت الى  
هذا العالم لأختلف معه . وهو - تشيكوف - يقول : جئت الى  
هذا العالم لكى اكتشف اسرار قوانينه .. واغيره بها !!

غزا حب هذا الكاتب قلبى ، وفى صحبته استعدت معه نفمتى  
الضائعة .. وتمنيت لو اننى كنت أعيش فى عصره . وآه لو اننا  
كنا نساكن مدينة واحدة ، أو مدينتين أو مكانين متقاربين ،  
لسعيت اليه واحتضنته وصادقته واسنمتعت ، ليس فقط بروحه  
الانسانية الفياضة ، وانما أيضا بلامح وجهه الدقيق الجميل .  
والغريب انى رأيت فى وجهه شبيها كبيرا بوجه أمى ، رغم لحيته  
الصفيرة الأنيقة : الأنف المستقيم الشامخ ، والوجنات البارزة  
المنحوتة ، والنظارة الطبية التى تنبىء بعينين وادعتين أجهدهما  
ارهاق العمل المستمر ، وشفقتين مزمومتين على شجن عميق ،  
وارادة لا تلين !

نزعنا صورته من الكتاب بحنو شديد ، ووضعناها فى  
برواز جميل ، وعلقناها فى اوضح مكان فى حجرتى . كان تشيكوف  
هو أول كاتب علقت صورته فى بيتى .. أصبح وانحدنا من  
عائلتى ! .. تهرع الآن الى ذاكرتى صور الكتاب الذين علقت  
صورهم بعد ذلك بجوار صورته : همنجواى . وتولستوى .  
وطاغور . ولورد بيرون . كنت - ومازلت - أرى فيهم ملمحا  
مشاركا رغم التباين الكبير فى التكوين الجسدى العظام .. هو  
ملمح روحى ، يطل من عيونهم على العالم ! .



ولأعد الى رحنتى مع كتابة القصة القصير . لقد وجدنى بعد تعرفى على عالم نسيكوف اندفع بهرام أكثر فى كتابه القصة القصيرة ، وفى ظل موسيقاه الروحيه . كتبت منتشيا بعض قصصى : « وردة نامت » و « ابتسامه الرجل الكئيب » تلك التى فوجئت بعد نشرها فى « روزاليوسف » بتلغراف يهنئنى عليها .. وكان مرسل التلغراف هو الدكتور نظمى لوقا .. تهلل روحى . ومضيت بيقين أقوى ! كما كتبت قصة « الأرنب » وفوجئت بها تترجم الى الانجليزية . وتدرس بكلية الآداب قسم اللغه الانجليزية كنموذج للقصة المصرية الحديثة .. اختارها الدكتور رشاد رشدى ، وترجمها الدكتور لويس مرقص .. وتصاعد اليقين بالفرحة ! .. لا أنسى أبدا ان زوجتى فتحة هى التى ألهمتنى فكرة هذه القصة ونحن فى احدى زيارتنا لقربتى .. ولهذا لا يأتى ذكر لهذه القصة . الا واحس بأنها فستيا . وليست قصتى .. وما أكثر الفصص التى ألهمتنى اياها . وعابشتنى معايشة كاملة فيها .. اننى مدين لها . ولحسبها الفنى الزاخر ، بالكثير مما كتبت ! ..



تلك كانت الفترة الذهبية للقصة القصيره ، ليس فقط فى حياتى ، بل فى حياة مصر كلها ! .. كانت مصر فى ثورة .. الكفن القديم الكبير يمزق ، والطاقت الكامنة تتفجر : والأرض تعد بانبات أزهار وثمار أجمل ! وكنا كتيبة او مجموعة صفيره مسها عشق القصة القصيرة ، فجمعنا هذا العشق الواحد ، وكونا ما يشبه الجمعية الأدبية .. نقرأ فيما لبعضنا ما نكتب وتتناوله بالتعليق والتقييم ، بحماسة وصدق يتفقان مع روح الثورة الطامحة الى تغيير كل شئ الى ما هو أجمل وأحسن ! .. كان لكتابة أى واحد منا لقصة قصيرة وقع الحدث أو الخبر

الهام ، نحتفل به ونجتمع حوله ، ونقضى أمتع الليالى : فاروق  
منيب ، وصبرى موسى ، وشوقى عبد الحكيم ، وبدر نشأت ،  
وأبو المعاطى أبو النجا ، وعبد الرحمن فهمى ، وصالح مرسى ،  
وفهمى حسين ، وسيد جاد ، وأمين ريان ومحمد سالم ..  
شاركنا أحيانا فى تلك الليالى فوزية مهران ، وزينب صادق .

ونان قد سبقنا بقليل ، من نفس الجيل ، مجموعة صغيرة  
من كلية الطب : محمد يسرى أحمد ، وصلاح حافظ ، ويوسف  
ادريس الذى نشر مجموعته الأولى : « أرخص ليالى » بمقدمة  
للدكتور طه حسين . فلقت الانظار بشدة اليه ككاتب صاعد  
نعلن موهبته عن بزوغ نجم سوف يملأ بنوره سماء القصة  
القصيرة .. كما كان من نفس الجيل أسماء أخرى تعرفت عليها  
لأول مرة : يوسف الشارونى ، وادوار الخراط ، وشكرى عياد ،  
ولطفى الخولى ، ومحمود السعدنى ، وسعد الدين وهبة ،  
وفتحى غانم .. مع اختلاف مذاقهم وتوجهاتهم !

كانت القصة القصيرة الجيدة فى تلك الأيام بمثابة الطلقة التى  
تدوى فى سكون الظهيرة ، فينتبه اليها الناس وتصبح مادة  
لحديثهم ! .. وللحظ ، لم يكن اختراع التلفزيون قد دخل بيوتنا  
بعد . كانت الكلمة المكتوبة ، وليست الصورة ، هى أنس الناس  
ووسيلتهم الوحيدة لشغل أوقات فراغهم ! كان للقصة القصيرة  
وزنها ، ودورها الفعال والمعتز به كرسالة ، فمضينا جميعا ،  
ككتيبة فى ساحة معركة ، نكتب ونكتب ، وكلما كتب واحد من  
مجموعتنا قصة جديدة أقمنا له احتفالا ، وكأنه عريس يزف الى  
عروسه ! ..

لكننا ، لم تكن باسم الصداقة والحب ، نجامل بعضنا على  
حساب الفن : هل هى حقا لقطة قصة قصيرة ، أم هى ملخص  
لرواية طويلة وبهذا تخرج من عداد القصة القصيرة المثالية ؟ ! ..

والفكرة .. هل فيها ما ينفع الناس ويعطيهم قوة وأملا في التغيير ،  
أم هي مجرد بكائية تثير في النفس الاحباط وتضيف الى العتمة  
القديمة عتمة أخرى جديدة ؟ !

تلك كانت فترة التدريب الأولى للتمرس على اكتساب حرفية  
القصة القصيرة واكتشاف أسرارها .. تعلمنا منها أهمية السطر  
الأول ، بل الجملة الأولى في القصة . ان تكون بمثابة الوثوب  
المباشر على الموضوع ، ثم الغوص الى أعماقه مستكشفا كل أبعاده ،  
ثم الخروج الى السطح مرة أخرى وسعنا اللؤلؤة : لحظة  
التنوير ! ..

كما شغلنا قضية اللغة والأسلوب . كان مذهبنا البساطة  
في التعبير بقصد الوصول الى !وسع دائرة من القراء .. وان  
لجأنا أحيانا الى الرمز فمن أجل مزيد من التوضيح والتأكيد ،  
وليس للتعمية والتغميض ! كنت وأنا اكتب القصة أتمنى أن  
تقرأها أختي التي لم تكمل تعليمها .. هي وكل أهلي وفلاحي  
قربتي ميت خميس .

وكان التحدي الأكبر هو القدرة على الجمع بين البساطة  
والعمق ، وذهب الحماس بأحدنا ، وهو « بدر نشأت » الى حد  
كتابة مجموعة قصصية بأكملها باللغة العامية « مساء الخير  
يا جدعان » . بينما الجدل كان حادا ومشتعلا بيننا حول لغة  
الحوار فحسب : هل يكون بالفصحى أو بالعامية ؟

وقد ظل هذا الجدل مشتعلا بيننا لمدة طويلة ، حتى اكتشفنا  
بالتجربة أن هناك لغة ثالثة ، هي اللغة الفنية المنبثقة من روح  
ونسج العمل ذاته .. لغة لها شاعريتها وموسيقاها الخاصة  
بها ، سواء أكانت فصحي أو عامية . ان « الفصحى » من  
« الفصاحة » .. وهل هناك أبها الأصدقاء أفصح من بيرم التونسي

وصلاح جاهين ، وفؤاد حداد .. فرسان التعبير بالعامية ؟ !  
 كما شغلتنا أيضا قضية أخرى ، هي دور الفن في التغيير ..  
 وكان أحد مقاييسنا في تقييم القصة هو نوعية الموضوع أو الأزمة  
 التي يعالجها الكاتب ، ومدى ما يقدمه من حل أو تنوير !!

وكانت هناك حينذاك مدرستان أو تياران في النقد متناقضان  
 يفغان لبعضهما بالمرصاد : مدرسة الفن الملتزم بقضايا المجتمع  
 ويمثلها الدكتور محمد مندور ، ومدرسة الفن للفن ، أو الفن  
 لذاته ولذاته ، ويمثلها الدكتور رشاد رشدي . ورغم أنني كنت  
 منتميا وبحماس الى المدرسة الأولى ، فقد وجدتني لفترة أتميل  
 بل وانرنح .. فها هو الدكتور رشاد رشدي يتحمس لاحدى  
 قصصى : « الأرنب » ويقرر تدريسها كنموذج لطلبته في قسم  
 اللغة الانجليزية .. ثم ، ويا للمفاجأة ، اذا بالدكتور مندور ،  
 الذى كان متحمسا لقصصى من قبل ، باعتبارها منتمية الى تيار  
 الواقعية الاشتراكية ، يهاجم هذه القصة بالذات ، ويتساءل :  
 « ما الذى بقوله هذا الأرنب ؟ ! .. » واضطرب قللى !!

ومازلت أذكر تأثير هذه الفترة الزاخرة بالحماس وبالصدام  
 على منهج كتاباتى .. فقد ألفيتنى أغير نهاية قصة لى ، بدت لبعض  
 المتحمسين لقضية التغيير مفرقة في التشاؤم .. متناقضة مع  
 روح الأمل والثورة !

لقد أنهيتها وقد انطفأ « الفانوس » وحل الظلام والخوف ،  
 فعدت أنيها وقد أضاء الفانوس وعمت الفرحة !

ينفض الآن أمامى طيف رجل مهيب وحبيب الى القلب ،  
 هو الدكتور على الراعى .. بهدوئه البادى لكنه يخفى في أعماقه  
 الراكين . كان هو الذى نشر لى قصة « الفانوس » بنهايتها  
 الأولى في الصفحة الأدبية التى كان يشرف عليها في جريدة

« المساء » .. وحين رآنى أغير نهايتها على هذا النحو ، كتب  
ينقد بسخرية لاذعة ومهذبة هذا التغير .. فالكاتب ليست مهمته  
أراحة الناس ، بل إقلاقهم ولسع الكسالى والحالين منهم الى  
النهوض ومواجهة المشاكل بالعمل وبالفعل .. فعل التغير !

وقد ارتجت أعمافى لكلماته .. وبدا لى انى شوهدت قصتى  
باسم التفاؤل وروح الأمل .. فأعدت اليها - معتذرا - نهايتها  
الأولى .. كما كتبت قصة « النهاية السعيدة » وهى حوارية  
بينى وبين أحد فوانيس القرية ، ناقشت فيها قضية التغير ،  
لبس فقط فى الفن ، وانما فى الحياة بشكل عام !

فى ذلك الجو الحافل والاحتفالى ، كان كل من يكتشف كاتباً  
عالمياً جديداً للقصة القصيرة يأتينا مهللاً ويبشرنا به . وفى غمار  
تلك الفترة الحماسية ، وقعت فى حب « أرو. هنرى » ..  
« وارنست همنجواى » الذى عشش فى نفسى بعد قراءة رائعته  
« العجوز والبحر » ، والتي لم تكن فى الحقيقة غير قصة قصيرة  
طويلة محكمة التكوين !

كما وقعت فى حب الكاتب الأرمنى الأصل « وليم سارويان »  
وعند سارويان لإبد من رقيقة حب ووفاء . كان لقائى الأول  
به فى كتابه العظيم « الكوميديا الانسانية » . كان من حبث المظهر  
رواية طويلة ، لكن كل فصل فيها ، كان يمكن اعتباره قصة  
قصيرة قائمة بذاتها . ومن هذا الكتاب بالذات ، تكونت رؤيتى  
المثالية فى كتابتى للرواية فيما بعد !

جريت ملهوا فى بحث عن قصص أخرى له . واذا بالطفولة  
هى عالمه الأثير والملىء بالروائع والمدهشات . ولانى أيامها كنت  
أباً جديداً نطلقين ثم ثلاثة ، فقد أسقطت عليهم وعلى ، عالم  
سارويان وخياله الجميل الطليق والداعى لانطلاق الانسان منذ

خروجه من الرحم الى الحياة ، والذي يبدو فيه الصغار اوفر احساسا واكثر معرفة وحكمة بالفطرة من كثير من الكبار ! .. وطلعت الى ما في حياتي مع اطفالي واطفال الآخرين من تجارب ولحاحات يمكن أن تكون نبعاً لقصصى ، فكتبت عديدا من القصص ابطالها اطفال وصبية صغار : « ابن العالم » .. و « الموتوسكيل » و « العصفور لعبة » و « حفلة عشرة » .. وغيرها .. وبدأ لى انى حققت انجازا هاما ، فضمت هذه القصص فى مجموعة واحدة ، رغم ان بعضها كان قد سبق نشره ضمن مجموعات سابقة ، واسميتها : « ابن العالم » .. داعيا من خلالها الى نظرة انسانية وثرية فى التعامل مع اولادنا الصغار ! وكان من أجمل ثمارها ، مقالا نقديا مجا كتبه الدكتور عبد القادر القط فى حريدة الأهرام ، أعطانى شحنة هائلة للمضى على الطريق .

اننى احرص على ذكر ما اتذكره الآن من منابع قصصى ، ذلك لآنى لا أومن بالعقريّة الشيطانية التى تولد من العدم والفراغ، بل أومن بأن كل الانجازات الانسانية ، تقوم وتنهض جميعا على أكتاف بعضها .. وللكتاب الأيرلندى « برنارد شو » جملة ساخرة وبليغة فى هذا المعنى .. اذ يقول : « شكسبير أطول منى قامه ، لكنى أقف على كتفيه » !



فى تلك الأيام الحافلة بالحماس وبالحب ، تعرفت على الأستاذ نجيب محفوظ .. كان بعقد ، صباح كل يوم جمعة ، جلسة أدبية فى الدور الثانى من كازينو أوبرا ، فسعيت اليها لاستكشافها وأستكشفه . وكنت منتهيا لتوى من قراءة ثلاثيته الشهيرة العتيدة « بين القصرين » . واذا بى أقع فى حب شخصه من اللحظة الأولى ، وهو يستقبلنى بوجه بشوش ، وروح ابن بلد عادى بسيط وضحوك . ولم تلبث الجلسة ، بفضل حماسه

وتشجيعه ، أن أصبحت ندوة منتظمة لقراءة قصص الشباب ومناقشتها على أعلى وأرقى مستوى ! وسرعان ما ذاع صيت هذه الندوة واشتهرت باسم « ندوة الأوبرا » أو « ندوة نجيب محفوظ » . فكثر روادها واتسعت رقعتها حتى أصبح المكان أحيانا يضيق بنا . ولأن معظم روادها كانوا من الشباب ، فقد كانت المناقشات لا تقف عند حد التقييم الفني لشكل القصة وأسلوبها ، بل تجنح للدخول في صميم فكرتها ، ومدى ما تقدمه من اضاءة وطاقة لتغيير الحياة الى الأجل ! . كان المناخ الثورى حينذاك - خاصة بعد القرار التاريخى بتأميم قناة السويس ووقوع العدوان الثلاثى ، ثم انتصارنا عليه . . كان المناخ مناخ ثورة ، فأين هذه القصص من روح الثورة ؟ ! . تحولت الندوة الى بؤرة ثورية ! الى أن فوجئنا ذات يوم بالنادل يبلغنا آسفا بقرار وصل صاحب الكازينو من وزارة الداخلية ، بفرض هذا التجمع ! وأن أى اجتماع يزيد على خمسة ، لابد له من تصريح . . كان وقع القرار كتيبا وقاسيا على نفوسنا . وأعلن البعض رفضه والاستمرار فى الندوة تحديا ، الا أن اشباح زوار الفجر حسمت الموقف ، وقررت الأغلبية قضاها ، فانفضت ، وتفرقنا أيدي سبا !

ولقد بقيت ذكرى هذه الندوة كنبع من ينباع تكوين جيل أدبى بأكمله . . الا انها بقيت أيضا كجرح غائر أحدثته أجهزة الثورة فى نفوسنا ! كان شعورنا بعد هذا القرار أننا مطاردون من ثورتنا . . ومن هذا الشعور تكون نسيج الحزن والكآبة التى راح يظل معظم قصاصينا وروائيينا !

ورغم هذا ، فقد كانت القصة القصيرة تمضى فى ازدهار . . وبدأ عشاق جدد لها فى الظهور وانضموا بحماس الى موكبها الاحتفالى : علاء الديب ، وعبد الفتاح رزق ، وعبد الوهاب داود ، وكمال مرسى ، ويحيى الطاهر عبد الله ، وجمال الفيطنى ،

وابراهيم اصلان ، وخيرى شلبى ، واقبال بركة ، وصلاح عبدالسيد ،  
ومحمد كمال محمد ، وابراهيم عبد المجيد ، وآخرون عفوا لعدم  
تذكرهم الآن .

كما كان لقائى التاريخى السعيد بمبدع عظيم فى عالم القصة  
القصيرة ، هو أستاذنا وفناننا الكبير « يحيى حقى » . لقد التقيت  
به وبقصصه متأخرا بعض الوقت ، لكنى من أول ما التقيته ،  
بدا لى وكأنى اعرفه واعرف قصصه منذ دهور ! .. وأذكر أن  
أول من لفت نظرى اليه كقصاص هو الدكتور يوسف ادريس ..  
أذكر جملة حينذاك : لم تقرا ليحيى حقى ؟ ! .. من لم يقرأ  
مجموعته « دماء وطن » فهو لم يقرأ قصصا مصرية أبدا !!  
وقلت الدنيا حتى عثرت عليها ، وإذا بى أمام انفجارات ضوئية  
رائعة الحسن زاهية ، كل قصة هى مهرجان مشير حافل بالجمال  
وبالحكمة ، واعتبرته من يومها شيخ وأستاذ القصاصين المصريين ،  
ليس فقط بقصصه البارة الممتعة ، وإنما أيضا بتلك التحفة  
التي طلع علينا بها فى أوائل الستينات : « فجر القصة المصرية »  
وبفضل هذا الكتاب « الجوهرة » الفبتنى أمسك بحذوري ،  
فرحا باكتشاف جدودى العظام الأوائل الذين مهدوا لنا أرض  
القصة القصيرة : محمد تيمور ، وعيسى عبيد ، وخيرى سعيد ،  
ومحمود طاهر لاشين .. ورحت أبحث عن قصصهم وأعجن روجى  
بعجينة أرواحهم ! .. أنه الحنين الملح الدائم للانتماء ، وللإحساس  
باليقين بصدق ما نذرنا حياتنا من أجله !

مضيت بحماس على درب القصة القصيرة .. إلا أن الأمر  
لم يكن بهذه البساطة واليسر . كنت فى تلك الفترة لا أزال أعانى  
من آثار تجربة السجن .. أخطر هذه الآثار أنى كنت ممنوعا  
من العمل فى أية هيئة أو مؤسسة ، عقابا على اختلافى ذات يوم  
مع الثورة ! .. كنت أحيا عاطلا وشربدا ، خاصة بعد أن هجرت  
مهنة الجامة . وتعددت محاولاتي للعثور على عمل ، لكنها جميعا



باعت بالفشل .. وعرفت حزن الآباء والأزواج الذين يقفون أمام أولادهم وزوجاتهم مطرقين عاجزين عن الوفاء بما يحتاجون .. وسرعان ما تحولت هذه الفترة بمشاعرهما وأحداثها الى قصص قصيرة .. وخرجت منها بمجموعة من القصص القصيرة تدور حول البطالة والبحث عن عمل . كتبت قصتي « الصورة » و « الصيد » و « الرجل الذي ضحك » و « هدد ؟ ! لا .. انهيار » وغيرها .. نشرتها في مجلة روزاليوسف .. وصباح الخير . والاذاعة ، وفي جريدة المساء التي كانت وليدة حينذاك ومعترف بها رسميا ، ولأول مرة كمنبر اليسار ! ..

كان الاحساس بالمطاردة بدا يقل في نفسي . وحل محله شعور نسبي بالأمان وبالأطمئنان .. ذلك ان الثورة كانت قد بدأت تدخل منعطفًا جديدًا : أفرج عن المعتقلين السياسيين ، وامتلأ هواء مصر كلها بأغنية عبد الحليم حافظ وصلاح جاهين : احنا الشعب .. احنا الشعب .. يا فاتح باب الحرية .. يا ريس يا كبير القلب .. كان ذلك عام ١٩٥٦ .. عام المد .. عام تأميم قناة السويس والتصدى لعدوان ثلاث دول استعمارية .. أصبح الواحد في الكل .. والكل في واحد .. وانتصرنا .

كانت مصر لأول مرة في تاريخها الطويل المكتوب بمداد التعاسة والقهر ، تعيش الاحساس بالمجد وبالثقة في النفس ، وبالأمل الكبير في الغد !

في خلال تلك الفترة الزاهية أصدرت أول مجموعة قصصية لي : « داود الصغير » .. وصدرتها بهذا الهداء : « الى جيلنا الجديد الصاعد . الجيل الذي يملك مصر الغد بين يديه ، ويعيش حياته بالحب وبالثورة معا » .. ثم أعقبته بمجموعتي الثانية : « في ضوء القمر » .. وكان اهداؤها : « الى أمي .. الراقدة هناك .. خلف الجسر .. وسط الخضرة .. وعلى

شفيتها ابتسامة أبدية » .. وبموت أمي تسربت فكرة الموت الى  
نفسى واحتلت ركننا ابديا .. وفي البدء كان ركننا للحزن ، ثم مع  
الأيام أصبح « غارا » للتأمل والحكمة واستلهم المعرفة . وبوحيه  
كتبت « حد المحراث » ذلك الذى يشق بطن الأرض منذ آلاف  
السنين ، لتنبثق منها الخضرة ، ورغم آلاف بل ملايين مواسم  
الحصاد ، فالخضرة فى الحقول ما زالت .. عفوية وأبدية ، وكأنها  
لم تحصد مرة من المرات !

وتعاقبت بعد ذلك المجموعات : النمل الأسود .. وابن  
العالم .. وبحر الذنوب .. والأمل والجرح .. حتى بلغت ستا ..  
تفصل بين الثالثة والسادسة عدة سنوات ! ..

وكنت اظن فى بدء عيدى بالكتابة ، ان شيئا أو فنا آخر  
لن يقوى على سلبى من القصة القصيرة ، وأن هذا لو حدث  
فستكون الخيانة الكبرى لحبى الأول والأعظم . هى عين العاشق  
يعشيها دوما ضوء المحبوب فلا ترى أبعد من هالته ! .. غير  
ان اشكالا جميلة أخرى من التعبير سرعان ما غزتنى وأوقعتنى  
فى غوانتها . وكان أول من اغوانى هو « المسرح » .. بخشبتة  
وستائرة المثيرة ، ودقات الافتتاح الثلاثة معلنة فتح الستار  
وبدء الكشف عن الأحداث والشخصيات مجسمة حية !! ..  
ونا لبنا من أزمة عنبقة تلك التى عشتها لعدة سنوات ، فى صراع  
بين القصة القصيرة والمسرح .. كلما واتتنى فكرة انفقت أياما  
وليالى بل وأشهر كى أحسم موقفى منها : هل أكتبها فى شكل  
قصة أو مسرحية ؟ ! حتى كاد هذا الصراع يشل قلمى تماما .  
وقام فى نفسى هاجس بأتى ربما فرغت وانتهيت ككاتب ، واذن فقد  
انتهت حياتى . ورايت نفسى فى الحلم محمولا فى نعشى ، وأنا  
نفس سائر مع الناس فى جنازتى .. فاندفعت ، عقب هذا  
الحلم ، اكتب مسرحية تدور حول هذا المعنى : يموت الكاتب

حين يتوقف قلمه أو يفقد اتجاهه . واسميتها « طيور الحب » .. وعرضت في نفس عام كتابتها على خشبة المسرح القومي .. حينذاك استبد بى عشق المسرح وشحننى بطاقة كبرى ومضيت أكتب له .. وهكذا انتهى الصراع بانتصار اضواء المسرح . وانزوت الفصة القصيرة في ركن من قلبي ، متحفزة للانبثاق والانطلاق في أية لحظة !! .. ولكن ها هو غريم فنى آخر يدخل الصراع . فقد أغوتنى « الرواية » ايضا برحابة عالمها وتوالى أحداثها مثلما تتوالى الأمواج في النهر العظيم .. والحق أنها لم تكن غواية ، بل كانت ضرورة محتومة وأنا اكتب رحلتى الطويلة الأولى في نهر النيل . فقد خرجت منى وبشكل تلقائى على شكل رواية طويلة .. فوقع في الغواية .. وكتبت عدة روايات أخرى!

هل تمت اذن الخيانة لحبى الأول .. القصة القصيرة ؟ ! .. على الإطلاق .. فقد تنبعت .. وكلى فرح .. أن كل ما أكتبه : مسرحا أو رواية أو مقالا أو فيلما أو حتى مسلسلا للتلفزيون ، انما اكتبه بروح ومنهج القصة القصيرة .. ذلك المنهج الصارم في ضرورة تحديد اللقطة وتكثيفها والكشف عن أعماقها وحركتها الجياشة الداخلية ، مع روح شعرية وغنائية لو أمكن ، تحلق بها فوق الواقع الدارج والمعناد ! .. وبهذا المنظور كتبت « رباعية النهر » .. كل فصل فيها يكاد يكون قصة قصيرة تتعامل مع موقف بذاته .. وكذلك فعلت في رواية « العودة للحياة » و « عينان على الطريق » بل ان رواية مثل « فجر الزمن القادم » أو مثل « محاكمة فار » تكاد كلّ منهما أن تكون قصة قصيرة طويلة ، من حيث تأسيسها وانطلاقها من موقف واحد .. في مكان واحد لا يتغير أبدا .. رغم توالى الأحداث !!

لذلك تبقى القصة القصيرة هى الأميرة المتربعة على عرش قلبى ، صاحبة متيقظة ، بوجهها العرائسى البشوش .. تهمس

لى وترشدى وتضى لى الطريق .. وكثيرا ما يستبد بى الحنين اليها واود لو أطرخ خلفى كل الأشكال وألوذ بها ، متمنيا لو أعود فى عشق الفن الى التوحيد .. وأجلس الى الورق ولا أكتب غيرها .. محققا لنفسى - فى محرابها - امتع لحظات الاحساس بالحياة والامتزاج الكامل بالوجود !

\*\*\*

ها هى الآن أمامى .. معظم ما استطعت جمعه من قصصى القصيرة التى كتبتها عبر مختلف مراحل العمر .. أقلب فيها وأعود قراءتها ، محاولا اعطاءها الترتيب المناسب لضمها فى مجلد واحد او مجلدين ، كافتتاح لمشروع باعادة طبع كل مؤلفاتى ، فى ذلك الصرح الثقافى الوطنى ، العنيد « الهيئة المصرية العامة للكتاب » فاذا بى ، وأنا انتقل فى عوالمها ، أمام نوع من السيرة الذاتية

والحق انى ترددت بين شكلين أو منهجين فى الترتيب : هل أقدمها وفق تاريخ النشر الطبيسى منتهيا بأحدث ما كتبت ، أم الأفضل البدء بالأحدث والأكثر معاصرة ، ثم نزولا حتى انتهى بأول ما كتبت ؟ ! ..

هى حقا مشكلة .. فالكاتب لاشك مع الأيام يزداد خبرة ونضجا ، وقد يكون من الأوفق أن يكون لقاءه الأول مع القارئ فى رحاب آخر قصصه التى تعطى خلاصة تجربته فى الفن وفى الحياة .. وبدا لى فى لحظة ، كم هو جميل لو أننى افتتحت بآخر ثلاث قصص قصيرة خطها قلمى عام ١٩٨٩ .. وهى « صيد البكور » .. و « حلاوة البحر المالح » .. و « موت الموت » ، الا أننى فى النهاية فضلت الاحتفاظ - بقدر الامكان - بالترتيب الزمنى لكتابتها ، الأمر الذى يكشف عن التجربة الفنية ، ومنابعها ، ونموها وتطورها شكلا وموضوعا .

ولأن النبع الأول لقصى ، كانت هي حياتي في القرية ، فقد بدأت بها ، وفكرت أن أدرجها تحت عنوان « قصص العهد القديم » .. ثم كان النبع الثاني : حياتي ونجاري في المدينة .. فثبتت بها ، مفكرا أيضا باعطائها عنوان « قصص العهد الجديد » .. وهو العهد الأطول والأكبر والذي يحتوى على مراحل وتجارب كثيرة ومتنوعة ، من أول تجربة الحب والزواج ، الى تجربة الأبوة ، تلك التى ألهمتنى عديدا من القصص عن عالم الطفولة ، فرايت جمعها وتقديمها متوالية بصرف النظر عن تاريخ كتابتها .. تكاد تكمل بعضها ! .. كما امتصتني بعد ذلك تجربة عامين في السجن وما أعقبها من حياة التشرد والبطالة .. وبلدع آلامها وقسوتها كتبت عدة قصص صبت فيها مرارة وأشجان هذا العالم ! .. كما استغرقتني في إحدى المراحل ، دنيا علاقة الرجل بالمرأة ، حيث اكتشفت أنها أكثر العلاقات طبيعية في الحياة ، وفي نفس الوقت أكثرها تعقيدا ودرامية وامتلاء بالمتفجرات .. وحاولت التعبير عن ذلك الاكتشاف في بعض قصصى ! ..

مراحل وتجارب ورؤى تجعل من هذا العهد الثانى عهدا كثيرة ومتنوعة .. لهذا ألغيت فكرة « العهود » هذه ، وتركت ترتيب القصص ينساب مع انسياب الزمن الطبعي ! ..

والحق أنه من الصعب تبويب القصص وتقسيمها بشكل قاطع باتر .. تلك محاولة عبثية ومليئة بالافتعال ، ذلك أنها في النهاية تجمعها جميعا روح واحدة ، هي روح كاتبها ، وتنبع كلها من نهر واحد هو نهر الحياة !!

تبلغ هذه القصص أربع وخمسين قصة ، انظر إليها

في مجملها ، وهي مضمومة الى بعضها ، كاحدى روايات حياتي . .  
كل قصة هي فصل فيها ، أو موجة من الموجات !

اهمس لنفسي ، وللأصدقاء : لو أن عشرة قصص منها فقط :  
بل لو خمس لا أكثر تحمل في ثناياها عناصر البقاء وتجد فيها  
الأجيال الجديدة والقادمة ما يشير الفرح والاعجاب ، لكان في ذلك  
كل السعادة والاكتفاء !

« عبد الله الطوخي »

نوفمبر ١٩٨٩

## فى ضوء القمر

كنت طالبا بالجامعة ، حين تزوجت من نعمات .. وحين  
أذكر الآن لماذا لم أستطع الانتظار حتى أتم دراستى كبقية خلق  
الله ، لا أذكر شيئا سوى أننى أيامها كنت ممسوسا بالحاجة الى  
إنسانة طيبة ، لا تفارقنى لا بالليل ولا بالنهار .

كنت كائى طالب من الأرياف ، أحس دائما وأنا فى قلب  
ضجيج القاهرة وزحامها ، بالغربة والضياع .. وبالحزن أيضا .

شيء واحد فقط ، كان يخفف عنى قسوة هذا الشعور ..  
نعمات .. ونعمات أيامها كانت داخلة على التاسعة عشر من  
عمرها .. متوردة الخدين .. وسمراء فى آن واحد .. لكنها  
كانت بخلافى .. كان وجهها دائما مفتحا للحياة .. ضحوكا حتى  
للزحام .. زحام المدينة التى ولدت فيها وعاشت كل عمرها .

ورغم ذلك ، التقينا .. التقينا كروح واحدة ، من أرض  
واحدة . كان من عادتنا قبل الخطبة والزواج ، أن نتمشى فى  
شوارع القاهرة وحواريها .. ونتكلم .. ونحلم بحياتنا معا ..  
وذاات مساء .. ونحن نسير سويا سألتنى فجأة ونحن فى

وسط الكلام .. - « لكن انت ليه بتبقى أحيانا حزين .. من غير سبب ؟ ! ارفع أكون أنا السبب ، ومخبى على .. ! »

أربكنى السؤال ، أسعدنى . أيقنت أن نعمات أنسنة تحبني . وتحب أيضا لحظات حزني ، فقررت أن أتزوجها على الفور .. وتزوجنا .

كان أول شعار اتخذته لزواجنا : « الحياة جميلة .. فلنفرح بالحياة » كل شيء في نعمات كان بكرا .. حتى عينيها المسليتين ، كانتا كعيون الأطفال .. وكنت حريصا من أول يوم على أن أفتح أمامها كل أبواب الدنيا ، لتري على يدي ، كل ما فيها من جمال .

ما من منظر جميل كنت أراه بالصدفة وحدي وأنا في الطريق ، إلا وأخذتها معي بعد ذلك لتراه .. ولأرى وجهها الفرحان فرحانا أكثر ، ثم نضحك معا من أعماق القلب .

وذاث يوم - اليوم السابع لزواجنا على ما أذكر - خطر لى أن أقدم لها ليلة جميلة .

فان نقضى ليلة هادئة في الريف ، وفي قرىتي بالذات ، هذا شيء رائع حقا .. فالدنيا صيف .. ونحن في منتصف الشهر العربى .. والقمر طالع ، وحقول القمح مترامية كالعادة وغافية في حضن الجسر .. ما أجمل أن تشهد معي نعمات .. وفي قلب الحقول ، أول قمر يهل على زواجنا .

كانت الفكرة جميلة ومثيرة ، كادت تطير لها نعمات من الفرح ، فنفلدناها على الفور .

ومع أننا دخلنا القرية ونسمة العصر تهب من فوق الجسر .



والوان الشفق لم تخط زرقة الأفق بعد ، الا اننى لم اخرج بنعمات  
من البيت الا بعد صلاة العشاء بكثير .

كنت أريدها تطلع . . فتجد امامها البدر متجليا فى السماء .  
ظلمت أنتظر الليل فى شغف ، حتى اذا ما سكنت الحركة  
تماما فى القرية ، وانقطعت الأرجل كلها عن المسير ، ولم يعد فى  
السكة واحد يقول لا اله الا الله ، خرجت انا وهى ، ورحنا  
وحدنا نتمشى فى حقول القمح العارية التى تم حصادها .

كان اول ما واجهنا هو البدر . . كان يتوسط القبة فى  
هدوء . . وملايين ذرات الفضاء تشع ضياء ونورا . . وبقايا  
أعواد القمح المحصودة ، بدت جذورها الرفيعة المسنونة وكأنها  
تفرش الأرض بالذهب .

توقفنا نحن الاثنين فى حركة واحدة ، ورحنا نتطلع الى  
القمر . . كانت الدنيا من حولنا خلاء وسكونا . . والسكون له  
طنين . . وما من صوت الا دقات خافتة بعيدة لما كينة رى آتية  
من ناحية الجسر ، وأذان بعض ديكة ، ربما ظنت أن ضياء البدر  
هى تباشير الفجر ، فراحت تؤذن وتصيح .

قالت نعمات فى صوت هامس ودون أن تلتفت لى :

— يا سلام . . بلدكم جميلة . . جميلة جدا .

قلت لها وأنا منتش بفرحتها أكثر من نشوتى بالقمر :  
ما خلاص يا نعمات . . بقت بلدك أنت كمان . . . . . وبلد أولادنا  
الى جايين .

هزتها كلمة « أولادنا » بالفرحة ، فاستدارت فجأة بوجهها  
نحوى ورفعت لى بصرها لتقول شيئا . . أى شيء .

كانت في وقتها امامى تواجه البدر .. وانسكبت اشعته  
الفضية على ملامح وجهها الأسمر الصغير اللطيف .. أجزاء من  
خدودها المتكورة وانفها المنقوف ، مفروشة بنور القمر ، والأجزاء  
الأخرى تنعكس عليها ظلال ناعمة هادئة .

حلية .. حلوة نعمات .. عروستى في ضوء القمر .. ولكن  
في عينيها انبهار غريب .. كانت تود لو تجد كلمة تقولها لى  
لتعبر عن فرحتها ، لكن شيئا غريبا وساحرا كان يوقف الكلمات  
على شفتيها .

قالت وهى تمسك يدى بانفعال :

.. أنا عايزة أقول لك .. أقول لك ايه .. سعيدة .. ؟ ! .  
لا .. سعيدة مش كفاية .

وصمتت وعيناها في عيني ، ثم عادت تقول وكأنها تكلم  
نفسها :

— نفسى أفهمك .. علشان أقدر أسعدك .

أختلج قلبى .. يبدو أن أجمل ما نجنيه من الحب كلمة  
ننبع من القلب ، وأنه يكفى انسان واحد من كل هذا العالم  
يحبنا من الأعماق لنكتفى ونعيش .

قلت لها وأنا أنظر في الخلاء :

— شايبة الحاجة لما تكون على طبيعتها تبقى جميلة  
إزاي .. عايزين حياتنا تبقى كده يا نعمات .

ضغطت على يدى ، ثم وسعت من خطواتها تود أن تطير  
بدلا من أن تتكلم .

مضيئا نسير .. لا متقاربين ولا متباعدين .. خطوتنا

واحدة .. وبقايا اعواد القمح الذهبية تتكسر وتخشخش تحت  
أقدامنا فى ايقاع موحد ، وله رنين .

كانت نعمات تمشى كالمبهورة .. وكنت أنا مبهورا بانبهارها ..  
كنت أريد ان أحس كل ما تحس به عروستى ، فرحت أنظر الى كل  
شء بعينها هى .

كل شء كان غارقا فى ضوء القمر .. حتى البيوت والعشش  
والدواوير الصغيرة أخذ طوبها النىء لون ضياء القمر ، وأطراف  
سعف النخيل وفروع أشجار الصفصاف بدت أطرافها العالية  
مفضضة وهى تتموج فى وداعة مع نسيم الليل .

قالت وعيناها تمتدان فى النور حتى تلبغا أشجار الجميز  
الضخمة الراسخة على جسر النيل .

— حاجة غريبة .. الجمال ده كله والناس ما تحسش  
بيه ؟ ! .. ليه الناس هنا ما يحتفلوش بالقمر ويفرحوا ؟ ! ..  
ليه يناموا فى ليلة جميلة زى دى .. ؟ !

كان سؤالها ساذجا .. وكانت تبدو وهى تلقية طيبة وحبيبة  
الى القلب ، لكن شيئا ما قبض قلبى وأنا أسمعه .

قلت لها وأنا أجذب نفسا عميقا من صدرى :

— أصل اليومين دول رى القطن .. والفلاحين دلوقت  
زمانهم فى الفيضان بيشتغلوا .

قالت وعيناها هائمتان بعيدا :

— الله .. زمان منظرهم جميل وهم بيشتغلوا تحت القمر ..  
يا سلام .. جميلة بلدكم .. أجمل ما كنت بتصورها لى ..  
فاكر ؟

الا فاكسر .. !!

قبل زواجنا ، وأيام الخطوبة ، كان يحلو لى دائما ونحن  
نتمشى فى شوارع القاهرة ، وبين بيوتها الضخمة العالية ، أن  
أصف لها الطبيعة فى قرىتى .

الترعة من جانب يا نعمات .. والنهر من جانب .. والخضرة  
والخلاء .. ورائحة الطين والزرع والزهر .. زهر الفول والبرسيم  
بالذات .. وحتى النسمة .. كل شىء فيها جميل يا نعمات ..  
يا سلام با نعمه .. لو يتحقق حلمنا ، ونذهب الى هناك ،  
ونحن زوجان ، خصوصا فى ليالى القمر .

وها نحن معا .. وحيدان .. على أرض مفروشة بالذهب ..  
سابحة فى ضوء القمر .

توقفنا عن المشى مرة أخرى .. وسكن ظلالنا أمامنا على  
الأرض .. ماذا يمكن أن نقول فى تلك اللحظة ؟ ! هل فى الدنيا  
كلام .. أى كلام ؟ !

لا .. ولا شىء يصح أن يفصلنا فى تلك اللحظة عن بعضنا ،  
حتى ولو كان هذا الشىء هو شعاع واحد من ضوء القمر .

تناولت رأسها الصغير بين يدى .. وقربت وجهها من  
وجهى .. كان فى نظراتها استسلام ووداعة ، وشفتاها المكتنزتان  
لهما فى النور طعم ساحر وجميل لم أحس به من قبل أبدا .

آه .. ما أجمل عروستى .. وما أجمل أن أقبلها فى ضوء  
القمر .

وضممتها الى صدرى .. غير أن شفاهنا لم تكد تقترب  
لتلتقى .. حتى سمعنا فجأة ، صرخة ألم عالية شقت طبقات  
الفضاء من ناحية الجسر وصدمت آذاننا ! أصابتنا رعدة .

وتسمرنا في وقفنا ، وتصلبت شفاهنا هي الأخرى وظلت متباعدة  
في الفضاء

كانت الصرخة فيها ألم طافح .. ألم انسان يستغيث .

احتضنتني نعمات في فزع ، ووقفنا ملتصقين ننصت في  
رهبة لأصدا الصرخة ، ونظراتنا تمتد رغما عنا الى مصدر  
الصوت .. ناحية الجسر .

لحظة من الصمت مخيفة وثقيلة أعقبت الصرخة ، ثم تبدد  
الصمت مرة أخرى ، وتعالّت في الفضاء صرخات .. صرخات  
أكثر من انسان واحد .

تشبثت بي نعمات تريد أن تدخل بجسمها في جسمي ..  
تماما كطفل صغير مفزوع يحتمى بصدر أمه .

هذا الذي يحدث فجأة .. حلم هو ام حقيقة . ؟ ! . وأيهما  
الحلم .. وأيهما الحقيقة . ؟ ! . أنا عشت في قرى هذه  
سنين طويلة .. كل أيام طفولتي وصباى كانت على أرضها ..  
حتى أجازات الصيف كنت أقضيها بها .. كل شيء فيها أعرفه ..  
حتى هذه الصرخة .. ياما سمعتها من قبل .. وياما جرحت  
قلبي بالليل وبالنهاري .

أترك نعمات وأعدو ناحية الجسر لأستطلع الأمر ..  
لو تركتها في تلك اللحظة وحدها في الحقل لسقطت ميتة من  
الخوف في ضوء القمر .

ولم تمض لحظات ، حتى كان سكون الليل قد تبدد مرة  
أخرى ، وامتلا الفضاء بأصوات خشنة ومخيفة وفظة ، وراحت  
تدوى وتعلن طلب النجدة والإنقاذ .

وفي النور .. نفس النور الذي كنا نحلم فيه أنا ونعمات منذ

لحظات ، راينا الرجال والنساء تنشق عنهم الحقول والسكك  
فجأة ، حتى الحقل الذى كنا نقف فيه ، كان الرجال يعبرونه  
جرىا ، ويصوبون لنا نظرات خاطفة غريبة وهم يمرون بنا ..  
كانوا اشبه بعفاريت مخيفة .. فى ايديهم شماريخ .. وذبول  
جلاليتهم فى أسنانهم ، ويسرعون صوب الجسر .

احسست بنعمات ترتعش داخل صدرى .

ولم تدخ لحظات أخرى . حتى راينا الجسر يموج بأشباح  
الرجال ، وجموعهم تتقاطر على هناك وتحشد وتتزاحم ..  
وتزمرجر .

غاص قلبى .. أنا أعرف ما الذى يحدث فى مثل تلك  
اللحظات .. كثيرا ما سالت الدماء فى قريتى ، وعلى تراب هذا  
الجسر بالذات .  
يا للكآبة .

حبست أنفاسى .. وحبست هى الأخرى أنفاسها ، ورحنا  
نرقب الحركة فوق الجسر .. كنت خائفا من شىء واحد .. أن  
ترتفع الشماريخ فى الهواء .

يكفى شمروخ واحد يرتفع ، حتى ترتفع بقية الشماريخ ،  
وبعد ذلك تحدث المجزة الرهيبة المعروفة فى ضوء القمر .  
أمسكت قلبى .

لكن الشماريخ لم ترتفع .. الأصوات فقط هى التى ارتفعت،  
واخذت تتشاحن وتختلط وتتعالى حتى وصلت عنان السماء ..  
وجاءتنا الكلمات مع نسيم الليل ، مختلطة ومبهمة أحيانا ،  
وواضحة ومفهومة أحيانا أخرى :

— يا خلق يا هوه .. طب وربى المعبود لأسيح دمه ..

يا ناس ده دور اليماني .. والراجل يتعرض لى .. هى المية  
تفوت عالارض العطشانة .. ما هى كل الارض عطشانة .. شهر  
وعشرة ايام من غير مية .. اعقل يا جدع انت وهو واقصر الشر ..  
العمدة أهه جاى هنالك أهه . وهى يعنى البلد مافيهاش رجالة ..  
طب سييونى عليه .

وكلمات اخرى .. وفهمت كل شىء .

الناس فى قريتى يا نعمات يفضلون أن يموتوا هم ، ولا يموت  
الزراع من العطش .

والرجال بدخلون المعارك الدامية من أجل شربة ماء  
يروى بها كل واحد أرضه .

انا لم أقل لك هذا من قبل يا نعمات ، فقد كنا دائما  
نحلم .

أأقوله الآن ؟ ! ربما تقول لى عينك الجميلتان الخائفتان ،  
وهل كان ضروريا أن يحدث هذا فى ليلة كهذه .. تركنا القاهرة  
من أجلها ، وجئنا لننعم بالسكون وضوء القمر ؟ ! .

قلت لها لأهدىء من روعها :

— شايقة القناية اللى هناك دى .. تعالى تقعد جنبها ..  
دول ناس بيتخائفوا على الميه .. ياما حصلت الحكاية دى قبل  
كده .. تعالى تعالى .

قالت والاستغراب على وجهها :

— يتخائفوا على الميه .. يعنى ايه بتخائفوا على الميه ؟ !

كان استغرابها ممزوجا برنة خوف عميقة .. لقد أحست  
فجأة ، أنها تقف فى عالم غامض مجهول .. عالم لم تكن ترى فيه

منذ لحظات غير الخلاء .. والشجر .. وضيء القمر .. ثم فجأة  
تجسم هذا العالم أمامها واتخذت ملامحه شكلا قاسيا ومخيفا ..  
شكل رجال يقتتلون فوق جسر ويسفحون دماء بعضهم البعض .  
قلت لها ونحن نقف على حافة القناة :

— اصل الميه مخسعة في التربة .. شايفه القناية ناشفة  
ازاى .. وتذكرت شيئا فقلت لها ضاحكا :

— انت مش فاكدة شهور التحاريق ؟ ! الى كنت بتاخديها  
في الجغرافيا وأنت في أولى ثانوى ؟ ! .. وارتسمت على فمها شبه  
ابتسامة لكن الاستغراب والشروء لم يبرحا وجهها .

كان عقليا مع أصوات الرجال .. وكانت الأصوات لاتزال  
عالية وحامية فوق الجسر .. فعدت انصت أنا الآخر .. وسمعت  
صوت العمدة الفليظ الأجش ينادى على شيخ الخفر وعلى  
الخفراء .. وكانت الحركة واضحة ومضطربة على الجسر .

أشرت لها بالجلوس على حافة القناة .. فجلست بجوارى  
في صمت ، وكانت شاردة .

أخذنا نسمع الأصوات .. كان من الواضح أنها بدأت  
تقل وتخفت .. والناس أيضا بدأ عددهم يقل ، وصوتهم بدأ  
كالهمهمات .

هل حدثت المعجزة .. ؟ !

بعد دقائق ، رأيناهم يمشون جماعات وفرادى في خط طويل  
متحرك متجهين نحو بيت العمدة في أطراف البلدة .

قلت لها وأنا اتنفس في ارتياح :

— خلاص يا نعمات .. فانت على خير .. نرجع تانى  
للقمر .



كنا نجلس على حافة القناة . كتفا في كتف ، واقدامنا  
ممدودة امامنا ووجهانا للقمر .. وانتظرت أن تتكلم نعمات ،  
لكنها لم تنطق بحرف .

قلت مضاحكا ، وكأننى ضبطتها متلبسة بفعل شيء خطير :  
- بتفكرى فى ايه !! لازم تقولى .. وبسرعة .  
قالت وهى تعندل فى جلستها :  
- بافكر فى بلدكم .. بلدكم غريبة أوى .  
- غريبة ازاي .

- مش عارفة .. أول لحظة وقفت فيها تحت القمر :  
حسيت أنى شايفاك فى عينى زى ما أنا شايفه القمر .. حسيت  
كأنى شفت البلد كلها ، وعرفت فيها كل حاجة .. دلوقت باحس  
أنى مش فاهمة حاجة أبدا .

وصمتت قليلا .. ثم قالت بصوت خافت فيه نبرة حزن  
بعيدة :

- خايفه لأكون مش فاهمك انت كمان ..

هزنتى كلماتها .. هناك كلمات لا تحتل منا أى تعقيب ..  
كلمات تحتاج الى الصمت ليستعيدها الانسان فى سره مرات  
ومرات ، دون أن ينطق بحرف واحد .

كان الهدوء قد عاد الى القرية ، وجموع الرجال قد اختفت  
من فوق الجسر ، ولم يعد من صوت فى الفضاء سوى دقات  
خافتة متتابعة لماكينة الري البعيدة .

أما نعمات ، فكان وجهها ساكنا ووديعا كالملك .

وفى هدوء : ملت عليها ومددت ذراعى لآخذ وجهها بين

يدى .. لكنها - فجأة - ابتعدت برأسها عنى فى حركة سريعة  
وقالت :

- لا .. لا .. مش دلوقت .. احكىلى الأول عن بلدكم ..  
احكىلى عنها كل حاجة .. نفسى أعرف كل شىء عنها .

لو ظلت نعمات تقول لى كلمة « أحبك » وتكررها لى بعدد  
جذور القمح النابتة فى كل الحقول ، لما دخلت قلبى مثل  
ما دخلته .. بهذه الكلمات .. « احكىلى عن بلدكم » .

ماذا احكى عن بلدنا .. ومن أين أبدا يا نعمات ؟ !

واعتمدت فى جلستى ، وتربعت أمامها على الأرض وبدأت  
أحكى .

كان وجهى لها ، وظهرى للقمر .. اما وجهها فكان للقمر  
ولى فى وقت واحد .. وكانت تنصت باستغراق ، وعيناها  
الصافيتان تتهوجان بكل المعانى وكأنهما تطلان على عالم واسع  
عميق . ظلت احكى .. واحكى .. وهى تنصت وتنصت ..  
وصوتى كان حزيناً دون أن أدري .. كان الكون كله ينصت  
للحكاية .. والوقت يمر دون أن ندري ، والقمر يميل فى السماء  
ويبتعد دون أن ندري أيضاً .. والهواء تزداد رطوبته ..  
وفوجئنا بديك يؤذن بصوت عال وكأنه فى حقل قريب منا ،  
فتنبهنا لأنفسينا ، ونهضنا من على حافة القناة ، وفردنا جسيمينا  
فى الخلاء .. كان الهواء رطباً ومنعشاً .. والقلب مأخوذاً .

« آه يا نعمات .. غير أن قصة قررتى طويلة .. تحتاج  
الى ألف ليلة وليلة .. وبها هو الديك يؤذن » .

واحتويتها فى صدرى .. وسكن رأسها فى هدوء على كتفى ،  
ثم سمعتها تنهد من أعماقها وتغمغم ؛

- دلوقت بس .. عرفت ليه بتبقى ساعات حزين من غير  
سبب .

ورفعت رأسها من على كتفى ، ونظرت لى وكأنها ترانى  
لأول مرة .

كانت الحقول ساكنة .. والفضاء كله نورا .. أما القمر  
فكان مائلا وبعيدا فى السماء ، يرقب أول قبلة لنا فى قلب  
الحقول .

« ١٩٥٨ »

## الأرنب

لما اذن الشيخ جابر لصلاة المغرب ، كان فضاء القرية وبيوتها قد أصبح بلون الرماد ، رفعت أمينة رأسها ، وشدت جسمها ، وتنهدت من أعماقها لتطرد من صدرها تعب النهار ، ثم دخلت في هدوء على أمها الجالسة في الحجرة البحرية ، وقالت لها بصوت خافت مكدود :

— خلاص يا أمه .. شغل البيت .

ودون ان تنظر لها أمها هزت رأسها علامة أنها سمعتها ، ومضت في اطرافتها ، وجلست أمينة بجوارها على الكنبة في هدوء لتستريح .

نفس جلسة كل مساء .. الأم وابنتها متجاورتان .. لكنهما صامتتان تنظران من خلال فتحة الباب الى الطريق ، ترقبان سحب القبار التي تثيرها قوافل الفلاحين والرعاة وهم عائدون من الحقول والجسور .. وبين اللحظة والأخرى تسرح كل واحدة منهما في عالمها الخاص .

أمينة تفكر .. الى متى يطول « غضبها » من زوجها ..

أربعون يوما مضت دون أن يبعث بأحد ليصالحها .. ومن  
يدرى .. قد يطول ، ذلك شهورا أو سنين .

والأم .. متربعة على الكنية .. متشحة بطرحتها السوداء ..  
ووجهها الأبيض الحاد الملامح معتمد على كفها .. تقلب ما مضى  
في رأسها ، وتنتظر آذان العشاء .. لتصلى .. ثم تنام .

كان المفروض أن يطول الصمت بينهما كالعادة .. ولكن ..  
فجأة ، استدارت الأم لابنتها وقالت وقد تذكرت شيئا خطيرا :

— بالحق يا أمينة .. الأرنب الأسود من الصبح مش  
لاقيه . قومي يا بنتى شوفيه .. خدى اللبنة الكشف وروحي  
دورى عليه .

احست أمينة أن حجرا سقط على قلبها فجأة .. تلك  
هى ساعة الراحة التى تحظى بها لنفسها من كل هذا النهار  
الطويل .. وقد جلست بالفعل وبدأت تحس بخدر التعب يتحلل  
ويسرى فى كل جسمها وتسترخى .

همت أن تقول لها فى استعطاف .. « أنا تعبانه يا امه ..  
والصبح رباح ، زمانه دلوقت دخل ججر ، أو مستخبي فى عين  
الفرن » .

لكنها لم تجرؤ كعادتها على أن تنطق بحرف .. كانت تعلم  
جواب أمها المحتوم .. ستلتفت لها بحدة وتقول بلهجة حازمة  
أمرة .

— عايزه تسببيه للصبح عشان عرسه تلفه .. امشى دورى  
عليه وهاتيه من تحت طقاطيق الأرض .

وزامت فى سرها .. لا جدوى اذن من الاستعطاف يا أمينة ..  
والأرنب لابد أن يعود .. وطاف بوجهها سخط أبكم ، وتململت

في جلستها كأنما تنتظر ان ترجع أمها عن رأيها .. لكن أمها قالت  
في جفاف لتستحثها للقيام :

- ومش حنام الا ما تجيبه .

لا مفر اذن يا امينة .. انت لم تجدى الراحة في بيت  
روجك .. فهل ستجدينها هنا .. في بيت أمك .. ؟ !

ونفضت من جلستها وهي تكتم سخطها .. تناولت اللبنة  
الكشف وخرجت لتبحث عن الأرنب في صمت .

كان البيت واسعا وكبيرا .. بيت من تلك البيوت القديمة  
التي خرجت منها أجيال وأجيال .. وفي قديم الزمان ، كان  
أكبر بيوت العز في القرية .. المضيقة مفتوحة بالليل وبالنهار ..  
والرجل الغريب بدلا من أن يأوى في الطريق الى ظل شجرة توت ،  
يدلف اليها ويلقى السلام ، فيجد الغذاء ، وربما تأخذه فيها  
أيضا سنة عن النوم .. وغير المضيقة ، حجرات وحجرات ..  
حجرات للنوم .. وحجرات للجلوس .. وحجرات للخزين ..  
وممرات .. وأفران .. ورغم كل هذا الاتساع ، فقد كان صوت  
الرجل الكبير أيامها يرن دائما في أبهائه .. وأصوات أولاده  
كانت هي الأخرى تطن فيه وتشيع الحركة والحياة .

ولكن كل هذا راح مع الأيام وانتهى .. مات الرجل .. وكبر  
الأولاد والبنات وتزوجوا .. الأولاد تركوا البلد وعاشوا مع  
زوجاتهم في المدينة ، والبنات مزين ليعشن في بيوت أزواجهن ..  
وصفصف البيت الكبير في النهاية على الأم ، وأصبح بالنسبة لها ،  
بيت الوحدة والصمت والذكريات ،

وامينة ، كانت للأسف ، هي البنت الوحيدة التي مال  
حظها .. كانت في الثلاثين من عمرها .. طويلة .. سرحة ..  
عيناها واسعتان وعسليتان .. وتقاطيعها جميلة .. لكن جمودا

غريباً كان يطبع ملامحها . من الصعب ان تقرا شيئاً في عينيها  
الواسعتين .. ربما خوف كبير من شيء مجهول .. وربما نداء  
بالعطف عليها .. كانت من ذلك النوع الذى يستدر عطف الرجال  
ولا يثيرهم .. وزوجها كان فى حاجة الى امرأة تثيره ، لا تستدر  
عطفه ، فضايق بها منذ الشهور الأولى .

كان فلاحاً ، يسرح بنفسه بالبهايم الى الحقول . يحرث  
ويروى ويذر .. ويريد آخر النهار امرأة تنسيه تعبهِ بحركة من  
الحاجب ، او بتقصيعة خفيفة من وسطها .. لكن أمينة ليست  
من هذا النوع ، فيسخط عليها ، ويأخذ بعضه بعد العشاء  
الى دكان « زهرة » بائعة الجوافة ويسهر عندها .. يجلس فوق  
المصطبة ، ويأكل الجوافة من يدها .. وبضحك .

وأمانة كانت تحتمل هذا .. لكنها فى لحظات ، كانت تخرج  
فجأة عن صمتها وجوودها ويربد وجهها ، وتقرر أن تفجر البركان  
الذى فى أعماقها .. لكنها تعجز عن التعبير ، فتحس بهوان شأنها ،  
وتبكي فى حرقة ، وقد تمزق صدر جلابيها ، ثم تصيح كالفاقدة  
وعياها ووجهها للسماء : « يارب على الظالم وابن الحرام » ..  
ثم تتركه وتمضى الى أمها لتعيش معها فى ذلك البيت الواسع  
القديم .

وقد خيل لها فى تلك الليلة ، وهى تحمل اللبنة الكشف  
لتبحث عن الأرنب أن البيت قد ازداد اتساعاً ، وأن ظلمة الليل  
قد دخلته مبكرة عن كل يوم .

أين هرب الأرنب الملعون ؟

ومشت واللبنة الكشف تضيء طريقها ، وراحت تفكر  
فى وجوم .

لابد انه دخل عين الفرن وانكمش على نفسه واقفل عينيه

ونام ؛ وربما اختفى في جحر في القاعة المجاورة لبئر السلم ..  
وربما .. كان فضاء البيت قد لفته الظلمات ؛ ظلمات متراكمة  
وكثيفة ، والقرية نفسها بدأ يسودها ذلك الصمت الذي يعتب  
الغروب الحزين ، والخفراء بدأوا يأخذون مواقعهم في أطراف  
القرية وحواريها ؛ وبدأ وجه امينة في ضوء اللبنة الهزيل الباهت ،  
حائرا ومسكينا ومجهدا .

وتتمت لنفسها .. « يعنى مش كنت زمانى دلوقت في بيت  
جوزى ، لكن اعمل ايه .. راجل ظالم .. وانت يارب تعلم ،  
وغيرك ما بعلم » .

وقادتها قدماها الى قاعة الأرائب ، فوقفت على بابها .  
وراحت تجل فيها البصر .. عبر الأرض .. وفي الأركان ..  
لكن القاعة كانت مظلمة .. وكل ما فعله ضوء اللبنة ، أنه حول  
الظلام الى جو ضبابي قائم ، لا تميز فيه العين شبرا واحدا .

مدت امينة يدها باللبنة أمامها على طول ذراعها ، وانحنى  
براسها قليلا ، ومضت تنقب بعينيها في الأرض .. خطوة خطوة ،  
ولكن ، لا اثر للملعون .

هو اذن لابد في جحر .. والقاعة فيها جحران .

واقتربت من احد الأركان . وركعت على ركبتيها . ووضعت  
اللبننة على الأرض ، وفي دائرة الضوء الصغيرة ، بان جحر  
صغير .. فوهته دائرية وضيقة ومسدودة بالظلام .

زمت امينة عينيها ، وراحت تجوس ببصرها في الجحر ..  
لكنها لم ترى أمامها غير الظلام .

— ادخل يدك يا امينة . فقد يكون راقدا في نهاية الجحر .



وتخيلته قابعا ينظر اليها في هدوء .. يرعش شواربه ..  
يراه ، ولا تراه .

غير انها ما كادت تمد يدها الى الفوهة ، حتى اسرعت دقات  
قلبها وتولاها خوف شديد .

الجحر مظلم .. اسود .. وربما يسكنه ثعبان يا أمينة ..  
او سحلية .. وتمتمت بخوف في سرها « بسم الله الرحمن الرحيم »  
لا .. سأقول لها .. بحثت عنه كثيرا ، ولم أجده يا أمي ..  
وسأبحث عنه مرة أخرى في الصباح .. والنهار له عينان !

لكن صورة أمها انبعثت في خيالها على الفور .. ستصبح  
في وجهها بعصية : فالحة يا اختي فالحة .. أرنب ومش عارفه  
تلاقيه .. والنبي جوزك عنده حق ومعدور .. هي الواحدة  
الخابية تتعاشر .

وأحست بهوان شأنها ، وسقطت من عينيها دمعتان .  
لا .. انها تفضل أن يعضها ثعبان أو يلدغها عقرب ،  
ولا تسمع منها هذا الكلام .

ودفعت بيدها فجأة داخل الجحر وقلبها يدق .. مدتها  
حتى أحست بأطراف أصابعها تلمس نهايته .. التراب رطب  
وناعم .. وقوالب الطوب رطبة أيضا وفيها نغوات بارزة .. هذه  
النغوات بما تحمل من خيوط العناكب أرعشتها ، وأوقفت شعر  
رأسها .. لكنها مضت تتحسس في رهبة وحذر ..

لأشياء .. الملعون ليس هنا .. وأخرجت يدها بسرعة ،  
واستردت أنفاسها .

أذن هو في الجحر الثاني .

وتناولت اللبنة مرة أخرى ، فتراقصت شعلتها مع النفس الخارج مع تهيدتها : ررات ظلها الملقى بجوارها على الأرض يتراقص هو الآخر ويتلوى ، يأخذ اشكالا غامضة مخيفة .

آديا أمينة .. لو كنت تحفظين آية الكرسي التى يقولون عنها ، اذن لقرأتها الآن ، واطمأن قلبك .. ولكن ربنا هو الحافظ يا أمينة .

واجتازت عرض القاعة الى الركن الآخر .. كانت قدماها وهى تمشى ، تطأ أعواد البرسيم والحطب الجاف الملقى على الأرض ، فتحدث أصوات وطقطات تشرح سكون البيت ، بل وسكون القرية كلها .

وحين وصلت الركن ، توقفت خطواتها ، وانقطع وقع قدميها المزعج هذا ، وعاد السكون يطن حولها من جديد .. وهمست لنفسها .. بصوت مسموع .. « يارب يكون فى الحجر ده بقى وأخلص » .

وادخلت يدها .. لكنها أخرجتها كما أدخلتها ، فارغة .

بقيت جالسة فى مكانها أمام الحجر .. أسندت خدها على كفها ، وارتسم على وجهها الذى اختلط عليه الضوء بالظلام يأس كبير .

أين تبحث عنه هذه المرة ؟ الأم قالت كلمتها .. لن تنام الا اذا جاءت اليها بالأرنب واطمأنت عليه .

ومرت بخاطرها وهى متجمدة فى جلستها أمام الحجر فكرة مفاجئة : اليس من الجائز أن تكون أمها قد ذبحته .. وأكلته .. ونسيت . ؟ ! ان أمها تحب أكل الأرنب بالملوخية ، وهى كثيرا ما كانت ترسل لها .. « نص أرنب محمر وشوية فتة » وهى

في بيت زوجها ، لتعزز من مركزها أمامه ؛ ولكن .. آه منه ،  
لا يثمر فيه ، الظالم . !!

وذكرتها هذه الفكرة بحنان أمها .. صحيح أنها قاسية ،  
لكنها حنونة أيضا .. أن أمها هذه لو لم تكن موجودة ، لخنقها  
زوجها من زمن وتخلص منها .. أنه كثيرا ما يثور عليها .. يثور  
حتى تومض عيناه ، فتخاف من شكله ، وتكوم على نفسها ،  
في انتظار أن يترك لها البيت .. ويخرج .. فيعاودها شيء من  
الطمأنينة ، وتتنفس الصعداء .

لا .. لا .. لا بد أن أعود لها بالأرنب .. هي التي تحميني ..  
وهي الآن جالسة تنتظر .

وتناولت اللبنة ، وضعتها هذه المرة على رأسها وسارت ،  
مرفوعة الرأس .. معذبة .. ومع وضع اللبنة الجديد ، انحسر  
الضوء عن معظم وجهها .. حتى ظلها على الأرض ، اختفى هو  
الآخر ، وتكوم تحت قدميها .

ودخلت قاعة الفرن .

كانت تحس نحو هذه الحجرة بالأمان بعض الشيء .. فآخر  
خبزة خبزتها فيها كانت منذ يومين ، ولو كان فيها حشرات  
فقد أحرقتها وأكلتها النيران .

وبدت أمامها عين الفرن واسعة .. أوسع من عين الجحر  
بكثير .

ستدخل اللبنة فيها أولا .. ثم تدخل برأسها بعد ذلك .  
انحنى حتى وازت برأسها تجويف العين ، ثم مدت ذراعها  
باللبنة داخله ، ثم دخلت برأسها ، وراحت تبثلق في الضوء .

— آه ..

شهقت فجأة شهقة فرحانة .. كان الأرنب الأسود راقدا امامها في الركن فوق الرماد .. وما أن انعكس عليه ضوء الللمبة ورأى وجهها يطل عليه ، حتى انكمش في نفسه وارتعشت شواربه ، وبانت في عينيه لمعة الاحساس بالخطر .

لم تضع امينة وقتا .. كانت مجهدة ، وتريد أن تنتهى ، فأطلقت يدها فجأة كالسهم لتقبض عليه .. لكنه كان أسرع .. ما كادت اصابعها تلمس شعره الناعم ، حتى قفز الى أعلى قفزة مدعورة ، اثارت حوله سحابة كثيفة من الرماد .

جرت على اسنانها في غيظ . وشرعت تمد يدها مرة أخرى، لكنها أحست بذرات الرماد تدخل عينيها ، فوضعت الللمبة بجوار جدار العين ، وراحت تفرك في عينيها وقفلت فمها حتى لا يملأه الرماد ، ثم عاودت النظر اليه ، وعيناها ترمشان .

كان هو الآخر يحملق فيها ويرعش شواربه .

شيء ما اخافها في نظراته .

احيانا كان زوجها هو الآخر يقبع في الغرفة وحده في سكون، وما أن تدخل عليه ، حتى يواجهها بنظرة جامدة مخيفة ، فتفهم على الفور أن وجودها غير مرغوب فيه فتترك له الغرفة ، وتخرج في صمت .

ولكن .. لا .. هذه النظرات لن تخيفها .. لن تخرج رأسها من الفرن الا بعد أن تمسك به .. ونظرت اليه مرة أخرى في غل ، واخذت تفكر من أين تمسك به .. ومدت يدها .. لكن الأرنب كان ليدها بالمرصاد .. ما أن لمحها تمتد نحوه ، حتى قفز مرة أخرى قفزة هوجاء مدعورة ، فاصطدم بالللمبة ، فانقلبت ، وانطفأت شعلتها ، وفي الحال ساد عين الفرن ظلام مخيف .

لو كان عليها ، لصرخت في فزع .. كتمت الصرخة في صدرها  
وأخرجتها شهقة .. انها لو صرخت ، فلن تأتي لها امها جريا  
وحدها ، انما القرية كلها ستأتى لتستطلع صرخة امرأة تشق  
سكون الليل .

وارتعش فكاهها من الخوف والحزن .. أحست بالدموع  
تسيل من عينيها الملتهبتين ، وبأنفاسها تضيق ، فمسحت عينيها ،  
وجدبت نفسها كبيرا ، ثم مدت ذراعيها ، وراحت تتلمس بأصابعها  
الأرنب في الظلام .

— تعال بقى .. ربنا يهديك .

ويبدو أن الأرنب كالقطط ، ترى جيدا في الظلام .. كلما  
أوشكت يدها أن تقترب منه وتقبض عليه ، حتى يحس بها ،  
وينط الى بعيد ، فلا تقبض يدها الا على التراب .

مرات ومرات ، واللعين يفلت منها .. وفي كل مرة ، كانت  
تفوص بجسمها أكثر وأكثر في العين .. وحملت المطاردة في  
الظلام .. نصف جسمها في الداخل .. والنصف الآخر في الخارج  
وبداها تندفعان هنا وهناك بغير انتظام ، والأرنب يتنطط ويقفز  
في كل اتجاه .. ومع كل قفزة ، كان رماد الفرن يشور ويملا الجو  
بالغبار ، وبالهجو ، وأحست أن المطاردة لو طال أكثر من ذلك ،  
فانها ربما تموت مختنقة داخل الفرن ..

وكالمحمومة ، هوت بيدها عليه .. كان اتجاه ذراعها في  
هذه المرة صائبا فأطبقت عليه .

لم تستطع حتى أن تتنفس الصعداء .. كانت عين الفرن قد  
احتشدت بالهبو والغبار .. فأخرجت جسمها ورأسها ، ووقفت  
في فضاء القاعة تلهت ، وتستعيد أنفاسها .. أما الأرنب فكان  
يتدلى من يدها ، ويرفص بأرجله في الهواء .

الآن .. انتهت مهمتك يا أمينة .. اذهبي سريعا الى أمك ..  
هي الآن جالسة على الكنبة تنتظرك ، ستفرح أنك وجدته ..  
ولن تقول عنك أنك امرأة خائبة ، وربما تسمعك كلمة طيبة  
تعزيك عن أحزانك في الحياة .

ومشت .. كان التعب قد فاض بها .. خطواتها واهنة ،  
وانفاسها متتابة ، ومعظم وجهها معفر بالرماد .

ولكن .. ما ان بلغت باب الحجرة ، حتى أحست فجأة  
بقدميها تتسمران على العتبة .. لم تكن أمها جالسة على الكنبة  
كما توقعت .. كانت نائمة على السرير ، مغطاة باللحاف ، وتشخر  
بصوت عال .

— أمه .. أمه .. أنا لقيت الأرنب يا أمه .

وتمللت أمها في رقدتها . وغمغمت كأنها تحلم .

— أرنب . ؟ ! . أرنب إيه يا بنتي . ؟ ! .. أر .. أر ..

وتوقفت غمغماتها .. وسكنت شفتيها .. وغابت في النوم  
من جديد .

« ١٩٥٨ »

## جفت الأمطار

أكثر من أى وقت مضى ، أحست أمينة من أعماقها الحزينة ،  
أن غيابها عن زوجها قد طال .

كانت سماء القرية لحظتها تمطر مطرا غزيرا ، والغضاء فوق  
البيوت والحقول والشجر تشغله غبشة قاتمة يستريح لها القلب  
المهموم . . تنهدت بصوت مسموع ، واعتدلت فى جلستها على  
الحصير خلف فتحة الباب الموارب ، وأسندت خدها الأيمن على  
كفها ، وراحت ترقب الطريق أمامها وهو يفرق شيئا فشيئا فى  
مياه المطر .

منذ شهور ، وهى تعيش هكذا فى بيت أمها . . صامتة  
واجمة ، تعمل كثيرا ، ولا تتحدث الا نادرا ، وتنتظر ما تشير به  
السماء عليها أن تفعله .

لقد حدث ما حدث ، وانتهى الأمر ، بأن حملت طفلتها

---

تحولت هذه القصة الى فيلم سينمائى باسم « جفت الامطار » كما  
نالَت جائزة احسن قصة للسينما عام ١٩٦٨ .

الرضيعة على كتفها ، وتناولت طفلتها الأخرى في يدها ..  
 أما صبيها البكر : فقد كان يلعب لحظتها مع أولاد القرية في  
 الخارج .. ثم تركت بيت زوجها مطرقة حزينة ، وسارت الى  
 بيت أمها وعيناها الواسعتان مفروقتان بالدموع .. وحين رأت  
 أمها الدموع تنحدر على خديها الشاحبين ، قالت لها وهى تستقبلها  
 بصوت يشبه الصراخ ، كأنها تشهد أهل القرية على ما تقول :

— بتبكي ليه ؟ ! .. بيت أبوك ومفتوح ، وارضك معاك  
 تاكلى من خيرها .. يعنى كان زايد عليك منه حاجة ؟ ! .. أنا  
 عارفة قصده .. اللثيم .. يلهف منك الغدائين .. ياخذك لحم  
 ويرميك عضم .. والنبي دى نجوم الضهر أقرب له من أرضك ..  
 ادخلى يا حبيبتي ادخلى .

ومسحت المرأة الصغيرة دموعها ، ودخلت البيت لتعيش في  
 صمت وسكون .



منذ زمن تحسبه بالشهور والأيام والساعات ، حدث  
 هذا .. كانت الدنيا أيامها صيفا وحرا ، والفلاحون في قريتها  
 يلتمسون النسمات في الظهيرة ويتمددون مع بهائمهم في ظل  
 أشجار الكافور والجميز .. والأولاد هم الآخرون — ومن بينهم  
 صبيها البكر — كانوا يتخففون من ملابسهم ويقذفون بأجسادهم  
 العارية في مياه النيل والترع والمصارف ليبتردوا .. وها هى  
 الأيام قد دارت عليها بطيئة شاحبة ، حتى أطلت عليها أيام الشتاء  
 قجاة ، وراحت عيون الساء تهطل بشدة وغزارة ، تغرق البيوت  
 والعشش والدواوير .

دارت عليها الأيام ، وهى لا تزال في بيت أمها العجوز ،



مستوحدة صامتة ، يأكل الحزن قلبها ، ولا تبوح بأحزانها  
لأحد .

وتنهدت مرة أخرى وعيناها ترقبان الطريق المنحدر من  
خلال فتحة الباب ، وخبوط المطر لاتزال تنهمر بلا انقطاع .

— يا ترى فين أراضيك دلوقت يا حسين .. ؟ !

لقد كانت منذ أول يوم خرجت فيه من بيته ، تتبع  
أخباره .. كانت تسأل مسعودة ، المرأة العرجاء التي تملأ لهم  
جرار الماء من النيل عن أحواله .. تسألها خفية وفي صوت  
هامس حتى لا تسمعها أمها .. ثم جاء يوم انقطع عنها كل أخباره،  
ولم يعد له حس بالقرية .. ثم عرفت بعد ذلك من مسعودة ،  
أنه سافر فجأة .. ترك البلد وهاجر الى أرض بعيدة .

ودون أن تدري ، أحست بدموعها تتساقط من رموش  
عينها على خديها .. وراودتها نفسها أن تجش بالبكاء وتتنحب،  
لكنها خشيت أن تسمعها أمها القابعة على الكنبه داخل الحجرة ،  
فتنهرها على دموعها وتلمح لها بأنها امرأة صغيرة فارغة العين تخن  
الى رجلها ، فأمسكت نفسها وجففت دموعها ، وأطرت برأسها  
بين كفيها ، وراحت تفكر .

هل كان حسين في الحقيقة طماعا يا أمينة .. ؟ ! .. هل  
كان في نيته حقا أن يخدعك كما تقول أمك ، فيجعلك تبيعين  
الفدانين اللذين ورثتهما عن أبيك ، ثم يطلقك بعد ذلك ، أو يتزوج  
عليك .. ؟ !

ولم يطاوعها قلبها أن توافق على ذلك في سرها .

لقد جاءها ذات يوم بعد ان عاد بالجاموستين من الحقل بعد  
الظهر وكان متفتح الوجه .. وقال لها وهو يخلع ملابس الشغل  
على مهل :

— أمينة .. انا عايز اكلّمك فى موضوع .. بس لازم تفتّحى  
لى دماغك كويس ، وتفهمى اللى حا قوله .

وفرحت بابتسامته ، وراحت تستمع اليه وانفاسها تتتابع ..  
كان يكلمها حينذاك ، وكان يبدو بوجهه الأسمر المستطيل الذى  
لوحتة الشمس ، وكأنه يحلم أحلام الدنيا كلها .

قال لها ان هناك فى الشرقية أرضا بناع بثمان رخيص ،  
وان ثمن القدان هنا يشتري خمسة هناك .. ومع أن تلك  
الأرض تحتاج الى مجهود وإصلاح ، الا أنه قد اتفق مع بعض  
الرجال من أصحابه ، وسيشتركون فى شراء قطعة كبيرة  
ليستصلحوها ، لتصبح بعد عدد قليل من السنين ، أجود من أى  
أرض أخرى فى زمام قريتها .

وسكت قليلا وبان عليه الشرود العميق ثم عاد يقول وهو  
يشير بكفه الى بعد .

— هناك الأرض بكر يا أمينة .. عايزة الرجال .. الرجال  
اللى يحبوا الشغل والعرق بصحيح .. لكن هنا ، زى ما انت  
شايفه .. البلد كل يوم بتضيق .. والناس بتكثر .. والعمار  
داخل على الزرع من كل ناحية .. والحكومة عاملة مشروع كبير  
للجامعة الجديدة من ناحية المنصورة .. وحينزعوا أرض كثيرة ..  
والجدع منا لازم يفكر فى مستقبله من دلوقت .

وتجلى الحلم الرائع على وجهه الأسمر أكثر وأكثر ، وتحولت  
نبرة صوته الى ما يشبه الرغاء ، وهو يدعوها أن توافقه على  
أن يبيعاهما الاثنان ما يمتلكانه ، وبشترين بثمان أرضا جديدة .

— مش احنا لوحدنا اللى حنكون هناك يا أمينة .. نوار  
ومراته نفيسة وأولادهم .. ومحمد أبو السيد ومراته .. وأحمد  
أبو رفاعى .. وكلهم .. كلنا حنشتغل سوا .. ونعرق ..

ونضرب بالفأس .. ونوطى .. وثقوم .. لغاية ما تبقى الأرض  
خضرة .. خضرة ، وتعوض لنا صبرنا واكثر .

أطرقت ، ولزمت الصمت .. عاد يسألها في صوت خافت :

— ساكنه ليه يا أمينة .. لا

— انت عارف يا حسين .

— عارف ايه .

— أمى .

— مالها أمك .. ؟ !

— أنا عارفة أنها مش حتوافق ..

ونفرت العروق فجأة في جبهته ، وارتعشت كل ملامحه ،  
وصرخ في وجهها وقد اكتسى وجهه بالشر والغضب .

— أمك يعنى ايه .. ؟ ! .. هو كل حاجة بينى وبينك لازم  
تكون فيها أمك .. اسمعى .. كل اللى فات كوم .. والمرة ده  
كوم .. هو أنا حافظل طول عمري تحت رحمة أمك ؟ !

ولم ترد على ثورته بكلمة .. وحين سكت ، اعقب سكوته  
صمت ثقيل مخيف ، وراح كل منهما يتلمس في نفسه رائحة  
عاصفة مقبلة من بعيد ، لتعصف بكل ما في حياتهما من استقرار  
وهلوع .

\*\*\*

انها تذكر ذلك اليوم بكل تفاصيله ، وتذكر أيضا حين  
مصت الى أمها في بيتها لتقص عليها ما طلبه منها زوجها .

لم تكذب تبدأ في سرد الحكاية لها حتى لحقت وجهها ينقلب  
ويكفهر ، ونظراتها تتسع وتزداد حدة ، وحين لفظت « بيع

الأرض « أحست بأن كل شيء من حولها قد انقلب وضعه ، وأن شيئاً ما مروعا سيطبق عليها ويخنقها .

— ليه .. ؟ .. جنان .. ؟ .. يبيع في العمار ويشترى في الخراب .. ؟ هي البلد خلاص ضاقت باللى فيها .. عايز ياخذك هناك .. في الأرض السوداء المألحة . أرض حفرة جفرة .. لا فرع اخضر فيها ولا طيرة في السما .. لا .. أنا فاهماه وعارفه قصده . طماع وحرامى ولثيم .

وصمتت قليلا لتأخذ أنفاسها المتقطعة ، ثم قالت بلهجة متوعدة منذرة .

— ولا في آخر يوم من أيامى ينباع شبر واحد من الأرض . كانت الأم تتكلم ونصف وجهها مغطى بطرحتها السوداء ، والنصف الآخر قمحيا مفضنا بآثر القسمات .. وكان في صوته رنة رهيبة مخيفة تنطوى على الاحساس بالخطر ، وعلى الاحساس بضرورة الدفاع عن النفس والقتال بوحشية من أجلها .. لقد مات زوجها وأبو أولادها وهي في أجمل سنى شبابها .. وكان الأولاد — ومن بينهم أمينة — لا يزالون صفارا .. وقد ترك وفاته في قلبها الشأب حزنا ضخما أغرقته في شيء واحد كبير ، هو تربية الأولاد .. مات الأب .. اذن فليعيش الأولاد كما لو أنهم لم يحرموا من أبيهم أبدا .. مات .. فلتبق أرضه التي عاش يفلحها طويلا مقدسة وخالدة ، دون أن تمسها يد رجل غريب أو قريب .

وقد ارتعدت أمينة لسماع كلمات أمها حينذاك ، فتقبلتها في صمت حزين كعادتها ولم تتكلم .. قالت الأم كلمتها ،

فلا مرد لها .. واعتبرت ان كلمات أمها هي كل نصيبها من  
والدنيا ومن القدر .

وحين رجعت الى زوجها بعد ذلك ، وجدته ينتظر ردها في  
قلق .

قالت له ان أمها ترفض البيع ، جذب نفسا عميقا من  
أعماقه ، وكأنه يستل في الخفاء سكيناً غرسه في قلب كبريائه ،  
ثم قال لها في هدوء مروع :

— انا خارج .. لكن قبل ما اخرج .. اخرجى قدامى .

وسكت لحظة ثم عاد يقول بنفس اللهجة الهادئة المروعة :

— قبل كده ، كنت بارجع أصالحك .. لكن المرة دى ..  
خلاص .. قطعت بينى وبينك العمر كله .

وهكذا خرجت .. الرضيع على كتفها ، والطفلة الأخرى في  
يدها ، أما صبيها البكر ، فكان يلعب مع أولاد القرية في أجران  
القمح لا يدرى عن فراق أبويه شيئاً .

\*\*\*

انها تذكر ذلك اليوم الحزين بتفاصيله .

آه .. لا عليها من البكاء في تلك اللحظة ، فالسماء الواسعة  
نفسها تبكى وتفرق الطرقات بالسيول .

وجاءها صوت أمها من داخل الغرفة القريبة ، فبدا لها وكأنه  
آت من أبعاد سحيقة غامضة .

— أمينة .. ليه يابنتى قاعدة وحدك في البرد .. ؟ تعالى  
معاى فى الدفا هنا تعالى .

أحست أمينة بكره مفاجئ لهذا الحنان .. ولأول مرة ،

أنبعثت في رأسها صورة قائمة مقبضة لأمها .. لقد تخيلتها امرأة لا تلبس الا السواد ، وتعيش حياتها وحدها في كهف مظلم ، وتمد اليها يدها المعروقة الضعيفة ، تريد أن تشدها اليها لتؤنس وحشتها ووحدتها .

لقد أحست في تلك اللحظة احساسا لا واعيا ، ان أمها تريد أن تفرض عليها هي الأخرى ترملها القاتل ، مع أن لها زوجا لا يزال على قيد الحياة .

— حاضر يا امه .. أنا جايه .

وتملمت في جلستها على الحصير خلف الباب ، وراحت تجول بعينها الشاردتين في السكة المنحدرة .. كان بعض الفلاحين يجرون خفافا ليهربوا من المطر ، والبعض الآخر يسحبون مواشيهم ويستحثونها على الاسراع . وبعض النساء كن عائدت بالجرار من على جسر النيل وقد فاضت ثيابهن بمياه المطر ، ورحن يخطفن خطواتهن في نشاط وسرعة . أما اطفال القرية ، فكانوا يجرون هنا وهناك فرحين بالمطر ويصيحون وعيونهم متطلعة الى السماء في فرح .. « يا مطرة رخي رخي على قرعة بنت أختي .. »

كل ما في الدنيا في ذلك اليوم الشاتي ، كان يتحرك .. ويجيء ويذهب .. ويشيع الحياة فيما حوله .. أما هي ، فراكدة في بيت أمها ، لا طعم للحياة في عينيها ، ولا تملك من جلستها العاجزة الحزينة الا الذكريات .

يا سلام .. انها تذكر الآن يوما من أيام الشتاء المنقضى ، يشبه هذا اليوم المطير تماما .. كانت السماء تهطل .. وكانت تعيش في بيت زوجها ، وأحست بماء المطر يتسرب من السقف وتسقط قطراته في حجرة الجلوس ، فأسرعت وراحت تخرج المقاعد والكراسي وتفصل الأرض وتنظفها ، ثم فوجئت خلال ذلك بحسين يقف خلفها بجلبابه وطاقيته ، وكل ما فيه يفيض بالماء .

ولم تلبث أن رآته ينحنى هو الآخر ليساعدها في غسل  
الحجرة .. ولم تمض لحظات ، حتى وجدته يتوقف قليلا  
ويتأملها .. فتوقفت هى الأخرى وسأله وهى لا تزال منحنية :

— ايه يا حسين .. بتفكر فى ايه . ؟ !

فقال لها وابسامته تتسع ، وعيناه تلتقيان بعينيها فى بريق  
حبيب :

— بافكر فى خدودك .. خدودك حمرة أوى النهارده كده  
ليه يا أمينة . ؟ !

أحست لحظتها على الفور برعشة خفيفة لليدة تسرى فى  
كل بدنها ، وارتبكت ، لكنها لم تلبث أن ضحكت له ضحكة  
تجاوبت مع البريق المثل من عينيه .. ثم عاودت العمل من  
جديد ، بنشاط وفرح .

فى تلك الليلة ، لم يسهر حسين خارج البيت ، فالقرية كلها  
كانت قد نامت مبكرة لتتقى البرد والوحل والمطر ، ودخلا سويا  
حجرة النوم ، وقبل أن يناما أشعلا نارا صغيرة ، وراحا يرميان  
فيها بعض كيزان الذرة الخضراء التى كان قد أحضرها معه من  
الحقل ، وبقيتا مع أولادهما يستدفئون حول النار ويأكلون الذرة  
المشوية .. وحين أغلق الدفء ووهج النار عيون الأولاد بالنوم .  
صعدا الى سريرهما .. السرير الذى لا تزال تنسدل عليه حتى  
اليوم الناموسية التل البيضاء .

انه رجل طيب . حسين انسان طيب بالفعل .. ترى ، أين  
هو الآن فى الدنيا الواسعة . ؟ ! . زمانه هناك .. فى الأرض  
الجديدة .. مع الرجال الذين اتفقوا معه .. لقد نفذ ما فى  
رأسه ، وباع فدانيه واشترى بثمنهما عشرة فدادين .. وكذلك  
الرجال الآخرون فعلوا مثله .. كلهم ذهبوا ومعهم نساؤهم ..

نوار ومعه امراته نفيسة .. ومحمد أبو السيد ومعه شلبية ..  
 وأحمد أبو رفاعى لحقت به زوجته بعد سفره بأيام .. كلهم  
 هناك .. ولابد أنهم الآن فرحون بالمطر .. وفى هذه اللحظة  
 أيضا ، لابد أن الرجال واقفون بعرض الأرض الواسعة .  
 صدورهم عارية مكشوفة . ويستقبلون المطر فى فرح بالغ ،  
 ونحنون على التربة ، ويضربون فيها بفتوسهم ، ويقلبونها بشغف ،  
 وتعمر قلوبهم بالأمل .

واهتاج فى نفسها ، وهى تتصوره بينهم ، حنين جارف لأن  
 تكون بجانبه فى تلك اللحظة بالذات . أى لحظة هائلة ، أن يعود  
 حسين الآن من الحقل والمطر ، فيجدها هناك تنتظره . فى ذلك  
 البيت الصغير الذى استأجره ، ويجدها أيضا قد جهزت له طعاما  
 ساخنا وملابس نظيفة جافة لتدقى أوصاله ، ويكون أطفالها من  
 حولهما يجررون ويمرحون .

على أنها لم تلبث أن أفاقت من خواطرها الحلوة فجأة ، حين  
 نادى عليها أمها :

— أمينة .. تعالى يا بنتى غطينى باللعاف ، أحسن النوم  
 ماسك فى عيى .

نهضت من جلستها . كانت أمها قد انتقلت من على الكنبة  
 وتمددت على السرير ، ولم تكد تغطيها وتحكم الغطاء حولها ، حتى  
 كانت طفلتها الرضيعة النائمة على السرير قد استيقظت من نومها  
 وهمت بالبكاء . فتناولتها بين يديها فى الحال ، وجلست على  
 الكنبة ، ومضت تهددها وترضعها فى هدوء . كانت الأم قد  
 راحت بعد دقائق قليلة فى سبات عميق ، واستراحت أمينة من  
 أعماقها لنعاسها . فلتفكر الآن كما يحلو لها التفكير ، ولتلك  
 ما شاء لها البكاء ، ولتنتحب أيضا . لقد بقيت الأرض كما أرادت  
 أمها . ولكن أى بهجة بقيت لها فى حياتها ؟ كانت أمها توهما



انه سيعود ليصالحها ورقبته تحت رجليه . لكنه لم يعد ، حقق كلمته التى قالها لها فى اليوم الأخير . « كل اللى فات كوم . والمرة دى كوم » .

انها تعرفه .. عنيد . عنيد حين يخطئ الناس فى حقه . وهى أخطأت فى حقه فعلا . رفضت أن تسنده امام الرجال الذين اتفق معهم على السفر ، وخذلته ، فلم تسمح له بالبيع والشراء مثلما فعلوا .

كان سيكتب لها نصف الأرض باسمها . وكانت سترحل معه فى أرض الله الواسعة . ينشدان حياة حلوة ، وتشاركه أيام العمل والغربة .. يا خسارة .

والتفت بعينيها ناحية امها التى تفت فى نومها :  
هى السبب .. أمى هى السبب .

ثم تنهدت وأحست بالدموع تطفز الى عينيها ، وعادت أعماقها تحدثها من جديد .

لا .. أنا السبب .. أنا الخائبة .. عودتها الا أعمل أى شئ إلا بأمرها .. أخواتى أنفسهن لا يستشرنها فى أى شئ .. وكلمة أزواجهن هى النافذة ، كان المفروض أن أتصرف لنفسى .. لقد قال لى حسين فى ذلك اليوم أننى أولى الناس بتشجيعه فى هذا المشروع .. صحيح .. كنت أنا أولى الناس بذلك .

كانت رضيعتها قد شبعت وعادت الى النعاس ، فأرقدتها فى سكون ، وعادت بخطوات خفيفة الى جلستها خلف الباب .. وكانت السماء لا تزال تمطر بشدة ، وراحت تفرغ حملتها دون حساب .. وفجأة ، انقطع المطر مرة واحدة .. ولم يعد هناك أى صوت يتخلل سكون القرية الشامل العريض .

ولاح لها من خلف مئذنة الجامع المدببة العالية ، بعض شعاعات خفيفة حمراء ترسلها الشمس من بين الغمام .. ورات الأرض الممتدة أمام الباب قد تحولت الى بحيرة تنعكس عليها ظلال الأشجار وقطع السحاب .. وانطلقت في الفضاء بعض الغربان والحمام والعصافير وبدأ الناس يعودون الى حركتهم ويخوضون ببهائمهم في المياه .

واحست بروحها تفيض بالحزن ، وجاءت تنهد ، فخرجت التنهدة من صدرها شهقة ، نهضت من جلستها لتبحث عن أى عمل لها داخل البيت لتفرق أحزانها فيه .. لكنها لم تكد تتحرك من جانب الباب ، حتى لمحت امرأة شابة ترفع ذيل جلبابها وتنقل خطواتها في الأرض الموحلة في حذر .. علت دقات قلبها لمرآها ، ودون أن تمى ما تفعل ، وجدت نفسها تنادى عليها .

كانت هذه المرأة ، هي نفيسة التي هاجرت مع زوجها نوار ، لتعيش معه هناك ، في الأرض الجديدة .

وتوقفت نفيسة على ندائها ، والتفتت في حركة سريعة الى مصدر الصوت ، وحين رأتها واقفة بجوار الباب ، مالت نحوها بخطواتها وسارت اليها .. ولم تكد تقترب منها ، حتى بادرتها أمينة في لهفة :

— حمد الله على السلامة يا نفيسة .. انشا الله تكونى بخير .

لكن نفيسة لم ترد على ترحيبها على الفور ، انما قالت لها وهى تتأمل وجهها في شبه استغراب .

— خير ايه يا أمينة .. ؟! .. انت عاملة في نفسك كده ليه يا أختى .. انت با عيني بقيتى في ربيع حالك .

ثم مصمصت بشفتيها في تحسر وعادت تقول :

— وحسين رآخر يا ضنايا .. حالته بقت تصعب على  
الكافر .. يا أمينة فوقى لنفسك .. امك مش حتنفكك .. وان  
نفعتك النهارده ، مش حتعيش لك العمر كله .

وسألته أمينة بصوت ضعيف مسكين : وكأنها تتلمس  
لنفسها خلاصا من أحزانها :

— والأرض يا نفيسة .. ؟

— أرض ايه ونيلة ايه يا أختى .. هو علشان عندك حنة  
أرض ، تقومى تتبغدى على جوزك .. ؟ ياريت كان عندى مال  
قارون وأنا أعطيه لجوزى .. هو احنا بنلعب هناك .. ؟ ..  
احنا بنشتغل ليل ونهار .. والحكومة بتشق لنا المصارف :  
والأشياء حتبقى معدن .. لى نفسك يا حبيبتى ، وخدى اولادك ،  
وروحى لجوزك أحسن لك .. وكتر الكلام مالوش فايده .

واستأذنت منها نفيسة ، ورفعت ذيل جلبابها مرة اخرى .  
وراحت تخوض فى المياه بحدري .

واحسنت أمينة بطنين يلف ويدور فى رأسها .. ثم بخف  
هذا الطنين شيئا فشيئا ، ليحل محله صفاء ينتشر فى نفسها  
رويدا رويدا .. ولمحت وهى لا تزال واقفة مكانها بجوار الباب ،  
دخانا يتصاعد من بعض البيوت ، فعرفت أن النساء والرجال فى  
القرية بدأوا يشعلون الأفران ليناموا عليها فى الدفء .. الرجال  
والنساء .. نعم .. كل رجل معه امرأته ، الا هى .. والا هو .

ووجدت نفسها تعتزم شيئا ، لم تدر كيف انبثق فى رأسها  
وتحدد هكذا فجأة ، لكنها صممت على تنفيذه حتى ولو كان  
فيه موتها .. ولم تكد تحس بأمها تتحرك فى رقدتها تحت اللحاف ،  
حتى ذهبت اليها ووقفت بجوارها ، ثم قالت لها وكأنها تجرب  
الحزم والجفاف لأول مرة فى حياتها .

— أمه .

وردت عليها أمها والنوم لا يزال في عينيها .

— عايزة حاجة يا أمينة . ؟

— أنا راجعة لبيتى يا أمه .

وعادت أمها تقول في شبه استغراب وكأنها تحلم .

— بيتك .. ؟ .. ما أنت في بيتك يا بنتى ..

— قصدى بيت جوزى .. بيت حسين .

انتفضت الأم من رقبتها ، وراحت تنظر إليها في استنكار ،

ثم قالت لها وقد بدت المفاجأة قد غلبتها على أمرها .

— والأرض .. ؟ .. وأرضك .. ؟

— الأرض الأرض .. ما الأرض بقى لها أكثر من سنة

معايا .. شفت منها إيه الا اللهم والغب وكلام الناس على حظى

المائل .

ودخل عليهما في تلك اللحظة صبيها البكر ، نحيفا نحىلا

يرتعش ، وقدماه الحافيتان موحلتان ، وجلبابه مبتل وصدره

مكشوف وبارز العظام .. واهتزت أمينة لمشهد ولدها ، فتوجهت

لأمها بعينيها الباكتين وقالت وهى تكاد تصرخ وتمزق نفسها :

— عاجبك حال الولد كده .. ؟ .. حيقعد طول العمر من غير

أب ، زى اليتامى .

وانتشرت الدموع من عينيها ، وراحت تجهش بالبكاء :

— يا بيت ما كان عندى ولا قيراط أرض ، كنت استريح

من الغلب ده كله .

وتراعى للألم أنها أمام أنسنة أخرى غير أمينة ، تلك التى

عرفتها طول العمر صامته صابرة ، وأحست في الوقت نفسه أن  
صبر أمينة قد نفذ ، وأن انفجارا كبيرا ومروعا قد يعقب صمتها  
الطويل هذا .

فعاادت تقول لها وحدة كلماتها تخف وتلين :

— ايه اللي جراك يا بنتى . هو أنا قصدى ايه غير  
مصلحتك ، معنى أنا فرحانة بقعدتك جنبى .

وردت عليها أمينة وهى لاتزال تنتحب :

— مصلحتى لازم أعرفها بنفسى من النهارده ، والوكيل  
ربنا .

ثم التفتت الى صبيها الذى راحت الدموع تتساقط من  
عينيه وهو يراها تبكى .

— واد يا مصطفى . روح نادى على خالتك نفيسة مرات  
عمك نوار . خلاص ، بكره حنسا فر معاها ، ونروح كلنا لأبوك .  
ومسح الصبى دموعه ، وخرج يجرى فى الطرقات الموحلة  
فرحاً .

فى تلك اللحظة فقط ، أدركت الأم أنها أمام قرار حاسم  
لا سبيل الى الوقوف أمامه ، وتمنت لو تصرخ فى وجه الدنيا  
بأعلى صوتها ، لكنها أحست أن صرختها ستضيع حتما فى الفراغ،  
فأطرقت برأسها ، وقالت والدموع تنساب من عينيها هى الأخرى:  
— خلاص يا بنتى .. عوضى على الله .. اعملى اللي انت  
عايزاه ، وذنبك على جنبك .

لم ترد أمينة بكلمة .. كانت فى أشد الحاجة الى أن تسكت  
وتستريح . فاستدارت الى رضيعتها النائمة على الكنبه

لترضعها وتشغل نفسها معها . وحين مالت عليها لتحملها بين ذراعيها ، وجدت فيها الصغير يتسم ابتسامة حلوة رغم أن عينيها كانتا مغلقتين بالنوم ، وتذكرت ما يقوله الناس أن الأطفال يضحكون في نومهم حين تزورهم الملائكة في الأحلام . وامتلاً قلبها بسعادة لم تحس بها منذ زمن طويل . رفعت طفلتها المبتسمة الى صدرها وراحت تهددها وتوقظها على مهل . ودون أن تدري وجدت خطواتها تنقلها الى جوار الباب ، فاستندت عليه بظهرها ، وأخرجت ثديها لترضع طفلتها ، وراحت ترقب الطريق وتنتظر عودة ولدها ومعه نفيسة .

كان الطريق أمامها في تلك اللحظة موحلاً ، والمسير فيه صعباً ، ولكنها حين جالت ببصرها في كل ما حولها ، أحسست براحة كبرى تغمر نفسها . فالهواء كان قد أصبح دافئاً وطرياً ، والسماء قد جفت أمطارها وصفت . ولم يعد في الفضاء سوى سحببات صغيرة بيضاء تسبح على مهل ، وبعض طيور ترفرف بأجنحتها في الجو لتبحث عن قوتها ، وتبنى أعشاشها من جديد .

« ١٩٥٨ »

## الفانوس

رغم أن قريتنا الواقعة أسفل الجسر صغيرة جدا ، الى حد  
أن عم عطية الأعمى يحفظ حوارها وازقتها بالشبر ويتجول فيها  
دون أن يقوده انسان ، الا أنها في ظلمة الليل ، تبدو وكأنها عين  
فجرن واسع منطفئ يحوى في جوفه الفموض والمخاوف والأسرار .  
كان الليل ينزل علينا دائما بظلمته الكثيفة الحالكة السواد ،  
فيشير في قلوبنا نحن الأولاد الصغار ميلا للحزن والوجوم .  
كان نهارنا كله عناء . . نسرح بأقدامنا الحافية وراء الحمير ،  
ونسقى البهائم من النيل ، ونحصد القمح او نزرع البرسيم . .  
ثم تهبط الشمس ، وتصفّر السماء ، فنمسح عرقنا ، ونعود الى  
بيوتنا والرغبة تملأنا لأن ننطلق في فضاء قريتنا ونلهو ونلعب  
وننسى متاعب النهار .

غير أن الصفرة كانت لا تلبث أن تضيع من السماء ، ويحل  
مظنها سواد ثقيل ، وتصبح القرية كلها في لون الكحل ، وتبدأ  
الضفادع تنق نقيقا رتيبا مستوحشا ، والرياح تندفع من أعلى  
الجسر خلال الطرقات المعتمة فتترنج معها أوراق القش الجافة  
المرمية على الأرض محدثة حفيفا مخيفا ترتعد له قلوبنا .

كان أكثر ما يمكن أن نفعله في تلك الليالي المظلمة الواجمة ،  
أن نستلهم الشجاعة من أعماقنا ، ونخرج من بيوتنا على أطراف  
أصابعنا ، ونلتقي جميعا - كما تعودنا - على بلاط العمدة المملوء  
بالرطوبة ، ونروح نتهامس ونحكي الحوادث .

ولكن غالبا ما كانت جلساتنا هذه تنفض فجأة قبل  
الأوان .

فرغم أن السماء تكون من فوقنا واسعة وصافية ، والنجوم  
فيها بعيدة وكثيرة أكثر من دعوات أمهاتنا .. والنسيم من حولنا  
طرى وفيه رائحة نوار البرسيم وأزهار الفول ، إلا أن الظلمة  
التي تلبغ حتى ملامح وجوهنا ، كانت تنسينا كل ذلك ، وتملأ  
نفوسنا برهبة غامضة ، وتشدنا بشكل لا يقاوم ، الى نوع معين  
من الحوادث .

فشبى الأسمر الصغير ، الذي لا تزال بأسفل ذقنه آثار  
رفسة حمار هائج ، يخلق في الظلمة بعينه المستديرتين الدقيقتين ،  
ويميل علينا هامسا وكأنه يكلم نفسه .. « يقولوا يا أولاد ،  
إن بيت الحاجة آمنة مسكون .. والعفاريث كل ليلة تطلع منه  
بالليل على هيئة أرانب .. وفي مرة يا أولاد بعد صلاة العشا ،  
طلعت الأرانب لعن الشيخ جابر قرب الجامع ، وفضلت تجرى  
وتنط من حواليه ، وتدخل من بين رجله ، لكن علشان كان حافظ  
كلام ربنا .. ماجرالوش أى حاجة » .

كنا لا تكاد نسمع هذا الكلام ، ونمضي في تصوره ، حتى  
نحس بأنفاسنا تجرى ، وشعر رؤوسنا يقف ، وملتصق أكثر  
فأكثر ببعضنا ، لكن سعداوى النحيل الذي يحلو له دائما أن  
يعرى ساقيه الهزيلتين كعودى الحطب ، ويلصقهما بالبلاط ليستمتع  
برطوبته ، لا يلبث أن يلتقط الحديث من شلبي ويكمله ويحكي  
لنا ، يحكى للمرة العاشرة حكاية عم رفاعى الذي قتل عند المصريف



القبلى .. ان روح القتيل تطلع فى الليل ، على شكل قسيس طويل له عيون حمراء كشقوق النار ، وذقن طويلة بيضاء ، ويركب حمارا يروح به ويجىء على طول الطريق الزراعى ، حتى قبل اذان الفجر بقليل .

وقد طلع العفريت بحماره مرة لعم عبد العال أبو الشبراوى وكان راجعا من البندر بعد العشاء ، فتسمر الرجل من الخوف ، ولم يستطع ان يتقدم خطوة واحدة .. رأى بعينه الحمار يعلو ويعلو ، ورجلى القسيس تطولان وتطولان ، وذقنه تمتد وتمتد حتى وصلت مترا .. صرخ الرجل من الرعب وجاء يجرى ، لكن العفريت لمسه بعصاه ، فوقع على الأرض ، وأصيب بالشلل من ذلك اليوم .. مسكين عم أبو الشبراوى .

لم تكن أعصابنا تحتل الاستمرار فى مثل هذه الحكايات ، وكانت أبسط حركة تحدث بجوارنا تزعجنا ، وتجسم من خيالنا الرهيب .. فقد يئن فرع شجرة من هبة ريح ، أو نسمع وقع حوافر حمار عائد بصاحبه من البندر ، فننتفض فى فزع ، ونطلق سيقاننا للريح ، ويقسم كل واحد منا فى نفسه ، الا يخرج من داره بعد ذلك فى الظلمة مهما حدث .

ولكن حدث فى قريتنا بعد ذلك شيء غريب ، اهتزت له نفوسنا بالفرح ، ورحنا نتأمله غير مصدقين . فقد جاءت علينا ليلة فوجئنا فيها ببلدتنا كلها تموج بالنور ، مع أن السماء لم يكن فيها قمر

فوجئنا فى تلك الليلة ، بفوانيس كثيرة ، مثبتة فى الحوائط على رؤوس الشوارع والحوارى ، وفى داخل كل فانوس مصباح مشتعل يرسل الى الأرض والقضاء ضوءا هادئا حلوا بيدد الظلام . ولما سألنا ، قالوا لنا أن جميعة الاصلاح الريفى ، التى تكونت منذ شهرين ، قد أخذت اعانة من الحكومة ، واشترت هذه

الفوانيس . وان هذا شيء قليل من كثير ستقدمه الجمعية للأهالي :  
فهى ستردم البرك والمستنقعات ، وتنشئ فوقها ملعبا كبيرا لكرة  
القدم ، يلعب فيه كل اولاد القرية بالمجان .

فرحنا بالفوانيس فرحة الدنيا ، وبدت قريتنا فى نورها  
اجمل من كل بلاد البندر ، واخذت حياة جديدة تدب فيها ..  
الرجال تركوا بيوتهم الضيقة المظلمة ، وتجمعوا فى حلقات  
على المصاطب وفى الاجران ، والنساء طلعن الى الأسطح وافترشن  
القش ورحن بشرنن ويضحكن .. اما نحن الصغار ، فقد أخذنا  
ذبولنا فى إسناننا ، وانطلقنا مع ريح الليل نجرى فى نور  
الفوانيس .. نمرح ونصيح .

كانت لبالى النور هذه اجمل من اى حلم يمكن أن يحلمه  
ولد منا وهو نائم بجوار النهر فى ظل شجرة توت خصرأ .

كنا ننتظر بعضنا اول الليل فى ضوء أحد الفوانيس ، ونظل  
لفترة الانتظار جالسين القرفصاء ، نتطلع الى الفانوس وهو يسكب  
الضوء ويبدد الظلام من حولنا .. لم يكن هناك من شيء لا نراه ،  
حتى الحصى واشواك السنط وقطع الزجاج القذيمة المتناثرة ،  
كنا نلمحها تلمع على الأرض .. كل شيء كنا نراه بوضوح ..  
البيوت والدواوير ، وشجرة أم الشعور ، والتلال .. وكل  
شيء .. كل شيء كنا نراه .

كان الفانوس يبدو فى عيوننا جميلا .. كنا نظل نتأمل  
زجاجه ، ونتأمل المصباح الذى فى داخله ، والهلال النحاسى  
الأخضر الذى يعلوه ، نتأمل فى صمت وسكون وكأننا نصلى ..  
وحين تكتمل جماعتنا ، نهض من جُستنا ، ونقسم أنفسنا ..  
عساكر وحرامية .. ثم نندفع فى مسالك القرية المضيئة زاعقين  
مهللين ، ونظل نجرى ونجرى ، ونضحك ونصيح ، حتى يهدنا  
التعب ، ونمسح العرق من على جبيننا بأطراف جلايبنا ، ونعود

الى بيوتنا مهترزين بالسعادة ، وكأنما اخذنا من لبتنا : ثمنا عظيما لكل العناء الذى بذلناه بالنهار فى الحقول وعلى الشطآن والجسور .

لكن ليالى الهناء هذه لم تدم طويلا ، فقد لاحظنا بعد شهور قليلة ، أن الفوانيس المضيئة ، بدأت تقل شيئا فشيئا ، وبعض الشوارع والحوارى غرقت فى الظلمة من جديد . . وأحسنا بالقلق يداخل نفوسنا ، ولكن شلى قال وهو يحك ذقنه الجروحة ليطمئنا ، أن حنين فراش الجمعية ، لابد أنه ينسى اشعال المصابيح .

غمرتنا كآبة شديدة . . وبدأنا بعد ذلك ، نتسلل من دورنا فى الظلمة على أطراف أصابعنا ، متجهين نحو الفانوس الوحيد الذى بقى لنا فى البلدة كلها ، ولا تكاد نبلغ شجرة السنط التى تميل عليه بعض فروعها حتى نروح ننظر اليه فى رجاء ، وندعو من قلوبنا الا تنطفئ شعلته أبدا ثم نجلس فى ضوءه ، ونظل نحلق فى الظلمة المحيطة بنا ، فنخاف من الجرى واللعب ، ونكتمش فى جلستنا أكثر وأكثر . . ونكتفى من السهرة بالكلام والحواديت .

ودون أن ندري ، عاد شلى الى حكاياته القديمة . . فقال أن الأرناب بدأت تطلع من بيت الحاجة آمنة ، من يوم إن انطفأ أول فانوس فى البلد . . أما سعداوى النحيل ، فقال هامسا أن القسيس الطويل وحماره ، كانا قد خافا من نور الفوانيس وهجر الطريق الزراعى ، ولكنهما سيعودان بالتأكد ، لو انطفأ هذا المصباح الأخير .

وارتعشنا جميعا لذكر الأرناب والعفاريت بعد أن كنا نسيناها زمنا وأحسنا بدموع الخوف والحزن تبلل قلوبنا ، ورحنا نتطلع الى الفانوس وندعو فى سرنا . . « يارب . . يارب . . ابق لنا هذا الفانوس . . فانوس واحد ليس كثير على بلدنا » .

وحين ذهبنا اليه في الليلة التالية ، وجدناه لا يزال مضيئا ،  
ففرحنا كثيرا ، أكثر من أى ليلة أخرى ، وجلسنا على الأرض  
متربعين في دائرة النور ، ورحنا نحكى ونحدث .. ولكن سعداوى  
قطع علينا الحديث فجأة وقال وهو يشير بيده الى الفانوس .

« شافيين يا أولاد .. الفانوس بينطفى » .

ارتفعت عيوننا جميعا الى الفانوس .. كانت شعلته قد  
شحبت عن اول الليل ، وبانت عليها علامات الذبول .. أصابنا  
خوف فظيع ، خوف لم نحس بقطاعته من قبل طيلة عمرنا ..  
وانتفضنا جميعا واقفين ، ممسكين من الخوف بجلايب بعضنا .

كانت البلدة كلها في تلك اللحظة صامئة واجمة .. الرجال  
لم يخرجوا الى المصاطب والأجران .. والنساء لم يطلعن الى  
السطوح .. والسكون كان منشورا وعميقا يطن في آذاننا ،  
والجنادب يعلو صريرها .. وعواء كلب بعيد يبدو أنه غريب عن  
قريتنا يصل حزيننا الى أسماعنا .. ظللنا واقفين ننظر الى  
الفانوس الذى يموت منه النور لحظة بعد لحظة وكأننا لا نستطيع  
حراكا .. وخيل إلينا ونحن في عالم الظلمة والسكون هذا ،  
أنه لم يصبح في الوجود كله أحد غيرنا .. ولكننا أحسنا فجأة  
بوقع أقدام ثقيلة تقترب منا آتية من ناحية البندر فانتفضنا في  
فزع ، وصرخ شلبي وصاح .. « المفاريت رجعت يا أولاد » ..  
صرخنا جميعا صرخة مزقت سكون الليل ، وأطلقنا سيقاننا للريح  
عائدين الى بيوتنا .

وكانت هى الأخرى غارقة في الظلام .

« ١٩٥٨ »

## النهاية السعيدة

وصلت والدنيا ليل .. وقفت أتأمل في الظلمة مشهد  
 قرىتي .. لم أكن المح لها دليلا أو علامة ، فقط رائحة الزرع  
 النابت في الحقول ، وشجرة السنط العجوز المائلة عند مدخلها ،  
 كذلك أشباح بيوتها الواطئة الصغيرة الراقدة في بطن الجسر .  
 كانت الظلمة حالكة ، والنجوم على صفحة السماء تشرق  
 متهافته من بعيد ، لم يكن هناك صوت ولا حركة .. لا ساقية  
 تدور ، ولا فلاح يستحث بهيمة .. لا كلب ينبح ، ولا ذئبة تعوى ..  
 كل ما حولي صمت مجسم عميق .. ومع هذا فقد أحسست  
 بروحي تنتعش وترفرف وتكاد تطير ، استنشقت نفسا كبيرا  
 وعميقا ملأت به كل رئتي ، وشرعت أهبط السكة المؤدية  
 الى بيتي .

لم يكن بيتي بعيدا .. كنت أحفظ الطريق اليه عن ظهر  
 قلب ، أحفظه بالشبر .. وأعرف أن المسافة بين مدخل البلد  
 وبينه بها ثلاثة مطبات متباعدة يمكن أن يتعثر فيها الغريب ،  
 وأعرف أيضا أن هذا الطريق الضيق يصعد قليلا عند شجرة

النبق الكبيرة التي تظلل مقام سيدى حسن البادى ، ثم ينحدر الطريق فجأة مرة أخرى ثم يستوى ويمتد حتى ينتهى بوسعاية رحيبة يقوم امامها بيتنا الكبير القديم .

سرت على مهل متجها الى البيت ، كنت سعيدا لأنى سأرى أمى بعد دقائق قليلة . . سأدق الباب الخشبي الكبير دقتين خفيفتين ، فتصحو أمى فى الحال من نومها ، وتخرج رأسها الملفوف بطرحتها السوداء من تحت اللحاف ، ثم تقول فى صوت تختلط فيه البقطة بالنام « مين . ؟ » فأرد عليها بصوت هادىء واضح « انا يا امه » . فتنزل من على السرير بقامتها التى أحنأها الزمن ثم ترفع المزلاج وتفتح الباب وتتطلع فى وجهى فى لهفة . « مين . . ابنى عبده حبيبى » وتأخذنى بالأحضان .

تفتح قلبى للقاء . . فأسرعت من خطواتى ، سأراها ، وأكل من يدها أى شىء ، وأجلس بجانبها على الكنبه لأسمع منها بعض اخبار قريننا ، ثم أتركها مستأذنا كالعادة وأخرج الى شوارع بلدتى وحواريها ، ربما تكون قهوة هنا او هناك ساهرة أجلس فيها مع بعض الفلاحين . نشرب الشاى ونتحدث فى ظلمة الليل وسكونه .

لم اكد اجتاز الوسعاية واقترب من باب البيت ، حتى هبت فجأة من فوق الجسر القريب ريح شديدة اكتسحت كل ما على الأرض من تراب وأوراق هشة جافة . رفعت يدى لأحمى عيني من ذرات التراب ، غير أن صوتا موحشا وغريبا دوى فى أذنى فجأة ومزق سكون الليل . . كان الصوت فى وحشته وصريه يشبه اصطفاق نافذة زجاجية قفلت بفعل الريح حتى أوشكت أن تنهشم وتتهاوى . . اعترتنى رجفة ، وتوقفت . رحت أنصت وأجبل بصرى فى جدار بيتى وجدران البيوت الملاصقة اتمعن نوافذها ، لكنى كنت أعلم أن النوافذ هنا ليست من زجاج . .

كلها مصنوعة من خشب الجميز أو السنط أو التوت الفليظ ..  
فمن أين انبعث هذا الصوت الزجاجي الخشن الكئيب . ؟ !  
لكن الريح هدأت ، وهمدت الأوراق الجافة واستكانت على  
الأرض ، ولم أعد أسمع الا همس السكون وهمس نسيمات توشوش  
لبعض أشجار عارية قريبة .. لابد أنه الخوف الذى جعلنى أتناسى  
أمر هذا الصوت الغريب وتخيلته وهما .. ولم أكد أنقل قدمى  
لأقطع الخطوات الباقية على باب بيتى ، حتى هبت الريح مرة  
أخرى باردة وعنيفة ، فثار الغبار ورقصت أوراق القش الجافة  
على الأرض وترنحت ، ثم دوى الصوت الموحش مرة أخرى ،  
وروعتنى ما فيه من كآبة وتشاؤم وصرير . تسمرت فى مكانى من  
الخوف وعدت أنصت من جديد .. أحسست شيئاً ما مرتفعاً  
عنى بعض الشيء فى الفضاء يروح ويجيء فى الظلام .. يهتز  
ويتذبذب مع هواء الليل محدثاً صريراً كايها ومخيفاً .. ثم توقف  
الصرير ، وسمعت صوتاً غامضاً يشق سكون الليل ، ويقول لى  
بلهجة ترحيب :

- مساء الخير يا أستاذ .

تلقت حولى فى جزع وقلت بصوت خفيض ، محاولاً  
مداواة خوفى :

- مساء النور .. من يتكلم . ؟ !

أجاب الصوت فى نبرة توحى بأن صاحبها يتسم فى سره  
ابتسامة سخرية خفيفة :

- اعتقد فعلاً أن المساء هنا نور ؟ ! على كل حال .. أنه  
نورك أنت .. نورتنا يا أستاذ .

قلت وأنا أمسك نفسى عن الصياح فزعا .. « من أنت أولاً ..  
ومن أين تتكلم .. ؟ ! » .. قال على الفور وكأنه أشفق على

حالى .. « أولا يجب أن تطمئن .. أنا صديق قديم .. ولكن أرجوك .. اخفض من صوتك ، والا لو رأك أحد وانت تتكلم معي ، فماذا يقول عنك . ؟ . مجنون معاذ الله ؟ ! انت تعلم أنك انسان محترم في بلدنا هذه ، وعافل ، ولايمكن أن تتكلم مع شيء لا ينطق في عرف الناس » .

كان الخوف يمتص أنفاسي .. أحسست أني وقعت في قبضة أحد العفاريث التي كنا نحكي عنها الحواديت ونحن اطفال .. يا للمصيبة .. لم تطلع لي وأنا صغير ، فطلعت لي وأنا كبير .. الجحيم لساني ، وشلت خطواتي ، وعاد الصوت يقول وكأنه يعاتبني :

— لماذا لزمت الصمت .. ؟ ! لقد لاحظت هذه الليلة وأنت قادم ، كنت فرحان مبتهجا .. فلماذا اكتأبت هكذا مرة واحدة ، وبدأ على وجهك كل هذا الخوف .. إتحاف مني .. ؟ ! قلت في ضراعة وتوسل : اعمل معروفاً .. قل لي من أنت .

قال بصوت ودود .. « الا تراني فوق رأسك معلقا على جدار بيتك ، أنا .. سأقول لك من أنا .. بشرط الا تجرى .. أتوسل اليك ! لا تهرب مني .. أنا .. أنا الفانوس » .

اصابني رعب قاتل .. الفانوس . ؟ ! فانوس يتكلم . ؟ ! خيل لي ان ومضة خاطفة مرت بذهني ، وأخذت معها عقلي .. هممت أن أجري مذهولا مفزوعا ، لكنه عاجلني وقال بنفس لهجته المطمئنة الودودة :

— كنت أحسب أنك ستفرح بلقائي .. أنتساني هكذا بسرعة .. ؟ ! وبمجرد أن انتهيت من كتابة قصتك عنى .. ؟ ! قصة عنه .. ؟ ! أحسست براسي يدور ويلوخ . أجل ..



انا كتبت قصة عن قريتي ذات مرة .. وسميتها بالفانوس ..  
ولكن .. ولكن ..

قال مواصلا كلامه « ها انت ترانى مطفاً .. وبابى الصغير  
مفتوح تسقى فيه ريح الجسر ، ويكاد زجاجى يتهشم فينتهى  
بذلك كل ما بقى لى .. لاشك ان جزءا من المسؤولية يقع  
عليك » .

قلت وانا اشفق « مسؤولية .. ؟ ! .. تريد ان تشعنى انك  
تتكلم مثلمنا يتكلم الناس .. ؟ . لايمكن .. لايمكن .. فانوس  
يتكلم .. هل تعتقد انه يمكننى ان اصدق ذلك » .

قال باستنكار شديد .. « ولم لا . ؟ . كنت اعتقد ان  
الفنان يمكنه ان يصدق ما يخاف الناس العاديون ان يصدقوه ..  
نعم .. انا الذى اكلمك .. وليست هذه اول مرة اكلمك فيها ..  
ياما كلمتك طويلا من قبل وانت تكتب قصة الفانوس .. الم  
تكن تخرج فى الليل من بيتك هذا لالذا بالصمت وبالوحدة ثم  
تفترش الأرض وتجلس تحتى لياالى طويلة ، كنت تناجىنى فيها ،  
وتحدثنى ، ولا تتعب من التطلع الى .. فلماذا تنكر على الكلام  
معك هذه الليلة .. ؟ !

قلت مرتعبدا .. أو شك ان استغيث .. « ولكن ..  
ولكن » .

قال بلهجة لطيفة ورقيقة .. « ولكن ماذا ؟ . انزع من قلبك  
هذا الخوف الذى يبدو عليك .. الخوف تماما مثل الجهل ،  
يعمى القلب عن الحقيقة ، الا توافقنى على هذا ، باعتبارك  
كاتبا .. فنانا .. ؟ !

قلت وانا ازدرد أنفاسى .. « نعم .. ولكن .. ولكن » .

قال مقاطعا بلهجة حازمة ومهذبة « ولكن يجب أن تجيب على هذا السؤال : لماذا غيرت نهايتى .. أقصد نهاية قصتك « الفانوس » .. كنت أنهيتها بشكل ، ثم عدت فأعطيته نهاية أخرى .. هذا هو ما أريد أن أناقشك فيه .. أنه تغيير لم يعجبني ولم يعجب اخوتي الفوانيس .. ان ذلك يؤثر في مصيرنا .. وقد قررنا أن نبلغك هذا الراى فى أقرب وقت .. اظنك اقتنعت الآن بحقى فى النقاش معك » .

قلت وأنا اطلع اليه مستسلما « نعم .. لك الحق .. تفضل .. تكلم » .

قال مبتهجا « عظيم .. سنصل اذن بالتاكيد الى نتيجة .. اما ان تقنعنى واما ان اقنعك ، وبدون شهود علينا . ! .. هل تذكر النهاية الأولى لقصتنا هذه . ؟ ! .. انا اذكرها .. انا اعيدها عليك .. كانت هكذا .. » .

وأحسست بصوته يرق فى هدوء الليل وينساب فى أذنى كالحفيف وهو يقول .. « .. انطقا آخر فانوس فى قريتنا ، غرقت البيوت والأشجار فى بحر من الظلام ، طلعت الأشباح من جديد للصغار وهم يلعبون .. صرخوا وطاروا فى فزع الى بيوتهم .. وكانت هى الأخرى غارقة فى الظلام .. !! .. ألم تكن نهايتها الأولى هكذا .. ؟ ! »

كنت مبهورا وأنا أصغى اليه .. كان صوته يمس روحي مساحونا وعنيفا فى الوقت نفسه ، ونبرة حزن جميلة وجلية تشيع فى كلماته .. قلت مستعلبا أن أعطيه كل نفسى :

— تماما .. تماما .. بل وأجمل مما أنهيتها أنا ..

قال معترضا .. « لا .. لا تكن متواضعا أرجوك .. هكذا

انهيتها أنت .. ونحن لا نريد الليلة الا الحقيقة كما اتفقنا ..  
فلماذا عدت وغيرت هذه النهاية ؟ ! »

قلت متحمسا .. « لقد سئلت نفس السؤال كثيرا من  
قبل .. »

قال متهلا .. « من غيرى .. ؟ ! .. اذن هذا يؤيد صحة  
نظرتنا .. ألم يعاتبك أحد على هذا التغيير .. ؟ ! »

قلت على الفور .. « نعم .. ومن بينهم أستاذلى ، وصديق  
فى نفس الوقت ، ونشر عتابه فى احدى الصفحات الأدبية  
الشهيرة ، ولكن صدقتى .. كانت حيرتى تزداد يوما بعد يوم . »

قال وقد انقلب صوته فجأة الى تحذير وتنبه .. « أخفض  
صوتك .. أرى من مكانى المرتفع شبحا قادما .. آه .. انه  
الخفير .. يقترب منا .. يدب بعصاه حاملا بندقته القديمة  
الصدئة على كتفه .. لو سمعك تتحدث الى فسيتمك أو يتم  
نفسه بالجنون .. نعم .. الخوف قد يورث الانسان الجنون ..  
ما علينا .. قف صامتا لحظة .. التصق بالجدار ولا تتحرك ..  
وحين يمضى من أمامنا نعاود الحديث .. لا تنس أين وقف بنا  
الحديث » .

التصقت بجدار بيتى ، قلبى يدق وأنفاسى تتتابع .. وبعد  
لحظات ، تناهى الى سمعى أقدام الخفير تقترب وتقترب .. ثم  
تعلو وتعلو .. وحين وازانى تنحنح بصوت أرعلى ، ثم مضى  
يدب فى السكة على مهل حتى اختفى شبحه ، وتلاشى وقع  
أقدامه .. حينذاك عاودنى صوت الفانوس .

خلاص زاح .. ولو كان هذا الخفير واسع الصدر  
بعض الشيء ، لناديته ليكون شاهدا علينا فى الكلام .. لكنى  
لو فعلت ، فسيصرخ بالتأكيد ، ويرمىنى بشمروخه ويحطمنى ،

مع أن الرياح لم تحطمني بعد .. لكنك غيره بالطبع ..  
أنت فنان .. تبغى الحقيقة حتى ولو كانت قاسية على  
نفسك .. نعود من حيث وقفنا في الكلام .. آه .. كنت تحدثني  
عن عتاب صديقك وإستاذك هذا على تغييرك لنهاية القصة ..  
صف لى هذا الصديق .. انه صديقنا أيضا نحن الفوانيس ..  
صفه لى فى كلمات قليلة وبسيطة .

قلت وأنا أتنهد .. « شاب حين يضحك .. وحكيم حين  
يتكلم » .

قال .. « اعرف هذا النوع من الناس .. نوع يتقبل كل  
الأشياء بحب .. لا يهمه أن تضحكه الحقيقة أو تبكيه .. قل لى  
وحياتك .. ما هى وجهة نظره فى تغييرك لنهاية الفانوس .. اننى  
شغوف لسماعها » .

قلت مبتسما .. « سأقولها لك بعد قليل .. أعدك بهذا ..  
لكنى أريد أن اعرف وجهة نظرك أنت أولا » .

قال .. « عظيم .. لماذا عدت فأضأت الفانوس مرة أخرى،  
بعد أن كنت قد تركته فى نهاية القصة مطفأ .. ؟ ! .. ما هدفك  
من هذا التغير .. ؟ ! »

قلت .. « أن أترك القارئ فى نهاية القصة والقرية أمامه  
مظلمة وحزينة ، هذه صورة تثير الانقباض والتشاؤم والحزن » .

قال .. « ولماذا تقول أنها تثير الانقباض والتشاؤم .. الخ  
من هذه الكلمات المحفوظة .. !! لماذا لا تقول أنها تثير عطف  
القارئ وشجنه ، فتدفعه لأن يعمل شيئا من جانبه لى تضاء  
القرية والفوانيس من جديد .. ؟ ! »

قلت فى حماس .. « وهل ما فعلته أنا شيء ضار .. ؟ ! ..

بالعكس .. أضأت الفانوس الأخير من جديد ، وبذلك أسبح لى دور فى القصة » .

قال فى حماس طفى على حماسى .. « هذه على ما يبدو مشكلتك فى الفن .. دور الكاتب فى القصة .. ؟ ! من رأى أن أعظم دور للكاتب ، هو أن يخلق المقارئ دورا فى الحياة .. وفى النهاية الثانية لقصتك هذه .. أضأت الفانوس الأخير بعد أن كان مطفأ .. وهذا جميل .. لكنك أضأته بنقطة حبر على الورق .. أنت لم تضئه فى الشوارع والحوارى والبيوت .. أنت بذلك أرحت أعصاب الناس .. لم تلهب أرواحهم بمأساة قصتك .. أطفأت نار حماسهم وشجنهم ، فتركوا القصة وهم مستريحون ومطمئنون على قريتهم .. وهذا ما لم أكن انتظره منك .. كنت أحسب أنك فنان ثابت القلب .. بعيد النظرة .. لا يروعك الحزن مهما كان » .

قلت مستفهما .. « يعنى .. ؟ ! »

قال : « أن تترك الناس وهم فى لوعة علينا وعلى قريتنا المظلمة .. وبدلا من أن تقوم أنت بمهمة إضاءة الفانوس ، توحى لهم هامسا بذلك .. بأن تلك هى مهمتهم » .

قلت وقد تذكرت شيئا .. « هذا بالضبط رأى صديقى وأستاذى .. بل وربما تكون نفس كلماته .. غير أنى كنت أسأله قائلا .. وما دمت أنا لا أضئ عن طريق فنى .. فماذا تكون أذن مهمتى .... »

قال الفانوس متعجبا .. « ومن قال لك أنك لم تضئ بفنك ، وفى هذه القصة بالذات .. ؟ ! .. ألم تقدم لهم فيها هذه الصورة وقبل أن تنطفىء الفوانيس حين قلت .. « .. ثم فوجئنا ذات ليلة ببلدتنا كلها تموج بالنور ، مع أن السماء لم يكن بها

قمر .. وفرحنا بالفوانيس المضيئة فرحة الدنيا .. وبدأت قريتنا في تلك الليلة أجمل من كل بلاد البندر ، وأخذت حياة جديدة تدب في لبايها .. الرجال تركوا بيوتهم الضيقة المظلمة .. وتجمعوا في حلقات السمر على الأجران والمصاطب .. والنساء طلعن الى الأسطح وافترشن القش ورحن يتكلمن ويضحكن .. أما نحن الصغار ، فقد أخذنا ذبولنا في أسناننا ، وانطلقنا مع ريح الليل نجرى في النور ونمرح ونصيح .

كانت ليالى النور هذه ، أجمل من أى حلم يمكن ان يحمله ولد منا ، وهو نائم بجوار النهر في ظل شجرة توت خضراء .. «

ماذا تريد من دورك في القصة اكثر من هذا .. عملت ما عليك وأكثر .. غير أن الفوانيس انطفأت بعد ذلك لسبب لا دخل لك فيه .. ذلك شيء يحزن قلبك الفنان بالفعل .. ولكن ما حلتك .. ؟ ! أتضيئها أنت من عندك .. بسطر أو سطرين أو عشرة .. ؟ ! لا .. لا .. كان يجب أن تدع الناس اذا كانوا قد أحبوا من قصتك تجربة النور ، أن يعيدوها بأنفسهم مرة أخرى الى قريتهم .. هذا هو امتحان الفن ومدى تأثيره في الناس .. !

قلت وشبه دوار في رأسى .. « عفوا .. لم أفهم عبارتك الأخيرة .. أريد توضيحاً أكثر من فضلك » .

قال بلهجة حلوة .. « آه .. شكراً .. العبارة الأخيرة .. ماذا كنت أقول ؟ .. آه .. كنت أقصد أن الفنان يجب ألا يعمل كل شيء بنفسه .. يجب أن يترك للناس شيئاً يفعلونه .. لا بد أن يعطيهم الفرصة لكي يحسوا أنهم هم الآخرون مثله ، قادرون على الخلق وعلى العمل .. »

قلت .. « .. لقد فهمت تماماً .. ولولا هذا التغيير اللعين في النهاية ، لما ثارت بشأن هذه القصة أية مشكلة .. ولما نظقت أنت .. »

قال بضجر .. « كنت أعتقد أنك فهمتني فعلا .. المسألة يا استاذ ليست مسألة نهاية القصة أو بدايتها .. انها قبل كل شيء طريقة تفكير الفنان .. لون نظرتة وفهمه للأمور .. وانت حين غيرت النهاية ، غيرت القصة كلها دون أن تحس .. سلبت من قصتك روحا ، وأعطيته روحا أخرى .. هذا هو الموضوع .. افهمتنى .. ؟ ! »

قلت مرتبكا .. « تقريبا .. لكنى محتاج الى توضيح أكثر .. لو تكرمت » .

قال .. « جدا جدا .. بكل سرور .. غير انى حريص على وقتك .. لا اود أن أعطلك معى أكثر من هذا .. »

قلت فى لهفة .. « لا .. أبدا .. اكمل من فضلك .. ليس للوقت أى معنى فى هذه الظلمة .. »

قال وقد خيل لى أن لصوته أعماقا بعيدة .. « حين يعطى الكاتب لقصته نهاية اليمية .. هل تظن انه بذلك يضيف الى آلام الناس المناجديدا .. ؟ ! .. لا .. انه فقط يحرك احساسهم بمأساتهم .. هو يحفزهم لأن يضعوا لهذه الآلام حدا .. !!

« هل نسيت أهالى قرينك .. ؟ ! .. كثيرون منهم ألف الحياة كما هى .. انهم يولدون هكذا .. ويعيشون هكذا .. ويموتون هكذا أيضا .. ضمرت فيهم روح التطلع والتغيير .. ما موقف الفنان هنا ؟ ! .. ما موقفك يا أستاذ .. ؟ . »

قلت مباشرة .. « أرسم لهم صورة جميلة لحياتهم .. وأجعلهم يتطلعون دائما اليها .. »

قال ملاحقا كلامى .. « هذا جميل .. جميل جدا .. ولكن قبل هذا .. يجب أن تحرك احساسهم بالآلم كما قلت لك

من قبل .. يجب ان تشعرهم بمأساتهم ، وبما في هذه المأساة  
من مرارة والـم ، حينذاك ستري كل واحد منهم مندفعاً وحده  
نحو الخلاص .. نحو حياة أجمل وأفضل .. »

قلت متسرعاً .. « الحياة التى أرسمها له فى نهاية قصتى ..  
هه .. ؟ ! »

قال .. « لا .. ليس هذا ضرورياً .. انك قد ترسم لهم  
الحياة .. ولكن يبقى لهم بعد ذلك الخيار .. الفنان ليس وصياً  
على الناس .. هو يحرك الاحساس الكامن فيهم .. ثم هم بعد  
ذلك يختارون .. هم الذى يقررون مصيرهم بأيديهم .. »

وهنا اضطرب صوت الفانوس وخفت بعض الشئ ، ثم قال  
وهو يهمس لى فى وجل .. « مرة أخرى من فضلك : التصق  
بالجدار .. اخفض صوتك .. هناك وقع أقدام تقترب .. انهم  
فلاحون عائدون من الحقل ، كانوا يروون القمح .. التصق  
بالجدار .. ولا كلمة .. »

التصقت بالجدار ، وجبست أنفاسى ، ورجت أطلع عبر  
الوسعاية .. لم يكن هناك من صوت .. فقط وقع أقدام  
كثيرة .. وهمهمات تبدو موحشة فى ظلمة الليل وسكونه .. ثم  
لاحت أشباح بعض الرجال يديون فى الطريق فى صمت ووجوم ..  
كانت خطواتهم بطيئة .. فى بطء خطوات الجواميس التى يسحبونها  
بالحبال ، خافضى الرؤوس يتلمسون طريقهم فى الظلام الحالك .  
مروا من أمامى فى صمت .. همهماتهم توقفت ، وأشباحهم  
أخذت تختفى شيئاً فشيئاً فى الظلام .

— هل رأيت موكبهم .. ؟ ! .. ما رأيك فيه .. ؟ !

قلت كالمأخوذ .. « انهم أبطال .. ليتنى أستطيع ان  
أرسم هذه اللوحة فى قصة لى ، وكما أحسستها . »



قال ضاحكا .. « بشرط. ألا تأتي في نهاية القصة وتختتمها ببعض السطور البطولية .. هكذا مثلا .. » وكان موكب الفلاحين يخيم عليه الوجوم .. ولكن ضحكة قوية غامضة سرعان ما انطلقت من واحد منهم وراح صداها يتردد في جنبات الليل الكبير .

واستمر يضحك .

قلت له في استياء « أنت اذن لا تثق في كل ما أكتب » .

قال .. « أبدا أبدا .. العفو والله .. أقصد هؤلاء الذين أشاروا عليك بتغيير قصتك .. أنهم لاشك يختلفون عن صديقك الذي كلمتني عنه .. ربما فيهم شبابيه ، ولكن تنقصهم حكمته » .

قلت .. « من الجائز .. ولكنى المس فيهم هم الآخرين حبا شديدا للحقيقة .. »

قال ساخرا .. « حب بلا تجربة .. كطائر بلا أجنحة » .  
قلت .. « يعنى .. ؟ ! »

قال .. « يعنى كل ما قلته لك من قبل .. لقد تأخر الوقت .. وقد تناقشنا كثيرا .. كثرة النقاش تبدد طاقة الفنان .. آن الأوان .. استودعك الله .. »

قلت في لهفة ورجاء .. « لا .. لا .. أرجوك .. لا تتركنى الآن .. دقائق فقط .. أناشك في .. نقطة صغيرة .. »

قال بصوت حاسم أجش .. « لم يعد جدوى من النقاش بعد الآن .. الأفضل لك أن تفكر في كل ما قلته لك .. سلام عليك .. كلمة أخيرة .. هناك ريح آتية من فوق الجسر .. ريح باردة وشديدة .. كن شجاعا وأنت تواجهها ، ولا تخف .. سلام .. السلام عليك .. »

وسكت الصوت مرة واحدة ، وساد المكان صمت عميق رهيب .. هممت ان ارفع يدي لأنزع الى واستمهله .. لكن ريحا شديدة وباردة هبت مندفعة من أعلى الجسر واكتسحت الوسعاية والبيوت والأشجار ، وحدثت ضجة مخيفة ومروعة كنت أسمع خلالها زجاج الفانوس يصطقق مرات ومرات في وحشة وكآبة .. ثم سكنت الريح والشجر .. وهدأت حركة باب الفانوس المفتوح ، ولم يبق منها سوى اهتزازات ذات صرير مفزع وكثيب .

التقطت أنفاسي ، وصحت وشعر رأسي وقف كالابر...  
« أنت .. أنت .. كلمني .. كلمة واحدة فقط .. فقط لا غير .. »

ولكن ما من مجيب من القرية كلها .. سوى السكون .. والشجن .. وصوت أقدام خفير أو فلاح عائد من حقله .. يدي مع بهيمته ، في جوف الظلام .

« ١٩٥٨ »

## أونجلش

فى تلك الأيام ، لم اكن الصبى الوحيد الذى يحب الكلاب فى قريتنا ، كان يدبر والشحات هما الآخران يحبان الكلاب جدا . . لم تكن نحن الثلاثة نسمع عن كلب جميل وقوى فى أى بلد من البلاد المحيطة بنا ، حتى نذهب اليه ، نرقبه ونتأمله . ونتحرى عن نوعه . . بلدى أم وولف . . أرمنت أو لولى أو رومى . . ونظل نرصد حركاته وسكناته ، وكذلك حركات وسكنات صاحبه ، ثم نتفق على أحسن الخطط لاصطياده . وكانت خطتنا غالبا ما تنجح ، وأصبح لكل واحد منا مع مرور الأيام ، كلب جميل وقوى يفخر ويتباهى به .

سميت كلبتى « صابحة » وبدير أسمى كلبه « نصر » أما الشحات فكان لون كلبه أسود غطيسا ، ليس فيه إشارة واحدة غير سوداء ولهذا فقد اسماء « سبع الليل » . وكان يغمرنا نحن الثلاثة احساس مفرح بأننا نملك أجمل ما فى الحياة .

كانت كلابنا تصحبنا أحيانا الى الحقول ، وأحيانا كانت تبقى فى القرية تجرى وتمرح حتى نعود لها بعد الغروب .

وذات مساء ، كنا عائدين ببهائمنا الى القرية .. ولم نكد  
نصل الى مدخلها ، حتى رأينا الولد سيمو يقبل علينا وهو يحجل  
في مشيته كالعادة ويقول متحسرا .. « ما عرفتوش يا عيال ..  
مش عريبة الكلاب جت في الضحى ولت كلاب البلد كلها ..  
مفيش غير كلب ولا اثنين اللي فلتوا ناحية الجسر ، وماحدث  
يعرف هجوا على فين » .

فوجئنا بالخبر المحزن . لم نشأ أن نصدقه أول الأمر ،  
لكن القرية كان يسودها هدوء ثقيل على غير العادة ، لم يكن  
يتخلله نباح كلب واحد ، ولم تلمح عيوننا كلبا يرقد هنا ،  
أو آخر يتمشى هناك .

فكرنا ان نترك جبال البهائم من ايدينا ثم نجرى حتى نلحق  
بعربة الكلاب ، ونبكي للعساكر كي يعيدوا الينا كلابنا ، لكن  
الوقت كان متأخرا والشمس راحت ، وحتى تراب الطريق لم  
يعد عليه أى أثر للعجلات .

عدنا بالبهائم الى مربطها . كانت الطرقات كئيبة ، والتلال  
واجمة والدنيا باتت خالية من أية فرحة . لكن أملا صغيرا كان  
يداعب صدورنا .. ربما كانت كلابنا هي التي نجت بنفسها  
وفرت ناحية الجسر . انطلقنا نبحث على الجسر ، وفي حقول  
القطن ، وعلى أسطح البيوت والدواوير . لكن الليلة انتهت دون  
أن يصادفنا كلب واحد في القرية .

وحين طلع الصبح ، فوجئت بمنظر رقص له قلبي ، ورحت  
أهمل وأزرق وأصبح . كانت صابحة ترقد في الندى أمام باب  
الدار ، وأذاناها البئيتان مرتختتان الى أسفل ، وورقتها البيضاء  
ممدودة بمستوى بقية جسمها ، وكان في عيونها التعب والارهاق ..  
وكذلك بدير فوجيء هو الآخر بكلبه « نصر » يتمشى بجوار الدوار  
ويتشمم التراب ، فجرى اليه . وراح يحتضنه ويربت على ظهره

بحنان .. أما الشحات ، فلم يعد اليه سبع الليل ، وراح يمنى نفسه بعودته بعد الظهر أو في المساء .. لكنه لم يعد .. وحينذاك فقد الأمل ، وراح يبكي ويقطع قلوبنا ببكائه ، أما أمه ، فقد فرحت في نفسها بضياح الكلب حتى لم تعد له رائحة ولا أثر ، وقالت له وهى تنسيه الموضوع .. « يعنى هو جاموسة بتحلب .. في ستين داهية يا سيدى » .

وفي الليل ، اجتمعنا نحن الثلاثة بجوار ضريح سيدى حسن البادى واستندنا الى جلع شجرة النبق ، وغير بعيد منا ، رقدت صابحة وكذلك نصر .. وعيونهما تلمع في الظلام .

ومضت لحظات تعودت فيها عيوننا على الظلمة ، ثم قال الشحات وهو يهز رأسه فى أسى .. « يا خسارة .. كان زمان سبع الليل معانا . » .

قلت فى حزن .. « آه . وكان زمانه مع صابحة ونصر كمان » .

فقال بدير .. « هو دلوقت عند الحكومة .. مالوش رخصة » .

قال الشحات وصوته يرتعش بالبكاء .. « يا يسموه .. يا يضربوه بالرصاص » .

ارتجفنا لكلماته ، وتصورنا سبع الليل وهو يتلوى من الألم على الأرض ، ثم تهمد حركته ، ويموت .. يا خسارة يا أولاد .

كان الشحات اكبر منا بعامنين .. عمره أربع عشر سنة ' ويفهم فى الكلاب أكثر منا .. ولأول مرة ، عرفت أن الحكومة تسم الكلاب التى ليس لها رخصة ، أو تضربها بالرصاص حتى

لو كانت أجمل كلاب الدنيا . وعز علينا الشحات ونحن نرى حزنه الشديد . . لكن صوته لم يلبث أن تغير ، وسمعناه يدق التراب بكفه بقوة وتحذ ويقول « طيب . . والله ليكون عندى كلب أحسن منه » .

وادركت على الفور أن الشحات سيبدأ جولة فى البسلام القريبة ، يستعرض كل ما فيها من كلاب ، ويرمق أحسن ما فيها ثم يظل يحوم حوله ، حتى يصطاده ويعود به الى داره .  
وعاد يقول بصوت حاسم . . « والكلب المرة دى سيكون من المنصورة » .

دق قلبى بالخوف عند سماع كلمته الأخيرة .

كانت قريتنا اقرب القرى الى مدينة المنصورة . . فعند نهاية الطريق الزراعى الذى لا يزيد طوله عن كيلو مترين ، تقع حديقة شجرة الدر والنادى الملكى ، ويبدأ الطريق اللامع المرصوف المؤدى الى مبانى المدينة .

وفى الحقيقة ، كان كل واحد منا يتمنى من قلبه أن يكون له كلب من كلاب هذه المدينة . . ذات البيوت العالية والسكك الأسفلت والأنوار الكهربائية غير أننا كنا نخاف من مجرد الدخول البرئ الى هذه المدينة . . فقد كانت أمهاتنا فى تلك الأيام يحذرننا من ترك قريتنا ، ويقلن لنا أن العساكر هناك يمسون بالفلاحين ويضربونهم ويقودونهم الى المركز . . ليس فقط العساكر المصريين . . بل أيضا العساكر الانجليز ! .

ولذلك ، كنا حين يصادف الأمر ونذهب الى المنصورة يوم السوق ، نسير داخل الرصيف ، ونتمنى لو ندخل فى جدران البيوت حتى نخفى عن عيون العساكر ، وحين نرى عسكريا بدلتة الصفراء من بعيد ، تهبط قلوبنا ، ونسير على أطراف

أصابنا ، ونوهم أنفسنا أن العسكري ربما يغفل عنا .. !! ..  
فكيف بالله يريد انشحات سرقة كلبه الجديد من المنصورة ؟ .

ولم أكد افتح فمى لأذكره بهذا المنظر ، حتى بادر وقال لنا :

— والمرة دى سيكون كلب « أونجلش » .

يخرب عقلك يا شحات ؟ !

حقيقى أن الشحات ولد جرىء ، وأنقذ مرة جاموسة أحد  
الفلاحين جذبها التيار أيام النيل ودفعها الى بعيد ، وصاح الرجال  
وصرخت النساء ولكن الشحات خلع ملابسه ، وألقى بجسمه  
الأسمر النحيل الخفيف فى قلب النيل ولحق بالجاموسة ..  
وبطريقة سحرية ، جذبها الى الشاطئ وأنقذها .

حقيقى انه ولد جرىء .. لكن كل شئ يستطيع ان يفعله  
الا أن يتعرض لكلب « أونجلش » .. ورحت أتصور كلب أونجلش  
هذا .. آه .. لقد عرفت ما الذى أدخله فى رأسه .. أنه كلب  
أسود غطيس ، ليس فيه إشارة واحدة بيضاء ، تماما مثل  
كلبه الذى ضاع .. سبع الليل ! .. عنده حق الشحات ..  
ولكن هل نسى أونجلش « بحاله » ؟

كان أونجلش هذا رجلا انجليزيا يسكن أحد البيوت فى  
أطراف المنصورة من ناحية قريتنا ، تحيطه قوة رهيبة غامضة ،  
هى قوة بلاده التى تحتل بلادنا كلها من زمن طويل ولم يكن أحد  
منا أيامها يعرف كيف يعيش .. هل هو متزوج .. هل له أولاد ..  
هل له عمل غير الاهتمام بالجنيئة التى تحوط منزله ؟ .. حتى  
اسمه .. اسمه الحقيقى .. لم يكن أحد يعرفه .. انما هو  
رجل انجليزى ، انجليزى فقط .. يعنى « أونجلش » ولا غير ..  
وكان شعره أصفر غامقا ، ووجهه ورقبته فيهما حمرة رغم  
الشمس التى لوحتهما ، وكان يرتدى دائما بنطلونا كاكيا قصيرا ،

وجوربا طويلاً كاكيا أيضاً . وفي المرات التي كنا نراد فيها ، كنا نلمحه يسير وحده على شارع البحر ، يدب بحذائه الأحمر الغليظ ، رأسه تسبق صدره ، كأنه يبحث في غيظ عن شيء يصطدم به . . وكنا أيامها نسمع الناس يتكلمون كثيراً عن شيء اسمه « الحماية . . » . . ويقولون - فيما يقولون - ان أى مصرى يقتله أى انجليزى ليس له دية ، والقاتل لا يحاكمه قانون !

فكيف يتهور الشحات - وهو يعرف كل ذلك - ويقول لنا انه سيسرق كلب اونجلش ؟ ! .

قلت باستنكار : « باين عليك مستفنى عن روحك » .

قال بلهجة حامية : « بكره تشوفوا . . الكلب حيكون عندى وحا اسميه كمان سبع الليل » .

وفي الصباح التالى ، والشمس لم يكن قد بان لطلوعها أية علامة فى أطراف الحقول ، جاءنى الشحات وقال لى : « اعطنى صابحة » .

وجعلت أتردد ، نظر لى نظرة غاضبة فيها شيء من العتاب . وقال . . « حارجعها لك بالكثير آخر النهار » .

وفهمت قصده على الفور . . فقد كنا أيامها فى موسم عشارة الكلاب . . أعطيتهأ له والقلق يملأ نفسى ، تناولها من الحبل الذى علقته فى رقبتهأ ، وسحبها ومضى فى الطريق الزراعى المؤدى الى المنصورة . ولم يكدها يتعد عنى قليلا ، حتى رحت أجرى خلفه لألحق به ، وقلت له :

- « أنا جاى معاك يا شحات » .

وأضاء وجهه بالسرور ، مضينا فى الطريق صامتين . . كنا



نحس أننا على أبواب أخطر تجربة مرت بحيانا : وكانت رهبة شديدة تملأ نفوسنا ، ولا تقوى معها على أى كلام .

ولم نكد نصل الى طريق الأسفلت حتى ضاقت خطانا ورحنا نسير بحذر وعيوننا متوزعة على كل الطريق .. وحين بدأنا تقترب من بيت أونجلش ، اخترنا شجرة كبيرة ، جذعها ضخمة ، وفى أعلاها زهور حمراء كثيرة ولها ظل كثيف على الأرض ، وجلسنا خلفها .. وبقيت صابحة واقفة بجوارنا ننظر إلينا فى صمت وتساؤل .

رحنا نرقب الطريق من مخبئنا ، لم يكن هناك عساكر لحسن الحظ . ومر الوقت بطيئا .. قاتلا فى بطئه .. وأخيرا ، جاء الفرج ، وارتعشت قلوبنا ، وتتابعت أنفاسنا ، وتبادلنا نظرة تشجيع .

فى تلك اللحظة ، لمحنا « أونجلش » يخرج من بيته بينطلونه الكاكي القصير ، ورأسه الحمراء الممدودة الى الأمام ، ويتجه بدبيب خطواته الثقيلة الى داخل المنصورة . وتنفسنا الصعداء ؛ كنا نحس ونحن نتنفس أن الدنيا لم يعد فيها هواء ، وحين ابتعد أونجلش ، وغاب عن عيوننا ، قال لى الشحات :

— « خليك هنا .. خلى بالك من السكة .. » .

وبقيت جالسا فى مكانى ، وسار هو وصابحة على مهل بحذاء السور ، وحين حاذى بوابة البيت ، توقف .. وتوقفت أيضا صابحة .

كان كلب أونجلش الأسود لحظتها يقف خلف الباب ، ويمد « بوزه » من خلال القضبان الحديدية ، وحين لمحت عيناه صابحة ، اهتزت شواربه اهتزازة سريعة ، واختلج جسده ،

واهتز ذيله في سرعة اهتزاز شواربه ، ثم راح يشب على الباب ،  
وقد سرت في اطرافه حيوية دافقة .

وأحسنا لحظتها بسعادة خفية ، ونحن نرى أن أولى مراحل  
خطتنا قد نجحت .. فقد كان من المهم جدا ، ألا ينبج الكلب  
ولا يفضب لوجود احد أمام الباب .. وبقي الشحات واقفا  
لا يتحرك . وازدادت حركة كلب أونجلش وصدرت عن أنفه  
أصوات خافتة متلاحقة ، ثم هبط برجليه الأماميتين من على  
قضبان الباب ، وراح يدور حول نفسه ، ثم قفز فجأة قفزة عالية  
من فوق السور . وفي غمضة عين ، كان على أرض الشارع ،  
بجوار صابحة التي أصابها فرح مفاجيء ، فراحت تتواثب في  
نشوة وذيلها يهتز .

غمرنا طوفان من الفرح ، لكننا كنا لانزال نرتعش من  
القلق ومن الخوف .. أن يعود أونجلش فجأة ، ويكون دمنا  
حلالا ، أو يضبطنا عسكري ، ويظل يضربنا بحذائه ، ثم يرمى بنا  
في اسطبل الخيل داخل المركز .

وبدانا نتحرك .. عائدين من نفس الطريق الذي جئنا منه ،  
وسارت معنا صابحة ، ومن خلفها كلب أونجلش .. وفي دقائق  
بدت لنا سنين طويلة ، كنا قد قطعنا الطريق الأسفلت ، وأصبحنا  
على الطريق الزراعي .. وسط الحقول .

كانت صابحة بيضاء ، وأذناها بنيتين جميلتين ، وكان  
شعرها ناعما ونظيفا ، وفمها مدبب وطويل ولطيف .. ولذلك ،  
فقد ظل كلب أونجلش يتبعها ويتشمم أثرها .. ولكننا لم نكد  
تقطع مسافة من الطريق ، حتى توقف الكلب فجأة ، وتصلبت  
أذناه ، واستدار برأسه ناحية مباني المدينة ، وراح يعوى عواءا  
رفيعا خافتا أشبه بالأنين ، ثم تركنا ومضى يجرى عائدا الى

المنصورة .. وأحست به صابحة فراحت تعوى هي الأخرى  
وتزوم .. وتقفز الى أعلى وتشب بأطرافها حتى تتخلص من الجبل  
الذى نمسكها منه ، لتلحق بالكلب ولكنها لم تستطع ، فراحت  
تنبح نباحا عاليا وكأنها تنادى عليه . ولم يكد نباحها يصل الى  
سمعه ، حتى توقف عن الجرى فجأة ، واستدار ناحيتها مرة  
أخرى ، وراح يبادلها النباح .

ونظر الى الشحات في قلق وقال .. « تعرف احسن حاجة  
ايه ، نمشى احنا ، ونسيب صابحة ، هي اللي حتجيبه البلد  
وراهها » .

وأطلقنا صابحة من جيلها .. ولم تكد تجرى ناحية كلب  
أونجلش ، حتى أعطى ذيله للمنصورة ، وانطلق هو الآخر ناحيتها  
والتقيا في منتصف الطريق ، وراحا بتواثبان ويتشاكسان ودون  
أن يحس كلب أونجلش وجد نفسه خلفها في شوارع قريتنا .

وفي الحال رتبنا أمرنا الا يخرج الكلب من البلد ، ويصبح  
للشحات الى الأبد .

ولم يلبث أن شاع الخبر .. العيال سرقوا كلب أونجلش ..  
كلب « أونجلش » بحاله .. ؟ ! .. مش معقول .. دول  
ولا الشياطين !!

وهرع أطفال القرية وصبيتها جميعا يتفرجون على كلب  
أونجلش ، وكانوا لا يريدون أن يفارقوه .. وباتت القرية كلها  
تحدث عن هذا الخبر الأبيض والأسود في آن واحد .. وأعجب  
بعض الرجال بشيطانيتنا ، والبعض الآخر تذكر « الحماية » .  
ومسدس أونجلش ، فقالوا أن مصيبة كبرى ستحل قريبا بالبلد .

ومال على الشحات وقال .. « خلى صابحة معاه يومين في

البيت « عثمان يولف علينا .. أنا خلاص حاسميه » سبع  
الليل .. »

واقفته ، وكنت أتمنى في نفسى لو يكون لى مثل هذا الكلب  
الكبير ، ولا أطلب من الدنيا شيئا بعد ذلك .

لم تكن ندرك أيامها أن سرقة كلب هذا الأونجلش لن تنتهى  
هكذا ببساطة .. فقد سرى الخبر من قريتنا الى القرى المجاورة ،  
ثم الى المنصورة ، وأخيرا الى المركز ذاته .. ولم يكد يمر يومان ،  
حتى رأى الناس عددا من العساكر فى طريقهم ناحية بلدتنا ،  
وطار الخبر فى الحال ، وفى الحال أيضا ، شم الشحات رائحة  
الشر وراح يفكر معى بسرعة .. « نعمل ايه .. ؟ ! نقتله أحسن  
ما ياخدوه ؟ ! لا .. حرام .. نقتل أونجلش نفسه ولا نقتلش  
سبع الليل .. نعمل ايه .. والعساكر ، والبهدة فى اصطبلات  
الخيال .. ؟ ! »

وفى دقائق ، كنا قد أصبحنا عقلاء لأول مرة فى حياتنا ..  
وأطلقنا صابحة الى الشارع ، ومن خلفها سبع الليل .. وراحا  
يجريان فى شوارع القرية وحواريها .. وحين هجم العساكر على  
بيت الشحات وعلى بيتى ، لم يجدوا شيئا بالمرة .

كنا قد فررنا بجلدنا ، واختفينا فى حقول القطن دون أن  
يحس بنا انسان .. كانت الشمس لحظتها حامية ، ونسمة واحدة  
لا تهب على الحقول من فوق الجسر ، وظلال أشجار القطن صغيرة  
وخفيفة ، والعرق يسيل بغزارة على وجهينا ، ولكننا كنا نحس  
بسعادة كبيرة تغمرنا ونحن فى هذا المكان الصامت الأمين .

ونظرت الى الشحات وقلت له فى همس « أنا عارف ..  
مش حياقوه » .

فقال لى وهو يبتسم ابتسامة تملأ كل وجهه النحيل

الأسمر .. « وحتى لو لقيوه .. سبع الليل حيرج تاني ، سبع  
الليل حب صابحة .. صابحة حيت سبع الليل » .

قلت له .. « طيب .. وأونجلش . ! ؟ »

قال وهو يقطف لوزة من لوزات القطن المفتحة ، ثم يتسم  
في مكر :

— أونجلش .. ! ؟ .. ما خلاص راحت عليه .

« ١٩٥٨ »

## داود الصغير

كانت رابطتى بهذا الطفل ، رابطة محدودة .  
وانى لاذكر الآن ، أول يوم رأيته فيه .  
كنا بعد العصر ، وضوء الغروب الهادئ الملون ، يغمر  
شقتنا الصغيرة فى الدور الرابع من أحد شوارع الجيزة . وكنت  
أتأهب للخروج . لكى أقابل صديقا أردنيا تعرفت عليه منذ أيام .  
كنت أسرع فى ارتداء ملابسى ، لا لكى الحق موعدى مع هذا  
الصديق الجديد فحسب ، وانما لاهرب من تلك الضجة التى  
يصنعها طفلاى وهما يمثلان « شارلى شابلن » وهو يبارز الناس  
الذين يقتلون الأطفال الصغار . يبارزهم بعصاه العجيبة .  
طاخ طاخ .. ايه الراجل الوحش مات .. ايه .. طاخ  
طاخ .. مات .. مات .  
فى خلال هذه الضجة التى تتكرر عشرات المرات كل يوم ،  
كنت ابتسم من أعماقى لزوجتى ، وأقبض فى نفس الوقت على  
أعصابى ، وأفكر بالانطلاق هربا الى الخارج لأنعم بقليل  
من الراحة والهدوء .

كانت شقتنا تتكون من ثلاث حجرات ، وممر رفيع ضيق .  
وقد أصبحت هذه الشقة ، بعد أن كبر طفلاى وراحا يمارسان  
فرحتهما بالحياة .. بالزعيق والصياح والجري من حجرة الى  
حجرة ، أصبحت أشبه بمصيدة صغيرة مغلقة يتمنى المرء  
لو يهرب منها بمجرد أن يدخلها .

وكنت انظر الى زوجتى وهى تتعثر فى الطفلين حيثما تذهب ،  
فلا أحس منها تبرما ولا ضيقا .. ورغم أنها كانت مريضة تعانى  
من ضعف فى قلبها ، فقد كان وجهها الأسمر الصغير الشاحب .  
دائم الابتسام .. وكأن الأمومة الكائنة فى أعماقها ، قادرة على  
أن تعطىها الاحتمال لتعيش وحدها بين ألف طفل صغير ، فى حجرة  
صغيرة مقفلة .

وحين فتحت الباب لآخرج ، وقعت عيناي على طفل صغير  
كان بهم بأن يطرق الباب بيده ، ولما رأيته ، صعدت عيناه الى ،  
واستقرتا قليلا على وجهى .. !!

كانت عيناه واسعتين .. حتى لتشفلان نصف وجهه ،  
وكان فيهما شعور بالاطمئنان كأنه يعرفنى جيدا ، وأعرفه منذ  
زمن طويل .. كان رأسه كبيرا نوعا ما ، وشعره أسود فاحما  
وقصيرا . وكانت بشرة وجهه يشوبها مسحة خفيفة صفراء وكان  
يلبس جلابية غامقة نظيفة ، وفى قدميه الصغيرتين .. « قبقاب »  
صغير .

وقبل أن أسأله من يكون ، سألتنى فى ألفة واطمئنان :

— ممدوح وحمدى .. هنا .. ؟

وفهمت على الفور أنه أحد أصدقاء طفلى الصغيرين .

وما أن سمع الطفلان صوته ، حتى اندفعا كالاعصار

الصغير نحو الباب : وراحا يزعلان ويهلان .. ايه .. « داود »  
جه .. « داود » جه .. جه .

كان ذلك أول يوم رأيته فيه .. ولم يكن يمر يوم بعد ذلك  
دون أن أراه .

لم أكن أعيره كثيرا من انتباهي .. كان يلعب مع الطفلين في  
بيتي ، ويشارك معهما في ملء فراغ الطفولة الذي لا نهاية له .  
وكنت في هذه الأيام ، أعيش مع الناس الذين يتكلمون عن  
مسير الحياة والأشياء .

كانت الأحداث الكبيرة ، تشغل العالم وتهز النفوس فننسى  
في غمارها تفاصيل حياتنا الصغيرة .

تأميم القنال .. وانتخابات الأردن .. خطف « بن بلا » ..  
واشاعة مقتل الملك حسين .. دوامة ضخمة كنت أتوه فيها ،  
وأغفل عن أشياء كثيرة : منها هذا الطفل الصغير .

مرت الأيام ، وتعودت أن أرى في بيتي ثلاثة أطفال .. طفلي  
ممدوح وحدي .. وداود الصغير .  
كنت أجفل بادیء الأمر من وجوده مع طفلي .

كان طفلاي يلبسان « بنطلونات » .. وهو يلبس « جلابة » ..  
وكانا يلبسان صنادل .. أما هو فيلبس « قبقاب » .. وكانت  
خصلات شعرهما ترتدي على جبينيهما ، أما شعره فقضير  
جدا .

كان هذا الشعور يساورني في بعض الأحيان ، لا سيما حين  
يزورنا أخو زرجتي المهندس ويقول لي مستنكرا : « لا .. لا ..  
أنتم لازم تنقلوا من هنا .. لازم تسكنوا في حي تترى فيه الأولاد  
تربية كويسة » .



على أن هذا الشعور كان لا يلبث أن يختفى حين أرى  
الأطفال الثلاثة في دوامة مرحهم ولعبهم ، يكادون أن يتحولوا الى  
طفل واحد .

ثم انقضى هذا الشعور من نفسى شيئا فشيئا .

كنت لاحظ أن جليب « داود » نظيف دائما .. لا يتسخ  
رغم كثرة اللعب وأنه لا يخلع القبقاب من قدميه أبدا .. وكان  
رغم أنه أفقر من طفلى ، أنظف منهما دائما .

وكثيرا ما كان يلعب في ذهنى سؤال خاطف : هذا الطفل ..  
من يكون .. ؟

غير أن الانجليز أيامها كانوا يحشدون البوارج والمدركات  
وحاملات الطائرات ، ويزرعون أرض قبرص بفرق الموت ليطلقوها  
علينا ، ويقولون لنا أنهم لا يهوشونا بذلك .

وكنا نحن جميعا - لأول مرة - نقذف بأنفسنا ضد التيار ،  
ونقبل التحدى ، ونعانى تجربة المفاضلة بين الحياة والموت .

لذلك كان الناس ينسون تفاصيل حياتهم ، وكان سؤالى  
عن الصغير لا يلبث أن يتلاشى مع أشياء كثيرة من رأسى وظللت  
أجهل من يكون .

كنت قد حفظت اسمه « داود » من كثرة نداء اطفالى  
عليه ، ولكن .. من هو .. ابن من .. من أمه ومن أبوه ..  
اليس له بيت ؟ ! لم أكن أدري عن كل ذلك شيئا ، وكنت أجد  
نفسى خلال اندفاعى وراء عجلة أحداث الحياة .. أؤجل هذا  
السؤال .

لم أكن أعرف عنه ، إلا أنه يأتى الى شقتنا فى الصباح ،  
ويتركها مع المساء ويقضى اليوم كله يلعب اطفالى ، وأطفالى  
يلعبونه .

كان، وجود هذا الطفل في البيت مصدر سعادة كبرى لأطفالي ، ولذلك فقد كنت مستريحا لوجوده بيننا .

ولكن مع مرور الأيام ، وجدته وقد أصبح عبئا جديدا على .  
لم أعد اشترى للطفلين ، الا اذا اشتريت له مثلهما تماما .  
واذا حدث ونسيت ، سألني ممدوح مستغريا .. « طيب ..  
وداود يا بابا » ويقول حمدي مسرعا .. « أنا حاعطيه من معايا  
يا بابا » .

وانظر الى داود حينئذ فتطالعني من عينيه الواسعتين نظرة  
حزينة مكبوتة لا أحتملها .

هكذا أصبحت ، دون أن أحس ، أبا لثلاثة أولاد .. وبالرغم  
من هذا ، فقد ظل « داود » شيئا صغيرا ، في هامش حياتي  
التي تملؤها ضجة الحياة الكبرى .

وفي إحدى الليالي .. عدت متأخرا الى مسكني . كان الليل  
قد انتصف ، وأحسست بالصمت الكثيف يغمر البيت .. فتحت  
باب الشقة .. ودخلت في هدوء .

كنت أحسب - كالعادة - أنني سأجد زوجتي مستغرقة  
في النوم مع طفلها ، وفي يدها كتاب مفتوح ظلت تقرأ فيه حتى  
أخذها النوم ، غير أنني وجدتها راقدة على السرير ، شاحبة  
مصفرة الوجه ، لا تكاد تقوى على شد أنفاسها ، وبجوارها ينام  
طفلاها الصغيران .. ورأيت في ذات الوقت داود الصغير جالسا  
القرفصاء على السجادة بجوار السرير ، وبنظر اليها بعيونه  
الواسعة الصامتة .

أخذني هذا المشهد العجيب ، هرعت في لهفة الى زوجتي .  
كان يربق عينيها خافتا ، لكنها كانت تجاهد لكي تبسم لي  
إبتسامتها الحبيبة .. وتطمئنني .

ملت عليها أقبليها ، وكأني أعطيتها الحياة كلها في هذه القبلية ، وسألتها في حنو .. مالك يا سميحة ؟ .

قالت بصوت واهن وهي تبتسم .. « مفيش .. أصل قلبي تعب .. جتلى النوبة ووقعت في الصالة .. لكن الحمد لله خفيت خلاص » .

تتابعت دقات قلبي ، وغامت نفسي بسحابة من الحزن .. ان سميحة باتت شيئاً من نفسي .. لقد أحببتها منذ أكثر من سبع سنوات .. ولم يهن هذا الحب يوماً .. انني لم أفكر يوماً - حتى مجرد التفكير - في اليوم الذي أعيش فيه أنا وأولادي بدونها .

وتأملتها طويلاً .. فرايتها تميل بعينيها وتنظر الى داود القابع على السجادة أسفل سريرها ، ثم تسع ابتسامتها ، وتنظر لي مرة أخرى .

سألتها في حيرة : ليه داود ماروحش لغاية دلوقت .. ؟ قالت وهي تمر بأصابعها على شعر رأسه القصير الأسود في حب وحنان : لما تعبت .. كان ممدوح وحمدي ناموا .. وكان لسه داود ماروحش .. لما شافني تعبانة قوي ، مارضيش ينزل وأنا بالشكل ده .. بعته الأجزاء بالروشته والفلوس وجاب لي الدوا .. الدوا هو اللي فوقني .. وبعدين قتلته ينزل .. مارضيش لغاية انت ما تيجي .

ووجدتني أنظر للطفل طويلاً ، وحلقتي يفص بالدموع .. كان ينظر الى زوجتي وفي عينيه دعاء طفولي هادئ بأن يشفيها الرب .. انحنيت عليه وأخذته بين أحضاني ورحت أقبلي في تائر .

كنت أحس لحظتها أنه أعز الى قلبي من طفلي ممدوح

وحمدى .. وأنه شيء كبير جدا فى حياتى .. أكبر من كل تلك الأحداث التى تفرقنى الحياة فى دوامتها .

واحسست به يخرج من بين ذراعى فى رفق ، ثم تطلع الى بعينه الواسعتين ووجهه الشاحب النظيف الساكن وقال :

– انا مروح بقى .

واهتز كيانى كله لسماع صوته فى تلك اللحظة .. لقد أحسست بشيء ضخيم مرهوب يعيش فى أعماق هذا الكائن الصغير .. وقلت له وحروف كلمتى تتقطع :

– استنى لما آجى معاك .. أحسن الدنيا ضلمة عليك .

فقال وهو يتسم ويشير الى زوجتى بأصبعه الصغير .

– لا .. خليك مع ابلة .. أحسن هى لسه تعبانة .. أنا ماخافش من الضلمة .. أنا عمرى ما خفت من الضلمة .

وجالت عيناه جولة صغيرة بالسرير .. حيث ترقد زوجتى وحيث يستغرق صديقه حمدى وممدوح فى سبات عميق ، ثم توجه الى الباب ، وفتحه فى هدوء ، وخرج .

وسادنا الصمت لحظات .. كانت تسرى خلالها الى مسامعنا صوت طرقات « الققباب » الصغير ، وهو يهبط على السلالم .

وتنهدت زوجتى وقالت فى صوت واهن حزين .. « مسكين .. مفيش حد بيدور عليه .. أمه تفتكر أنه عند أبوه ، وأبوه يفتكر أنه عند أمه .. وضايع بين الاثنين .. أصل أبوه متجوز على أمه » .

وانحدر على خديها الشاحبين ، خيط رفيع من الدموع .  
قلت لها .. « مالك يا سميحة .. ؟ »

قالت وهى تبكى .. « شاييف صغير ادايه .. لكن قلبه  
كبير .. كبير اوى .. يا زيته كان ابنى .. »

قلت لها فى تأثر .. « ما هو زى ابننا تمام .. »

وسكت لحظة ، ثم قلت فى انفعال مؤلم .. « سميحة ..  
انا نازل خمس دقائق .. حالته وأوصله .. »

واسرعت نحو باب الثقة ، وفتحته ، وهبطت السلالم  
بسرعة فى الظلام حتى وصلت أسفل البيت .

كان الشارع يخنق بالظلمة . وبالصمت الكثيف .

وقفت أهدف سمعى ، علنى التقط صوت « القيقاب »  
لأعرف اتجاه الطفل .. لكنى لم أكن أسمع شيئاً : سوى الصمت  
المتراكم الثقيل .. لقد غاب الطفل الصغير فى الليل الكبير .

ظلت واقفا وحدى فى الظلام .. كان الليل جهما وكثيبا ..  
وأحسست بحزن من النوع الذى يحب الانسان أن يستسلم له ..  
كنت أحس بأننى عثرت صدفة فى الظلام على شيء ثمين رائع ،  
لكنى فقدته فى نفس اللحظة فى غمار الليل الحالك .

واستدرت لى أطلع السلالم ، وأطمئن على زوجتى المريضة،  
ولكن سميحة حين رأتنى ولمحت كآبتى ، ابتسمت وقالت :  
معلش .. بكرة من بدرى حتلاقيه معنا .. داود .. أصبح  
خلاص .. ابننا الثالث .

قلت مغمغما .. تمام .. تمام يا سميحة .

« ١٩٥٧ »

## بنسامة الرجل الكئيب

اضطرتنى ظروف الحياة ذات مرة ان أشتغل صرافا في  
محل خردوات صغير !

واحد من تلك المحلات القديمة المرصوة على رصيف  
شارع السد ، والتي أفلتت من التنظيم بمعجزة ، فبقيت  
قائمة على الرصيف بلونها الرمادى العجوز شاهدا على إحدى  
معالم مصر القديمة .. !

ومن أول لحظة جلست فيها وراء « الكيس » فوق المقعد  
العالى ذى الأرجل الخشبية الثلاث ، وجدتنى أطل على عالم  
غريب جدا .. فالمحل كان ضيقا ومستطيلا ، ومع هذا ، كان  
مزدحما بأشكال والوان من الناس ، والسقف كان واطئا به  
منحنيات ، والحوائط كلها من الأرض الى السقف مملوءة  
بالأرفف ، والأرفف مملوءة بالعيون ، والعيون مملوءة بالبضاعة .  
وقد تراءى لى الحائط الذى أجلس تحته مائلا قليلا .. وتصورت  
فيما لو حدثت أبسط هزة ، وسقطت الأرفف بالبضاعة على  
رأسى ورعوس الزبائن .. !!

داخلى احساس بالسخرية !

! هذا هو آخر المطاف .. !!

غير انى عزيت نفسى كمادنى كلما اضطررنى الظروف الى  
شئ لا احبه ، قاتلا لنفسى : تجربة !

طيلة حياتى وأنا هكذا ، اهون وقع الأشياء والأحداث على  
نفسى باسم التجربة .

رحت امارس عملى فى صمت وهدوء . يأتينى الزبون  
فأخذ منه القسيمة والنقود . ثم اراجع الحساب بدقة . ثم  
اعطيه البضاعة .. وبين الزبون والزبون . اضع قلمى بين  
أسنانى ، وأأمل الجو من حولى فى وجوم . !

وذات يوم ، جذبنى منظر غريب وطريف :

امراة سمراء ضخمة وسمينة ، تنتقى لنفسها « سوتيانا »  
وتقيسه على صدرها الضخم .. كان صدرها ضخما الى حد  
انها راحت تقلب فى كومة من « السوتيانات » وتقيسها  
الواحد بعد الآخر .. وحين عثرت - بعد أكثر من نصف  
ساعة - على « سوتيان » مناسب ، أطلقت صيحة فرح عالية ،  
لكنها عادت فى نفس اللحظة وقالت وهى تمصص بشفتيها  
الفليظتين فى تحسر وأسف : « بس يا خسارة .. مش ده  
اللون اللى أنا عايزاه .. أنا كنت عايزاه بمبى .. » ؟

غير انى افقت من سرحتى كالمفزوع على صوت يصبح فى  
وجهى محتجا ويقول « ما تعطينا البضاعة بقى يا سيدنا  
وتخلصنا ، والا يعنى عايز تطلعنا جنبك .. » !

ارتبكت .

كان ولدا صغيرا .. واقفا أمام الكيس ، يشب على اطراف  
قدميه ، ولا يبدو منه سوى عينيْن واسعتين براقتين .. وحول

العينين وجه صغير أسمر معفر .. وفوق الوجه رأس كبير  
مليد بالشعر .. وفي نظراته صفافة وتحدى .

قلت وقد غاظتني المفاجأة ، وغازتني أكثر طريقتة في  
الكلام وفي النظرات « طب بس هات الفلوس وبلاش غلبة .. ! »  
ارتفع حاجباه : وقال في جزع :

— فلوس .. ؟ ! فلوس ايه يا افندى .. ما هي القسيمة  
قدامك .. والفلوس اديتهالك .

— اديتهالي .. ؟ !

— طبعا .. لما حضرتك كنت ..

وتحول فجأة بنظراته الى المرأة السمينة ، وغمز لى بعينه  
اليسرى غمزة مأكرة ، ثم عاد يقول :

— بس لازم حضرتك ناسي .. افكر كده .. !!

ما هذا .. ؟ أيمن أن أكون قد فقدت ذاكرتي الى هذا  
الحد ؟ !

سددت له نظرائي أسلا في أن أهزه وأعرف الحقيقة من  
عينيه ، لكنني فوجئت به هو الآخر يسدد لى نظراته .. !!

شيء غريب أحسسته على الفور في عينيه .. شيء قوى  
وعميق ونفاذ ولولا مشكلة الفلوس هذه ، لرحت أنظر فيهما  
دون أدنى ضيق أو ملل .. كانتا واسعتين وبراقتين . وخضرتهما  
غامقة ودائنة .. ورموشهما ثقيلة وطويلة ، حتى تكاد تلقى  
ظلا على خديه .. ! كانتا جميلتين .. جميلتين للدرجة أني  
تذكرت لحظتها فتاة كنت أعرفها معرفة حميمة .. كانت تحب  
العيون الجميلة ، وتحديث دائما عنها ، حتى ولو كانت عيون



قطة .. ! غير أن هذا الخاطر سرعان ما انتقطع ، فقد كان يطل  
من عينيه بريق التحدى .. !

شككت في الأمر .. !!

أيمكن أن أكون قد أخذت منه النقود وأنا مشغول بمنظر  
هذه المرأة السمينة ونسيت .. ؟ ! ربما .. وأنا دائئ الوحيد  
في هذه الدنيا ، والذي كثيرا ما أكره نفسي من أجله هو  
النسيان !! .. فتحت الدرج بسرعة ورحت أقلب فيه وأهرش  
في رأسى .. !! .. ولكن يا ناس .. كيف أتأكد ، وفلوس الشغل  
كلها من الصباح في درج واحد .

جئت أنظر اليه مرة أخرى كالغريق .. وجدته مائلا برأسه  
الى الوراء وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة وقال :

- أنت صدقت بصحيح انى اديتلك الفلوس .. ؟ ها ..  
اتفضل الفلوس أهى .. بس المرة الجاية لازم تاخذ بالك منى .. !

استسخرت طريقته في المزاح .. !

ماذا لو كان صاحب المحل موجودا في تلك اللحظة ، ورأى  
طفلا صغيرا يعيث بصراف خزينته .. ؟ ! انتابتنى رغبة في أن  
أصفعه ، غير أنى فوجئت « بمحروس » وهو أكبر عمال المحل  
الثلاثة سنا ، يقول لى بلهجة باسممة ، لكنها جادة وساخرة

- ما هو لازم تاخذ بالك يا ريس .. أمسال .. ده شغل  
سوق .. يعنى تسرح لحظة تضيع وتضيع المحل معاك .. !!

أحسست فجأة اننى في منطقة خطر .. منطقة لا تحتمل  
سرحانا ولا تأمل ولا « تجارب » ولا يحزنون .. ! .. تكفى  
سرحة مثل هذه وسرحة أخرى وسرحتان ، ثم أكون بأمر الله وأمر  
صاحب المحل أتسكع في الشوارع من جديد .. !

وفي غيظ شديد ، القبت له بالبضاعة وصحت فيه :

.. ياللا يا واد خد بضاعتك وغور من قدامى .

لكنه ما أن تناولها ، وابتعد عن البنك خطوتين ، حتى استدار فجأة نحوى ، وصاح هو يميل برأسه الملبدة بالشعر الى الوراء .. « ها .. شايف انت كبير أد ايه .. لكن برضه ضحكت عليك .. !! »

يا الهى .. ما الذى ينويه معى هذا الولد .. ؟ !

وفجأة .. رأيته يقفز بجسمه الصغير الى أعلى ، ودار حول نفسه فى فضاء المحل دورتين ، ثم عاد واستقر على الأرض ، ووسع ما بين قدميه الحافيتين ، ثم مال بظهره الى الخلف ودق على صدره المكشوف الهزيل بكفه دقتين وقال فى زهو : حلاوتك يا واد يا امبابى ياللى مفيش منك فى البلد عشرة .. ها ها ها هاى .

وخطف منى نظرة ساخرة ، ثم انطلق ببضاعته الى الشارع الواسع يقفز ويحجل فى ضوء الشمس .. !

لم اكد أمضى فى التفكير كالمأخوذ فيما حدث ، حتى تنبهت فجأة الى أن أرض الدكان ترتج ، ورأيت المرأة السمينة « اياها » تتجه بخطواتها الثقيلة الى الباب دون أن تشتري شيئا .. !

امسكت أنفاسى ، واشفقنت ان تهتز الأرفف تحت وقع اقدامها وتسقط بالبضاعة على رأسى وعلى الأرض .

.. يا ساتر استر .

وما أن خرجت من باب المحل فى سلام ، حتى تنفست الصعداء ، ونظرت الى « محروس » .. كان هو الآخر ينظر لى

ويبتسم .. ثم قال لى وهو يجلب كالعادة نفسا عميقا من صدره المتعب .. « ولسه ياما حشوف كمان » .

طنت كلماته فى اذنى ، لكنى احسست لها بارتياح شديد فطالما تمنيت - قبل ان آتى الى هذا المحل - وانا اتسكع فى الشوارع والميادين ابحث عن عمل . لو ان عملى الوحيد فى هذه الدنيا أن أهيم فى أرجائها وأرى أكبر عدد من الأشياء قبل أن أموت .. كنت كثيرا ما أهمس لنفسي وأنا هائم على وجهى كالتائه : هناك أشياء وأماكن وأناس لابد أن يراهم المرء فى هذا العالم قبل أن يموت .. غير أنى دائما كنت أفيق على الحقيقة المرة ، حين أعود آخر الليل الى زوجتى .. صفر اليدين .. كئيبا .. وتقول لى بعينها الصابرتين الحزينتين « والى متى سنظل هكذا .. الى متى .. ! »

وكان هذا الركن الصغير فى هذا المحل القائم الكئيب .. !  
أيمكن ان أحد فيه لنفسي نوعا من العزاء .. فأرى أشياء لم أرها - كما يقول محروس - وأسلى نفس الحزينة .. ؟ !  
ودون ان أدري ، وجدتنى أسأل محروس :  
- لكن الواد ده بيشتغل ايه يا محروس .. ؟ !  
وقال وقد تنبه لسؤالى :

- قصدك امبابى .. ؟ ! .. آه .. ده صبى ترزى .. كل دقيقة والتانيه حتلاقيه زى الجن بينط قدامك .. بس خللى بالك منه كويس !

لا أدري لماذا عاودتنى فى تلك اللحظة آخر كلمة قالها لى امبابى ، وراحت ترن فى رأسى ، « شايف انت كبير أد ايه . لكن برضه ضحكت عليك » . !

ما الذى كان يعنيه هذا الأفق الصغير بهذه الكلمات .. ؟ ! .

ورغم اننى كنت أعلم انها خرجت من فم ولد صغير ، لا يزيد عمره على الثانية عشرة ، الا اننى أحسست بها ترعزنى وتشككنى فى نفسى !

صحيح ، لماذا اختارنى انا بالذات - من بين الزبائن وعمال المحل - ليلعب لعبته العابثة السخيفة هذه ، ويضحك على .. ؟ ! لماذا يستهين بعض الناس أحيانا بأمرى ؟ كثيرا ما أسأل نفسى هذا السؤال المريب القاسى ، فتقول لى نفسى : « لأنك طيب » وحينذاك انتوى ان أكون فظا .. بل وشريرا ، لكى يقف كل واحد معى عند حده .. !

قرضت اسناني ، وانتويت او عاد هذا الولد ان استرد منه حقى كاملا ، واجعله يكف عن « حنجلته » السخيفة هذه ويشعر بالندم !

لم تمر نصف ساعة ، حتى لمحتة واقفا على باب المحل ، يرمقنى بنظرة طويلة ويبتسم .

ضايقتنى ابتسامته . ! نعم .. ما هى مناسبة الابتسام فى تلك اللحظة والدنيا حر .. والشمس تضرب فى رأسه ، والأسفلت يلسع قدميه والعرق يسيل خطوطا سوداء قدرة على وجهه .. ؟ ! .. لسوف أنزع هذه الابتسامة المتبجححة من على شفتيه ، وأوقفه عند حده .

ورآه محروس ، فالتفت لى وقال .. « أهو جه ابن الجنية تانى . مش قلتك ! »

ناديت عليه .. فأقبل نحوى يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وينظر لى بركن عينيه ، كأنما يوهمنى أنه خائف منى ، أو كأنما يوهم نفسه أنه يلاعبنى لعبة القط والفار .. ! وقبل ان أنطق بحرف ، بادرنى ساخرا :

— شفت بقه الفصل اللي عملته فيك .. ؟ !

وفوجئت بعمال المحل الثلاثة يضحكون ، فارتبكت .. !  
ويبدو انهم في تلك اللحظة كانوا في حاجة لأن يضحكوا ويضحوا  
عن قلوبهم الهموم ، ففردوا أنفسهم ، وأشعل كل واحد منهم  
سيجارة ، وللصدفة .. لم يكن هناك لحظتها زبائن فطلبوا  
« واحد شاي » واقتربوا منا في شبه حلقة ، وراحوا يترقبون  
حوارا ينشب بيني وبينه .. !

كنت أنا الآخر في أشد الحاجة الى تسلية ، غير اني رايت  
الولد يقف مني أمامهم موقف الند للند ، ويداني بالتحدى .. !  
قلت له في غيظ .. « طب وانت عارف اللي يسرق بيودوه  
على فين .. ؟ ! .. عالسجن على طول » .

فأرسل على الفور ضحكة ساخرة وقال : « ها .. انت  
فاكرني عبيط ؟ .. دول بيودوهم الأحداث يا جميل .. مش  
السجن .. دنا امبابي والأجر على الله .. »

أذهلني جوابه .. ورغم انني تضايقت لأنني خسرت بداية  
الجولة معه ، الا انني أحسست بقلبي يتفتح له ، ووجدتني ابتسم  
له رغما عني ، وما أن رأني ابتسم له ، حتى استخفه الفرح ،  
ودق على صدره وكرر نفس كلمته .. « دنا امبابي والأجر  
على الله .. »

لا أدري لماذا كان وقع اسمه غريبا على سمعي هذه المرة ..  
أليس هذا الاسم « امبابي » كبيرا على سنه .. ؟ ! وتذكرت في  
الحال شيخا مجذوبا .. له لحية طويلة بيضاء .. ويلبس  
الجبة والقفطان .. ويجلس دائما على مقهى صغير قريب منا  
في حارة الميضة ، يشرب القرفة والجنزيريل ، ومن حوله أتباعه ،  
واسمه الشيخ امبابي . ! قلت في فضول وسخرية :

— طب وامك سميتك ليه امبابى .. تقدر تقوللى .. ؟ !

قال وهو يتحنجل ويهز شعره الملبد ، فبدأ فى عينى كديك صغير ينفض عرفه فى زهو : « أقول لك يا سيدى .. عشان ولدتنى فى امبابة .. يوم مولد سيدى الامبابى .. آل وكانت عايزه تعملنى شيخ وتندهلى يا شيخ امبابى .. ها ها هاى » .

ثم التفت الى محروس فجأة وقال : « ياللا يا عم ادينى شريط نمرة خمسة .. وثلاث سوست .. احسن اتأخرت على الأوسطى بتاعى . أعوذ بالله عليه راجل ! »

ويبدو انه مثل صحيح .. ذلك الذى يقول « ما محبة الا بعد عداوة » فقد وجدتنى أحب امبابى . وأحب حديثه ومرحه وشغبه .. واوشكت ان انكشه مرة أخرى وأسأله أى سؤال عن « الأوسطى بتاعه » لكن بعض الزبائن دخلوا المحل فجأة ، ففترقت حلقتنا فى الحال ، ولزم كل واحد منا مكانه ، اما امبابى ، فقد أخذ بضاعته ، وانطلق كما انطلق فى الصباح الى الشارع .. بتفزز ويحجل ويعفى .

منذ ذلك اليوم ، وعلاقة اشبه بالصدافة ولدت بينى وبين امبابى ! كنت لا أكاد أراه يدخل المحل ، حتى تتفتح له نفسى ، وأنادى عليه .. اشاغبه ويشاغبنى ويشاحكنى وأضحكه .. وأبدد بالمزاح معه ذلك الملل الذى كان يهجم أحيانا على روحى ويكاد يكتم أنفاسى .. بل ان امبابى أصبح مع الأيام ظاهرة طبيعية فى حياتى ، لا يغيب يوما عن المحل ، الا وأحس له بوحشة ، وأسأل عنه محروس ، فيقول لى بابتسامته الشاحبة : « يعنى حىروح فىن ؟ بكره يا خويا تلاقيه ينط قدماك زى عفاريت الضهر .. » وفعلأ أفاجأ به فى اليوم التالى ، يندفع داخل المحل ، ويشق طريقه وسط الزبائن ، يشاغب معى كالعادة ويهزر ..

ويغنى ويصفر .. ثم يأخذ بضاعته وينطلق صائحا كالعادة في ضوء الشمس « حلاوتك يا واد يامبابي ياللى مفيش منك في البلد عشرة » فأبتسم من أعماقي ، وأواصل العمل بحماسة شديدة ! ..

غير ان الحياة ليست انا وامبابي فقط .. فقد بدأت احس لململ من عملى في هذا المحل ، واصبحت اتململ كل دقيقة على مقعدى العالى ، ذى الأرجل الخشبية الثلاث .. وتاقت روحي لأن انطلق في الشوارع من جديد .. ايمكن ان تمضى حياتى هكذا في هذا الكفن القاتم الرهيب ؟

وعاودتنى الكآبة .. عاودتنى بشكل ساحق وثقيل .. ولم تعد نفسى تتحرك لأى شىء اراد .. بل انى اكتشفت انى دائما أخدع نفسى باسم « التجربة » وأهول من الأمور .. فلا تجارب جديدة في هذا المحل ولا أى شىء يثير . صحيح ان الناس مختلفون ، لكنهم داخل المحل متشابهون .. متشابهون بشكل غريب .. الكل يجمعهم صراع واحد حول القرش .. ! .. وياعم صلى على النبى داحنا زباين ، وياعم على الطلاق نخسر فيها ، وتزعل ليه يا سيدى ، بين البايع والمشتري يفتح الله ! نفمة واحدة لا تتغير ، حتى تقززت منها نفسى واحسست بتفاهة حياتى ، ورحت أعمل وأنا مطرق الرأس في صمت ووجوم . !

غير ان امبابي كان دائما لكآبتى بالمرصاد ، لم اكن اراه بهرح ويفرح ويتحنجل الا وابتسم له رغما عنى .. ثم أجدنى أتساءل في ضيق وحيرة : أى جزء من قلب الانسان يمكن أن تنبع منه كل هذه السعادة وتفيض .. ؟ !

وكأنما العفريت كان يحس بسؤالى فيجيب عليه بضحكة أخرى مفاجئة .. ضحكة تنزع كآبتى وأضحك دون أن أعرف لماذا أضحك .. وهكذا .. أصبح امبابي هو سعادتى الوحيدة في هذا المحل المقبض الكئيب . !

وذاث يوم .. ساعة ظهر ، كان المحل خاويا تماما من الزبائن .. فالتجو ساخن ، وأسفلت شارع السد المواجه لعيني يخ حرا وصيدا ، والحركة فيه مثل النسمات تكاد تكون معدومة ، جلست سارحا في ملكوت لا أدريه ، وكأني في غيبوبة .. فجأة .. دخل امبابي .. ولم أصدق عيني .. !

كان رأسه الصغير يتدلى فوق صدره ، ونصف وجهه بعينه معصوب بقطعة قماش .. ويمشي ببطء يتحسس طريقه .

— مالك يا واد يا امبابي .. ؟ !

لم برد .. فقط زام بكلمات لم أفهمها ، ثم قال لحروس وهو يقترب منه ، ورأسه مطاط : « اديني دستتين زراير .. وبكرة خيط شيكولاني سودة » .

كان صوته خافتا .. وشفته السفلى متدللة في سخط وفي ألم كظيم .

امبابي هذا .. ؟ ! مستحيل .. وأين قفزه وحجله .. أين غناؤه وضحكته ! ؟

نهضت من مكاني ، وأسرعت نحوه .

— مالك يا امبابي .. ؟ !

— عيني .. !

قالها بنبرة واجمة مقتضبة خلعت قلبي .

صحت فيه : « مالها عينك .. وربني » .

ومد يده الى العصاة ، ورفعها عن وجهه ، ثم تطلع الى .

كانت احدى عينيه نصف مفتوحة .. اما الأخرى ، فجفناها منطبقين وملتهبين ، والدموع تسح منهما بغزارة .



كان وجهه متربا ، فاختلطت الدموع بالتراب على خده .  
وبدت خيوطها على وجهه كطرقات رفيعة موحلة متشابكة .  
انحنيت عليه ، وأمسكت برأسه بين يدي .  
- أفتح عينك .

وحاول أن يفتحها ، لكن عضلات وجهه ارتعشت بالألم  
وباليأس ولم يستطع . !  
امسكت بجفنيه في رفق ، وفتحتها .

كانت عينه اليمنى مصبوعة كلها بلون الدم .. وفي قلب الدم  
كانت نقطة صغيرة بيضاء معقودة .. !  
غاص قلبي .. !

العين الجميلة .. العين التي ذكرتني أول ما رأيته بتلك  
الفتاة التي تحب العيون الجميلة .. هذه العين ، تصبح فجأة  
قطعة مخيفة من اللحم الأحمر .. ؟ ! وهذه العقدة الصغيرة  
البيضاء ، والتي تكاد تلتصق بحافة أنسانها وتطبق عليه ،  
ماذا تكون .. ؟ !

صرخت فيه : ايه اللي عمل فيك كده ؟ !

قال وهو يسبل العصابة على عينه من جديد ، ويترك الى  
الأرض برأسه : « العيال كانوا يلعبوا العقلة والمخرب .. وقفت  
اتفرج .. نطت العقلة جت في عيني » .

تنهت لشيء غريب في صوته .. كان فيه تعب وارهاق .  
ولكن كان فيه لامبالاة أيضا .. أفزعنتني هذه اللامبالاة . اننى  
معقد من كل شيء يمس العين .. امبابى لا يعرف ان العين نور ..  
وأن الحياة من غيرها كآبة وظلام .. لقد أشرفت أنا نفسى على  
هذه الظلمة ذات مرة .. كانت « عملية » خطيرة ، ظلت الأربطة  
البيضاء بعدها على عيني أكثر من أسبوع ، وكنت أسأل نفسى

وأنا في عالم الظلام الموحش .. لماذا يبحث الناس عن معبود ،  
وفي الحياة نور العين . ؟ !

لكن صديقي امبابي لا يزال طفلا . انه لا يبالي . وسيهمل  
بالتأكيد عينه وتضيع منه .

قلت له وأنا أربت على كتفه في حنان وكأنني أرجوه :

— اسمع يا امبابي .. تودى البضاعة للأوسطى .. وبعدين  
تروح على بيتكم ، وتخلي أمك تفسلها لك .. والصبح توديك  
المستشفى .. فاهم .. ؟ !

وأوما براسه في صمت ، ثم أعطاني النقود .. واخذ  
البضاعة ، وسار نحو الباب .. خطوة خطوة .. وعلى مهل .

كانت هذه أول مرة يخرج فيها امبابي من المحل ، دون أن  
يقفز ويصفر ، أو يصيح كالعادة في مرح بجملته الحبيبة ..  
« حلاوتك يا واد يامبابي .. ياللى مفيش منك في البلد عشرة » .

وبدا المحل في عيني ذلك اليوم مقبضا وكثيبا أكثر من أى  
يوم مضى .

توقعت ان يغيب امبابي عن عيوننا عدة أيام بسبب عينه ،  
لكنى فوجئت به في اليوم التالي واقفا امامى في سكون .. كأي  
زبون غريب ، وفي يده القسيمة .. ! كان بنفس منظر الأمس ،  
ولكن بدون عصاية على عينه .

سألته : رحت المستشفى يا امبابي . ؟ !

— لا مارحتش .. !

— مارحتش .. ؟ ! مارحتش ليه .. ؟ !

قال في لامبالاة وضجر .

— أنا عارف بقى .. ياللا ادينى البضاعة ومشينى .. !  
 احسست كما لو انه يريد أن يقول لى : وانت مالك ..  
 وأن مسألة عينه هذه ان كانت تهمنى فهى لا تهمه .. واذن  
 فلأتركه فى حاله !  
 جذبته من كتفه بشدة ، وصحت فيه كانى داخل معه فى  
 معركة « طيب نزل ايدك الوسخة دى من على عينك » .  
 قال مزجرا .. « أصل الدموع نازلة ما بتبطلش » .  
 انحنيت عليه .. أمسكت برأسه ، وفتحت جفنيه ،  
 وتطلعت فى العين الجريحة .  
 ارتعدت .  
 كانت الحمرة قد ازدادت كثافة ، والعقدة البيضاء قد  
 اتسعت فى شبه دائرة ، وبدأت تزحف على انسان العين نفسه .. !  
 امبابى فى خطر .. ! ويبدو انى الوحيد فى كل هذا العالم  
 الذى يحس بهذا الخطر .. حتى هو نفسه لا يحس بالخطر .  
 قلت لأرج أعماقه بالخوف : انت عارف عينك دى لو خنرت  
 يحصل ايه .. ؟ !  
 همهم متسائلا : يحصل ايه .. ؟ !  
 قلت لأربعه : تبقى بعين واحدة . والعيال يقولوك ..  
 يا أعور !  
 ارتعشت ملامح وجهه وانقبضت .. ثم تطلع لى فجأة  
 وقال فى يأس وتعاسة :  
 — طب وانا أعمل ايه بس .. ؟ قوالى أنا أعمل ايه .. ؟ !  
 وظل متطلعا لى ، ينتظر الجواب ، والدموع تسح من  
 عينه .. !

طن سؤاله في رأسي ،

صحيح .. ماذا يفعل امبابي .. ؟

قبل سؤاله المفاجيء هذا : كنت أنا المسيطر على الموقف .  
ولكن في لحظة واحدة ، تعرى كل شيء .. !

كثيرا ما تختبئ في اعماقنا لذة كبرى خلف تألنا لآلام  
الآخرين .. لذة الاحساس بأننا « انسانيون » .. فنشارك الناس  
آلامهم ، ونهمس لأنفسنا في كبرياء ورضا .. أهناك أروع من  
هذا .. ؟ !

لكن امبابي عراني فجأة أمام نفسي ، حين ألقى في وجهي  
بالسؤال « طيب وأنا اعمل ايه .. ؟ ! »

اذن لابد للموقف ان يتغير .. فأما ان أقدم له الجواب على  
الفور وأما الا اجعل من مأساة عينه ملهاة اسلى بها قلبي الحزين ،  
فأتركه يخرج ببضاعته ، ولا ألومه بعد ذلك على اهمال عينه  
الجريحة ، وليكن مصيره بعد ذلك ما يكون . !

قلت بلا وعى ، وكأنى أخذ قرارا خطيرا في حياتى « تعرف  
تجلى البيت بكره الصبح بدرى ؟ »

قال على الفور ، متشبثا بالأمل « البيت فين .. ؟ ! »

أخرجت ورقة صغيرة ، وكتبت له العنوان بالتفصيل ..  
وتنفست من اعماقى فى ارتياح .

ها أنا لا أتالم فقط لآلام الآخرين ، بل أصنع أيضا لتخفيف  
آلامهم شيئا .. !

كنت اظن ان المسألة قد انتهت عند هذا الحد ، غير انى

اكتشفت في صباح اليوم التالي ان أبسط خطايا الحياة ،  
لا يمكن أن يتصدى لحوها الا مسيح جديد ، لا يخالجه الشك  
ابدا ، ويملك في قلبه لآلام الناس بحرا لا ينفذ من الدموع . !

فوجئت في الصباح بامبابي يدق على باب بيتي ، وقد ازدادت  
عينه سوءا ، وحتى العين الأخرى ، لم يعد قادرا على ان يفتحها  
وينظر بها الا بصعوبة . !

أخذته من يده ، وأنا احسن بقلبي يرتعش .. ! لماذا  
هكذا .. لماذا أضيف الى هموم روحى هموما جديدة .. ؟ ماذا  
افعل لك يا امبابي .. ماذا افعل .. ! واحسست على كاهلي  
بثقل الجبال ، واننى اتداعى . !

كنت قد حكيت لزوجتى في الليل حكايته .. وطلبت منها  
- حين يأتينا في الصباح - أن تذهب به الى المستشفى حيث  
انى لا أستطيع ترك عملى في المحل . وحين ناديت عليها ورات  
هين امبابي ، شهقت دون وعى شهقة عالية ، وبدت على وجهها  
علامات الألم العميق !

انتابنى شعور غامر بالراحة .

ما أجمل ان يقاسمك انسان آخر من قلبه ، احزانك من  
أجل هموم وآلام الآخرين . !

غير انى فوجئت بها تقول فى انفعال « مستشفيات لا .  
حيسيبيونا قاعدين فى عز الشمس للظهر .. وآخرتها يعطوله  
شوية غسيل ومرهم وبعدين يقولوا له روح على بيتكم .. !  
لا يا سيدى .. أنا عندى المرهم والغسيل .. روح أنت على  
شغلك وسيبهولى . »

وأنا سائر فى الطريق الى المحل عاودتنى نوبة رضا عن

نفسى ! ايمكن ان افعل لامبابى اكثر من هذا ؟ .. لاشئ فى مقدورى أكثر من ذلك . !

غير انى ما كنت أجلس جلستى التقليدية خلف الكيس على مقعدى العالى ، وهل الزبائن وبدأ طنين المساومات ، حتى عاودتنى الكتابة . واحسست انى افتقد امبابى وروحه المرحه .

فاجائنى مرة اخرى نوبة شك قاسية !

كيف تركته لزوجتى .. ؟ ! انا اعرف ان قلبها حنون .. والشهقة التى سمعتها تخرج من صدرها حين رأت عينه ، لايمكن ان اسمعها من الف طبيب وطبيبة .. ولكن ، أيكفى هذا .. ؟ مجرد طيبة .. وحنان ساذج ؟ ! لا .. كان لابد من المستشفى ، وبسرعة .. ! .. ماذا يحدث لو كنت تركت عملى فى المحل ، ولو « بالخصم » وأخذته الى أى مستشفى .. ؟ !

اهذا كثير فى سبيل أن احتفظ لانسان .. أى انسان بنور عينه ؟ اننا نضيع الوقت عليه ، والمرض يستفحل فى عينه ، وربما زوجتى الآن تتلهى بمأساته .. وتفرح هى الأخرى بأنها وجدت لنفسها فى الحياة دور المنقذ ، ولن ينكشف القناع ، الا بعد ان تتم كل فصول المأساة ، ويفقد امبابى عينه .

وثقلت على صدرى الكتابة !

غير ان الحياة ، وهى تمحو عن وجهها أبسط الخطايا ترفض أن تعلق ذنبها بانسان واحد ، وترسم لنفسها طريق الخلاص على نحو عجيب غير مفهوم ! .. فالذى حدث لامبابى مع زوجتى كان يشبه المعجزة فى يوم حزين ! .

كل الذى فعلته معه انها كانت تفصل له رأسه ووجهه بماء دافئ ، ثم تجلس على مقعد منخفض ، وتجلسه على الأرض

بين قدميها ، وتناول رأسه الصغير وتضعه على ركبتيها في حنان ، ثم تقطر له في عينه ، وتضع له المهرم ، وبعد ذلك تعطيه كوبا من الشاي بالطيب .

وشيء غريب كان يحدث للصبي في أغلب المرات : كانت تأخذه شبه سنة من النوم وهو مستلق برأسه على ركبتيها ، فتبقى جالسة في مكانها لا تتحرك ، وامبابي في غيبوبة الازهاق والنوم .. ثم ينتبه ، فينهض منتفضا ويرمش بعينه السليمة في حياء .. ثم يخرج على أن يعود اليها في العصر مرة أخرى ! .

واحيانا كانت زوجتي تدخله حجرتي الصغيرة ، وتطلب منه أن يستريح في الظل قليلا على الكنبه ، حتى تهدأ عينه من المهرم والقطرة ، فيغيب عن نفسه ، ويروح - دون أن يدري - في النوم ، ثم أعود من المحل فأجده لا يزال غارقا في سبات عميق ، وصدره الصغير يطرد انفاسا منتظمة عميقة ، أشبه بأنفاس رجل عجوز يستريح من شقاء الحياة الطويل ! .

ولم تمض أيام قليلة ، حتى بدأت بشائر المعجزة تلوح ! . بدأت حمرة العين تخف ، والعقدة البيضاء تأخذ في الانحلال ! .

تهلل قلبي بالفرح ، وافرحتي أكثر - وأدهشني في الوقت نفسه أيضا - أن امبابي لا يخلف المجيء مرة واحدة .. بل ان اصراره على الشفاء وعلى الحضور مرتين في اليوم الواحد .. كان قد حول الأمر بيننا وبينه الى سباق من أجل الشفاء ! .

ومع الأيام كانت عينه تصفو وتصفو .. والبياض الطارئ على انسانها يشف ويشف .. ثم جاء يوم ، وتلاشت العقدة البيضاء نهائيا من عينه ، وعادت العين الجريحة كما كانت مثل اختها ، لا يستطيع المرء أن يحدد ، أيهما كانت الجريحة ،

وتمنيت لو أقابل بالصدفة تلك الفتاة اللطيفة التي كانت  
تحدثني عن حبها للعيون الجميلة ، وأريها عيني أمبابي !

لحظتها أحسست ان في قلبي سعادة تكفيني لأعوام طويلة ،  
وتخيلت ، والفرحة تملأني ، حين يعود أمبابي إلينا في المحل من  
جديد .. يعود إلينا بكل حيويته ومرحه ، ويتحنجل ويتنطط ،  
ويشاغبني ويهزر ، ويصيح بجملته المزهوة الحبيبة « حلاوتك ياوادي  
بأمبابي ياللي مفيش منك في البلد عشرة » وتعود إلى المحل  
بهجته الوحيدة المفقودة ! .

لمحته بعد يومين ، يشق طريقه وسط زحام المحل .. كان  
مندفعا ومرحاً ووجهه الأسمر الصغير مشرقاً وبشوشاً  
بالعادة .. فصحت عليه بلا وعي ، وبودي ان أحتضنه :  
« أمبابي .. تعال يا أمبابي .. »

وتهللت روحى وفتحت للحظات مرحنا القديمة ، غير انه  
لم يكذب يسمع صوتي ، حتى توقف عن حنجلته فجأة ، وتطلع  
لي .. وما أن جاءت عيناه في عيني ، حتى فوجئت بنظرته تنكسر  
وترتخي ، ثم أقبل نحوي بخطوات بطيئة مرتبكة ، وقال وهو  
يحاول ألا يرفع عينيه في وجهي : « حضرتك عايز حاجة ؟ ! »

حضرتي ؟ !

أحسست برأسي يدور .. ولم أدر ماذا أقول .

ابتسمت له ابتسامة حزينة ، ثم أطرقت في كآبة !

« ١٩٥٩ »



## الصورة

ما كدت أصل شارع الكورنيش ، وأمد بصرى الى بعيد ،  
حتى رأيت العمارة التى يسكنها « حامد بيه » شاهقة ومشرفة  
فى الفضاء .

لم تكن العين تجهد نفسها كثيرا أو قليلا فى البحث عنها ،  
كانت بنية اللون ، معمعة فى الارتفاع ، حتى بدت وهى تبرز فوق  
البيوت المتلاصقة والمتراصة حولها مثل عنق أسمر طويل  
لا رأس له .

أجسست وأنا أتأملها من بعيد بشئ من السكينة يفمر  
روحي .. وبالرغم من أنى قطعت المسافة كلها من بيتى سيرا على  
الأقدام ، الا أنى حين نظرت الى ساعة يدي ، وجدت أنه لا يزال  
باقيا على موعدى مع الرجل أكثر من نصف ساعة .. قلت فى  
نفسى .. أقضى هذا الوقت على الكورنيش .

كنا فى الضحى . والشمس لم تشتعل بعد ، وموجات طرية  
ومنعشة من النسيم تهب من قلب النهر .. وبدأ لى الهواء لحظتها  
غامرا ومتدفقا وكأنه يكفى لكى تتنفس به المدينة أعواما وأعواما .

جلست على أحد المقاعد الرخامية ، ورحت أتصور ما يمكن أن يحدث في مقابلتنا التي ستتم بعد قليل . لكنى لم أعد لها أى كلام .. فبالأمس تحدثت مع الرجل بكل جوارحى . عرضت عليه المشكلة وقلت له أن الكأس قد فاضت ، وأنه لاشيء يثقل قلب المرء أكثر من الاحساس بالعجز . العجز حين يقف كل صباح أمام زوجته وأطفاله : وتمتد له عيونهم وأيديهم ، فلا يجد لهم في يده شيئاً مما يطلبون .

نعم لا داعى في التفكير فيما سأقوله للرجل ، فهو نفسه كفانى كثرة الكلام : حين قال لى والاستغراب يبدو في عينيه الواسعتين من خلف نظارته الطيبة السميكه .. « شيء غريب .. هذه المدينة الكبيرة كلها : ولا تجد لك فيها عملاً حتى الآن .. لا .. تعال لى غدا ، في مثل هذا الميعاد .. وسينتهى كل شيء » .

لقد انخص لى عمق احساسه بحالى بتلك العبارة البسيطة .. قالها من قلبه . والألم ينطق من على ملامح وجهه الوسيم النحيل . أجل .. لن اكلمه بعد ذلك عن مشكلتى أبداً .. ولاترك مصرى بين يديه .. ليوم .. أو لأيام أو شهور كما يشاء .

كانت الشمس لاتزال تفرش أشعتها على مياه النيل بدون حساب ، وتلمع على صدر الموج ، فتبدو مثل ملايين الريالات الفضية اللامعة .. تبرق .. وتموج .. وترتعش .. بل وخيل لى أنى أسمع لها رنيناً أيضاً .

وكان اليوم يوم أحد .. وبعض الناس في أجازات ، فركبوا القوارب والنشات . وملاؤا هواء النهر بصيحات وضحكات .. وراح بعضهم بدور بلنشاته حول النافورة التي تنبثق منها المياه الى أعلى الفضاء .

استنامت روحى لذلك المشهد ..

آه .. هو جميل ورائع ذلك النهر .. نهر النيل .. ولكن ..  
 كم هو غير جميل في نفس الوقت أيضا . أن يجلس على ضفته  
 انسان موجوع القلب .. وحزين ..

ولا أدري لحظتها لماذا تذكرت أن كثيرا من الناس ، في  
 بلاد العالم كلها يحبون الجلوس على ضفاف الأنهار ، ويسندون  
 خدودهم على أيديهم ، وبهزون أرجلهم في هدوء واسى ، ويحلمون .

ورحت أحلم من جديد .. ان « حامد بيه » قادر على أن  
 يجد لى عملا .. فهو رجل واسع الثراء .. والصلات .. وقد  
 ظل لعدد من السنين النائب الوحيد للدائرة التى تقع فيها قريتى ..  
 وهو معروف على نطاق واسع .. ولقد قابلنى بالأمس فى حماس  
 بالغ .. يا سلام .. لو يستمر هذا الحماس .. فيأخذنى من يدي  
 على الفور ، ويسلمنى الى عمل ما .. وفى أى مكان .. فلم يعد  
 أمامى مجال للاختيار .. المهم .. عمل .. أستقر فيه ..  
 ولو سألتنى بعد ذلك أى انسان .. « وانت بتشتغل فىن  
 يا أستاذ .. ؟ » فأجيبه فى الحال ، بلا تفكير ولا تردد ، ويكون لى  
 حينذاك مكان .. وعنوان .. وحين يسألنى طفلى الكبير كمادته  
 فى الصباح .. « انت رايح فىن يا بابا .. ؟ » أقول له فى زهو  
 وكبرياء .. « رايح الشغل بتامى .. وبكره حاخذك معايا هناك  
 يا حبيبى » .

يا سلام يا حامد بيه .

وتصورته من جديد .. نحيفا .. كثير من شعر رأسه  
 قد شاب ، ولون بشرته أسمر من طول ما يقيم فى عزبته فى الريف .  
 ومرت أمامى فى تلك اللحظة قوارب لسباق التجديف ، كل  
 من فيها يجدف بذراعيه ويفرد ثم يثنى بسرعة ركبتيه ، ويمرق  
 كالسهم على سطح الموج .. نظرت الى ساعتى .. كان الموعد قد

ازف . فقمتم اتمشى ببطء على اسفلت الكورنيش وعيناي معلقتان بالعمارة الشاهقة : ورحت اتملاها واعدت في طوابقها التى تزيد على العشرين .

● وحين ضغطت على جرس باب مسكنه ، فتح لى خادم أسود يرقل فى ثوب أبيض فضفاض : وحول وسطه حزام أخضر . . نظر لى مستفسرا قلت له : موعد مع حامد بيه . . وسرت خلفه فى الصالة . . كان أول شيء قابلنى فيها هو الهدوء العميق . . وكانت أرضها مفروشة بالسجاجيد ، وبدت أمام عينى طويلة وممتدة ، حتى خيل لى أول الأمر أنى مازلت اتمشى على الكورنيش . . كل شيء فى الصالة بدا وكأنه غافيا يحلم . . الستائر . . والصور . . والمقاعد الوثيرة المستديرة : والأوانى الخزفية المرتبة على رفوف مثبتة على الجدران .

وحين انتهينا من الصالة ، دخلنا شبه صالة أخرى أعدت كحجرة الطعام . . وعلى أحد كراسى المائدة ، كان حامد بيه يجلس . . مرتديا بدلة سوداء ذات خطوط بيضاء ، وفى يده سماعة التليفون يتكلم ، وأمامه جرائد الصباح وبعض المجلات ، وصندوق لامع فى حجم الكف مصنوع من خشب الأبنوس !

وحين رأتى ، ابتسم لى ابتسامة واسعة وهو مشغول بالكلام فى التليفون . . ثم أشار لى بيده ورأسه برقة لكى أجلس أمامه . وجلست . . كان كل ما حولى فى ذلك المسكن غارقا فى السكينة والهدوء . . حتى خطوات الخادم وهو يمشى فوق السجاجيد الكثيفة الحمراء كانت أشبه بالحفيف . . لذلك ، بدا صوت حامد بيه وهو يتكلم فى التليفون عاليا وله صدى . . ودون أن أحس ، وجدتنى أنصت رغما عنى لما يقول . كان يتناقش فى جد واهتمام . . سمعت اسم محدثه . . وسمعت أيضا ألفاظا تتردد أكثر من مرة ، وعرفت أن هناك نزاعا حول أرض ، وأن قضية مرفوعة منه فى محكمة الإصلاح الزراعى .

كان من الواضح أن الطرف الآخر في الحديث ، رجل واسع الجاه وله سلطان .. تمنيت لو تنتهى هذه المكالمة بالحديث عنى .. عن عمل لى .

لكنى كنت الرغبة فى نفسى .. وعنتبت على روى تطفلى السريع على علاقات الرجل بالناس ، ورحت أشتاغل فى شىء آخر حتى ينتهى من حديثه .

كانت أمانى لوحة كبيرة معلقة على الحائط مرسومة بالزيت .. وكانت الصورة فيها مريجة ومشرقة الألوان .. حقول خضراء ، يشقها صفان طويلان من الأشجار المورقة والمثقلة بالأزهار وبالثمار ، وبينهما طريق .. يبدأ واسعا .. ثم يضيق ويضيق .. حتى يتلاشى فى نقطة غامضة تلتقى بالأفق البعيد .

رحت أتأمل الصورة واتسلى .. لكن شيئا ما أحسسته من أول لحظة ينقص الصورة ، وحلا لى أن أشغل نفسى فى التفكير فى هذا الشىء وأجهد ذهنى فى البحث عنه ، حتى ينتهى الرجل من الحديث .

لكنى لم أستطع .. كنت مشدودا الى كلام الرجل .. وكان شيئا ما .. واجما وحزينا يطفو تارة على سطح الصورة .. ثم يختفى تارة أخرى ويتلاشى .

وانتهى الرجل من حديثه فجأة .. وضع السماعة على التليفون ، واتجه فى صمت بعينه مع عينى الى اللوحة ، ولم تلبث أن ارتسمت على شفثيه ابتسامة خفيفة وقال .. « منظر من بلدنا .. رسمة الرسام وهو فى زيارة معى العزبة » .

قلت : فعلا .. لوحة جميلة .. لا تمل العين من رؤيتها أبدا .

وخطر لى أن اكمل له رأى فأقول .. « لكن شيئاً  
ما بنقصها .. شيئاً يمكن العثور عليه » .

لكنى تذكرت حالى ، وسخرت من نفسى . أنا لم آت الى  
هنا لأضيع الوقت فى التأمل والحديث عن لوحة رائعة وملونة ..  
أنا جئت هنا ليقول لى هذا الرجل الطيب .. « لقد كلمت لك  
فلانا بخصوص عمل .. » أو لينهض من مكانه ، ويخرج معى ،  
ويصطحبنى فى عربته هنا وهناك .. وأحس أن باب الأمل أصبح  
مفتوحاً أمامى .

لزمت الصمت .. لكنه ظل يرقب الصورة فى سكون  
واستغراق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه .. « انظر .. كيف تنتهى  
آخر شجرة مع آخر نقطة فى الطريق » .

قلت ونبرة صوتى يكسوها الحزن والأسى .. « تمام ..  
الأشجار تنتهى .. والطريق كذلك ينتهى .. ولكن بشكل لا يوحى  
بالانتهاء . ان الطريق والأشجار تظل قائمة وممتدة فى خيال  
الإنسان » .

قال وقد تملكه الطرب فجأة ، واتسعت عيناه حتى ارتفع  
حاجباه عن نظارته .. « تمام .. تمام .. فكرتك رائعة .. كنت  
أحس بها .. ولكن لم أكن أستطيع التعبير عنها .. لست أدرى  
لماذا .. الإنسان منا فى هذه الأيام مشغول جداً .. مشغول  
بحيث لا يجد لحظة من الفراغ يعيشها فى لوحة مثل هذه » .

مستنى عبارته الأخيرة .. أحسست من أعماقى برغبة فى  
أن اصرخ .. صرخة أجمع فيها أحزاني ، وأجرح بها قلبى وأقول  
له .. « أنت لا تملك لحظة من فراغ .. وأنا حيأتى كلها  
فراغ فى فراغ » .

لكنى لزمت الصمت .. وأطرقت .

اننى أستحى من أن أصرخ لنفسى فى وحدتى ، فكيف أصرخ  
صرخة العذاب فى وجه رجل طيب مثل هذا ، تطوع لخدمتى ،  
ولم أعرفه الا منذ زمن قليل .. !!

وأحسست بأحزاني تطفو وتسد حلقى ، وتمنيت لو يترك  
مسألة اللوحة هذه ، ويدخل من تلقاء نفسه فى الموضوع ..  
الموضوع الذى جئت من أجله ، حسب اتفاقنا سويا بالأمس .

ولم يطل صمتنا ، فقد قام الرجل من على مقعده ، وخطا  
بظهره خطوتين الى الوراء ، ثم قال وعيناه لا تزالان عالقتين  
بالصورة .. « يبدو عليك أنك تفهم جيدا فى الفن .. طيب ..  
ما رأيك لو كان الرسام قد رسم بعض طيور ترفرف فى الهواء ..  
بعيدا عن آخر شجرة .. هناك .. فى ركن الصورة .. ؟ ! »

.. أحسست من حيوية صوته ، أن قلبه مفتوح وفرحان  
للحديث عن لوحته ، وأن لحظة حماسه ونشوته يجب الا تطفئها  
همومى وأحزاني الراقدة فى نفسى .

قلت .. « من الجائز يا حامد بيه .. وعلى كل حال .. فانا  
أحسست من اللحظة الأولى بشيء ينقصها .. ربما طيور كما  
تقول .. وربما شيء آخر » .

واغرقت نفسى فى المشهد عن طيب خاطر .. ربما فكرة منى  
تعجبه ، وتشعل حماسه لعملى .. ومرت لحظات .. ولم البت  
أن وجدتنى أقول وكأنى اكتشف لنفسى شيئا مدهشا ..  
« ما رأيك يا حامد بيه .. لو كان الرسام قد رسم على الطريق  
آثار أقدام .. رمزا لانسان كان يمر من هنا .. ذات يوم ؟ ! »

ورأيت عينيه تتسعان أكثر وأكثر ، ووجهه الأسمر يزداد  
بهجة وتفتحاً ، ولم يلبث أن اقترب منى وصاح فى فرح وكأنه

يود أن يعانقني .. « يا سلام .. على الفكرة .. فكرة ممتازة ..  
صحيح .. لماذا لا يرسم الرسام آثار أقدام . ؟ ! »

ودون أن أدري ، وجدت نفسي ابتسم له من قلبي ، وجواب  
ابتسامتي هو الآخر بضحكة من أعماقه ، ثم قال وهو يتنهد ..  
« تعرف .. الفن في نظري أجمل شيء في الحياة ، بدونه تمر  
الأيام على الواحد منا مملة وثقيلة .. فعلا .. نحن نضيع أيامنا  
في تفاهات .. لقد سمعت بأذنك حين دخلت وأنا أتكلم في  
التليفون .. مشاكل لا تنتهي .. ولكني سأكلم الرسام اليوم في  
هذه الفكرة » .

وخلع نظارته . وراح يمسحها بمنديله على مهل .. ثم لبسها  
وعاد يتأمل الصورة من جديد ويقول :

ـ « تخيل معي .. أثر قدمين مفرطحين .. كبيرين ..  
يشغلان كل بداية الطريق .. ثم تصغر القدمان بعض الشيء ..  
ثم يصغر أثرهما أكثر فأكثر ، حتى يتلاشيا تماما عند آخر نقطة  
في الطريق .. آه .. انها ستصبح أجمل لوحة في بيتي .. »

وران علينا السكون لحظات ، جاء خلالها الخادم وهو  
يحمل صينية عليها فنجالان من الشاي ، وبعض قطع من  
البسكويت .. واختلست نظرة من ساعتى دون أن يلحظ الرجل ..  
كانت قد بلغت العاشرة والنصف .

ياه .. لقد مر أكثر من ساعة ، ولم يثر بيننا كلام من قريب  
أو من بعيد عن الموضوع الذى جئت من أجله .. توقعت لحظتها  
أن ينشغل الرجل قليلا بشرب الشاي ، فينسى حكاية اللوحة  
هذه ، وينظر لى وجهها لوجه ، ويتذكر ما جئت من أجله ،  
ويتكلم فيه .

ورأيت يده تمتد فى هدوء الى التليفون ، ويدير القرص .



آه .. ربما جاء الفرج .. لابد انه سيكلم انسانا كبيرا  
بخصوصي ، يأخذ منه موعدا ، لتتوجه لمقابلته . بعد ان تنتهى  
من الشاى .

— الو .. الأستاذ عبد المنعم من فضلك .

— .....

— خرج . ؟ . من خمس دقائق . ؟ . طيب مرسيه .  
وهز رأسه وهو يضع السماعة ، وقال والأسف يبدو على  
وجهه .. « خسارة .. تصور خرج من خمس دقائق » .. على  
أى الأحوال .. سأصل به اليوم .. ضرورى .. ضرورى ..  
وأشار لى كى اتناول فنجال الشاى ، غير ان احساسا  
خفيفا باليأس كان قد تسلل الى نفسى .. قلت له وانا ادارى  
لهفتى وأشفاقى .

— من هو ...

قال على الفور .. الرسام .. كنت أسأل عنه .. فكرتك  
عن الاقدام أعجبتنى جدا .. ولن ارتاح حتى انفذها فى أقرب  
وقت .

قال ذلك فى حماس وكأنه يحيينى ويرضينى بكلماته ؛ ثم  
مد يده الى اللعبة الأبنوسية الموضوعة امامه بجوار الجرائد ،  
وما أن فتحها وأخرج منها سيجارتين ، حتى حدث شىء غريب  
استيقظت له — فجأة — كل حواسى .

لقد انبعثت من اللعبة أنغام موسيقية ذات إيقاع متتابع  
وجميل .. لم يكن يبدو على وجه الرجل وهو يقدم لى  
السيجارة ، أى احساس غير عادى .. كل شىء فى بيته كان يجرى  
هادئا وطبيعيا .. وترك اللعبة مفتوحة ، وظلت الموسيقى  
دائرة .. هادئة ومتموجة أحيانا .. ومتتابعة وراقصة أحيانا

أخرى .. وكل شيء في الجلسة أخذ طعما آخر .. أحلى وأجمل وأغرب .

رشف الرجل جرعة شاي ، ثم جذب نفسا طويلا وعميقا من سيجارته ، ثم قال وهو ينظر الى علبة الأبنوس : البيانو الذي في داخلها يعطى لحنا واحدا .. لا يتغير .. لكنه جميل على أي حال .. ومريح للأعصاب .. خصوصا لو تأمل الانسان لوحة مثل هذه لحظة سماعه .

قلت له ومشاعري بدأت تتفكك وتستريح .. « بالفعل .. اللحن ماشى مع الصورة ، لقد رأيت علبة مثل هذه في خان الخليلي .. تفرجت عليها في مرة من المرات . كانت جميلة . ولكن هذه أجمل بدون شك . وأغلى أيضا بكثير .. »

قال بحماس « لا .. لا .. هذه العلبة شيء آخر .. انها من فيينا .. فيينا فيها أشياء كثيرة وعجيبة .. أنا زرتها مند سنتين .. غريبة هذه المدينة .. أنت لا تتصور .. »

وراح يحكى لى عن أيامه في المدينة البلورية الساحرة .. انزلق الى الحديث عنها دون أن يحس هو .. ودون ان أحس أنا .. كانت علبة الأبنوس مفتوحة .. والنغم لايزال مسترسلا متتابعًا حلوا وسريعا .. حتى أنني تخيلت وأنا أستمع لكليهما أنى أرى « سندريلا » الصغيرة وهى تشب على قدميها وتتماوج وترقص وتحلم داخل العلبة السحرية .. ودار بى الرجل دورة جميلة ورائعة في بلاد الشمال على أنفام البيانو الصغير ، وكانت اللوحة تطل على من فوق الحائط في انشراح وهدهوء . وتخيلت آثار الأقدام وقد رسمت فيها على طول امتداد الطريق ، وأحسست بأشواق بالغة الحلاوة والحزن تتهاج في روحي .. وأن العالم كبير كبير لا حدود له ، وأنى لأبد في النهاية سأجد لنفسى فيه مكانا .. وعملا ما .. أستقر وأحيا فيه .

لكنى تنبّهت فجأة من خواطرى .. فقد دق جرس التليفون .  
 وكان رنينه المفاجيء عاليا ومزعجا جدا .. وضع حامد بيه يده  
 على السماعه فى ضجر ليوقف الرنين .. وما أن رفعها وبدا فى  
 الكلام حتى فهمت أن محدثه هو نفس الشخص الذى كان يتكلم  
 معه عند دخولى .. فقد تكررت نفس الألفاظ .. النزاع ..  
 والأرض .. ومحكمة الإصلاح

ولم ألث أن رأيت ملامح وجهه تكتسى بعلامات الجهد ،  
 وراح يقول فى استغراب .. « ماذا تقول .. ؟ ! .. اليوم  
 بالذات ؟ .. شىء غريب .. لا لا .. سأحضر حالا .. »

أحسست بقلبي ينقبض . ورأيت حامد بيه ينهض من على  
 الكرسي ، ثم نظر لى وهو يقول فى تأثر .. « أنا متأسف جدا .. ،  
 أنا مضطر للسفر اليوم .. وسأبقى فى العزبة عدة أيام .. كان  
 فى ذهنى أن نخرج الآن معا .. وأقدمك لواحد من أصدقائى ..  
 ولكن معلش .. كن مطمئنا .. لا تقلق من هذه الناحية .. »

قلت له وشبه غمامة تزحم رأسى .. « متشكر .. متشكر  
 خالص .. أنا عارف ان ظروفك صعبة .. سأتصل بك بعد  
 أسبوع .. فى مثل هذا اليوم .. »

قال .. « تمام .. أكون رجعت .. وعلى العموم .. لقد  
 أمضينا معا وقتا لطيفا .. »

قلت وأنا ابتسم له .. « جدا .. جدا .. »

كنت قد نهضت أنا الآخر من على مقعدى .. ورأيتّه يتجه  
 بخطواته نحو باب مسكنه ، فتبعته .. ولكنه توقف فجأة  
 واستدار مرة أخرى نحو المسائدة ، ومد يده الى العلبة الأبنوسية  
 وقفلها .. وفى الحال ، انقطعت الموسيقى .. وانعقد الصمت  
 الثقيل على المسكن من جديد .. وخرجنا مسرعين .

كانت عربته السوداء الكبيرة تنتظره .. وفتح له السائق

بابها ودخل فيها ، ثم أشار لى وقال مجاملا .. « ممكن  
أوصلك .. »

قلت مرتبكا .. « شكرا .. سأتمشى قليلا على  
الكورنيش » .

وانطلقت به العربة كالريح .. وحين اختفت عن عيني بعد  
لحظات ، رحت أرقب أمواج النيل فى وجوم ، وأتمشى على  
الكورنيش وحدى من جديد .

« ١٩٥٧ »

## الصيد

بعد اسبوع ، ذهبت الى حامد بيه كما اتفقنا ، وكلى امل .  
 كان كل همى الا يحس الرجل انى أصبحت ثقلا عليه ، غير  
 ان الخادم لم يكذ يخبره بوجودى حتى رأيته يقبل نحوى باسم  
 الوجه ، ومد لى ذراعه مرحبا .. « أهلا أهلا .. جئت فى الوقت  
 المناسب .. فقط سأتناول لقمة صغيرة ، ثم نخرج فى الحال ..  
 لابد أن ننتهى من موضوعك اليوم .. تعال . »  
 كان يرتدى ملابسه المنزلية .. شيشب .. وبيجامة ..  
 وروبا حريرا فيه نقوش صغيرة لامعة ومفضضة .

قادنى الى نفس الحجرة التى جلسنا فيها فى المرة السابقة ،  
 حجرة المائدة . كان يتهى لتناول افطاره ، وكانت بعض ألوان  
 الطعام موضوعة على المائدة بشكل منسق وجميل ، وأصنافها  
 توحى بأنها من الريف .. فطير مثلثت .. وجبن أصفر قديم ،  
 وقشدة .. وعسل أبيض ، وبرتقال كبير بسة ، خمنت أنه  
 لابد من ثمار حديقته فى العزبة .

قال لى فى بشاشة ونحن نجلس الى المائدة .. « اكل  
فلاحى .. هيا .. معى .. »

اعتذرت له شاكرا .. واعاد على عزومته فى الحاح وكرم ..  
لكنى فى الحقيقة لم اكن استطيع ان ابتلع شيئا .. ومع انى كنت  
قد تناولت لقمة صغيرة مع زوجتى وأولادى فى الصباح ، الا اننى  
بعد ان قطعت طريق الكورنيش الى بيته ، وكان هواء النهر يهب  
من حولي ، أحسست بقرصة الجوع فى بطنى .. كان يخيل لى فى  
تلك اللحظة ان معدتى يمكنها ان تطحن الزلط .. غير انى لسبب  
لا ادريه كنت قد فقدت شهيتى تماما بمجرد ان اقتربت من  
بيته .

قال وهو يمد لى بيده ببرتقالة ، وفمه مشغول بمصغ  
الطعام .. « اذن تأكل هذه على الأقل .. قل لى .. كيف  
حالك .. وأولادك .. ؟ ! »

تمنيت فى تلك اللحظة ان اكون شجاعا .. فأحكى له  
بصراحة عن حالى بعد ان سافر الى عزبته .. وددت لو أقول له  
انى قضيت الأيام السبعة أنتظر عودته بفارغ الصبر .. أجوب  
شوارع القاهرة على غير هدى ، واتفنن فى قتل الوقت .. اتفرج  
على الناس فى الطرقات ، وعلى المعروضات فى الفترينات ،  
واتوقف لأعد طوابق العمارات الضخمة الشامخة ، ثم أعيد عدها  
مرة أخرى خوفا من ان اكون أخطأت الرقم الصحيح ، وأدخل  
مزادات البيع لأتسلى بنداءات الدلائل وأساليب المشترين  
والنصابين والمحتالين ، وأقف على محطات الترام والأنوبيس  
واتفرج على الركاب وهم يتزاحمون ويتشاثمون وربما يتعاركون .

كنت أود ان أحكى له كل ذلك بالتفصيل ، وأحكى له أيضا  
عن الكتابة الصامتة التى كانت تلفنى أنا وزوجتى وأطفالى وكلنا  
أمل فى عودته .

تنهدت وقلت في حياء .. « الأولاد عال .. بخير والحمد لله ..  
طول الأسبوع ونحن جميعا في انتظار عودتك .. »

قال لى وقد أخذته كلمائى وتوقف عن مضغ لقمة كانت في  
فمه « العفو .. العفو يا أخى .. تصدق بالله .. كنت دائما  
على بالى وأنا في العزبة .. أنت انسان طيب .. ولازم تشتغل ..  
لازم .. وفي وظيفة معقولة ومناسبة .. تعرف الدكتور  
محسن بيه الهرنوبى .. ؟ ! وكيل وزارة الخارجية سابقا .. ؟ !  
سندهب اليه الآن .. معنا موعد معه .. هذا الرجل وحده هو  
الذى سيجد لك عملا بالتأكيد .. لقد كلمته عنك .. واخذت  
منه وعدا .. أن صلاته واسعة وعديدة .. وله نفوذ أيضا ..  
وهو صديقى منذ أيام الطفولة ..

احسست بفرحة جارفة تملك كيانى .. ودون أن ادري ..  
انبسطت عضلات معدتي فجأة .. وتفتحت شهيتى للطعام ..  
وودت لو بعيد على عزومته من جديد وأشاركه في اكل الفطير ..  
ابتسمت في نفسى ، ورحت أكل فصوص برتقالتي بشهية وعلى  
مهل ..

وعاد يقول لى وهو منهمك في طعامه .. « تعرف ان ملحوظتك  
عن الصورة أعجبتنى جدا .. جدا جدا .. ؟ ! »

وبلا وعى ، وجدتنى أطلع الى الصورة المعلقة على الحائط ،  
وكدت أصرخ وأقول له .. « لا لا .. أرجوك .. كفانى كلاما عن  
الصورة .. وعن الفن .. وعن الموسيقى .. وعن الحياة ..  
كفانى ما حدث في المرة السابقة .. أرجوك .. خلنا في  
الموضوع .. »

لكنه مضى يقول وهو يمضغ الطعام في هدوء ، وعيناه تنظلمان  
الى الصورة .. « هل تذكر ملحوظتك .. ؟ ! عن ضرورة رسم

آثار أقدام انسانية فى الطريق .. ؟ ! .. لقد تكلمت عنها مع بعض  
أصدقائى .. وبالأذات مع محسن بيه .. لقد أعجب بها جدا ..  
وهو يريد أن يراك .. أنه يهوى اقتناء التحف واللوحات  
النادرة .. »

عاودت الطمأنينة روحى للذكر اسم محسن بيه .. فأن يحدث  
بينى وبينه تعارف على هذا النحو ، وقبل أن أراه ويرانى ،  
هذا شىء جميل ومبشر للغاية .

كنت اظن أن حامد بيه سىظل جالسا الى المائدة ، يأكل  
ويتسلى معى بالحديث حتى يأتى على كل ما أمامه من طعام  
لكنى فوجئت به ينهض مرة واحدة من على مقعده ، ثم نادى على  
الخدام الواقف عن قرب وقال له .. « جهز لى بدلة يا عبده ..  
البدلة الكاروهات .. »

ثم التفت لى وقال مستأذنا وهو يغادر المائدة .. « عن  
أذنك دقيقة .. البس ونزل على طول .. »

ودخل غرفة جانبية خلف خادمه .. وبقيت وحدى أنتظره .  
وعلى غير ما كنت أتوقع .. لم يغب فى ارتداء ملابسه ، فقد  
رأيتة بعد دقائق قليلة ، يخرج من الغرفة بخطوات نشيطة  
مرحة ، وقال لى وهو يشير بيده نحو باب مسكنه .. « تفضل » .

كان يرتدى بدلة خيل لى أنها جديدة ، لم تلبس من قبل  
ابدا .. بنية اللون .. كاروهات .. وبثلاثة أزرار .. بدأ فيها أكثر  
طولا .. وأكثر رخاء وأناقة ، وكأنه ذاهب الى حفل كبير ساهر .  
وخرجنا من البيت .. وتنفس الصعداء .

كانت عربته السوداء الفاخرة تنتظره .. وما أن رأنا



السائق ، حتى نهض من جلسته على أحد الكراسي في الشمس ،  
وأسرع نحو باب العربة وفتحه . وأشار لى حامد بيه بالدخول ،  
فدخلت . . وقال للسائق وهو يعتدل في جلسته ويفك أزرار  
جاكته . . « على نادى الصيد . . »

نادى الصيد . . ؟ !

لم اكن أدري من قبل أن في القاهرة شيئا اسمه نادى  
الصيد ، رغم أنه كان يخيّل لى من كثرة تجوالى وتسكّفى في أرجاء  
المدينة ، أنى أعرف كل شبر فيها .  
وانطلقت بنا العربة ، وسادنا الصمت .

كل لحظة من لحظاتي مع هذا الرجل ، كانت امتحانا قاسيا  
لأعصابى . اذا التزم الصمت ، كان على أن أحترم صمته ، فالتزم  
السكوت أنا الآخر حتى لا يكون وجودى معه عبئا عليه . . واذا  
تكلم فجأة ، كان على أن أسرع فأنتصت لكل كلماته بكل جوارحى  
وأبحث له عن الرد المناسب ، حتى أكون خير أنيس له في  
رفقته .

كنت وأنا معه مسلوب الإرادة ، زمام امرى بيده ، ولا أدري  
من مصرى معه أى شيء . . كان على دائما أن أتقبل عالمه الذى  
يعيش ويتحرك فيه بلا أدنى تفكير أو تفسير . . ولو قال لى  
حينذاك . . هيا بنا نرمى انفسنا في البحر لنبحث لك عن عمل في  
قاعه ، لأومات له براسى موافقا ، وقدفت أمامه بنفسى في البحر  
على الفور ، وأرحت ضميرى .

كانت العربة تنطلق بنا ، والصمت يسودنا ، فلا أسمع  
الا صوت الهواء وهو يثّز ويصطدم بواجهة العربة في انطلاقها  
السريع .

ظلت العربة تطوى الطريق بنا . . وفي دقائق ، كنا قد اجتزنا

مبانى المدينة وبدأت الشوارع تمتد أمامنا واسعة وفسحة وشبه خالية ، ثم عرجت فجأة الى اليمين ، ودخلت شارعاً عريضاً طويلاً : تظللته أشجار كثيفة ضخمة .. وخيل لى أنى أسمع طلقات نارية تدوى فى الفضاء .

لابد اننا اقتربنا .. فقد كان هناك صفان طويلان من العربات الفخمة تزحم الطريق حتى لم يكن هناك موقف لعربتنا .. وفجأة .. تباطأت العربة .. ثم توقفت أمام مبنى أبيض صغير وأنيق .. وأسرع السائق وفتح لنا الباب .. وهبطنا .. وسرنا نحو باب المبنى .

كنت وأنا جالس فى العربة بجوار حامد بيه .. أتصور نادى الصيد هذا ، مكاناً هادئاً وغارقاً فى السكينة ، يخطر عليه الناس فى هدوء وراحة بال . ويجلسون فى استرخاء ، ويمدنون أرجلهم أمامهم ، ويعطون وجوههم لشمس الشتاء ويستدفئون ويثرثرون، ويقضون أيامهم الفارغة بعيداً عن ضوضاء المدينة .

ولكن .. ما ان دخلنا من الباب ، حتى وجدت نفسى فى عالم آخر تماماً .

من أول خطوة خطوناها بداخله ، واجهنا زحام شديد .. جموع من الرجال والنساء تتدافع وتتزاحم وتشرب بأعناقها وتنادى بشكل غريب لم أفهمه .

كان البعض يصيح .. والبعض يجرى مهرولاً كأنه يخشى ان يفوته قطار .. والبعض الآخر تقترب رؤوسه وكأنه يهمس لأسرار .

وأحسست بحامد بيه يجذبنى من ذراعى ورحنا نشقى الزحام بصعوبة ثم توقف أمام "سبورة كبيرة سوداء .. مكتوب عليها أسماء .. وأمام الأسماء أرقام .. ومضى يقرأ فى السبورة

باهتمام .. فرحت أفراً أنا الآخر . وفوجئت باسم " محسن الهرنوبى " مكتوباً عليها وكان هو الاسم الثانى فى قائمته .

لم أفهم من الأمر شيئاً .. وكنت فى نفس الوقت لا أريد أن أفهم أى شئ .. بل انى أحسست بأنفاسى تضيق . ورأسى من الزحام والضجيج تكاد تدور .. وخطر لى أن اجازف وأقول له .. « أرجوك .. لقد تعبت اعصابى .. عن اذنك .. وسأقابلك فى يوم آخر » . ثم أخرج من هذا المكان . ولا أربى وجهى بعد ذلك أبداً ، ولكن من أمر مصيرى ومصير اولادى بعد ذلك ما يكون .. !!

لكنه تحرك من أمام السبورة فتحركت أنا الآخر خلفه كالذهول .. ومضينا نشق الزحام . ثم صعدنا ثلاث درجات . ورايت صفين طويلين من المناضد . كل منضدة تغطيها مظلة كبيرة وملونة مثل مظلات البحر ، والرجال والنساء يجلسون اليها ، وأمامهم تمتد مساحة واسعة ومستطيلة مثل ملاعب كرة القدم ، نبت فيها عشب كثيف قصير أخضر .

لأبد أنها حلقة الصيد .

وتقدم حامد بيه الى منضدة وجدناها بالصدفة خالية ، فجلسنا اليها .. ثم سمعته يصيح فجأة وبأعلى صوته .. « يا دكتور محسن .. يا محسن بيه » .

والتوى منى عنقى دون أن أحس ، ورحت انطلع لأرى هذا الدكتور محسن .. رمز آمالى جميعا .

ولاحت رجلا يقف فوق العشب داخل الحلقة .. يلوح لحامد بيه ، وعلى وجهه ابتسامة تكفى لوجوه آلاف الرجال المهمومين .. ثم أقبل يخطو نحونا بخطوات واسعة نشطة وكأنه يجرى .

كان رجلا يقارب الخمسين من عمره ، ومع هذا لم يكن على

وجهه آثار لآى غضون .. وكانت سمرة وجهه مشربة بحمرة خفيفة . وبرتدى بنطلونا وقميصا .. وفوق القميص بلوفر بكم طويل .. وفى يده اليمنى بندقية صيد .

استرحت لمنظره من الوهلة الأولى .. كان يبدو متفتحا وفرحانا بالحياة .. وحين بلغ مكاننا ، قام حامد بيه ، وسلم عليه .. ثم استدار لى وقدمنى اليه .. وقدمه الى .

اعجبنى سلام الرجل .. كان سلاما فيه صحة وعافيه وشباب ، وفيه ترحيب أيضا .. ولا أدرى لماذا داخلنى اليقين اننى لابد مشغل على يديه . وفى وقت قريب جدا .

وما كاد حامد بيه يطلب منه الجلوس معنا ، حتى سمعنا جرسا يدق ثلاث دقائق متتابة .. فحدثت فى الحال ضجة كبرى ، واستاذن منا الدكتور محسن ، وذاب فى الزحمة عن عيوننا ، وهرع كل الناس الى حلقة الصيد ، واتخذ كل منهم لنفسه وقفة أو جلسة .. ثم عماد الجرس فدق مرة أخرى دقة واحدة ، فالتزم الجميع الصمت وران على المكان سكون عميق .

كان الصيد قد بدأ .

لأول مرة فى حياتى كنت أشهد عملية الصيد هذه .. كان الشعور بالفربة يملأنى .. وفى بعض اللحظات .. كان يخيل لى ان الناس كلهم من حولى يحسون بأنى غريب عليهم .. ودخيل على عالمهم هذا .. وكنت أحيانا أختلس النظر الى من يجلسون أو يقفون بجوارى ، فلا أجد أحدا برمقنى بنظرة ، أو حتى يحس بوجودى .

كان الجميع لاهين بترقب المعركة المنتظرة ، فرحت أنا الآخر أترقبها ولكن بغير حماس ، وبودى لو تنتهى فى لحظة ، ويعود لنا الدكتور محسن ، وتكلم فى الموضوع ، وننتهى منه على أى وجه ، ثم أغادر المكان عدوا ، الى أعماق مدينتى .

وابتدا الصيد .

كان هناك شاب أحمر الوجه ، واقفا داخل الحلقة ، ومصوبا فوهة بندقيته الى الأرض بشكل غريب أثار فضولى ، فمضيت أرقبه .

وفجأة .. لوح رجل براية حمراء ، فخرجت حمامة صغيرة سوداء من حفرة في العشب ، وانطلقت في فزع في الفضاء ، وتبعها الشاب الأحمر بفوهة بندقيته .

وأطلق رصاصة .. وسكنت حتى الهمسات .

ثم انطلقت الرصاصة الثانية ، وشاربت الأعناق .

ثم انطلقت الثالثة والأخيرة .. لكن الحمامة السوداء ظلت ترفرف في الفضاء ، ورأيتها تبتعد مفزوعة في اتجاه مباني المدينة البعيدة .

ودون أن أحس .. وأنا اتبع الحمامة بعينى ، وجدتني أتذكر .. أنا واقف في بلكونة بيتى في السيدة زينب ، وطفلى الصغير واقف بجوارى ، يشير في نشوة وفرح الى سرب من الحمام تعود أن يحلق ساعة العصر من كل يوم حول الأبراج القريبة من سطح بيتنا ، ويهلل في طرب ويصيح .. « الله .. شايف الحمام يا بابا .. أنا باحب الحمام يا بابا .. اشترى لى حمامة والنبي با بابا » .. ويظل الصغير يرقب الحمام بعيونه الطفلية الفرحة المنبهرة ، حتى يهبط الغروب على الحى .. وتنتشر العتمة ، فيهبط الحمام عائدا الى برجه فى سكينه وأمان .

هذه الحمامة الهاربة ، المتخبطة فى الفضاء من الفزع .. لو تطير .. وتظل تطير .. حتى تقترب من بيتى ، وتحط على بلكونة شقتى ، وتأنس الى طفلى الصغير .

غير أنى افقت على الضجة وهى تعلو وتتزايد من حولى ..  
كان البعض يزوم فى حسرة وأسف ، والبعض يهمل .. ثم سمعت  
أصواتا تقول :

— « دور الدكتور محسن .. آخر دور .. دور واحد ..  
بخمسة وسبعين جنيه » .

وتوجهت ببصرى الى الحلقة ، كان محسن بيه واقفا بقامته  
المديدة مصوبا بندقيته ناحية الحفرة التى ينطلق منها الحمام ،  
على أهبة الاستعداد لأن يطلق رصاصته .. كان وجهه لحظتها  
أشبه بصقر يكاد ينقض ، ومنظره يوحى بثقة لا حد لها .. ثقة  
فى أنه قادر على أن يفعل أى شئ فى هذه الدنيا .. أى شئ ..  
بما فى ذلك إيجاد عمل لى .

ولوح الرجل بالراية الحمراء .. وأمسك الجميع أنفاسهم  
مرة أخرى .. انطلقت من الحفرة حمامة بيضاء ، وطارت ترفرف  
مذعورة فى الفضاء ، وتبعها محسن بيه بعين بندقيته .

كانت أعصابه من فولاذ .. وما أن أطلق رصاصته ، حتى  
هلل الجميع على الفور وصعدت من حناجرهم أصوات أشبه  
بالهتافات رجت أرجاء الفضاء .

كانت الرصاصة قد أصابت الحمامة من اللحظة الأولى ..  
رأيتها تتجمد برهة فى الفضاء وكأنها صعقت ، ثم انتفضت  
انتفاضة خاطفة ، ثم هوت على الأرض ، واستقرت على العشب  
الأخضر بلا حراك .. وعلى نفس العشب ، كان محسن بيه واقفا  
كالعلاق .. يبتسم ، ويتحفز .

انقبض قلبى .. احساس عميق بالخوف وبالتشؤم غمر  
نفسى .. وتذكرت طفلى .. لو كان معى الآن هنا ، لجرى نحو  
الحمامة ، واحتضنها وراح يبكى .

ورحت أبحث بعينى عن الحمامة المقتولة .. كانت راقدة ..  
بيضاء على العشب الأخضر . بلا حراك .

زاد احساسى بالخياخ : وبالخوف من شىء مجهول يكاد  
يدهمنى ، ويقضى على .

التفت الى « حامد بيه » .. خيل لى اننى سارى على وجهه  
الآلم لمقتل الحمامة الصغيرة .. لكن وجهه الطيب النحيل كان  
يبتسم .. كان يبدو فى غاية السعادة والطرب .. والتقت عيناى  
بعينه ، فقال لى « شايف محسن بيه .. رجل مدهش ..  
مدهش .. الضربة منه لازم تصيب » .. قلت وأنا ازدد ريقى ..  
« تمام .. تمام » .

وحول بصره عنى الى الحلقة .. كان الصمت قد خيم مرة  
أخرى على فضاء النادى .. وارتفعت الراية الحمراء ثم  
انخفضت .. وانطلقت حمامة .. ورفرفت فى الهواء .. لكنها  
قبل أن تحلق عاليا ، كانت الرصاصة قد اصابتها .

لأبد ان الرصاصة جاءت بها فى مقتل .. فى الرقبة او فى  
القلب .

وغاص قلبى .. ومن حولى ثارت عاصفة مجنونة من  
التصفيق والصياح وقام حامد بيه وقعد على كرسيه مرات  
ومرات ، وظل يهتف متهللا ومنتشيا .. « برافو .. برافو  
محسن بيه » .

ويبدو أن محسن بيه سمع صياحه ، فنظر إلينا فى زهو ،  
وراح يهز لنا بندقيته ، شاكرا ومحيا .

كل العيون كانت تنظر اليه ، حتى عيون الصبايا والنساء

الجميلات . وغير بعيد عنه كانت الحمامة المقتولة - مثل اختها -  
هامة على الأرض .. ولكن فيها بقايا حياة .. أجنحتها تنفض  
لحظة ، ثم تهمد حركتها على العشب لحظة أخرى .. وتقدم رجل  
يلبس طاقيّة وجلبابا ومشى نحوها ، وما أن اقترب منها حتى  
تناولها في يده . ثم أخرج سكيناً من جيبه .. وذبحها .

آه .. قتلوا الحمامة يا طفلي الصغير .. ثم ذبحوها .

وبكى قلبى فى صمت .

كان اسم محسن يبه يتردد حولى على كل لسان ، ومال  
حامد يبه برأسه نحوى ، فأفقت من ذهولى ، وقال لى وهو  
لا يزال فى قمة نشوته :

- الظاهر ان حظك عال .. مزاج محسن يبه باين عليه  
النهارده مدهش .. فاضل الحمامة الثالثة .

الحمامة الثالثة .. سيقتلونها يا طفلي الصغير .. ويذبحونها  
أيضا بالسكين .

كان محسن يبه متحفزا لها ببندقيته ، يريد أن يصعقها  
بمجرد أن تطل على الدنيا من الحفرة .. وارتفعت الراية  
الحمراء .. وانطلقت حمامة ملونة ، وانطلقت فى أثرها رصاصة .  
لكن لم يحدث أى تهليل .. خيم على الجميع صمت عميق ، وظلت  
الحمامة ترفرف فى الفضاء ، ورفرف قلبى لمنظرها فرحا ..  
« يارب » .. كنت أدعو فى سرى أن تغفل الحمامة من المصير  
المفجع .

غير أنه كان باقيا لمحسن بيك رصاصتان .. انطلقت الثانية  
عقب الأولى على الفور .. لكنها طاشت هى الأخرى ، وسمعت  
حامد يبه يقول فى حيرة ويمصمص بشفتيه .. « خسارة ..  
دلوقت مزاج محسن يبه حيضيع .. »



مزاجه يضيع .. ! ؟ . معنى هذا ان موضوعى هو الآخر  
سيضيع .. تابعت أنفاسى .. لا .. يجب أن يصيبها ..  
يجب أن يقتل الحمامة .. وانطلقت عينى مع كل العيون أرقب  
الرصاصه الثالثة .. لابد أن يصيبها .. يارب بصيبها .

كانت الحمامة قد ابتعدت عن مكانه بكثير .. ولكنى لم  
تكذ تقترب من حدود الحلقة ، حتى انطلقت الرصاصه ، وراينا  
الحمامة تتلوى وتهوى متطوحة الى الأرض ودون أن تتعدى الخط  
المرسوم .

وبلا وعى .. وجدتنى أقفز من على الأرض وأصيح مع الجميع  
كالمحموم .. « هيه .. برافو .. برافو محسن بيه » .. ورايت  
البعض يعانق محسن بيه وهو يلوح ببندقيته بحماس ليرد على  
الصيحات والتحيات ، والنصر يلمع فى عينيه .

وفجأة ، أحسست وكأنى أفيق من حلم مفزع ، وانابنى  
وجوم شديد .. أحسست اننى فى حاجة الى أن أغيب فى عالم  
من الصمت لا حدود له ولا قرار .

كان قلبى يبكى على الحمامات الثلاث . وكانت صورة طفلى  
الصغير تتراءى لى وهو يبكى معى ويقول .. « الراجل ده وحش  
يا بابا .. ليه يقتل الحمامة يا بابا .. »

وأطرقت برأسى فى وجوم . كنت قد فقدت حماسى لكل  
شئ .. لم أعد متحمسا للمقابلة محسن بيه ، ولا للكلام معه ،  
ولا حتى للعمل ، ولا لأى شئ فى الحياة .. وحتى بعد أن جاء  
الرجل وجلس معنا ، وكتب لى كارتا اذهب الى صديق كبير  
وحميم له فى احدى الشركات الزراعية ، كنت كالمذهول ..

أخذت الكارت في يدي وتركت النادي ومضيت الى الشارع أمشي  
على غير هدى .

كانت أصوات الرصاص لانزال تدوى في أذني . . ومنظر  
الحمائم الثلاث في عيني ؛ هائدة على الأرض مذبوحة . . بلا أدنى  
حراك ، وخوف غريب يطبق علي ؛ من أن تأتيني من الخلف  
رصاصة مجهولة فتصرعني . . وتنتهي حياتي التي طال بها  
التشريد .

« ١٩٥٧ »

## هدد؟! لا .. انهيار

كان من الصعب أن أتصور أن الأستاذ رياض هذا وصاحب هذه الجثة الضخمة كلها شاب في الرابعة والثلاثين .

فحين ذهبت اليه في مكتبه أول يوم لأتسلم منه عملي في الشركة ، وجدت كل ما فيه مكتظا باللحم .. أردافه الضخمة تثقل خطواته وتعوق حركته عن السرعة ، ونقاطيع وجهه الأبيض الأملس ملفظة ومتداخلة ، وعيناه تبدوان من ثنايا جفونه المنتفخة كخرزتين سوداوين لامعتين تتأرجحان في كل اتجاه .

كانت مهمتي عسيرة معه .. فمن أول لحظة كان على أن أفهم نفسيته لكي أكتشف أحسن طريقة للتعاون معه ؛ وأضمن بذلك لنفسي مستقراً في العمل .

وكنت قد التحقت بهذه الشركة بوساطة أحد اولاد الحلال .. ولما كان مؤهلي الرسمي الوحيد للأسف . هو ليسانس الحقوق ، فقد عينت بها تحت بند قلم القضايا .. ذلك القلم الذي لم يكن يشغله انسان سوى الأستاذ رياض هذا ولا غير .

لم أكن فرحانا لأنني عينت في عمل مثل هذا .. بالعكس ..

كنت احس انه رمية قاسية برمانى بهذا القدر ولا مفر منها .. كنت اكره الحماماه من كل قلبى .. فقد مارسستها من قبل اكثر من سنتين ، وعصرت فيها نفسى لكى أقف فى ميدانها على قدمى وأجرب فيها معنى النجاح .. غير انى كنت مصابا بمرض عضال .. مرض التأمل فى الحياة والأحياء وتسجيل خواطرى .. وقد وجدتنى أسجل كل يوم .. فيما أسجل ، كرهى لمهنتى .. ثم وصلت ذات يوم الى تعريف بسيط لها ، وهى انها مهنة لا تزدهر فيها أحوال المحامى الا بازدهار المشاكل بين البشر ، ففاض كرهى لها ، وهجرتها هجرانا تاما .

ولكنى - لسوء الحظ أو لحسنه لا أدرى - كنت متزوجا ولى ثلاثة اطفال وبيت مفتوح .. ولكى يظل هذا البيت مفتوحا ، والأحياء أحياء ، كان من المحال أن اظل منطلقا فى الشوارع اتأمل الحياة والأحياء وأسجل أفكارى وخواطرى .. كان لابد لى من عمل أضمن منه موردا ثابتا كل شهر ، وقد فشلت فى ذلك زمنا طويلا .. وفى النهاية لم أعثر الا على هذا العمل ، وتحت رئاسة الأستاذ رياض هذا ، فقبلت وأنا مرغم وحزين .

ومن أول يوم ذهبت فيه لاستلم منه عملى ، عزمتم على أن أفتح له قلبى ، وأن أبحث عن السبيل الى قلبه هو الآخر . وفى لقائنا الأول ، رأيته جالسا خلف مكتبه فى هدوء ، فخيل الى انى امام طفل ضخم وأليف .

استبشرت خيرا بالعمل معه .. فقد ازاح الكرسي الذى يجلس عليه ، ووسع لنفسه فراغا يقف فيه ، ثم نهض يستقبلنى وعلى وجهه ابتسامة لطيفة ، وسلم على مرحبا ، ثم جلس الى مكتبه وبدانا الحديث .

غير انى فوجئت بابتسامته تنطفئ وتمحى ، واتخذ وجهه طابعا جادا ورزينا لا يتساقط لظلمته ، وبدأ يتكلم .

ومن أول لحظة ، داخلني شعور خفي بعدم الارتياح ..  
كان يكلمني دون أن ينظر الى .. وكانت شفاته تتحركان .. ويده  
تشاوران ، أما عيناه فكانتا مثبتتين على زجاج مكتبه .

والغريب أنه سبقتني فتكلم فيما كنت أريد أن أتكلم فيه ..  
حدثني عن التعاون وروح الزمالة والعمل المشترك . وركزت أنا  
الآخر على هذه المعاني وأكثر ، ووصل بي الحماس اني صارحته  
بأنى أرجو أن أخفف عنه كثيرا من عبء العمل .. وأريحه .

كنت أكلمه ووجهه الى مكتبه ، وعيناه على الزجاج .. وقد  
أعطاني وضع وجهه هذا فرصة لأتلمس صدى كلماتي في نفسه ،  
وأأمل ملامحه أكثر وأكثر .

كانت بشرته بيضاء مشربة بزرقة خفيفة جدا ، وأذناه  
كبيرتان ومفترطحتان بشكل يلفت النظر ، وكان تعبير وجهه جامدا ،  
حتى بدا لي أنه ينتظر بفارغ الصبر انتهائى من كلامي .

وحين انتهيت من كلامي وحماسي ، رأته يجوب بخروزي  
عينيه في جدران الحجرة ويقول :

– المفروض يكون مكتبك معاى فى الأوضة هنا .. لكن  
للأسف زى ما أنت شايف .. المكتبة القانونية بالعة الأوضة ..  
ويستحسن يكون مكتبك فى الأوضة اللى جنبى .. وحنكون  
قريبين من بعض على كل حال .

كانت هذه أول مناسبة أعرف فيها معنى التعاون وروح  
الزمالة من وجهة نظره .. ومع هذا لم أعبأ كثيرا .. المهم عندي  
أن أعمل فى أى مكان ، وبأى صورة تكون .

ذهبت الى مكتبى الجديد فى الحجرة المجاورة ، وأسندت  
ذقنى على يدي أنتظر منه عملا .. ولم يطل انتظارى .. فقد  
شاهدته يدخل على الحجرة وفى يده بعض ورقات ، ومن خلفه

غراش الشركة يحمل بين ذراعيه آلة كاتبة .. ثم لم يلبث أن وجه لى الحديث : انت عارف ان فى الشركة قضايا كثيرة وخطيرة .. وبعضها يحتاج لنوع من السرية . عشان كده أنا شايف انك تعاوننا فى كتابتها على المكينة .. مذكرة مثلا ؛ عريضة دعوى ، اذار ، الحاجات اللى انت عارفها دى .. انت زميل طبعا وفاهم كل حاجة .

فى تلك اللحظة فقط تنبعت الى خطئى الماكينة .. ان يحولنى من محام فى قلم القضايا الى تابست قلم القضايا .. فما العمل ؟ كان المفروض بالطبع ان أقطع عليه خط الرجعة ، واحد من الأمر بينى وبينه بجلاء ، لكننى لم افعل .. ! .. لقد فرحت من أعماقى بخطئه هذه ؛ وتقبلت طلبه برضا ، بل وتمنيت فى نفسى أن يقتصر عملى معه على الآلة الكاتبة ، فأظلم بعيدا عن جو القضايا .. ودراسة المواد والنصوص ، تلك التى أمقتها من كل قلبى .

بل انى فرحت بالماكينة فرحا شديدا .. وتصورت نفسى فى اوقات الفراغ وأنا ادق عليها لمزاجى وأسجل خواطرى وأفكارى ، والمسألة كلها من اولها الى آخرها « أكل عيش » .

هكذا استقر الوضع من أول يوم ، بدون ان نتفاهم فيه بصراحة .. تفاديت أن أكون محاميا ، وتفادى هو أن أكون منافسا للعرش الذى يجلس عليه .. ولكى يطفى موقفه معى ، كان دائما وهو يقدم لى شيئا أكتبه ، يركز على كلمة « زميل » .. انت زميل طبعا وعارف .. ما تفتكرش ان كتابة مذكرة زى دى على المكينة حاجة بسيطة .. والتايبست ما بتفهمش فى القانون وتغلط كثير .. لكن انت يوم ما تلقى غايصة حتصححها على طول .. لازم انت تتصرف ، والأمور تمشى على طول .

كنت ابتلع كلامه عن طيب خاطر ولا أعقب عليه .. وسارت العلاقة بيننا هكذا في صمت .. أنا في حجرتي أدق مذكرة أو عريضة على الآلة ، أو غارق في ذهولي أو في تسجيل خواطري وافكاري ، أما هو فكانت أراه رائحا غاديا يترجرج ، كأنه فرح بجثته وشبابه .. وقد حدث أن سافر المدير الى الخارج لمدة شهر ، فازدادت حركته وعلت ضحكاته وكثرت تنقلاته .. كان يحدث في كل حجرة يذهب اليها ضجة .. والأستاذ راح يا أولاد ، و « المتر » جه يا أولاد ، وتليفون للأستاذ .. وفنجال شاي « للمتر » قوام .

كان كمن يتنقل على عرش بين رعاياه وقضاياه .. أما أنا فبقيت ساكنا غارقا مع نفسي .

أحيانا ، كانت ضجته تثير في نفسي شعورا بالاستفزاز وبالرغبة في الصراع معه .. كنت حينذاك أتخيله باللونة منقوخة ضخمة لو شككتها بطرف ابرة صغير لتقلصت وتكرمشت في نفس اللحظة .. غير أني كنت أمسك نفسي .. ان الصراع معه صراع من نوع سخيف ، والنصر عليه أسخف .. وإيامي في هذه الشركة مهما طالت ، فهي موقوته .. ولن يلوح لي بصيص عمل آخر يتجاوب مع روحى الا وسأوليهم ظهري هاربا بلا ندم .

لذلك تركته يصول ويجول على عرش قضاياه ، وبقيت هادئا في ركني ، مع ماكينتى .

وذاث يوم خال من العمل تقريبا ، جائنى في آخر وقت ، وقبل انتهاء اليوم بربع ساعة تقريبا ، وطلب منى في حرارة زائدة أن أدق له قبل أن أخرج ، عريضة على الآلة الكاتبة .

وكعادته دائما حين يطلب منى طلبا عاجلا ، راح يعبر لى عن احترامه لعملى .. « والله لو سمحت يا أستاذ فلان ..

ونشاطك المعهود والله يا أستاذ .. الخ من تلك الكلمات الخداعة الجميلة » .

ورغم أننا كنا بعد الغروب ، والوقت متأخر ، وطبقات الظلام بدأت تتراكم خلف زجاج النافذة عن يميني ، إلا أن طلبه هذا أنعش روحي بعض الشيء .. فعلمى في ذلك اليوم كان قليلاً ، وقد حاولت منذ الصباح أن أنتهز فرصة فراغي وأكتب بعض خواطر لنفسي على الماكينة ، لكن ذهني وجسمي كانا قد تخشبا من طول الفراغ .

تناولت منه صورة العريضة وبدأت أدق على الآلة ، كلمة كلمة .. « انه في يوم .. وأنا محضر محكمة .. وفي تاريخه أعلاه .. وحيث أن .. الخ »

ظللت أكتب ورأسي مركز فيما أنقل .. لم أكن أريد الشروء حتى لا أخطيء في شيء فاضطر لاعادة ما كتبت ، حتى وصلت الفقرة التالية .. « وحيث أن الشركة المعلن اليها قد اخلت بالتزاماتها المنصوص عليها في العقد السالف الذكر .. وحيث انه نتيجة لهذا الاخلال ساءت حال جميع المباني الى درجة يخشى عليها من الهدد » .

هدد .. ؟ !

لم تكد عيناى تقعان على هذه الكلمة حتى توقفت يداى من الحركة وبقيت أصابعى مفرودة في الهواء فوق أصابع الماكينة .

ما كلمة « هدد » هذه .. ؟ وما موقعها من هذه الجملة . ؟

وعدت أفكر مرة أخرى في كلمة « هدد » .. وفي الحال تخيلت رجالاً شمروا عن سواعدهم ، وأمسكوا بفؤوس ومعاول وراحوا يضربون بها في جدران بعض المباني ويهدون فيها .



نعم .. هذا هو الهدد .. أن يكون بفعل انسان ، وهذا ما لا ينطبق على تلك الحالة المذكورة في عريضة الدعوى .

لا .. انسب كلمة هنا ، هي .. « الانهيار » فتكون الجملة هكذا .. « .. وحيث أنه نتيجة لهذا الأخلال قد ساءت حال جميع المباني الى درجة يخشى عليها من الانهيار » .

تمام .. بهذا يكون المعنى مضبوطا .. وانتابني احساس شديد بالزهو .. احساس يتيم لم أحس به من قبل طوال عملي في هذه الشركة ، ومضت أصابعي تدق من جديد .

ألغيت كلمة « هدد » وكتبت بدلها كلمة « انهيار » . غير انى لم ألث أن توقفت عن الدق مرة أخرى ، وجعلت أسائل نفسي .. « هل أنبه الأستاذ رياض لهذا التغير » ؟ ! .. طبعاً ، فواجب الأمانة في العمل يقتضى ذلك .. ولكن .. ربما يركب رأسه ، ويتذكر عرشه ، فلا يوافق على التغير ، ويطلب منى إعادة كتابتها مرة أخرى .

لا .. لا .. الأفضل ألا أنبهه ، فالوقت قد تأخر ، والظلمة أصبحت تغطي زجاج النافذة ، وأن لى إن أخرج الى الشارع لأتنفس الهواء الطلق وأصافح وجوه البشر !

لن أنبهه .. وقطعا ستفوت عليه .. فلو كان يعرف المعنى الحقيقي للكلمة ، لما كتبها بالتأكيد .

وعدت أدق من جديد .

ويبدو أنه كان معجباً جداً بكلمة « هدد » هذه ، فكررها كثيراً .. وكنت كلما قابلتني في سطر من السطور ، غيرتها من تلقاء نفسي على الفور وكتبت بدلا منها « انهيار » .. حتى يحدث اتساق في معنى العريضة كلها .

ولم اكذ انتهى من الكتابة واخرج الأوراق والكربون من  
الماكينة وأشرع في ترتيبها ، حتى رأيته يدخل على والقلق باد  
على وجهه .

— هيه .. خلصت .. ؟ ! عيال .. تسمح بقى علشان  
أعرضها على المدير ؛ أحسن قاعد منتظرها مخصوص .

— اتفضل .. بس إنا غيرت كلمة بكلمة .

قلت منى الاعتراف فجأة ودون أن أدري .. وبدأ عليه  
وقد أصيب بذعر مفاجئ ؛ وانقلب بشرة وجهه وازدادت  
زرقة وقتامة ؛ ثم قال وكان كارثة قد لحقت به « كلمة ايه اللى  
غيرتها » ؟ ! انت مش عارف انها رايحة المدير . ؟

قلت وأنا ابتسم له ابتسامة مهذبة وأشير بأصبعى على أحد  
السطور .. « لقيت كلمة « هدد » غير مناسبة .. فكتبت  
بدلها كلمة « انهيار » .

اكفهر وجه .

— يعنى ايه غير مناسبة . ؟ أنا اللى كاتب العريضة وعارف  
أنا باكتب إيه .. طيب لازم تتغير كلها من أول وجديد . اتفضل .

قلت له فى هدوء بالغ :

— حصل خير على العموم ، أصلى كنت فاكر أن لى الحق  
فى التصرف .. انت نفسك اللى قلت كده ، لكن ..

ورايته يفتح فمه ليرد على كلامى مقاطعا ومحتجا ، غير أنه  
عاد قفله ولزم الصمت وراح يجذب أنفاسا متتابعة من سيجارته  
حتى خيل الى أنه مصاب بضيق الدم ويخشى عليه ، فأثرت  
السكوت ، خصوصا وأن المشكلة بدت لى سخيصة لا تستحق  
جدلا أو نقاشا ، فتناولت منه الأوراق وقلت متراجعا « على كل

حال أنت اتلى شايف المباني وعارف حالتها .. أنت ادرى بالموضوع » .

ويبدو أنه استراح قليلا لتراجعى ، فصفت زرقة وجهه قليلا ، ثم جذب نفسا سريعا من صدره وقال بحماس : « شوف .. ما تفكرش انى باكتب اى كلام .. انا دايمما أحب أدقق فى الفاظى .. ومش فى الفاظى بس .. فى حياتى كمان .. كل المحامين زى ما أنت عارف يحبوا المبالغة فى استعمال الالفاظ .. انا بالعكس .. ما اكتبش الا الحقيقة .. وفى الموضوع بتاعنا ده ، انا فكرت فعلا فى كلمة « انهيار » .. لكن لقيت فيها تهويل ومبالغة .. ليه .. ؟ اقول لك ليه » .

ومضى يشرح لى الفرق بين كلمة « هدد » وكلمة « انهيار » .. غير انى لم أفهم منه شيئا ، بل وجدته يتخبط ويتناقض ويكاد يصل الى نفس رأى .. ولحت بواذر الحيرة والخرج ترتسم على وجهه فأسرعت أندارك حيرته وخرجه .. وقلت له مؤمنا على كلامه : « تمام .. تمام يا أستاذ رياض .. هدد مطبوط » .

وارتسمت على وجهه شبه ابتسامة باهتة ثم تركنى وخرج .. وجلست الى الماكينة لأدق العريضة من جديد .

كان موعد الخروج من الشركة قد فات منذ وقت طويل .. وليل الشتاء كالعادة هبط مبكرا ، والموظفون كلهم خرجوا .. وبقيت أدق على الماكينة وحدى .. وحانت منى نظرة الى نافذة حجرتى فوجدت طبقات الظلام متكاثفة ، والدنيا سكوت ، ولا صوت من حولى سوى نقرات الماكينة تدق فى رأسى وتملاه بالضجيج ، فضاعفت من سرعتى لأنتهى من العريضة ، وأنطلق الى الشارع أشم رائحة الحياة والناس .

لابد أن مسا من الجنون قد أصابنى بعد ذلك ، فقد وجدتنى

حين قاربت نهاية العريضة أنوقف عن الكتابة وأضحك .  
أضحك على نفسي وبصوت عال .. لقد تنبّهت فجأة الى انى وقعت  
فى سهو فظيع لا يفتر . كنت قد أعدت كلمة « انهيار » فى سطور  
كثيرة .

كانت الكلمة قد التصقت بعقلي .. ونسيت كلمة « هدد »  
هذه بالمرّة .. !!

شعرت بسخرية مريرة من نفسي : الآن .. ماذا أصنع . ؟ !  
لابد ان أعيد للكتابة مرة ثالثة ، وذنبى على جنبى .  
وجئت أغبر الورقة المكتوبة بأخرى بيضاء خالية ، لكنى  
رايته واقفا على الباب وكل ما فيه يتطق بالارتباك .

— هيه .. خلصت . ؟ !

قلت وأنا أدارى خبطى : للأسف .. غلطت ثانى . نسيت  
وكتبت انهيار .. وصرخ .. حتى انى خفت أن يفقد رشده  
ويسقط بجسمه الضخم على الأرض ويغضى عليه .

— انت بتحترق كلامى ؟ يعنى أنا مش عارف اكتب عريضة  
دعوى يا ناسى ؟ وماتعملهاش الا لما يكون المدير واقف على  
دماغى ؟ طيب .

قال ( طيب ) .. وفهمت من نبرته أنه يهدد .. عند ذلك  
فقط خرجت من صمتى .. ان المسألة تتطور .. ويجب أن أتكلم  
وادافع عن موقفى .

— شوف يا أستاذ رياض .. الأوضة دى أولا ماتزعقش  
فيها .. ثم أنا يا أخى مش مقتنع بكلمة « هدد » دى .. وعشان  
كده كتبت « انهيار » ثانى ، كده من غير ما أحس .

— يعنى كلامى مالوش قيمة .. طرطور أنا فى قلم

القضايا .. تعال حضرتك اقعد مطرحي .. انا أصلى كنت فاهم  
من اول يوم .

وعاد يصرخ بصوت عال .. غير ان صراخه لم يلبث ان  
احتبس في حلقه فجأة ، حين أحس بالباب يفتح من خلفه .  
ورأى المدير واقفا بطوله وعرضه في فتحة الباب ينظر إلينا في  
صمت وشموخ واستنكار .

— ايه الحكاية .. الظاهر انها وكالة .. مش شركة .

كانت هذه أول مرة أرى فيها الأستاذ رياض وجهها لوجه مع  
المدير ، ولم يأخذنى العجب حين رأيته يرد عليه وهو مطأطأ  
الراس وصوته خاشع يتحشرج :

— انا خلاص يا سعادة البيه .. مش قادر اتعاون معاه  
أبدا .

ونظر لى المدير فى شموخ . يسألنى بعينه ، غير انى لم  
أتكلم .. لم يكن عندى أدنى حماس لكى ادافع عن نفسى ..  
انها قضية تافهة .. وكل ما هو حولى ممل وتافهة .. والأستاذ  
تافه .. وسيأتى اليوم الذى أتركهم فيه دون ان اودعهم بكلمة  
شكرا أو حتى كلمة عتاب .

— وعاد المدير يسأل .. « ايه الموضوع .. انا مش فاهم  
حاجة » .

— عريضة الدعوى يا سعادة البيه .

— مالها .. أتكلم على طول .. فيه ايه .

— قاعد يغير فيها ويبدل على مزاجه .. ودى مسئوليتى  
قدامك يا سعاد البيه .. وبان على وجه المدير التجهم والغضب .  
— يغير فيها .. ؟ ! دى عريضة بخمستاشر ألف جنيه .

وشاع خوف غريب على وجه رياض وقال بصوت متراجع :

- على كل حال سعادتك تستريح .. والعريضة حتوصلك  
حالا .. وسليمة .
- استريح .. استريح يا حضرة ، دول خمستاشر ألف ..  
ورينى .
- وتناول منه العريضة ، ونظر اليه مستفسرا .
- فين التغيير اللي عمله . ؟ !
- ورابت إصابع الأستاذ رياض تمتد وتشير على الورقة  
شبه رعشة :
- كان المفروض يكتب هنا كلمة « هدد » .. لكنه كتب  
« انهيار » .
- هيه .. وغيرها .
- لا يا سعادة البيه .. مفيش غيرها .. بس كررها كثير .
- وسكت المدير ، وأخذ يقرأ العبارة على مهل وباهتمام ..  
مرة .. ومرتين .
- ب طيب وفين الغلط . ؟ الجملة ماشية سليمة .. « الى  
درجة أصبح يخشى معها على المباني من الانهيار .. كلام سليم ..  
قصداك فين التغيير » ؟
- قال رياض متلجلجا وعيناه منخفضتان .. « لا .. أصل  
كان المفروض يكتب العملية هدد » .. لأن العملية مش انهيار ..  
العملية هدد .
- ونظر اليه المدير فى استغراب ، وارتسمت على وجهه  
الشامخ ابتسامة سخرية :
- هدد ازاي بقى يا أستاذ ؟ !
- والجمل رياض .. ظل مطرقا فى صمت ووجوم ، وراح المدير

يقرأ العريضة التي كتبها أول مرة ، من أولها لآخرها ، حتى  
انتهى منها ثم قال لي وهو يهز رأسه في رزانة ووقار :

— الكلام مطبوف .. ومن غير كده ما تنفعش .. ثم رد  
العريضة الى رياض وقال في جفاء .. « ابقى هاتها لي في المكتب »  
وخرج .. ولم البث أن رأيت رياض يخرج خلفه بجسمه الضخم  
في سكون ووجوم : فنهضت من مكاني لكي الحق به ، واستوقفه ،  
واقول له صادقا من قلبي :

— أنا آسف .. آسف والله يا أستاذ رياض .. أنا ماكانش  
قصدي .

لكن الأستاذ رياض كان يتبع المدير في الصالة الطويلة  
السائكة . بخطوات بطيئة متعثرة تدعو للرثاء .

وما أن دخل حجرة المدير وغاب عن بصرى ، حتى أحسست  
بانقباض ثقيل يملأ روحي ، فانتفضت خارجا الى الشارع ، متمنيا  
اليوم الذي أستطيع أن أترك فيه هذه الشركة بمن فيها . دون  
أن أودعهم بكلمة شكر أو كلمة عتاب .. ولكن .. ربما يومها  
أقول كلمة اعتذار .. للأستاذ رياض ، ثم أمضي أبحث لنفسي  
عن موقع جديد في الحياة .

(( ١٩٦١ ))

## الرجل الذى ضحك

شخص واحد فقط ، ظل جالسا الى مكتبه الصغير فى ركن  
الحجرة لا يتحرك ، وكأنه لم يسمع بالخبر .

الخبر : أن مدير المؤسسة - واسمه الأستاذ ماجد -  
أصيب باحتقان شديد فى زوره ، فاضطر الى الرقاد فى  
المستشفى عدة أيام لاجراء عملية لاستئصال اللوزتين .

كان الخبر قد وصل الى المبنى الكبير المطل على الميدان  
الواسع المزدهم المستدير ، فحدث على الفور نشاط مفاجئ  
فيه .. الموظفون تركوا مكاتبهم .. وراحوا يلتقون شللا شللا  
فى الحجرات وعلى السلالم وفى الطرقات ويتفقون : متى يزورون  
المدير فى المستشفى ، وأين يلتقون قبل الذهاب .

واحد فقط ، فى كل هذه الضجة ، ظل جالسا الى مكتبه  
فى وجوم لا يتحرك .

هو يوسف خليل .

كان يوسف خليل يقول لنفسه وقد أضنته الحيرة .

هل اذهب .. أم لا اذهب ؟ !



ان زيارة مثل هذه للأستاذ ماجد ، لاشك شيء جميل ..  
ولكن ، هل من حقى فعلا ان أزوره ؟ .. ام انها حكاية واجب ،  
ولا بد .. لابد ان أؤديه ؟

وخرجت من صدره زفرة .

لكم يضيئه نوع العلاقة التى بينه وبين مديره .. الأستاذ  
ماجد هذا .

أكثر من عامين معه فى العمل ، ومع هذا ، فلا شيء بينهما  
سوى التجاهل والصمت .. صمت كان يحز فى نفس يوسف  
ويجرحه .. بل كثيرا ما كان يدفعه الى التفكير فى أن يترك  
هذا العمل ، وهذا المبنى بأكمله وينطلق - بكرامته - فى  
الشوارع ، حتى ولو تشرد فى الدنيا من جديد . لكن صورا  
من الماضى كانت تبرز له فجأة ، فينبض لها قلبه ، ويسرع  
فيكبح جماح نفسه : لم يعد فى العمر بقية أخرى لاحتمال  
التشرد .. وغدا ، يأتى اليوم الذى يكشف فيه الرجل  
حقيقته ، فيفتح له قلبه ، وتنصلح الأمور .. لكن هذا اليوم  
أبدا لا يأتى ، وصمت المدير يزداد عمقا ويثقل على قلبه  
يوما بعد يوم .

وعاد يحدث نفسه .

« لو ذهبت اليه فعلا وزرته ، ان يقول انى انتهزتها  
فرصة لاجلس معه وأتقرب منه ، وأتملقه ؟ .. اليس من الجائز  
أن يفكر هكذا ؟ .. ثم افترض انى لم أزره ، فهل سينتبه  
لعدم زيارتى ؟

بالطبع لا .. انه لا يحس بوجودى وهو هنا ؛ قريب منى  
فى العمل ، فهل سيحس بى وهو هناك ، فى مكان آخر  
بعيد .

لا .. لن أكون طفيليا .

ولن اذهب .

وتجههم وجهه الشاحب فجأة ، واتخذ طابعا صارما ،  
وانكب مرة أخرى على أوراقه ، وراح يواصل عمله من  
جديد .

غير انه عاد بعد لحظات فتوقف عن العمل ، وراح  
ينصت وهو يحملق في فراغ الحجرة بعينه شبه الجاحظتين .

كان العاملون لا يزالون يتجمعون حول الخبر ويتفقون على  
الزيارة .. وتناهت أصواتهم الى سمعه .. كانت تخفت  
أحيانا وتخفت حتى تبدو في أذنيه كالههمات .. وأحيانا تعلو  
وترتفع حتى تغطي على أصوات الترام والعربات المنطلقة في  
الميدان القريب .. وتحول مجموع الأصوات فجأة في رأسه  
الى ما يشبه الطنين .

ما كل هذا ؟

ودهمه شعور بالخوف غريب .. وارتسمت له على الفور  
صورة أمه العجوز ، ففمره أحساس بالأمان .. ربما هي  
تدعو له الآن من القلب أحر الدعوات .. ذلك هو عملها في  
الحياة .. ومرة أخرى ، جذبتة الأصوات والهمهمات .. فيها  
شيء غريب يوحي بالتحفز والانتباه .. يبدو أن مرض المدير  
ليس مرضا ، وإنما هو حادث .. حادث خطير لا يصح أن يمر  
عليه هكذا ببساطة ، وعليه أن يراجع تفكيره فيه من جديد .

واضح من كل ما سمع أنه سيكون الوحيد الذي لن يزور .

ماذا لو حدث وتنبه الأستاذ ماجد - بشكل من الأشكال -  
لعدم زيارته ؟

صحيح أن الموقف بينهما لن يسوء أكثر مما هو سيء ، لكنها

ستكون - على الأقل من وجهة الذوق - سخيقة في حق رجل مريض .

لا لا .. لابد أن أزوره !

ولكن ..

مع من أزور ؟ !

وبلغ أذنيه في تلك اللحظة صوت ضخم عالى ، فانقبض وجهه لسماعه .. كان الصوت ضخما جدا . وعاليا جدا حتى ابتلع جميع الأصوات من حوله .. أنه صوت « عباس » رئيس القسم الذى يعمل فيه .. وتخله واقفا وسط الشلة .. بجسمه المربع السمين ، وعينه اللولبيتين اللتين تأخذان كل الاتجاهات في آن واحد ، ويكلمهم بحماس زائد .

ضغط يوسف على أسنانه حتى ارتعشت عضلات فكه .

آه منه .. الوغد . لماذا هو متحمس جدا هكذا ، وكأنه ذاهب الى فرح أو حفلة عيد ميلاد ؟ .. أين كان كل هذا الحماس أو بعضه ، حين سقط زميلهم الصغير « جبران » مريضا ولزم الفراش في بيته أكثر من شهر ؟ .. لم يزره مرة واحدة ولا حتى سأل عليه بالتليفون .

وهز رأسه كمن يدرك شيئا .

هيه .. « عباس » هذا دائما يعرف المناسبات التى يقفز فيها .. بل أنه لا يقفز ، هو فقط يقف كالجدار ، يحجب الكل وراءه ، والأستاذ ماجد لا يرى سواه .. حتى في هذه الزيارة يريد أن يكون هو الوسيط ، يعمل زفة لرئيسه ويتقدمها ، ويتقدم بذلك من قلب الرجل خطوات وخطوات .

لا .. لن اذهب في شلته .

لن ازور وامامى جدار .

ولماذا اذهب مع أحد ؟ ..

وكما لو انه عثر على شيء نادر وثمين كان ضالعا منه ،  
فانشرح وجهه فجأة ، وتهللت كل ملامحه .. « صحيح ..  
لماذا لا اذهب وحدى .. نعم وحدى ، دون أن يكون معى  
أى انسان آخر » ؟ ..  
يا لها من فكرة .

الست هذه فرصة فعلا .. فرصة كانت على وشك  
أن تضيع ولا يمكن تعويضها .. اجلس مع الأستاذ ماجد لأول  
مرة فى حياتى .. اجلس معه عن قرب ، وبلا تكليف .. و ..  
وبالتأكيد سيحدث بيننا أى كلام .. سيسألنى - على الأقل  
شغلا للوقت - عن احوالى فى العمل ، وحينئذ اكلمه من  
قلبى .. اخرج له حبات قلبى .. ويحس بى الرجل لأول مرة  
على حقيقتى ، ويكون ذلك بداية عهد جديد لى فى العمل .  
آه ...

وتنفس بارتياح ، ثم اشعل سيجارة وراح يجذب منها  
أنفاسا عميقة حارة .

« .. عباس هذا موهوب فى الانتصاب كالجدار ، فلاكن  
انا الآخر موهوبا فى القفز من فوق الجدران .. نعم .. يجب أن  
أكون واقعا مع نفسى ، فلا ألوم أبدا عباس .. لا ألوم الا نفسى  
فالحياة صراع ، وعباس لو لم يفعل هذا ، لما استمر  
وما عاش .. و ..

وكل يتحرك بطريقته .. فلأتحرك انما أيضا ، ولكن  
بطريقتى .. ما دمت صادقا مع نفسى فلا بهمنى .. لقد آن  
الأوان .. لاقفز من فوق الجدار » .

'وتدفقت في عروقه موجة حماس ، فانكب على عمله لينتهي منه ، وبحركة لا ارادية ، مر بيده اليسرى على ذقنه ، فتنبه الى أنه لم يحلقها منذ أربعة أيام ، قال مذكرا نفسه : « لن أنسى أن أحلقها في البيت قبل الذهاب .. لابد أن أكون نظيفا وأنيقا بقدر الامكان »

عند يوسف خليل بدلة بنية اللون ، تفتح وجهه الأسمر وتنعشه فارتداها ، وعنده رباط عنق ملون أهده أياه صديق قديم عاد أخيرا من بعثة في الخارج فارتداه أيضا .. وحين نظر الى المرأة ، رأى نفسه أنيقا ومتفتحا ، فتفتحت نفسه للزيارة أكثر وأكثر ، وغادر بيته .

وبالصدفة ، لم يكن المستشفى بعيدا جدا عن بيته ، فقرر أن يقطع المسافة مشيا على الأقدام .. كلها ربع ساعة ويكون هناك بالضبط في الموعد الذي حدده لنفسه ! .. كان قد ظل طيلة فترة الظهيرة يفكر ، فوصل الى أن الخامسة مساء هي أنسب الأوقات .. تكون زحمة زيارات الصباح قد انتهت ، وزيارات المساء على وشك البداية ، وبذلك يكون هو البادئ فيكون وقعها خفيفا وجميلا على نفس الرجل ، فيستقبله بود وترحيب .

ومضى يسير ..

كان الوقت قبل الغروب بقليل ، ورغم أن الدنيا كانت شتاء ، إلا أن الجو كان لطيفا .. لطيفا بشكل محسوس ، والناس يروحون ويجيئون بنشاط .. والسماء ، كانت زرقاء فوق الشارع ، تخطر بها سحباة كبيرة وناعمة وبضياء .. ولاحظ أن السحباة تتحرك في نفس اتجاهه ، فأسرع بلا وعى من خطواته ، وضحك لنفسه .. « ليس بعيدا أن أرى هذه السحباة نفسها من نافذة حجرة الأستاذ ماجد ، فأقول له وأنا أنحكم في ابتسامتي ناظرا الى النافذة .. هذه السحباة نفسها كانت

فوق رأسي وأنا في الطريق اليك .. تصور يا أستاذ ماجد ..  
وكنت أسألكها ..

وندت عنه ضحكة صغيرة .. « أيها الساذج .. ليس الى  
هذا الحد يمكن أن يصل بينكما الكلام .. أنسيت يا يوسف  
أنك ذاهب الى المدير ؟ »

وهبط شيء في داخله ..

الكلام فقط سيكون في حدود العمل .. يكفي هذا ..

وهبت عليه وهو يسير فوق الرصيف نسمة منعشة  
طرية ، ذكرته بجو العصارى في الصيف : فأحس برئيته  
تتسعان ، وخطواته تخف وتسرع .. « فلأشعل سيجارة »  
وجذب نفسا طويلا .. « الدنيا واسعة .. تجمع الأرض  
والسحاب ، والناس والعربات ، والمرضى والأصحاء في قلبها ..  
قلوبها الكبير الواحد .. فلماذا يحس المرء أحيانا أنه وحيد ..  
وغريب ؟ .. يبدو أن العيب عيبي » ..

وهز رأسه ..

بعد قليل .. سيصل الى المستشفى .. وسيدق باب  
حجرة الرجل المريض في هدوء ويدخل .. سيجده راقدا ..  
شاحبا .. على السرير .. سيطلب منه الا يتحرك .. الا يزجج  
نفسه حتى بالسلاط ، ويجلس أمامه ، قريبا منه ، ويسأله  
عن صحته ، ويسأله هو بالتالي عن الأحوال في العمل ..  
وحيثما سيتكلم من قلبه ..

آه .. لو أن كل ما في أعماقي أستطيع أن أخرج له :  
ان الأمر يتلخص في ..

وراح وهو ينظر بشكل عابر الى واجهات المحلات ،

يستعيد في ذهنه كل الكلام الذى أعده ورتبه مع نفسه طيلة فترة الظهيرة .. سيقوله نقطة نقطة .. لن ينسى واحدة منها .. سيحرص الا يكون في كلامه أية رائحة للتملق أو النفاق ؛ بل اذا استدعى الأمر سيوجه اليه - الى الاستاذ ماجد نفسه - بعض الملحوظات .. الى خطته في العمل .. يوجهها اليه بشكل مهذب ورقيق .. وحينئذ يحس الرجل أن هناك وجهة نظر جديدة في العمل كان من الواجب أن يتعرف عليها ويستمتع اليها من زمن .. ولكن .. آه منه : « الجدار » .. عباس هذا .. رئيس القسم .. هو الذى يحول دائميائك وبين هذه الكفاءات ؛ بل ودائما يذر الرماد على أعمالهم ليطفىء من بريقها في عينيك ؛ ليظل هو اللامع الوحيد في نظرك .

لا .. لا .. لن يذكر اسم « عباس » ولا غير عباس .. لن يتكلم عن هؤلاء الذين يتخذون من التهريج البارع ولباقة الكلام ستارا يغطون به عجزهم في العمل ؛ ثم يصلون الى أعلى المراكز .. فقط سيتكلم عن توزيع العمل .. عن الكفاءات التى تعيش راكدة في الظل .. عن الأساليب الرخيصة التى تروج وتنتشر وتهبط بمستوى الانتاج والعمل .. خصوصا .. و .. ومضى وهو مسرع في خطواته يستعيد الكلام وينمقه .

فجأة انقطعت خواطره على منظر احدى الواجهات الزجاجية الأنيقة فتباطأت خطواته .. وممر بيده على ذقنه « أليس المفروض في مناسبة مثل هذه ، أن يذهب الانسان ومعه هدية .. تحمل المعنى اللطيف والانسانى للزيارة » ؟

وتوقف عن المشي ، وراح ينظر فى الواجهة .. « علبة السجائر هذه مثلا » .

وراح يتأملها .. علبة مستطيلة ومفضضة .. فى حجم الكف .. مرسوم عليها مربعات سوداء .. وفى قلب كل مربع ،

رسمت باللون الأخضر ، ملكة مصرية قديمة ، جالسة على  
ركبتها ، تصلى للشمس ، والتاج على رأسها ، وفي يدها  
اليمنى فرعان من زهرة اللوتس .

الله .. ما أجملها ..

ووقعت عيناه على الثمن .

ياه .. ولوى شفثيه .. لو كنا في أوائل الشهر لفلعتها ،  
شرقي ، بلا أى تفكير ولما همنى بعد ذلك كيف أعيش بنية  
الشهر !!

لو هدية جميله ومعبرة ، وفي نفس الوقت رخيصة ..  
ما لكل الأشياء الجميلة هكذا غالية !

ووقعت عيناه على حقيبة مفتوحة .. مبطنة بقطيفة ،  
سماوية اللون ، معروض عليها - بترتيب وأناقة - محفظة ،  
وجلدة ساعة ، وحزام ، كتب على ورقة صغيرة مجاورة له ..  
حزام جلد لازار .

ماذا تعنى « لازار » هذه ؟ كم فى الدنيا من أشياء لا نعرفها .  
وراح يتفحص جلد الحزام . وتذكر فجأة أن الأستاذ ماجد له  
كرش ضخم يسبقه دائما فى المسير ، فابتسم لنفسه وهو  
يكاد يضحك .. يا مفغل .. الأستاذ ماجد قطعاً لا يستعمل  
الأحزمة .. انما يستعمل الحمالات لتعينه على المسير .. واتسعت  
ابتسامته ، وواصل المسير مبتعداً عن الواجهة .

نعم .. لا داعى للتفكير فى حكاية الهدية هذه ، فالأستاذ  
ماجد لا بد يعرف حالة واحد مثله .. ثم أن العلاقة بينهما تم  
ترتفع بعد الى هذا المستوى .

فلتكن الزيارة هكذا .. عادية وبسيطة .. من القلب الى  
القلب ، ولتكن هديته اليه بعض أفكار تعود على العمل



بالنفع .. نعم .. لابد أن يكون معقولا ومتزنا في كلامه .. لابد أن ينكر ذاته .. وليكن كل اتجاهه في الحديث خطة جديدة للعمل .. ومرة أخرى .. لا داعى أبدا لذكر أية اسماء بالمره .. سيقول له .. « رئيس العمل كالميسترو .. عصاه الصغيرة الأنيقة تشير الى أصفر عازف كما تشير الى اكبر عازف .. نعم بأستاذ ماجد .. عليك أن تكتشف قدرات الجميع وتحتضنها .

مرة أخرى ، تباطأت خطواته ، ثم توقف نهائيا عن المسير وقد ارتفع حاجباه بالسرور .

راى عن يمينه فاترينة ضخمة عالية من الزجاج ، وخيوط رفيعة من الماء تنزلق عليها وتتسرب في خطوط متعرجة .. وكل سرسوب ترقص بداخله قطرات صغيرة تتواثب وتلاحق حتى تصل الى أسفل الفاترينة لتسقى مجموعات زهور ناضرة وملونة .

وتفتحت أساريره .

لو « بوكيه » من هذه الزهور الجميلة ، يحمله اليه هدية ؟ و .. الله لو تكون من زهرة « البانسيه » بالذات . لقد قرأ عن هذه الزهور ذات مرة في احدى القصص ، وأحبها ثم سأل عنها ، وحين رآها أحبها أكثر .

هيه .. مرة أخرى .. القلوس .. فليدعه نهائيا من هذا الموضوع ، ويواصل السير في خط مستقيم .

هم أن يغادر الفاترينة ، لكن قدميه تسمرتا ، وتعلقت عيناه بمنظر جميل : « فازه » صغيرة من النيكل .. تخرج منها ثلاث وردات .. والثلاث صغار .. بلدى .. كلها براعم تكاد

تتفتح .. الله .. اجمل ما فى الحياة ، هى الأشياء الصغيرة  
التي تعطى وعدا بالتفتح والازدهار .

لماذا لا يأخذ واحدة منها .. واحدة فقط ، ويقدمها اليه؟  
ستكون لمسة جميلة بلاشك .. ودون أن يدري ، وجد نفسه  
يدخل المحل .. غالب احساسه بالخجل وبالارتباك واشترى  
واحدة من الوردات الثلاث .. وخرج .

استخفه فرح غريب حتى كاد يقفز فى مشيته .. سيقدم  
له هذه الوردة الصغيرة هدية .. وقد تثير دهشة الأستاذ  
ماجد فى اول الأمر ، لكنها ستكون دهشة الانسان الطيب  
لكل ما هو صغير وجميل ومؤثر .. وسيعرف اى نوع من الناس ،  
هو يوسف .

ومضى يوسف يمشى بهرح .

الورد رمز للود بين الناس .. فلتكن هذه هى هديته اليه فى  
مرضه .

ولكن .. هل يظل يحملها فى يده هكذا ؟ .. يتركها  
تتأرجح امام الناس بين اصابعه كأي شاب « عايق » .. فرحان  
نفسه ؟ .. اذن ماذا يفعل ؟ .. يلفها فى ورقة ؟ .. لكنها  
رقيقة ، وصغيرة .. لا تحتمل .

وبمنتهى الحذر . فتح جاكته ، وبمنتهى الرقة ، أدخل  
غصنها الرفيع الأخضر الموزق فى جيبه الداخلى ، وبقيت الزهرة  
الحمراء خارج الجيب تلامس صدره .. وأحس بقلبه يدق  
دقات سريعة وحنونة .

ربما .. ربما يجمع الود كل الناس فى يوم من الأيام ..  
وتطيب الحياة .. وواصل المسير الى المستشفى .

كان بين الحين والحين يضج يده على صدر الجاكته  
ويتحسس الوردة بحنان بالغ ويطمئن عليها . ولم يكن يرى من  
الأشياء التي تقابله في الشارع سوى خطوطها العريضة العامة .  
وأخيرا وجد نفسه أمام باب المستشفى .

لم يتعب في السؤال عن الحجرة .. قالوا له .. « عند  
نهاية الممر .. خذ يمينك وستجدها » .

وسار في الممر .. ممر طويل نكسوه ظلال هادئة أوحى  
إليه أن يخفف من وقع خطواته ، وما أن انتهى منه والتفت إلى  
اليمن حيث باب الحجرة ، حتى جحظت عيناه في دهشة وتسمر  
في مكانه .

ما هذا ؟ لكانه في حديقة للزهور !

أكثر من مائة بوكيه ورد .. وأكثر من ألف وردة بلدي  
مرصوفة بأناقة ونظام أمام الحجرة . حتى تكاد تسد الطريق  
إليه .. و .. ووسط الزهور والورود ، عشرات البراعم الصغيرة  
التي لم تتفتح بعد .

أحس بشيء يسد حلقه ، وبشيء كالديوار يلف بسرعة في  
رأسه .

إلى هذا الحد كان ساذجا ؟ .. يشتري للمدير وردة ؟ ..  
وهز رأسه بشدة .. حمدا لله أن أحدا في العالم لم يعلم  
بفعلته .. وأغمض لحظة .. هيا يا يوسف .. ابتسم  
وبسرعة .. لا تطل الوقوف هكذا أمام الباب .. هيا افرد صدرك  
وادخل على الرجل المريض بوجه بشوش .

كان الأستاذ ماجد راقدًا على سرير أبيض .. وبدأ بجسمه  
الضخم أكبر من السرير .. ولأول مرة كان يراه يوسف

بيجامة .. وليم شعرات سوداء كثيفة نابذة في صدره ..  
والحجرة كانت تموج بسكون مهيب .. خطا يوسف نحوه  
بنشاط .. وسلم عليه بحرارة ..

-- حمد الله على سلامتكَ يا استاذ ماجد ..  
واعتدل ماجد قليلا في رقدته وقال وهو يمد يده بالسلام :

-- متشكر ..

قالها بصوت واهن متحشرج .. فتذكر يوسف على الفور  
-- كالمصدم -- ان العملية التي اجراها الرجل ، عملية لوز ..  
ومعنى هذا ان الزور مجروح ؛ واذن لا كلام على الاطلاق ..

احس بحجر كبير يسقط على قلبه .. اسقط في يده  
وارتدك .. كيف لم يفكر في هذا ولو لحظة ؟ .. كيف ظل يفكر  
الساعات وبعد في الكلام الذي سيقوله له ، وفي الردود التي  
سيستمعها منه ؟

وشملت روحه غشاوة .. فاطرق .. لكنه عاد يجاهد ..  
فربما ..

-- شد حيلك يا استاذ ماجد .. مش حضرتك احسن  
دلوقت ؟

ودون ان ينطق الرجل بكلمة ، هز له رأسه هزة مقتضبة ،  
وبسط له كفيه علامة الاعتذار ، ثم أشار الى حنجرته ، وأطرق  
وأغمض عينيه ..

اذن .. ولا كلمة ..

بقى هو الآخر جالسا مطرقا في صمت .. احس بما يشبه  
الاختناق .. وفكر .. « لو قمت الآن فسيستريح كلانا من  
غير شك » ..

تذكر الوردة فجأة ، فانتفضت أعماقه .. قد تبرز من صدر الجاكته عفوا فيلمحها الرجل ويتعجب في نفسه .. أحكم يوسف من غلق الجاكته . ثم عقد ذراعيه فوق صدره .. أحس بالوردة .. بأوراقها تكاد تتفتت .. انقبض قلبه .. ومر يدهنه خاطر ، يخرجها من جيبه ويقدمها .. لكن الصمت في الحجرة كان ثقيلا يجمد كل شيء .. والرجل مطرق ومغمض عينية .. وشعره كثيف فوق جبهته .. وكل ما في الغرفة يوحي لكل ما فيها ولكل ما في الأعماق أن يتوقف ويصمت .. أن تظل المسافات والأبعاد كما هي ، لا تتغير ولا تتبدل .

انتابه احساس دافق بالهروب .  
أيقوم ويستأذن ؟

لكن الرجل كان لا يزال مطرقا ومغمضا عينية .. لا يصح أن يقلقه .. فليظل جالسا هكذا حتى يفتح عينية .  
وأطرق هو الآخر .

فجأة ، تناهت الى مسامعه ضجة ، فارتعد كل وجوده ..

ورأى الباب يفتح بحركة مندفعة ، كانت احدى الشلل قادمة لزيارته .. يتقدمها عباس .. واغتمت روحه لمراه .. كان يتحنجل في خطاه ، ولم يكذ يخطو من الباب بجسمه السمين المربع ، حتى شمل الغرفة كلها بنظرة واحدة سريعة من عينية اللولبيين ، وقال بصوت يقترب من الصياح وهو يخطو نحو السرير .. « سمعت آخر نكته يا ريس » ؟ .

وقبل أن يلقى بالنكته ، وقبل أن يرد عليه الرجل بكلمة ، سمع يوسف الحجرة كلها تفرقع بالضحكات .. وبدون أن يدرى كيف يمكن أن يحدث هذا ، رأى وجه الأستاذ ماجد الساكن

ينشرح ويسطع بالبهجة ، ثم يقول لعباس بصوته المتحشرج  
ويكاد يضحك :

— قلت لك ألف مرة بطل جنان .. قوللى أول .. ايه  
اخبار الشغل !

ومط « عباس » شفتيه بحركة عتاب ، ثم مال برأسه  
قلبلا على كتف الرجل وقال : « جرى ايه يا ريس .. يا ريس  
رفقا .. رفقا بصحتك .. والنبي كل حاجة ماشيه عال ..  
بحسك .. اسمع أول النكتة دى : كان فيه مرة واحد راجل  
بدقن : قابل واحدة ست .. راح .. »

ولم يتابع يوسف النكتة .. كان يحس فى رأسه بدوار  
وانه يتلاشى .. لا يسمع ولا يرى .. طفى عليه شعور كاسح  
بالغربة .. وانه الطفيلى الوحيد فى الحجرة .. وتذكر بالكاد  
وهو يختنق ، انه جاء قبلهم واذن فله الحق أن يخرج أيضا  
قبلهم .. ولكن كيف يفعل هذا ؟ .. وسط هذه الزبطة ،  
والأنظار والأنفاس كلها متجهة الى الأستاذ ماجد ؟

مستحيل .. مستحيل يا يوسف أن تصدر منك اية حركة .  
لقد وقعت فى فيخ .. ولا مهرب .

وأفاق فجأة على ضحكة ضخمة من عباس ، تبعتها ضحكة  
هائلة من الجميع ، فانتفض فى فزع .. انه الوحيد الذى  
لا يضحك .

وبسرعة ، فتح فمه .

وراح يضحك ويضحك .. ويضحك ويضحك .

« ١٩٦١ »

## شاطر يا عبد الستار أفندى

مضت أكثر من ثلاث سنوات وعبد الستار أفندى موظف مغمور في تلك الشركة الكبيرة المشهورة .. وذات يوم .. وجد أمامه الفرصة سانحة ليثبت فيها للمدير أنه شاب موهوب ونشط ، فصمم ألا يضيعها على نفسه .. !

لم تكن بينه وبين المدير من قبل علاقة عمل مباشرة .. ولكن حدث أن تغيب السكرتير يوما عن الشركة ، فاستدعاه الرجل المهيّب الى حجرة مكتبه الفاخرة ، وطلب منه بنفسه والاهتمام باد على وجهه الوقور الجاد ، أن ينجز له بعض عمليات حسابية عاجلة ، ثم يعرضها عليه في اليوم نفسه ، حتى لو اقتضاه الأمر أن يتأخر في الخروج بعضا من الوقت .

وبالطبع رحب عبد الستار بطلب مديره من كل قلبه ، وعلق على انجازه آمالا كبارا .

وما أن عاد الى حجراته ، حتى كان قد تحول الى شعلة متوهجة من الحماس والنشاط .. خلع جاكته وكرافته وعلقهما على ظهر الكرسي الذى يجلس عليه ، ثم أشعل سيجارة وأخذ

نفسا طويلا بمزاج ، ثم انكب على مكتبه وأوراقه : وسرعان ما نسى العالم كله ، واستغرق في مهمته الخطيرة .

صورة واحدة فقط . هي التي كانت تتراءى له بين الحين والحين وتتخلل الأرقام والأعداد التي يحسب فيها .. المدير بوجهه المهيب الجاد ، جالس خلف مكتبه في أقصى حجرته الواسعة الطويلة وكأنها صالة ، وينظر الى الباب فيراه ، داخلا عليه محملا بالدفاتر والأوراق فيبتسم له ابتسامة خفيفة جدا . ثم يقول له في وقار .. « خلصت بسرعة كده .. ؟ لا .. برافو عليك يا عبد الستار أفندى » .

لو يقول له المدير عبارة مثل هذه .

وتأججت شعلة الحماس في قلب عبد الستار أكثر وأكثر . وراح قلمه يعمل مع عينيه في المئات والألوف من الأرقام والأعداد، ولم يرفع رأسه عنها وعن المكتب ، الا بعد ان انتهى من المهمة كلها ، واطمان لها تماما .

عظيم .. لسوف يعجب المدير قطعا بمهمته ونشاطه .. وسيقول لنفسه .. هذا شاب نشيط وكفؤ .. فلماذا لا نستغل نشاطه وكفاءته بصورة أحسن في العمل .. ؟ ! ألم ينجز العملية في أقل من نصف الوقت المقدر لها .. والوقت هنا من ذهب .. ؟ !

ونفض عبد الستار من على مقعده في حماس ، وتناول جاكته وكرافته ولبسهما ، وبدأ على وجهه النحيل الأسمر أنه تذكر شيئا هاما ، فخطا نحو زجاج النافذة ، وخطف من خياله المنعكس فيه نظرة سريعة ليطمئن على منظره ، ثم انحنى على دفتره وأوراقه ، وحملها بين يديه وسار بها فرحانا الى حجرة المدير .

كانت الحجرة تقع في نهاية الصالة ، في ركن هادئ على



اليسار ، وحرص عبد الستار وهو يمشى نحوها أن تكون خطواته مهذبة جدا ، وهادئة جدا ، ولا صوت لها .

ورأى الباب مواربا .. وهم أن يدقه مستأذنا . لكنه خنى أن تسقط الأوراق من بين يديه .

أينحنى ويضع حملة الثقيل على الأرض .. تم يدق الباب مستأذنا .. ثم يعود فينحنى ويحمل الحمل من جديد ، ثم يدخل بعد ذلك . ! ؟ . لا .. لا داعي لكل ذلك هذه المرة .. سيدخل مباشرة ، في أدب يغنى عن الاستئذان .. حاملا عنده بين يديه ، وسيستقبله الرجل بنظرة تقدير .

وفتح الباب بكتفه الأيمن في هدوء بالغ .. ودخل .

لم يكد وجهه يسبقه في الدخول ، حتى لطشه منظر غريب .. أحس على الفور بشيء يكاد يصعقه ويشل حركته .. وأراد أن يستدير بأوراقه وينقلت عائدا الى حجرته .. وتنتهى المسألة عند هذا الحد ، لكن ضجة كبرى كانت قد حدثت في نفس اللحظة ، ولم تمهله لكي يعود ، خيل اليه ان ديناميتا قد تفجر وطاش في قلب جبل .. !!

أيمكن أن يحدث هذا يا ناس ؟ !

يمكن وأكثر .. فقد هوى أمام عينيه فجأة ، كاس ليمونادة مثليج على مكتب المدير .. وانسكب على حافظة أوراقه الخضراء ، وعلى بنطلونه من ناحية البطن ، وعلى الأرض أيضا .

لسبب لا يدريه مخلوق في هذا العالم كله ، لم يدخل عبد الستار الحجره الا في هذه اللحظة بالذات .. ولو كان قد تقدم دقيقة واحدة أو تأخرها ،: فربما لم يكن قد رأى ما رآه .. ولكن ساعة النجس تأتي لأبسط الاسباب !

فحين أطل عبد الستار بوجهه من الباب في هدوء . كان المدير في وضع غريب .

كان يبدو كأنه يهم بالنهوض من على مقعده ، ويمد إصابع يده الطويلة الضخمة الى صلب سكرتيرته الشقراء مازحا ومغازلا .. أما هي فكانت - في نفس اللحظة أيضا - تقفز في دلال وتمنع .. وتقول « لا يا استاذ .. كده يبقى عيب » .

الدنيا يومها كانت صيفا وحرا .. وكانت ترتدى بلوزة لونها برتقالي ، والفتحة العليا التي بين مفرق ثدييها واضحة وفيها ظل جميل . وكتفاها كانا شبه عاريين ، وخصرها نحيل جدا ، وخصلة من شعرها البنى المصبوغ ترتدى على حاجبها الأيسر !

الغزال الأشقر الحرون كان يقفز ويتأوه .. والأصابع الكبيرة كانت تمتد في نهم .. وفي نفس اللحظة ، جاءت عين عبد الستار في عين مديره المحترم !! كلاهما أحس بلسعة حارقة .

هم عبد الستار بالارتداد على عقيب ليعود بدفاتره وأوراقه الى حجرته لكنه لم يستطع .. فحين لمح الرجل داخل عليه ، استرد يده من على الصدر النافر ، وكأنه يخرجها من ماء مغلى .. وقبل أن تعود يده الى مكانها الطبيعي ، كانت هوجاء ملعورة ، قاطاحت بكأس ليمونادة مثلجة كانت موضوعة أمامه على المكتب ، وأحدثت ضجة كبرى !

أما عبد الستار ، فقد وجد نفسه دون أن يدرى - يتخلص من أوراقه ودفاتره واندفع كالماخوذ الى مكتب الرجل ، وراح وهو مسحوب الأنفاس يجفف بمنديله الحافظة وزجاج المكتب من السائل المراق .. !!

ظل منحنيا على المكتب يمسحه .. يده ترتعش .. وأنفاسه  
تكاد تذهب ، وخواطر كئيبة محزنة تتدافع وتتزاحم في رأسه .

كده يا عبد الستار .. ؟ ! لماذا دخلت هكذا من غير  
إذن . ؟ ! . وفي هذه اللحظة بالذات . ؟ ! ها أنت قد رأيت كل  
شيء .. رأيت مديرك المهيب في العن لحظة . ! . أنت لا ترضى  
بالحرج لرجل مثل هذا ، لم يكن يكلم أحدا في العمل الا من  
لقلوغه السمين المتدلى تحت رقبتة !! .

لا يا عبد الستار .. لم يكن يصح منك هذا أبدا .. قطعت  
عيشك بنفسك ، وخل الحماس والشاطرة تنفعل !!

الخواطر والأشباح كانت تتدافع وتتزاحم في رأسه وهو  
مقوس الظهر فوق المكتب يجفقه .. ولو كان الأمر متروكا  
له هو وحده ، لظل هكذا منحنيا دون أن يرفع رأسه ، حتى  
لا تلتقى عيناه بعيني المدير مرة أخرى .. !!

لكن المفروض في الرجل أنه مشغول دائما ، وفوق رأسه  
برواز ذهبى أنيق مكتوب بداخله بخط جميل .. « الوقت من  
ذهب » .

اذن .. عليه أن ينسحب .. ولكن .. كيف ينسحب ؟ ! .

أقول له .. اغفر لى هذه الغلطة يا سعادة البيه !! ..  
لا .. لا داعى للمفجرة أبدا ، فأنا لم أُر شيئا بالمره .. وان كنت  
قد رأيت ، ففى بئر عميق والله .. حتى أصدقائي في سهرة  
الليلة لن أتسلى معهم .. ولن أضحكهم بكلام مثل هذا .. فليس  
كل ما يرى ، يقال يا سعادة البيه .

والسكرتيرة في الحقيقة حلوة .. ساخنة يا سعادة البيه في  
سخونة هذا اليوم الملهب . ولا عليك أن تتسلى لحظة وتروح

عن نفسك .. نعم تتسلى .. فمعاذ الله ان يكون معظم وقتك معها هكذا .

وأحس عبد الستار بحزن شديد يثقل على قلبه ، وندم غامض يجتاح نفسه .

الصمت كان في الحجرة عميقا ومذهلا .. وعبد الستار لا يزال منحنيًا على المكتب .. وخطوط الليمون المثلج منسابة على الأرض .. وصاحبة البلوزة البرتقالية واقفة لا تدري من الأمر شيئًا على وجه اليقين ، فقد كان ظهرها لحظة التحس للبواب .

أما المدير ، فقد نبتت في جبهته العريضة حبات عرق كثيرة ، واصفرت بكرة وجهه وكأنها تفضت .. كان هو الآخر قد شل عن الكلام .

أستطيع أن يصرخ في وجه عبد الستار ، ويقول مشيرًا على الباب .. « اتفضل اخرج بره » لكن أنفاسه لم تكن تسعفه على أي كلام .

واستمر الصمت الثقيل لحظات ، ثم علت فجأة دقات كعب حذاء السكرتيرة على أرض الحجرة الباركيه .. ومضت خارجة بلا أي كلام . وبقيا هما الاثنان وحدهما .

هيه يا عبد الستار .. لابد أن تتصرف بسرعة .. لا تعقد الفلطة أكثر وأكثر .. غادر الحجرة على الفور .. لقد جففت الليمون بمنديلك حتى فاض ، وآن لك أن تعصره .. وتعصر نفسك أيضا .

وكمين يحمل ثقلا ضخما يتدلى من حول عنقه ، راح يرفع رأسه من على المكتب في تشاقل وقلبه يدق .. وحين حاذت

عيناه عيني الرجل وشرع ينظر اليه ليقول له أى شيء .. أى شيء  
يأتى على لسانه .. لكن الرجل نفسه كان مطرقا برأسه :  
وأصابعه تدق بقلم صغير على زجاج المكتب دقات رهيبة متتابعة  
وكأنها نذير .

وفى صمت وانحناء : خطا عبد الستار خطوات قليلة نحو  
منضدة زجاجية كان قد وضع عليها الدفاتر والأوراق دون أن  
يدرى ، ثم حملها بين يديه ، ووقف بها أمام مديره مطرقا فى  
صمت .

ابتقدم بأوراقه ويضعها بأدب على المكتب ، ثم ينصرف فى  
سكون . لا

لا .. يجب الا يعيد حماقته .. يجب الا يخطو خطوة  
واحدة نحو الرجل الا بإشارة منه .

كانت وقفته فى منتصف الحجرة الواسعة .. بعيدا بعض  
الشيء عن المكتب الفاخر ، وبدا وهو مطرق فى وقفته حاملا  
أوراقه ، كمن يحمل ذنبا كبيرا بين يديه .

وطالت وقفته لحظات .. لكن الرجل لم يرفع له رأسه ..  
ولم ينطق بحرف .. بل ظل يدق زجاج مكتبه بطرف قلمه  
دقات غريبة ومخيفة .

هيه يا عبد الستار .. الواضح أن الرجل متجاهل وجودك  
أنت وأوراقك .. فالى متى ستظل فى وقفتك الرهيبة هذه .

ها هى دقات قلم المدير قد توقفت تماما ، وبدأ ينفخ من  
أنفه الضخم .. ثمة انفجار آخر على وشك الحدوث .

انسحب فوراً بأوراقك .. وعد بخيبتك أيها المتحمس  
النشيط الى عالمك الذى كنت تعيش فيه مغمورا منذ أكثر من  
ثلاث سنوات .

واستدار عيد الستار بدفاتره واوراقه الى الباب : ومشى  
في هدوء ، ثم خرج كالمدهول .

ولم يكد يصل الى حجرته حتى قفل بابها خلفه واستند  
بظهره عليه والاوراق بين يديه ، ثم اغمض عينيه .. يسترجع  
الموقف دون ان يصدق أنه قد حدث .. وبعد وقت لا يدره . كان  
يتحرك من مكانه في بطء ، وضحكة هستيرية ساخرة تخرج من  
قلبه الحزين .. ثم جلس الى مكتبه ورأسه بين كفيه ، وراح  
يفكر في المصير .

« ١٩٦٢ »

## فى شارع السد

فى تلك الساعة ، كان من المهم ان يكون لكل انسان بيت  
او سقف ليهرع اليه ويستظل فيه .. اما من ليس له بيت  
ولا سقف ، فكان من المحتم عليه ان يهرب من ذلك السعير الذى  
تطرده الأرض من جوفها ، ويبحث عن شبر من الظل ليجلس  
فيه ويجفف عرقه ويستريح .

وشارع السد الذى ينحدر من ميدان السيدة زينب ، كان  
ساعتها يلقى فضاؤه بالصهد وأرضه التى كانت لم ترصف  
بعد ، ومبانيه العالية القديمة المشققة ، وعربات الكارو المتناثرة  
فى أنحائه ، كانت تبدو كلها من شدة الحر هامة وهشة ،  
لها رائحة الشيء الذى يوشك على الاحتراق .. وكان الشارع  
يبدو خاليا الا من أوجل قليلة بدت وهى تهرول مثل عفاريت  
الظهر .

على أن هذا الفراغ لم يلبث أن راح يخف شيئا فشيئا ..  
فالشمس كانت ماضية كالعادة فى رحلتها نحو الغرب ، والبيوت  
الرمادية القديمة المرتفعة على اليمين بدات ترمى على الأرض

ظلالا راحت تطول لحظة بعد لحظة .. ولم تكد تتكون منطقة  
واضحة من الظل حتى آوى إليها كثير من الرجال والشبان  
والصبية . تمدد البعض منهم وأقفل عينيه ، وحاول أن ينفو ..  
واشترك البعض في جولة وراحوا يدخنون المصل ويتحدثون .  
ولم يكد يمر بعض من الوقت حتى فوجئ الجميع بصوت  
نغير يرتفع في الفضاء وينتشر .  
- توت .. توت .. توت ..

امتدت أعناقهم ناحية الصوت وراحوا ينظرون في فضول ،  
لكن البعض لم يلبث أن لوى شفتيه في سخرية واستخفاف .  
وعدل رقبته على رأسه وراح يفكر في حاله من جديد ..  
أما البعض الآخر . فقد ظل ينظر في فضول ويتسمم .. !!

كانت طفلة صغيرة نقف بالقرب منهم في الظل ، وبين يديها  
الصغيرتين نغير نحاس صدى راحت تنفخ فيه بشدة .

لم يكن عمرها يزيد عن العاشرة ، قمحية الوجه شاحبة ..  
في أسفل ذقنها دقة صغيرة خضراء ، وتلبس جاكطة قديمة  
حمراء . وبنطلونا أسود يبرز منه جزء كبير من ساقها  
النحيلتين .. وبالقرب منها ، كان رجل كبير يخطو على مهل .  
وقد بدا من أول لحظة أنه أبوها .. كان عارى الرأس ، يلبس  
صديريا غامقا مخططا . وسروالا أبيض فضفاضا ومربوطا من عند  
القدمين كالذى يلبسه الصيادون ، أما وجهه فكان مستطيلا  
رفيعا ، والأنف حاد كالمنقار ، والعينان لا تبرز خضرتهما الدائنة  
من داخل وجهه الغائر المعفر .

وراح الرجل يرقب ابنته في نظرات صارمة ، ثم أشار لها  
بذقنه إشارة خفيفة أمرة على أنزاعها أنزلت النغير من على فمها ،  
والقت به على الأرض ، ثم أخذت تفرك كفيها الصغيرتين وتصحح



بصوتها الرفيع وعيناها تتجولان في الراقدين على الأرض نارة .  
وفي الناس القلائل الذين يمرّون بالشارع نارة أخرى .

» .. هادى يا هادى .. يا ابو العباس يا حامى  
إسكندرية « .

ثم انحنت على الأرض والتقطت دفأ راحت تدق عليه  
دقات سريعة متتابعة ، وعادت تصيح في صرخات رفيعة :

» .. تكالى وأعتمادى عليك يارب .. يا رازق الطير أرزق  
عبيدك « .

وارسلت عينيها الى مقام السيدة زينب المواجه لها .  
وراحت تنادى وكلماتها المنفمة تمتزج بايقاع شخصخة الدف :

— نظرة .. يا بنت زين العابدين .

وعادت دقات الدف وشخصخاته تتتابع وتسرع أكثر من  
الأول .

كانت مساحة الظل التى تلقيها البيوت قد أخذت تتسع  
وتترامى ، والإيقاع بدأ ينتظم في نغم متوازن متماسك . ووجهها  
الصغير الشاحب أصبح أكثر تعبيرا وانفعالا .. وفي دقائق قليلة ،  
كان جمع غير قليل من الناس بدأ يتجمع حولها وتكونت حلقة  
منهم ليتفرجوا عليها .

وخطأ أبوها نحوها خطوتين طويلتين ثم قال لها في صوت  
حاد وهو يصفق وعيناها تتجولان في الشارع وفي الناس .

» .. هوب هوب .. يالا هوب .. ورى الرجالة شفلك  
يا محروسة « .

وقفزت الطفلة في الحال قفزة سريعة ، واذا برأسها  
تحت ، وقدميها فوق .  
صاح الأب :

الحق شوف .. طفلة عجيبة .

لحظات .. وقفزت قفزة أخرى اعادتها الى وقفها  
الطبيعية .

جذبت من صدرها الهزيل نفسا عميقا ، ثم رفعت وجهها  
الى السماء المتوهجة . وارسلت من النفير انفاما متقطعة متلاحقة  
ثم عادت تقول وهي تخرج بعض اكواب نحاسية صغيرة من كيس  
ملقى على الأرض :

— ١ ، ٢ ، ٣ .. اللعب يبدأ يا جدعان واللى يحب النبى  
يصلى عليه .

همهم الواقفون .. « اللهم صلى عليه » .

ووجهت الطفلة كلامها الى أبيها :

— أبويا ..

— عاوزه ايه .. ؟ !

— ايه ده .. ؟ !

— كتكوت ..

— كم كتكوت .. ؟ :

— كتكوت واحد ..

— طيب لو كانوا ثلاثة ؟ .. !

— مش معقول ..

وحولت الطفلة نظرتها الى الواقفين من حولها ، وراحت  
تقول وهي تشير الى أبيها :

- شوفوا الحاوى ده كبير ازاي .. وانا صغيرة اد ايه ..  
لكن انا اللعب احسن منه .. والجدة يطبطنى .. دول كام  
كبابية . ؟ ! طبعا ثلاثة .. وده كم كتكوت ؟ .. طبعا واحد  
مش كده .. طيب فتح عينك .. وانت يا راجل يا طويل يا عريض  
يا اللى واقف هناك ، لو جدد تطبطنى .

وتوحت انظار الكل الى رجل فلاح يقف بينهم بقامته  
الفارعة ويلبس جلبابا بلديا وطاقيصة صوف : وكان يتسم لها  
من قلبه .

وئنت ركبتها في حركة رشيقة وجلست على الأرض في  
غمضة عين .. وفردت ساقها امامها .. ثم وضعت كتكوتها على  
التراب وتركته يجرى وبقفز وسط المتفرجين .. كان كتكوتا مرحا  
لونه تختلط فيه الصفرة بالخضرة وعيناه لامعتان .. حاصره  
الكل بنظراتهم .. وطافت بوجوههم ابتسامة .

-- كام كتكوت .. ؟ !

-- قلنا واحد ..

-- طيب وان كانوا ثلاثة ؟ !

-- قلنا مش معقول ..

-- طيب اوريك ..

-- ابوه ورينا ..

-- لا .. نستفتح من الجدعان دول قبل ما نلعب ..

-- لا .. وريهم شطارتك الأول ، احسن حد يفكر انك

بتضحكى عليه ..

وتعقد جبين الطفلة ، غضبت من كلماته الأخيرة ، قالت

مستنكرة :

— أنا عمرى ما ضحكت على حد .. أنا بنت جدعة . باكسب  
اللقمة بعرق الجبين .

ومسحت جبينها بإصبعها الصغير .. وأزالت عنه العرق  
الذى كان ينحدر عليه من خلال خصلات شعرها الغزير .. ثم  
التقطت الكتكوت من على الأرض وانحنى على الأكواب ترفعها ..  
واحدة بعد أخرى .

— شابف انت وهو .. كتكوت واحد مفبش غيره .  
ثم راحت تقلب الأكواب الفارغة على فتحاتها فوق المنديل  
الفاقع من جديد . ووضعت الكتكوت تحت واحدة منها .  
— هيه .. الجدع يظبطنى .

ومدت يديها فى حركة سريعة ، وراحت تكشف الأكواب  
الثلاث واحدة بعد أخرى .. ومن داخل كل واحدة ، كانت تخرج  
كتكوتا جديدا ، لونه غير لون الآخر ، ولم تلبث أن أطلقت الكتاكيت  
الثلاثة على الأرض فراحت تتواثب وتوصو وتودور .  
ضحك الجميع ، وصفقوا فى إعجاب .

كان الصهد لا يزال يغلى فى الجو ، والعرق يلصق ثياب  
الواقفين بأجسادهم ، والطفلة الصغيرة بدأ وجهها مصفرا  
ومرهقا .

— اللعبة دى مش حاجة .. فيه حاجات احسن بكتير ..  
والمصرى زى ما انتم عارفين ، أبو التفانين .

ورمقت أباهما بنظرة .. كانت عيناه الفأترتان تنفحصان  
الواقفين ، وابتسم ابتسامة صغيرة وقال وهو يصفق من جديد :  
— مش قتلتم طفلة عجيبة .

وعاد يدور في قلب الحلقة ويقول :  
- يا بختنا بالنبي .. طيب وعاززه ابه دلوقت يا محروسة.  
التقطت الطفلة الدف من على الأرض وراحت تشخش به  
وتقول :

- عابزه استفتح من دول .  
ورفعت عينها الى السماء وعادت تصبح بحرارة :  
- الهى يعمى عينيه ! ؟  
فصاح ابوها متسائلا :  
- هو مين .. ؟  
- اللى فى جيبه فكة ، ويخل علينا بيها .  
- طيب روحى لفى عالجدهان .. وسيبيكى من الأندال .  
وبدأت الطفلة تدور ، وصاجات الدف تشخش بين أصابعها،  
وراحت تبج صوتها الذى كان قد أخذ يضعف ويخفت .  
- الهى ربنا يخليه اللى معاه الفكة .. واللى معاهش ،  
ربنا يفك ضيقته وضيقنا !  
وظلت تدور مرة واثنين وثلاثا ، ثم أعادت الرق الى أبيها  
وهى تمسح العرق من على جبينها بيدها المتربة .  
ونظر الرجل داخل الرق ، واكتست ملامحه بالحزن والضيق،  
وعاد يقول للناس فى مرارة :  
- ثلاثة صاغ بعد العذاب ده كله يا ناس .. معاهش  
يا محروسة .  
لفى كمان مرة .. كملى الشلن نتغدى به .

وتناولت منه الرق .. وعادت تدور ، لكن يدا واحدة لم تمتد لها بتيء .

كان بعض المتفرجين قد تركوا الحلقة ، لكن أناسا آخرين جاعوا ووقعوا مكانهم ، ودب الأمل في قلب الرجل من جديد ، عاد يصيح :

— طيب من تانى يا محروسة .. شد حيلك يا حبيبتى :  
علشان أجوزك النهاردة واطلقك بكرة .

واخرج لها من جيبه بيضة ومنديل رفيعا فاقع الألوان .. تناولتهما منه وراحت تقول وهى تلوح بيدها فى الفضاء :

— دى ايه ؟ ! بيضة .. وده ايه ؟ ! منديل .. طوله عشرة اشبار بالكثير .. وراحت تقيسه بكفها الصغير .. ثم كورته وحشرته فى فمها ، وتبعته بالبيضة أيضا ، فبدأ وجهها الصغير الشاحب منتفخا وصدرها الصغير يعلو ويهبط وهى تجاهد لتأخذ انفاسها فى هذا الجو الخائق .

وبدأت الطفلة تخرج المنديل الملون من فمها .. راحت تجلب .. وتجلب .. مناديل مترابطة بدت من طولها وتتابعها كأن لا نهاية لها . واستمر صدرها يعلو ويهبط .. وشحوبها يزداد .. وبدت عيناها وكأنهما جاحظتان !

وصفق الناس لها واشتد التصفيق . وتعالى همهمات .. يا سلام بنت عجيبة .. عجيبة صحيح .

والطفلة لاتزال تشد بأصابعها الصغيرة حبل المناديل من فمها ، ولم يكده ينتهى الحبل المزخرف الطويل حتى كانت البيضة بارزة من بين شفتيها .. ؟

وارتفعت الهمهمات من جديد : تانى .. من تانى .

نظرت الطفلة الى ابيها نظرة زهو . ارتعشت عظام وجهه  
رعشة خفيفة .. فقد احس وهو ينظر في عينيها أن لمعتها قد  
بهتت كثيرا ، وان لون وجهها قد زادت صفوته .. وراح يقول :  
— معلش يا محروسة .. من تانى .. الجدعان عاوزين  
تفرجوا عليكى مرة ثانية .

وتنهدت الطفلة في صمت ، ورمشت بعينيها ، ثم بدأت  
تلعب لعبتها من جديد والناس يحملقون فيها ويتعجبون .

كانت الحرارة قد بدأت تخف بعض الشيء . والميدان راح  
يصب في الشارع اناسا كثيرين ، والنسيم بدأ يهب خفيفا ، لكن  
الحلقة المروصوة كانت تحجب الأنسام عن الطفلة .

وراحت الصغيرة تجذب الحبل من فمها من جديد . واخذ  
صدرها يعلو وبهبط بسرعة عن ذى قبل ، لم يلحظ احد من  
الواقفين أن ساقها الصغيرتين بدأتا تتخلخلان .. واحد فقط هو  
الذى كان يحس بها .. أبوها .. قال يستحسها مشققا :

— برواة عليكى يا محروسة .. هانت والنبي .. وحتنشى  
الليلة كمان .

وأخيرا انتهى الحبل الطويل من فمها وبدأت البيضة تشق  
طريقها الى شفتيها ، لكنها لم تكد تطل من فمها حتى سعلت الطفلة  
سعلة مفاجئة فسقطت البيضة من بين شفتيها على الأرض ،  
وانكسرت .

وظهر في عيني الطفلة شيء يشبه الفرع ، وأحست بشيء  
رفيع حاد يمزق في صدرها ، وسعلت سعلة أخرى اهتزت لها  
ضلوعها ، وشعرت بعينيها تغيمان ورأسها يدور ، وجاءت تهز  
وجهها وتنظر للناس من خلال ضبابات ملأت عينيها ، لكنها لم  
تع أى شيء ، وسقطت على الأرض مغشى عليها .

روع أبوها : فانكفأ عليها وحملها بين ذراعيه ، ووضعها  
على حجره ، وراح يخاطبها بكلمات فاجعة ويهزها ويبكى .

وحدت ضجة كبيرة بين المتفرجين وتحركت الأقدام  
وتزاحمت الأجساد .. وعلت أصوات واختلطت .. يا بنت  
زين العابدين نظرد . ميه با جدعان .. وسع يا خلق انت وهوه ..  
يا ناس دى مشى فرجة .. خلوها تشم نفسها .

شينا فشيئا بدات الطفلة تفيق .. وراح صدرها الصغير  
يعلو ويهبط فى هدوء وانتظام .. وحين أحست بالضربة الكبرى  
تنقشع عن عينيها راحت نسبح ببصرها فيما حولها ، وتراعى لها  
اناس والأشياء خفيفة شغافة وكأنها فى حلم .. ثم بان فى عينيها  
وكانها تنبتهت لشيء فراحت تدور ببصرها فيما حولها .

ولم يكد بصرها يقع على الرق حتى استقرت نظراتها المجهدة  
عليه لحظات .

ثم رفعت عينيها الى أبيها وسألته مهممة ، وشبه ابتسامة  
تطوف بوجهها .

— آبا .. احنا لمينا اد يه بابا ؟ !

« ١٩٥٧ »



## وردة

وأخيرا .. انتهت وردة من عملها اليومى الطويل .

تنهدت من أعماقها فى ارتياح ، واستندت براسها الصغير على حائط المطبخ لتستريح لحظة ، لكنها أحست فجأة بالخدر يعاود رأسها ويثقل جفونها ، فابتعدت براسها عن الحائط ، وراحت تهزه فى جزع لتطرد النوم من عينيها ، ولم تلبث أن تركت مكانها ، وراحت تجتاز الممر الساكن الذى يفصل المطبخ عن بقية الشقة .

كانت الشقة لحظتها غارقة فى السكون ، ونور الكهرباء فيها يعطى احساسا بأن الليل فى الخارج مظلم وفاحم السواد ، والأصوات التى كانت تتصاعد الى سمع الصغيرة من أعماق الشارع القريب قد هدأت وخفت وتحولت الى همهمات غامضة بعيدة متقطعة .. ما من صوت كانت تسمعه وردة حينذاك سوى خفيف قدميها الصغيرين وهى تمشى على بلاط الممر فى وهن وعلى مهل .. وصوت سيدتها هو الآخر كان يعاود الدوران فى رأسها

الدائع المرهق .. « وبعد ما تخلصى يا وردة ، تمسحى جزمة حسن ، وبعد بن تنيميه .. اوعى تنامى يا وردة قبل ما حسن ينام .. فاهمة يا شاطرة باقول ايه » .

كانت سيدتها قد آوت الى سريرها منذ وقت قليل واستسلمت لنوم عميق .. اما حسن - طفلها الصغير - فقد ظل ساهرا .. كان قد نام نومة طويلة بعد ان احضرته وردة من مدرسته بعد الظهر ، ولم يستيقظ الا مع غبشة الغروب ، فظل صاحيا بجوار أمه على نفس السرير ، وراح وهو منبطح على بطنه ببيجامته الصغيرة النظيفة الخضراء ، يقلب تارة فى كتاب صغير ملون ، وتارة اخرى يشخبط بقلم رصاص طويل فى كراسة بيضاء .

كان خائفا من سكون الليل المطبق من حوله ، ومن الأصوات التى كانت تصدر عن وردة وهى تروح وتجىء فى المطبخ تغسل الأواني والأطباق ، ارتعد رعدة خفيفة حين سمع وقع قدميها يقترب شيئا فشيئا من حجرته .. وتعلق بصره بالبواب ، وراح ينظر فى وجل :

— انت خلصتى يا وردة .. ؟ !

كانت واقفة فى مدخل الباب ، تجفف يديها المبلولتين فى جلبابها الرمادى القصير ، ورأسها الصغير المعصوب بمنديل أزرق غامق مائل نحو صدرها فى وجوم ، وضميراتها الرفيعتان الصغيرتان تتدليان حتى قرب كتفيها .. وتعب النهار يطل من عينيها الغائمتين المرهقتين .

— أبوه خلصت ، فاضل مسح الجزمة .. جزمتك فىن يا حبيبى .

قالتها بصوت خافت أجش فيه حنان عميق وغريب .. ومع

أن وردة لم تكن تزيد عن التاسعة ، وحسن عن السابعة .  
وكثيرا ما انطلقا معا كصديقين في أرجاء الشقة والشارع يلعبان  
ويضحكان ويتنططان ، إلا أنها كانت دائما في الليل ، وبعد انتهائها  
من عمل النهار الطويل ، تبدو وكأنها توشك أن تضع في  
غيبوبة ، فتواصل عملها في صمت ووجوم ، وتتمنى لو يتركها  
الجميع في حالها . لا يكلمها أحد حتى تنتهي من عملها ، ثم تأخذها  
الغيبوبة وتنام .

— تعالى انفرجى معايا في كتاب شرشر .. شوفي يا وردة ..  
شوفي شرشر .

لكنها عاجلته على الفور لتسكته .. « مش دلوقت .. سبنى  
اشوف شغلى عشان ننام .. جزمتك فين » .. ؟ !

كان قد داخل صوتها بحثة قاطعة مرهوبة ، ادرك معها أنها  
لا تريد منه في هذه اللحظة أى كلام .. فانكمش في نفسه وقال  
بصوت خافت ، كأنه يطيع امرا « الجزمة تحت السرير » .

ومالت بجسمها في الحال ، دخلت براسها تحت السرير .  
وحين لم تر شيئا .. مضت تزحف هنا وهناك .. كان البلاط  
ناعما ورطباً ، والتصق به خدها وهي تزحف عليه فأحست  
بالرطوبة تسرى في خدها لطيفة ومنعشة .. تمنى لو تسند وجهها  
على البلاط ويبقى جسمها ممددا بطوله هكذا حتى الصباح  
وتنام .. لكنها أفاقت فجأة على صوت حسن يسأل هامسا :

— انت لسه مالتيتهاش يا وردة .. ؟ !

كان يريد أن يقول أى كلام ليحسن بوجودها معه ، ويترد  
عن نفسه الخوف من وحدته .

وعادت أصابعها لتحسس في الظلمة من جديد .. هنا

وهناك .. ولم تلبث أن قالت مغممة في شبه فرح .. « أهى ..  
لقيتها أهى » .

كان صوتها الأجلش يبدو بعيدا ومفرغا وكأنه صادر من بئر عميقة .. لم عادت تزحف بجسمها ورأسها الى الوراء .. ولم تكذب نخرج بالحذاء حتى جلست متربعة على الأرض ، ووضعته في حجرها . وراحت تأخذ أنفاسها وتنهد .. ولم تلبث أن انحنت برأسها على الحذاء وراحت تمسح فيه .

ومنذ اللحظة التي دخلت فيها بجسمها تحت السرير لتبحث عن الحذاء . حتى اللحظة التي جلست فيها على الأرض لتمسحه . كان حسن يتتبع كل حركاتها وفي عينيه ما يشبه التساؤل والانبهار .

انها تقف وحدها بالليل في المطبخ ولا تخاف .. وتمشي في الممر الطويل الصامت ولا تخاف أيضا .. وتدخل في الظلمة تحت السرير دون أن تصرخ أو تبكي .. وهى الآن تمسح الحذاء في سكون ونشاط .. وبدأت في عينيه فجأة وهى جالسة على الأرض تحت مستوى نظره كبيرة .. كبيرة بصفائر ولا تخاف .. ودون أن يدري .. تركزت عيناه على يدها وهى تروح وتجيء بالورنيش على حذائه . وتملكه فضول شديد . وازدادت عيناه انساعا . ثم قال لها فجأة :

— انا أعرف أسمع الجزمة زيك يا وردة .. هاتى وأنا اوريكى .

شبهقت دون وعى منها في جزع .. سيدها الصغير يمسح الحذاء .. !! واستقرت عينها على وجه سيدتها الغارقة في النوم . همست له في غضب :

— انت حسيبنى في حالى .. والا اقول لماذا الصبح انك

غلبتنى .. يا الله خليك فى كتابك وخلينى اشوف شغلى عثمان  
نام .

واكمش الطفل مرة أخرى فى يأس وعاد يعلب فى صفحات  
كتابه المون الصغير ، وأحدث تغليبه المستمر فى الصفحات خرسنة  
بدت واضحة وعالية فى سكون الليل ، فجذبت انتباه وردة .  
ونظرت دون وعى منها نظرة خاطفة الى الكتاب .

فرح حسن بنظرته الى كتابه ، فأسرع يقول لها فى ابتهاج  
ممزوج بالرجاء :

- دا كتاب شرشر .. شوفى يا وردة .. شوفى .

قالت مغمفمة وهى تنهد فى ضجر . ويدها تروحان  
وتجيئان على فردة الحذاء بطريقة آلية : اشوف ايه بس  
يا حسن .. ؟ !

قال لها وهو يقرأ الكتاب .. « الأرنب شرشر .. شاف  
الكلب فلغل .. شرشر خاف .. قام نط » .

وسكت برهة تم عاد يقول وهو يشير لها بقلمه على صورة  
ملونة بالأحمر والأخضر والأسود : شوفى يا وردة .. شرشر بينط  
ازاى .. ده خايف من فلغل .

ودون أن تعى وردة ، توقفت يدها عن الحركة مرة  
واحدة ، وسكنتا بالحذاء على حجرها ، وراحت تتأمل الصورة .

كان مرسوما على الصفحة أرنب اسود يقفز قفزة واسعة .  
وشواربه الطويلة الرفيعة السوداء ممدودة أمامه فى الهواء .  
وخلفه الكلب فلغل يمد رقبتة ، وينبح عليه .

وتفتحت عينا وردة ، وارتفع حاجباها الثقيلان ، وراحت

تأمل الصورة باستغراق .. عالم حبيب وأليف تفتح أمامها  
فجأة دون أن تعى ، وراح ينبسط في ناظرها ويتسع ويتسع ..  
تحولت ذرات النور المنعكسة من مصباح الكهرباء على الكتب  
في عينيها ، الى ملايين شعاعات الشمس الهائلة تغمر قريتها  
الصفيرة الواقعة أسفل الجسر .. ورات أمامها حقلا واسعا من  
البرسيم الأخضر يموج بحبات الندى في الصباح ، وثلاثة أرانب  
ملونة تقفز وتنط في الحقل الكبير وتقضم أعواد البرسيم .. وأما  
تقف عند رأس الحقل ناحية الزراعة ، وتنادى عليها بأعلى  
صوتها : تعالى يا وردة حلقي معايا عالارانب .. حلقي يا بت  
أحسن هربوا من القاعة .. يا ندامة أحسن عمك شبانة يبجي  
ويلاقينا بندهس في أرضه .

وتبدأ المطاردة بينهما وبين الأرانب ، ثم لا تلبث أن تنضم  
الى المطاردة شلبية ، أختها الصغيرة : وسكينة صاحبها التي  
تسكن في دار بجوار دارها .. وتحطو المطاردة وتحمل ، وترتفع  
صيحانهم في الفضاء حتى تصل الجسر ، ثم تتحول الصيحات  
الى ضحكات وهن يجرين ، والأرانب تجري ، وتنط أمامهن في  
دعر .. ثم يمسكن أخيرا بالأرانب ، وتقول أما وهى تنظر الى  
الأرانب التى ترفض بأرجلها في هواء الحقل : وأنا يعنى ناقصة  
وجع دماغ ، والنبي من بكرة على سوق التلات وأخلص منكم .  
لكن وردة أفاقت من تخيلاتها فجأة على صوت حسن  
يسألها في حرارة وحماس :

— مش الأرنب شرشر حلو يا وردة .. ؟

كانت على وشك أن تذهب الى سوق التلات مع أمها ،  
ويزوران المنصورة بالمرّة .. لكنها رمشت بعينيها وتنهدت وكأنها  
تفقد من حلم جميل حرما منه حسن .. ولم تلبث أن أومأت له

برأسها علامة الإيجاب ، ثم سألتها في فضول وشغف وهى تشير  
الى صورة أخرى في الصفحة المقابلة :

— طيب ودى ايه كمان يا حسن ؟ .. اقرالى كده .

وراح يقرأ لها كلمة كلمة ، وعلى مهل :

— البط يأكل فت .. وانوز يأكل رز .

ندت عن فم وردة ضحكة حلوة فرحانة .. كانت رنة  
ضحكتها أشبه بصوت بطة صغيرة تكاكي وهى تستحم فى التربة  
وتصفق بأجنحتها فرحا فى الهواء .

غير انها لم تلبث ان كتمت ضحكتها فى صدرها ، وابتعدت  
برأسها من فوق الكتاب .. رأت سيدتها تتقلب فى فراشها  
لتغير الجنب الذى تنام عليه .. فراحت ترقبها فى قلق خشية  
ان تصحو ، لكن السيدة كانت لاتزال مستغرقة فى نومها  
العميق .

واقتربت برأسها الصغير مرة أخرى حتى كاد جبينها يلتصق  
بجبين حسن المنبطح على السرير ، وعادت تتأمل الصورة  
من جديد .

كان حسن قد فرح لأن قراءته اضحكتها وافرحتها ، فراح  
يقلب فى صفحات الكتاب لينتقى لها صورة أخرى تضحكها أكثر  
وأكثر .. لكن يديه توقفت فجأة عن التقلب ، وسألها وعيناه  
فى عينيها :

— انت بتعرفى تقرى يا وردة .. ؟

فوجئت بالسؤال .. ولم ترد .. ثمة تعبير حزين عشى  
وجهها وأطل من عينيها ، وصورة محددة وواضحة كالشمس  
طفت الى ذهنها فجأة .. ذات يوم .. منذ سنتين بالتقريب ..

كانت خارجة بعد العصر من مدرسة القرية الواقعة عند شجرة  
الجزورين ، تزعق وتصيح مع البنات الأخريات .. كن جميعا  
يضحكن ويجرين فيشن بأقدامهن الصغيرة سحبات من غبار  
السكة في الفضاء ، وواحدة منهن تقول : الليلة قمره يا اولاد ..  
وسهرتنا تبقى الليه في الجرن .

في نفس اللحظة ، سمعت صوت أبيها الخشن ينادى  
عليها ، وحين تلفتت اليه وجدت أفنديا كبيرا واقفا معه ببذله  
النظيفة ، وقميصه الافرنجي الأبيض الشاهق .

ـ أهى وردة يا بيه .. تعالى سلمى على سيدك يا بت .  
وصحبها الى دارها والبنات الصغيرات يرقبنها في  
استغراب ..

كانت أمها تقف في صحن الدار تنتظر ، وحين رأتهم ،  
مسحت شيئا من عينيها بطرف طرحتها السوداء ، ثم قالت لها  
بحزم وجفاف وهي تغالب رعشة خفيفة على شفثيها :

ـ يالاه يا وردة مع سيدك ، وكم ان جمعتين بالكثير حنيجي  
نزورك .. شالله يا سيدة زينب . ثم احتضنتها وقبلتها .

ذلك كان آخر يوم لها في المدرسة ، لم تمسك بعده ورقة  
أو قلما .

وعاد حسن يسألها .. وعيناه تترقبان الجواب .

ـ أنت بتعرفي يا وردة . ؟ !

ارتعشت شفثها السفلى ، ونظرت له في عتاب حزين ..  
ثم قالت له بصوت خاطف وكأنما تتحداه :

ـ أيوه .. باعرف .



ـ طيب خدى اقرى كده .

وناولها الكتاب .. وجاءت تمد يدها اليه . لكنها احسب  
فجأة بفردة الحذاء تثقل يدها ، فتنبهت الى نفسها ؛ وشهقت في  
فزع .. تذكرت لحظتها أنها كانت قد نسيت الحذاء نسيانا  
تاماً ، فابتعدت برأسها عن راس حسن وعن الكتاب . ثم تربعت  
من جديد ، وانحنيت على الحذاء ؛ راحت تحك فيه بسرعة  
لتعوض الوقت الذى فات .

ـ انت حتسبيني اشوف شغلى .. والا اصحى مامتك  
واقول لها . ؟ !

كانت البحة الخشنة الغريبة قد عاودت صوتها فجأة ،  
فأحس بها تعود مرة أخرى في عينيه كبيرة ، وغريبة عنه ،  
ومرهوبة .. فسحب بصره عنها في صمت وانحنى بوجهه على  
كتابه وراح يقلب فيه ، ويتفرج في ملل .

أما هى .. فقد انكبّت بكل وجهها على الحذاء ، ومضت  
تعمل فيه بهمة ونشاط .

كان الليل من حولهما قد ازداد سكوناً وعمقاً .. ومصبح  
الكهرباء يسكب عليهما ضوءاً هادئاً وصافياً .. وعاد كل منهما  
الى الاستغراق في عالمه الغامض الغريب .

راح حسن يشخبط في كراسته بالقلم ، ثم ترك الكراسية ،  
وعاد يقلب في الكتاب ، ويتفرج على شرشر .. ثم أحس  
فجأة ـ ودون أن يعي ـ أن الأرنب شرشر يتسم له .. ويكبر  
ثم يصغر .. ويبتعد ثم يقترب .. وخطوط جسمه الاسود الناعم  
تخف ، ثم تتلاشى تماماً ، وتصبح بياضاً في عينيه .. كان حسن  
قد راح في نوم عميق .

وبقيت وردة ساهرة وحدها .

نبع من الأحزان يرقد في اعماق وردة ، ويفيض على وجهها  
كلما مر بخاطرها شيء يذكرها بقريتها .. في مثل ذلك الوقت من  
الليل ؛ يكون كل شيء في القرية هاجعا ومستكنا في الظلام ! ..  
الدور ، والجسور والبهاثم والشجر .. وزمان أمها الآن هاجعة  
على القرن .. محتوبة شلبية اختها الصغيرة في حضنها ، وتربت  
لها على جسدها الصغير ، حتى تنام .  
وانتهت من الحذاء ، فوضعت تحت السرير في هدوء ،  
ونفضت واقفة وهي تتنفس في أعياء .

ماذا بقي وراءها . ؟ ! .. ونظرت الى حسن .. آه ..  
يجب أن تعدل نومته .. فانحنيت برأسها عليه ، وأحاطت خديه  
بكفيها في رقة وحذر ، ووضعت رأسه على الوسادة بجوار رأس  
أمه ثم أخت يديها .. وشدت قامتها المنهكة ، وجذبت من  
صدرها مرة أخرى نفسا عميقا .

الآن .. انجزت وردة كل ما عليها .. وفي الصباح ستجد  
سيدتها كل شيء جاهزا .. أن لها الآن أن تعد فرشتها في  
المطبخ .. وتطفىء النور ثم تنام . لكنها تنبهت الى كراسة حسن  
وكتابه ما زالا موضوعين على السرير .. فتناولتهما لتضعهما  
وهي في طريقها الى المطبخ على البوفيه .

ولم تكد تناول الكتاب وتنظر في جلده السوليفان الحمراء  
اللامعة .. حتى راحت أصابعها تقلب دون وعي منها في صفحاته .

« انت بتعرفي تقرى يا وردة ؟ . ! .. » عاودها سؤال  
حسن فجأة .. ودون أن تدري .. تراخت ساقاها ، وجلست  
على الأرض مرة أخرى ، ووضعت الكتاب مفتوحا على حافة  
السرير ، وراحت تنظر فيه .

كانت في الصفحة صورة للأرنب شرشر واقفا على ساقيه الخلفيتين ؛ وينظر اليها بكل وجهه وشواربه ضاحكا فرحانا .  
 وانتقلت عيناها الى الكلمات التي تحته ؛ وراحت تتمعن فيها .. خطوط رفيعة .. مستقيمة ومستديرة .. وممدودة ومتشابكة .

— أين كلمة « شرشر » ؟ !

— وأين كلمة « فرحان » ؟ !

وراحت عيناها تدوران مع خطوط الكلمات وتدوران ، وتدوران .. وتنتقل بينها وبين الصورة .. لكن التعب كان يثقل جفניה .. ورموش عينيها تتلاقى ، ثم تنفجر ثم تتلاقى ، والرؤى تختلط في خيالها .. شرشر يقترب ثم يبتعد .. شرشر زعلان ، شرشر فرحان .. شرشر يظهر .. شرشر يختفى .. وردة تبتسم .. وردة تجرى مع البنات في الجرن وتضحك .. وردة ترقد في حضن أمها على الفرن وتنام .. وردة نامت .. جسمها على الأرض .. ورأسها ملقى على حافة السرير .. فوق الكتاب .

(( ١٩٥٨ ))

## شا .. جا .. رة .. شجرة

كانوا ثلاثة .. يلعبون في حديقة واسعة على النهر  
ويتصايحون .. والشمس لم تطلع بعد .. والفضاء رائق ليس  
فيه ذرة واحدة من ضباب .

جذبت الزوجة الصغيرة نفسها عميقا من صدرها ، وبحركة  
سعيدة ، ألقت بنفسها فوق العشب الأخضر وراحت تنادي :

— كمال .. كمال .. كفاية جرى .. « حمادة » زمانه  
تعب ، هاته في إيدك وتعال .

والتفت لها زوجها الشاب مبتسما للحظة ولم يرد .

كان مشغولا بملاعبة ابنه الصغير . وكان الاثنان — الأب  
والابن — يضحكان ويجريان .. وكرة صغيرة تنتقل بينها .. حيناً  
فوق العشب .. وحيناً آخر في ممر الحديقة .

وبالكاد ، كان الطفل الصغير يستطيع أن يجرى .. كل أربع  
أو خمس خطوات يتعثر خطوة .. أن كل عمره في الحياة سنتان ..  
وكلما كان يقع على العشب يصيح عليه أبوه :

— هيه .. برافو حمادة .. بطل .. قوم بسرعة ولا يهملك .  
وينهض الصغير من عثرته وتبحث عيناه عن الكرة ، فيصيح  
الأب من جديد :

— هناك .. عند الشجرة .. اجر هاتها .

ويجاهد الصغير في الجرى .. يجاهد ليحفظ توازنه ..  
وما أن يصل الى الشجرة .. حتى يذهب الأب اليه ويقول وهو  
يشير بكل ذراعه على الشجرة :

— تعرف دى تبقى ايه يا حمادة ؟ . اسمها « شجرة » ..  
شا .. جا .. را .. « شجرة » .. قول كده .

فتطل الحيرة من عيني الطفل ويبحث وتتردد عيناه بين  
أبيه المتحمس وبين الشجرة ثم ينطلق قائلا : « ججرة » .

— برافو حمادة .. انت هایل .. ولد ذكى .

ثم يصيح على زوجته التى تجلس على العشب تعد لهما  
الساندوتشات وترقبهما فى سعادة .

— فائك نص عمرك .. سامعة ابنك حمادة بيقول ايه ؟ ..  
بيقول « ججرة » على الشجرة .

وازداد صوته ارتفاعا وحماسا :

— النهارده حاخليه يعرف كل حاجة فى الجنيئة .

كان الوقت بعد كل هذا لايزال مبكرا .. والشمس لم  
تظل بعد على الحديقة من خلف قمم بيوت المدينة .. لقد  
استيقظ الأب فى ذلك اليوم مبكرا جدا رغم انه يوم أجازته ،  
وحين فتح النافذة محاذرا من برد الصباح ، لامس وجهه هواء

دافئ طازج ؛ فانتعش قلبه ؛ وامتد بصره الى بعيد ، فرمى  
السماء زرقاء صافية لا تتخللها سحابة واحدة .. قال لنفسه ..  
« كل هذا الجمال والدفء في يوم من ايام الشتاء ، ونظل بطفلنا  
الوحيد داخل جدران أربعة » ؟

واستدار بحماس الى زوجته ليوقظها « هيا نرتدى  
ملابسنا ونأخذ حمادة ونتمشى في احدى الجنان .. أتذكرين ؟ .  
ولدنا تعلم المشي مع بداية الشتاء .. لم يذهب معنا خارج  
المدينة ابدا وهو يمشي على رجليه .. كنت تحمله على صدرك ..  
هيا انهضى .

وتركوا المدينة خلفهم .. وانطلقوا الى الحديقة .

— وشايف دى يا حمادة .. ؟ الحمرة دى .. ؟ اسمها  
« وردة » اسمها ايه ور .. ده .. قول كده .

كان يريد ان يعلم طفله الأسماء والكلمات .. واستبدت  
به الرغبة في أن يرقب التعبيرات التى تتوالى على وجه الصغير  
وهو يحملق في الأشياء لأول مرة وينطق باسمائها .. فينتابه  
احساس بالكبرياء وبالفرح .

من صلبه خرج هذا الكائن الى الدنيا .. كائن صغير  
يتحرك ويمشى ويتلفت حوله ويلتقى بالطبيعة لأول مرة في  
حياته .

ولح قرص الشمس يبرز فجأة من وراء مباني المدينة ..  
احمر .. ساطعا ومتوهجا ، فامتعت عيناه وجلس على ركبتيه  
ليصبح رأسه قريبا من رأس صغيره وصاح :

— شايف يا حمادة .. شايف القرص اللى بيلمع هناك  
ده .. ؟ اسمه « الشمس » .. فاهم .. ؟ . الشمس ..

الشمس دى هى اللى بتنور لنا الدنيا .. وشايف كمان ..  
الأزرق المفروش حوالين الشمس .. ؟ الواسعة اوى دى ؟ ..  
أهى دى اسمها « السما » .. اسمها ايه .. ؟ . قول كده ..  
سا .. ما ..

ويتعثر الطفل فى الكلمات .. ثم ينطقها بطريقته ..  
فيحتضنه الأب بفرح شديد .. ويصبح على زوجته بأعلى صوت  
وهو يتناول الطفل من يده ويذهبان إليها :

— خلاص يا ست .. حمادة ابنك بقى كبير .. عرف كل  
حاجة فى الجنية .. شايفه بيضحك ازاي وفرحان .  
وتشابكت ضحكاتهما ، وجلسا يأكلان بشهية ، ويطعمان  
صغيرهما .

فجأة ، هبط غراب .  
هبط من فوق شجرة ، ووقف قريباً منهم ، وراح وهو  
يتوآب ويتلفت حوله بحذر ، يرقب الطعام بعينه الصغيرتين  
المستديرتين .

صاح الأب هامساً لطفله :

— بص يا حمادة .

ما أن وقعت عيننا الطفل على الغراب ، حتى اتسعت عيناه  
بالدهشة ، وتسمرت نظراته عليه .

— تعرف ده اسمه ايه يا حمادة .. اسمه غراب .. لازم  
جعان .. شواق .

وقطع الأب لقمة ، وبهدوء ، رمى بها للغراب .

قفز الغراب من الخوف وارتد طائراً قليلاً الى الوراء ، ثم  
وقف وعاد يرقب اللقمة ، ويتلفت حوله بحذر .. وكلص

صغير ظريف ، راح يقترب محاذرا من اللقمة .. خطوة خطوة ..  
ثم التقطها بمنقاره بسرعة وازدرددها .  
ضحك الطفل وقهقهه في سعادة .

— خذ يا حمادة اللقمة دى .. ارمها انت له .  
وتناول الطفل اللقمة من أبيه ، ونهض من جلسته وراح  
ينظر للغراب .

وكان شيئا فى عينى الغراب كان ينادى الطفل فخطا نحوه  
واللقمة فى يده .

— لا يا حمادة .. ماتمشيش أكثر من كده أحسن يخاف  
منك ويطير .. ارم اللقمة بالله .

ورمى الطفل اللقمة ، ولم يتحرك الغراب .

لا هو تقدم الى اللقمة خطوة .. ولا هو تراجع من الخوف  
خطوة .. ظل فى مكانه .. ينظر لحظة الى اللقمة الملقاة على  
العشب .. ثم يعود وينظر الى الطفل .. ويطل النظر .. كأنما  
يقول لنفسه .. « .. هذا الشيء الصغير لا يؤذى .. لا يصح  
أن أخاف منه » .

وبهدوء شديد ، تسلسل الى اللقمة ، ثم التقطها ، وارعد  
خطوتين الى الوراء بسرعة ، وعاد يقول للطفل الصغير بعينه ..  
« هيا أيها الصديق .. أقذف بلقمة أخرى » .

كان الطفل مدهوشا . خطأ نحو الغراب خطوة . لكن الغراب  
تراجع خطوة .. تعجب الطفل .. لماذا يجرى الغراب منه ..  
وتقدم خطوة .. مرة أخرى عاد الغراب قفز الى الوراء نفس  
الخطوة .



يا لها من لعبة .

مرتان وثلاث .. وخمس .

كلما تقدم الطفل خطوة أو خطوات ، أسرع الغراب الى الخلف ، محتفظا بنفس المسافة بينهما .. وعيون الاثنين لا يفترقان .

والأب ينظر الى الأم في سعادة :

— ولدنا وجد لنفسه صديقا .. العالم ملئ بالأصدقاء .

وكان الصديقين الصغيرين اكتشفا لنفسيهما لعبة حلوة ، فراحا يمارسانها بمرح . الطفل يتقدم من الغراب ، والغراب يسحبه مداعبا الى الوراء .. وابتعدت بهما اللعبة كثيرا في الحديقة .. والطفل نسي العالم ، والغراب هو الآخر حلت له اللعبة فظل يحاوره ويسحبه بعيدا بعيدا .. فجأة برز رجل ضخيم ، يلبس جلبابا وطاقية ، وحافى القدمين .. انه الجنائى .. وما أن أحس به الغراب ولمحه ، حتى انتفض في فزع ومضى يشق الفضاء مبتعدا واختفى .

بهت الطفل .. أين الغراب ؟ . أين راح ؟ . وجاءت تلفت حوله ، فلم يجد شيئا .. لا شيء من حوله أبدا .. نادت من صدره شهقة .. خوف فظيع أطبق عليه .. أين هو ؟ أين أبوه ؟ . أين أمه ؟ . فراغ .. فراغ مهول .. لا حديقة ، لا شجر .. لا ورد ، لا شمس ، لا سماء .. انشق قلبه عن صرخة رعب هائلة .

تسمر في مكانه ، وراح يصرخ ويصرخ في فزع .

« ١٩٥٧ »

## حفلة عشرة

قفز الخاطر فجأة الى رأسى فانتفضت .  
ماذا لو تاه ولدى .  
وقفزت من على فراشى كاللسموع . وارتديت ملابسى  
بسرعة مجنونة ، ونزلت فورا الى الشارع .  
كان الشارع يهوج بالحركة .. زاغت عيناي .. ناس ..  
عربات .. اتوبيسات .. اشارة مرور .  
- تاكسى .. تاكسى .  
واندفعت داخل التاكسى وأنفاسى لاهثة :  
- سينما كايرو يا اوسطى .. اقرب طريق لو سمحت ..  
بسرعة أرجوك .  
وانطلق التاكسى .  
كان السؤال يلف ويدور فى رأسى بسرعة مخيفة كالدوامة .  
- ماذا لو تاه ولدى ؟ !  
واشعلت سيجارة ، ورحت أجذب منها أنفاسا متتابعة  
سريعة ، كأنما أريد أن اشعل بها صدرى وأعاقب نفسى على  
ما فعلت .

كيف سمحت له بهذا ؟ ألم اكن قد اُفقت من النوم بعد ،  
حين جاءنى الصغير وافضى الى برغبته .. فانقذت له ، ووافقته ؟  
أبدا .. أبدا .. كنت فى كامل وعيى .. كنت قد صحت  
من النوم من وقت طويل ، وشربت الشاي ، وتصفحت الجرائد ،  
ثم .. ذهبت اليه فى حجراته لأخذ من جبينه قبلة تشعرنى بجمال  
الصباح .. كان واقفاً ببيجامته الصغيرة على سريريه ينظر الى  
الشارع من خلف الزجاج .. لم يحس لحظتها بدخولى ..  
ظللت أرقبه بفرح .. كانت أنفه المتكورة وهى ملتصقة بالزجاج  
شبه فطساء .. فيم يفكر العزيز يا ترى وهو يطل هكذا بعينيه  
الى الدنيا من خلف الزجاج .. وقد قلت لنفسى لحظتها بشغف  
وقلبى يرفرف « متى .. متى يكبر صغيرى وينطلق وحده فى  
الدنيا ؟ » .

وحين أحس بى ، التفت لى واتسعت عيناه بالفرح وقال  
وهو يندفع الى صدرى ويتعلق برقبتى :

— انت صحيت يا بابا ؟

ورددت عليه بقبلة ضاحكة على خصلة شعره السوداء  
المتهدلة على جبينه .. قال فجأة وفى عينيه الواسعتين نظرة  
رجماء :

— بابا .. أنا عايز أروح السينما .

— السينما ؟ !

— أيوه يا بابا .. مش النهارده الجمعة .. ودلوقت حفلة  
الأطفال .. أصحابى زمانهم كلهم هناك دلوقت فى سينما كايرو ..  
— لكن أنا مش فاضى دلوقت يا حبيبى عشان آجى معاك !  
قال برجاء :

ـ أروح أنا لوحدي ،  
ـ لوحذك .. ؟ ! لوحذك ازاي ؟ !  
وتحول الرجاء في عينيه الى شبه دموع وارتعشت شفثاه :  
ـ مش انت بتقول اني كبرت .. وبقي عندي سبع سنين .  
وبلا وعى .. وافقت .  
أعطيته النقود وارتدى قميصه وبنطلونه القصير ، ووصفت  
له الطريق .. ونزل .  
جنون ذلك الذى حدث منى .. كنت قطعاً لا أزال مخدراً  
بالنوم .. كنت أحلم انه كبر وأنا أرسم له الطريق « شارع  
الفلكي بطولة .. وامش على الرصيف يا ايها .. حاذر من  
العربات .. سيقابلك ميدان الأزهار .. اسأل على شارع  
شريف .. ثم خذ يمينك .. ثم يسارك .. ثم .. ثم » .  
كيف فقدت عقلى الى هذا الحد فقدت بطفلى وحيداً في  
الشوارع ؟ !  
باسم ماذا فعلت هذا .. ؟  
باسم التجربة .. ؟  
باسم الاعتماد على النفس وتعاليم كتب علم النفس والتربية  
الحديثة .. ؟ !  
أنا أحمق .. مجنون .. أنا جاحد النعمة .. لا أستحق أن  
أكون أباً .. أنا متوحش القلب .. يارب يارب .. لا يتوه ..  
وقف بى التاكسي أمام السينما .. كان الزحام شديداً ،  
جمهور الحفلة التى تلى الأطفال فى انتظار لحظة الدخول .  
وبلهفة ، وبكل قلة ذوق ، اندفعت أشق طريقى فى الزحام  
واسأل : « هل خرج الأطفال » ؟

« لا .. خمس دقائق ويخرجون » .

ووقفت أنتظر .

كان قلبى يهبط شيئاً فشيئاً الى قدمى .. لقد سألت طفلى  
قبل ان يخرج عن الفيلم الذى سيراه ، فقال وهو يكاد يطير  
من الفرح :

— الرجل المثالى يا بابا .. !!

وقد شجعنى الاسم ، بل وجدتنى لحظتها افكر : كيف اصبح  
انا الاب المثالى فى عين طفلى ..

وأحسست لحظتها بنوع من الزهو يملأ صدرى وأنا أعطيه  
النقود ، وأتركه يمضى .. وحده .

انا ساذج ، خرافى التفكير .. وبحركة لا اراديه ، التفت  
خلفى الى لوحة الاعلانات وتعلقت أنفاسى : صورة كبيرة بالألوان  
لرجل يرتدى عباءة فضفاضة حمراء .. وعلى وجهه قناع أسود ،  
ويمتطى سهوة جواد أبيض طائر به فى الفضاء .

الآن .. مئات الأطفال داخل السينما جالسون أو واقفون  
يبحلقون بعيونهم المبهورة فى الشاشة ويتفرجون على هذا الرجل  
بحصانه .. وولدى ؟ .. تراه الآن جالسا بينهم ، أم ضل الطريق  
الى السينما وراح يضرب فى الشوارع على غير هدى .. ويبكى ؟  
وقاومت الرغبة فى البكاء .

الدقيقة الواحدة كانت تمر كعام .. فجأة ، علت ضجة  
كبيرة وفتح باب السينما على مصراعيه ، وبدأ الأطفال يخرجون ..  
كانوا فى اندفاعهم المرح من الباب أشبه بكتايت صغيرة تتدحرج  
وتكاد تنكفىء وهى تتزاحم وتتسابق فى الخروج الى ضوء  
الشارع .

رحت انقب بكل أعصاب عيني .. ولدى .. أين ولدى ..

بجبهته المضيئة ، وأنفه المكور وخصلة شعره السوداء التى  
تلامس حاجبيه ..

بنات وصبيان .. كلهم صفار ، وكلهم .. كلهم فى ايدى  
آبائهم أو امهاتهم أو اخواتهم الكبار .. والفرحة تقفز من  
عيونهم .. احسست بفصة فى حلقى .. وقلبى يهبط الى قدمى ..  
ما من ولد وحيد .. الولد الوحيد فى كل هذا الزحام  
سيكون ولدى .

أين انت .. أين أنت يا إيهاب .

الكتاكيت كانوا يندفعون الى الشارع .. وعيناي تروحان  
وتجيشان .. وقلبى يروح ويجيء .. هيصة وزيطة وضحكات  
تابعة من القلب وجميلة .

لو أسمع ضحكة واحدة منه أو كلمة لعرفته دون حتى أن  
أراه .. المشرات والمئات كانوا يخرجون .. ولدى .. يا ولدى  
أين انت ؟ ..

أيمكن أن تكون جالسا فى مقعدك كالعقلاء ، حتى ينتهى  
الزحام ؟ ..

ربما .. أنا دائما أتخيلك هكذا .. كبيرا .. وعاقلا  
يا إيهاب .

شينا فشيئا ، كان الزحام يخف ويخف ؛: وبدأوا يخرجون  
فرادى .. ثم .. لم يعد يخرج أحد .  
غامت عيناي .

لقد ارتكبت الجريمة .. وتاه ولدى .

عدت أسأل وأنا أكتم هلعى :

— ماعدش أطفال جوا السينما ؟ .

— لأ .. كلهم خرجوا .

رفضت أن أصدق .. اندفعت جريا الى الصلاة .. كانت فارغة ، صامتة ، تكسوها ظلال كثيفة أشبه بسوق أو مهرجان كان وانفض ، ولا مخلوق فيها سوى اثنين يكسسان الأرض في وجوم .

تاه .. تاه .

وخرجت الى الشارع .

ماذا أفعل ؟ .. أجرى في الشوارع ، وأسأل وأبحث .. ربما اصطدم بطفل وحيد يبكي .. فيكون هو ؟ !

أى اتجاه آخذ ؟ . أبدا بأى شارع ، هذه المنطقة سوق .. المدينة كلها سوق .. مدينة بلا قلب ، كما أحسها الشاعر سرة .. متوحشة .. لا .. أنا المتوحش .. ماذا ستفعل أمك حين يبلغها الخبر .. ليته لم تكن نائمة لحظتها ، كانت بالتأكيد ستمنعك من الخروج وحدك .. الجنون .. حين تعلم .. حزن العمر .. لقد كنت حلمها يا إيهاب وهى لاتزال صبية .. هى التى اختارت لك الاسم حتى قبل أن تحمل بك .. كنت حلمنا فى أجمل أيام عمرنا .. يا حبيب عمرنا .. أهكذا بسرعة تضيع منا فى زحام الحياة .. يأخذك أناس مجهولون .. ولا يدري أحد ما مصرك .. فى كل البلاد أناس بلا قلب .. غير رحماء .. يخطفون الأطفال ويستعملونهم فى ...

لا .. لا .. هناك أيضا أناس طيبون و .. آخرون لم ينجبوا .. ليتك تكون من نصيب هؤلاء ، سيحبونك بالتأكيد ، عيناك واسعتان سوداوتان .. وابتسامتك .. ابتسامتك جميلة .. من يومك وابتسامتك جميلة .. ومن يومك وأنت قوى .. كنا نسميك « شمشون الصغير » أتذكر ؟ . على البلاج .. فى ثانى

صيف لك في هذا المعتم ، تحت معنى ويجري بالأيوه على  
الرمل ، وتهجم على الموج دون تهيب ، وفي يدك عصا ، وصدرك  
قوى ومرتفع ، ونزهو بك أمام الأصدقاء وأمام البحر .

ولدى .. من أجل أمك على الأقل .. أرجوك .

لا تصدمها الصدمة الرهيبة .

يا الهى ! .. من أين أبدا البحث ؟ !

فجأة .. سمعت ضحكة .. تصلبت قدمي وأذناي .. هل  
أصدق قلبي ؟

والتفت ..

كان هو .. ولدى .. أيهاب .. واقفا مع ثلاثة أطفال ..  
كتاكت صغار في مثل حجمه وسنه .. كانوا يضحكون .. وواحد  
منهم ينفخ صدره ويقول : « هيه .. أنا الرجل المثالي » .  
قال ولدى وهو يشيح بذراعه :

— لا .. لا أنا الرجل المثالي .. شوفوا .

وقفز بجسمه الصغير الى أعلى فاردا ذراعيه وكانهما

جناحان .

صحت بلا وعى .. أيهاب .. أيهاب .

توقفت فجأة والتفت الى بعينين مستغربتين :

— الله .. انت دخلت السينما يا بابا ؟ .

قلت بصوت خافت وكأني أستريح من مشوار طويل قطعتة

جريا :

— لا يا حبيبي .. أنا ...



وتلجلجت ..

صاح واحد من الأطفال فجأة وهو يضع عينيه في عيني  
ولدى وقال بلهجة ساخرة :

— هاها .. وبتقول لنا أنك جاي من بيتكم لوحدة ..  
آه يا كذاب .

وانقلب وجه صغيري ، وصاح وقد امتلأت عيناه بالدموع :

— لا .. أنا جيت لوحدي .. جيت لوحدي .

— آه يا كذاب !!

والتفت لي بعينه الباكتين وعاد يصيح وهو يدق في  
الأرض بقدميه .

— أنا مش كذاب .. أنا اللي جيت لوحدي .. لوحدي ..  
ايه اللي جابك يا بابا .. ايه اللي جابك !  
وراح يبكي .. ويمزق نفسه من البكاء .

« ١٩٦٠ »

## المصفور لعبة

طلع عليه النهار وهو جالس الى مكتبه محنى الرأس يعمل  
بفكره .. وقد استغرقته الحالة حتى لم يحس بدرجات الألوان  
وهى تنبثق امامه على مهل من كتلة الليل الصلدة السوداء ثم  
تتفتح وتشرق درجة بعد درجة حتى أخذ وجه الدنيا لون  
النهار .

وربما كان قد ظل هكذا ، غير شاعر حتى بضجة الصباح  
التي بدأت تشيع في المدينة الضخمة ؛ لولا أن شيئا ما حدث  
فجأة جعله ينتفض في جلسته ، وبغريزة الخوف وجد نفسه يميل  
مفزوعا وبسرعة على اليسار ليتفادى ذلك الشيء المتدفع نحوه  
من باب الشرفة بسرعة رهيبية ، كقذيفة قاعدة اطلاقها مجهولة ،  
لكنها بالتأكيد قريبة ، ثم من هول السرعة تواصل اندفاعتها  
وترتطم بالحائط فوق رأسه ، ثم تسقط على الأرض بجوار  
مكتبه .

كان عصفورا ..

هنا ، تحركت في الرجل غريزة القنص القديمة ، وفي أقل

من لمح البصر كان يندفع قفزاً الى الباب الذى دخل منه العصفور  
وقفله ، ونظر الى الباب الآخر الذى يفضى الى بقية الشقة ، كان  
هو الآخر مقفولا .. واذن .. وقع العصفور فى الفخ !

وقف لحظة ينظر الى الطائر مفروء الصدر لامع العينين  
متسع الشدقين بابتسامة النصر .. ها قد اصطدت عصفورا ..  
وعصفورا ملونا جميلا .. وابهجه الموقف ، وتذكر طفله ..  
سينادى عليه .. « نعم .. ما أروع ان يقدم الأب لابنه مثل هذه  
المعجزة على الصباح » .

وشد قامته سعيدا مزهوا .

« وليرى ايضا ان فى امكان ابيه ان يصطاد عصفائر » !!

ما أن رأى الطفل العصفور ، حتى اكتسحت كيانه فرحة  
كبيرة .. حقا معجزة يا أبى العظيم .. ! كان يقفز ويصفق ،  
وبدا وكأنه لا يصدق ، وصاح وهو يحضن أباه :

— العصفور ده بتاعى يا بابا .. اصطدته علشانى ؟ ! .

— عصفورك يا حبيبى .. عصفورك .. !!

قالبا الرجل وقد تهدج صوته بفرح غامر لفرح طفله الصغير  
الوحيد .. والتفت الى زوجته التى كانت هى الأخرى فرحة  
وسعيدة بسعادة طفليها ، وقال :

— عصفور جميل .. مش كده ؟ ! .

قالت وهى تتأمل العصفور :

— ده كنارى .. الله على ألوانه .. شايف زاهية  
وناطقة ازاي !

— بس مسكين .. الصدمة كانت شديدة عليه .. عندك  
اكل له ؟ ! .

— عندى .. بس مش حياكل يا عىنى .

— ليه ؟ !

— عشان حزين ووحيد .. النوع ده ما ياكلش ، الا اذا كان له وليف معاه !!

— يعنى ايه ؟

— نشترى له عصفور تانى ، دكر اذا كانت دى نتاية ..  
أو نتاية اذا كان ده دكر ، ونشترى لهم قفص يعيشوا الاثنين مع بعض، فيه !!

سمع الطفل اقتراح الأم ، فصاح مؤيدا وكل جسمه يهتز ..  
« ايوه يا بابا .. والنبي يا بابا .. اشترى له قفص يا بابا » .

يا لها من فرحة .. محال ، وتحت أى شعار ، اطفاء  
هذه الفرحة .

وسرحت عينا الأب .. رسم خياله الصورة : عصفوران  
جميلان من الكنارى ، يعيشان فى بيته ، داخل قفص أنيق مدلى  
من سقف الصالة .. وفى أوقات الراحة ، يجلس مسترخيا  
أمامهما .. ويتأملهما .. وراح يتأمل الصورة .. حدثت  
اهتزازة .. تحولت أسلاك القفص فى عينيه الى قضبان ، وداى  
سجينين فى زنزانة .. هبت الذكرى المروعة من الأعماق فانقبضت  
روحه .. لقد مر بالتجربة ذات مرة ، وشيبت روحه .. من  
أجل حرية وطنه ، فقد حرّيته أعواما .. واغمض عينيه وهز  
رأسه بشدة : لا .. حكاية القفص هذه مرفوضة .. وأيضا لن  
يشترى الوليف الآخر ! . أى شيء جناه هذا العصفور ليجسسه؟!  
كل ما فى الأمر انه كان يبحث عن حريته .. وضل طريقه ! .

لا .. لن اكون انا سجانة !! بعض من الوقت يقضيه الطفل

مع العصفور ثم يطلق سراحه .. نعم .. الى الفضاء لابد ان يعود .

كان الطفل يقترب من العصفور .. خطوة خطوة .. منحنيا ومادا ذراعيه الصغيرتين امامه ، ثم فجأة ، وكقناص صغير حذر ، قفز على العصفور قفزة مخيفة ليمسك به ، غير ان صرخة اعتراض حاسمة من شفتى الأب أوقفته .. استدار نحو أبيه مستفسرا في دهشة .

— ليه يا بابا .. ؟

— عشان لو مسكته حيموت في ايدك . !

خفض الطفل عينيه في استسلام : واستدار الى العصفور معتذرا !! انقبض قلب الرجل ، وتشاءم لمصير العصفور : الأطفال سرعان ما ينسون .. وستعود اللعبة مرة أخرى .. وتصبح لعبة الموت ! .. ونظر الى زوجته كأنما يطلب منها العون .. وهمس :

— انا خايف الولد يموت العصفور ! ..

— اتمترى له قفص : حطه فيه .

— مستحيل .. وانت عارفة .. اسجن عصفور بجناحين ، وانفرج عليه .. منظر ما اقدرش عليه .

— وكنت بتصطاده ليه ؟ !

— أنا ما اصطادتوش .. هو اللي دخل الأوضة .

— وبعدين قفلت عليه .. !!

— اللي حصل .. اعمل ايه دلوقت !!

كان العصفور قد هرب مرتعبا من قفزة الطفل ، ولاذ منكمشا

بركن آخر .. وكان يلتصق بالجدار كأنما يريد أن يدخل فيه  
ليختفى عن هذه الأجسام والعيون المريبة الغريبة .

أحس الرجل أنه في ورطة .. هو المسئول ان حدث  
للعصفور شيء .. هل ينتظر حدوث هذا الشيء .. !! ولكن ..  
كيف يمكن اقناع الطفل بترك العصفور يطير .. ؟ ! .. كيف ؟ !  
يحدثه عن ضرورة الحرية للطيور ؟ !

— حاسألك سؤال با مجدى .. ليه ربنا خلق العصفور  
بجنأحين ؟ !

— عشان يطير يا بابا ..

— يطير فين ؟ !

— فى الجو يا بابا ..

— وتحمس الأب ، وتفاعل للنقاش ..

— عظيم .. يبقى ازاى نسجته فى قفص ، او فى أوضه  
زى دى .. بين أربع جدران زى دول .. ؟ ! .. حرام طبعا ..  
ربنا يعدبنا .

— اختلج وجه الطفل .

— أنا حا حافظ عليه يا بابا ، وحاحط له اكل كثير .

— ولو يا حبيبى .. برضه حرام .. نسيبه احسن يطير ؟ !  
— يطير .. ؟ !

اتسمت عينا الابن ، وبدأ فيهما الانزعاج . ولح الأب بواذر  
دموع تكاد تنبثق ، بل وسرعان ما انبثقت ، وقال الطفل متوسلا  
وهو يبكى :

- لا يا بابا .. العصفور ده بتاعى .. انت اصطادته  
علشانى ؟

مناقشة الحربة مع الطفل سداجة وعبث ، واستخدام  
القوة أيضا .. خطأ :

ما العمل .. ما العمل !!  
فجأة .. خطر له خاطر .. لمعت الفكرة .. وبرقت عيناه :  
سأنفذها .. ولتكن تجربة .. وان نجحت ، فستكون  
المعجزة .

- هيه .. يا مجدى .. انا وماما حنخرج نقعد فى الصالة  
تيجى معانا ؟ !

- لا يا بابا .. حاخلينى مع العصفور . !

- توعدننى انك ما تمسكوش ؟ !

- أوعدك يا بابا .

- وعد رجاله .. ؟ !

- وعد رجاله !!

- واوع تفتح شبك البلكونة ، احسن يطير .. سامع :

- حاضر يا بابا ..

وخرج مع زوجته ، وعلى الفور بدأ فى تنفيذ الخطة !! .

فى هدوء شديد ، وبصوت لا يسمعه الطفل ، قفل الباب  
بالمفتاح .. سألته الزوجة باستغراب وانزعاج .

- إيه اللى بتعمله ده ؟ !

— دلوقت حتشوفى .

— حاشوف ايه .. عايز تحبس الولد لوحده ليه ؟ !

— مش لوحده .. معاه العصفور .. أرجوك ، أنا باحب  
الولد زيك بالضبط .

وتركها ومضى ينظر من ثقب الباب .

كانت هناك مطاردة خفيفة من الطفل للعصفور .. الطفل  
يناديه بذراعيه الممدودتين ، والعصفور يروح ويجيء بفزع  
وارتباك .. فى كل اتجاه .

وقف الطفل ينظر الى الطعام الذى أحضرته الأم للعصفور :  
ألن تأكل منه يا صديقى العزيز . ؟ !

ووضع بعض حبات أرز على راحة يده ، واقترب يعطيها  
للعصفور ، لكن العصفور ولى على الفور هاربا الى بعيد ! .  
اغتاظ الطفل .. وهجم عليه مندفعاً فى ضيق يريد أن يمسك  
به ، لكنه توقف .. تذكر وعده لأبيه .. واكتفى بالجلوس والفرجة  
عليه .. ما أجمل ألوانه .. لو يلمس هذا الريش الجميل  
بيديه .. ؟ ! أبوه لا يزال يعتقد انه صغير .. سينادى عليه  
ويطلب منه هو أن يمسك به .. واستدار الى الباب ينادى بصوت  
خافت :

— بابا .. بابا ..

لم يرد بابا ..

— ماما .. ماما ..

ولم ترد ماما .

لماذا لا يسمعانه . ؟ ! لابد انهما تركا الصلاة ، وذهبا



الى حجرة اخرى !! . لم يحس بحركة الأب والأم وهما يتبادلان  
النظر من ثقب الباب للاطمئنان .. قالت الأم همسا :

— حرام عليك .. الولد حيخاف ..

— افرضى انه خاف .. حيحصل ايه !

— بدا يزهى .. ييلف حوالين نفسه ..

— عن اذنك ..

ووضع عينيه مرة اخرى على الثقب .. كانت الفرحة قد  
تبددت من على وجه الطفل .. نظراته حائرة .. تردد بين الباب  
وبين العصفور .. العصفور مصمم على موقفه .. هذا العصفور  
لعين يستحق الضرب ..

— يا بابا .. يا ماما ..

مرة اخرى لم يرد الاثنان . لا صوت ولا حس يسمعهما .  
البيت ساكن صامت « سأخرج وانادى عليهما .. سأخرج بجذر  
ولن يهرب العصفور » . وذهب الى الباب وحاول ان يفتحه .  
فوجيء به مقلقا بالمفتاح . خوف مفاجيء انبثق في نفسه ،  
وأسرعت دقات قلبه .. وحاول مرة اخرى فتح الباب . الباب  
لا يفتح . تضاعف الخوف في روحه وانعقدت دمة كبيرة قاومها  
في حلقه ..

— بابا .. بابا .. يا ماما .. يا ماما ..

الصمت الثقيل يشمل البيت .. تركاه وخرجا .. وقد  
يكونا خرجا من البيت كله .. صرخ ينادى بأعلى صوته ..  
اندفعت يد الأم لتخطف المفتاح ، لكن يد الأب تحولت الى قبضة  
من حديد على ذراع الأم .. بلا كلمة .. وبرقت عيناه ..

لا .. لم يأن الأوان بعد .. انها تجربة الحرية .. فليتذوق  
الصغير ما فيها من مرارة .

قالت الزوجة وهى تعانى من قبضة بده :

— انت متوحش .

قال وعينه تلمعان :

— هو اللى متوحش . عايز يفضل حابس العصفور . أرجوك  
مش عايز اى كلام .

— افتح لى يا بابا .. افتح لى يا بابا ..

وراح الطفل يدق على الباب مناديا ، ولم تلبث نداءاته أن  
تحولت الى صرخات .

— افتح لى يا بابا .. افتح لى يا بابا ..

والأب لا يفتح .

شمل الرعب كيان الصغير وتخلخل .. الحجرة ضيقة  
ومقبضة ، لمعة عينى العصفور مخيفة .. الجدران ضخمة ..  
مصمته .. وضائق أنفاسه .. الى متى يظل محبوسا .. ؟ ! ..  
ونظر الى باب الشرفة . هل هو الآخر مقفول بالمفتاح . واندفع  
لهفة يفتحه .. فانفتح وانطلق منه الى الشرفة يصرخ وينادى ..  
يا بابا .. يا بابا .. ماما ..

فتح الطفل باب الشرفة من هنا ، وفى غمضة عين كان  
العصفور قد مرق قاردا جناحيه ، وانطلق سابحا فى الفضاء !!

للحظة أصاب الطفل الدهول والخوف . ماذا سيقول  
لابيه ؟ ! . هو الذى فتح الباب فطار العصفور .. ؟ ! ليكن  
ما يكون .. وليخاصمه أبوه ، وليضربه ، وليعاقبه أى عقاب ..

المهم أن يفتح له باب الحجرة .. الآن ؛ يريد أن يخرج .. هل  
سيظل هكذا محبوسا حتى يأتي الليل ؟ ! ويخيم الظلام .. و ..  
تتابعت أنفاسه وارتمى في خوف على الباب يدق بكتلى يديه ،  
ويصرخ .. ويبكى ..

– افتح لى يا بابا .. افتح لى يا ماما .

صرخت الأم في جنون ، وهى تهز كتفى الأب « انت فظيع ..  
شنيع » .. العصفور طار خلاص .. كفاية حرام عليك ؟ .

– عايز اخرج يا بابا .. عايز اخرج يا ماما .

والصرخات الباكية ، والضربات الصغيرة المرتعبة على الباب  
تتوالى .. وبرقت عينا الأب بابتسامة وحشية تخفى مرارة الألم  
الرهيب .. ومد يده الى الباب بالمفتاح .. نعم ..

آن الاوان .

وفتح الباب .

« ١٩٦٢ »

## ابن العالم

... ما ان انتهى اللعب ، حتى ضجت الساحة التي اتخذها الصبية والأطفال ملعبا لهم بالصياح وبالصفير .. فريق « الصواروخ الجهنمية » المنتصر يهتف ويصيح . وفريق « الأسد المرعب » الذي انهزم يصفر ويزوم .. وتداخل الفريقان واختلطا وابتدأت بينهما اللعبة الثانية الطريفة : لعبة الكلام الحامية بين الغالب والمقلوب .

غير أن طفلا من فريق الصواروخ الجهنمية نظر فجأة الى ساعة يده ، وحينذاك طرّق باصبعيه في الهواء وهتف متذكرا مع نفسه :

— آه .. لابد أن أعود ..

وانفلت من ساحة اللعب ، وانطلق يجرى في الطريق المؤدى الى بيته .. كان يحجل من الفرح مرة ، ومرة أخرى يقفز في الهواء ، ناشرا ذراعيه النحيلين في الفضاء ، وقد خيل اليه أنه ربما يحلق ويطير .. كان احساس جارف بالنشوة يملأ كل كيانه الصغير .

اليس هو وحده الذى حقق الهدفين لفريقه فانتصروا بذلك  
على « الأسد المرعب » ؟ !

آه .. ماذا سيحدث حين يلقى لهم بهذا الخبر فى البيت ؟ ..

وملأ صدره بنفس عميق من هواء الشارع ليساعده على  
الجري .. وازدادت سرعته .. كان يتمنى لو يصل البيت فى  
غمضة عين .. ليس المهم انه لن يتأخر على موعد الغداء كما اتفق  
مع امه .. المهم أن يعلنهم بالخبر .. هذا الخبر سيحدث فى  
البيت هزة .. وأول من سيفرح به ، هى امه .. امه دائما  
تقول له : « لم تعد طفلا يا اسماعيل .. لم تعد طفلا » .

كلامها حق .. لم أعد أبدا صغيرا .. صحيح ان اخي  
مصطفى يكبرنى بسنتين .. ولكن ، لو كان معنا فى هذا الماتش ،  
هل كان حقق هدفا واحدا ؟ ..

كان صدره يضيق بفرحته .. وتمنى لو يقابل فى الطريق  
شخصا يعرفه ، أى شخص .. صبى الخردوانى .. أو ابن باع  
الجرائد الذى يبيع لهم الجرائد فى الصباح أو حتى بائع الخبز ،  
ويحكى له . غير أن الطريق على طوله كان ساكنا شبه خال ..  
لم يكن يشغله سوى صفين من الأشجار الكثيفة على الجانبين ،  
وخلفها تكاد تختفى بعض بيوت متناثرة .. صامته تحت الشمس ،  
لا أحد يدخلها أو يخرج منها .. ونظر الى صفى الأشجار الممتدة  
بظلالها على طول الطريق .. وخيل اليه ان الأشجار تنظر اليه ..  
فمضى ينظر اليها .. وهى تجرى .. شجرة .. شجرة ..

لقد انتصرت أيتها الأشجار « وتمهل قليلا ليسترد  
أنفاسه » لم أعد صغيرا .. هذه الشجرة المدببة العالية ،  
استطيع أن أتسلقها حتى آخر فرع فيها .. سأطلعك غدا أيتها  
الشجرة .. لم أعد صغيرا أيتها الأشجار جميعا .. أمى تقولها

لى دائما .. كم احبها ، امى .. وابى ايضا احبه .. وأخى مصطفى .. ولكن مصطفى هذا دائما يزهو على ، وينفخ لى صدره لانه اكبر منى بسنتين .. سنتين فقط .. ها .. بعد دقائق سيتغير الموقف .. بمجرد ان يسمعوا الخبر .

ومضى يسرع .

كانت الشمس لحظتها تتوسط صدر السماء .. ظهر يوم من ايام مايو .. وظلال الأشجار أصبحت عمودية فبدت ارض الشارع أشبه بشريط طويل من النور ، يجرى فوقه الصغير ويحجل .

كان الطريق واحدا من شوارع تلك الضاحية التى يسكنها الصغير مع اهله .. يحاذيها النهر من الغرب ومن الشرق تحيطها مساحة ضيقة من الحقول ، ثم سلسلة جبال منخفضة ، سمراء ورمادية .

وظل يجرى .. قفزاته المرحّة تفجر صمت الظهيرة بالحياة .. حتى لاح له البيت من بعيد .. بطابقه الوحيد ، والشجرة التى تظله وتندلى بعض فروعها الكثيفة حتى تلامس السطح .. وأحس بحب جارف نحو هذا البيت الذى سيدخله اليوم منتصرا هدفان وحدى - يا امى .. ويا أبى .. ويا أخى مصطفى .. ويا ... ما هذا ؟ ! تباطأت خطواته .. بدا له انه يسمع صوتا ، فتمهل وراح ينصت وهو يلهث .. والتقط الصوت على الفور .. كانت نقرات طبلية .

طبلية فرقة من فرق الكشافة لحدى المدارس ، تقوم بجولة استعراضية ، وتخيل المنظر : أشبال الفريق وهم يضربون الأرض بأقدامهم ، وأجسامهم مشدودة ، والشارات الخضراء على أكتافهم .. وحامل الطبلية يتقدمهم .. أحس بالضيق .. ولوى

شفتيه بسخرية .. وماذا فى هذه المشية ؟ ها .. فى امكان اى واحد ان يمشيها : شمال . يمين . شمال . يمين . هذا هو كل ما فى الموضوع .. اما الكرة ، فشيء آخر .. حققت فيها هدفين .. وحدى .. الكرة احسن الف مرة من الكشافة .. وأصعب أيضا .. الكرة فيها محاورة ، ومراوغة ، واهداف ، اما الكشافة .. مشى . . مشى . . مشى .. هذا هو كل ما فيها ، غير انه أحس بروحه تهبط ، ودقات قلبه تسرع رغما عنه .. كان صوت الطبلية يقترب ، وأدرك لأول مرة ان الكشافة تسير على نفس الطريق .. قادمة من الاتجاه المقابل .. وستظهر فى اية لحظة .. وتجهم وجهه ، لو ظلوا قادمين من نفس الطريق ، فسيمرون أمام البيت ، وسيجرب الجميع ليتفرجوا عليها ، لن يلتفت أحد الى .. سيفطى منظرهم على وعلى خبر الهدفين . لا . سأجرب بكل عزمى ، وألقى بالخبر ، قبل وصولهم !!

وانطلق يجربى .. وانفاسه تتلاحق .. كان يدعو من أعماقه ان تتأخر الكشافة .. أو تأخذ أى طريق جانبى .. انه يريد لأمه الا تسمع الآن شيئا فى العالم غير خبر انتصاره .. لكن ايقاع الطبلية كان يعلو ويقترب ، وامتلأ بالخوف من أن يصل صوت الطبلية الى البيت قبل أن يصل هو .

— لا .. لا .. ابتعدى أيتها الطبلية .. أيتها الكشافة خذى طريقا آخر .. يارب تفسد هذه الطبلية .. أفسدها يارب .  
غير انه لمح فريق الكشافة يبرز فجأة من بين الأشجار ، مقبلا نحوه ، ونحو البيت ، وحامل الطبلية يتقدم خطوات منتظمة « مهما كان الأمر سأسبق هذه الكشافة » ومضى يلهث .. ويجربى .

غير انه لم يكذب يقترب من البيت ، حتى رأى الباب يفتح بحركة مندفعة ، وأمه وأباه وأخاه مصطفى يتسابقون على الخروج

الى الشرفة وأصواتهم تختلط بفرح ولهفة .. غاص قلبه ،  
لقد وصلتيم دقات الطبله ، فخرجوا جريا ليتفرجوا عليها ..  
فتر حماسه .. وتوقف تماما عن الجرى .. وأحس بشيء  
ما يكتسحه ، ووقف خلف شجرة يخفى نفسه .

كان استعراض الكشافة قد اقترب جدا من البيت ، وأصبح  
منظرهم واضحا ، وحامل الطبله يخلى لهم الطريق بدقاته  
المنتظمة .

ولمح أخاه مصطفى يترك الشرفة ويهبط سلالم البيت قفزا  
ويدفع الى وسط الشارع ليستقبل الاستعراض ، فنادى عليه  
بصوت خافت :

— مصطفى .. يا مصطفى ..

واستدار له مصطفى .. فصاح عليه وقد تجدد الحماس  
فى قلبه :

— احنا مش كسبنا ماتش النهارده ؟ اتنين لصفر ، وأنا  
الى جيت الجونين .. أنا لوحدى ؟

وفرح حين رأى الدهشة ترسم على وجه أخيه ويسأله :

— جونين ؟ ! انت لوحذك ؟ !

— آه .. أنا لوحدى ..

غير أن الدهشة سرعان ما تبددت من على وجه أخيه ، وقال  
له بكبرياء وينفخ صدره :

— أنا كمان اصطدت سمك النهارده بسنارتى ، اتناشر  
سمكة أنا لوحدى .. واسأل ماما وبابا .. تيجى أوريهملك  
« وشوح بيده مستدركا » لا .. لما تفوت الكشافة أول يا عم ..!



وتركه وحده بجوار الشجرة ، واستدار يجرى نحو الكشافة  
التي كانت تقترب ونقرات طبلتها تعلو وتملاً سكون الطريق ..  
أحس اسماعيل بفصّة في حلقة .. ونظر الى شرفة البيت فرأى  
أباه يشير لأمه على الكشافة ويقول لها كلاماً بحماس ، ووجهه  
يضحك ، وأحس بالضيق من أبيه .

— أبى هذا يترك مصطفى يذهب الى النيل ليصطاد سمكا ..  
ولا يخاف عليه من الفرق .. انه لا يخاف علينا أبداً .. لماذا  
هو متحمس هكذا للكشافة .. أمى.. أمى هي التي سأقول لها .

واجتاز الطريق دون أن ينظر الى طابور الكشافة المتقدم ،  
وخطف الدرجات الخمس الموصلة لباب البيت وللشرفة ..  
وبلا وعى هتف من أعماق قلبه ، يعلن خبر انتصاره .

لكن الكلمات توقفت على شفتيه ، أمه لا تسمعه ، صوته  
يضيع في دقات الطبول المتعالية . وأبوه يلف ذراعه حول كتفى  
أمه في ابتهاج .. وأمه تضحك بسعادة وتشير على الصبي  
الصفير الذى يحمل الطبلّة على صدره ويدق عليها ببراعة :

— الله .. شايف منظره جميل أد ايه .

وقف من خلفهما ينظر الى الكشافة باكتئاب ..

الكل ينظر الى الاستعراض بفرح ودهشة ..

أما هو .. فلا أحد يحس بوجوده ..

لا أمه .. ولا أبوه .. لا أحد أبداً .. حتى هذه الوجوه  
التي تطل من النوافذ على جانبي الطريق .. وأحس بأنه غريب .  
انه لاشيء على الإطلاق في هذا البيت .. بل في هذه  
الدنيا .. وازدحمت روحه برغبة في أن يجرى ويجرى ..

ويخترق الحقول .. حتى يصل الجبل ، ثم يصعد الجبل حتى يصل الى قمته .. ثم .. ثم ماذا ؟ !

واحس بدمعة تريد أن تطفر من قلبه وارتعشت شفتاه .. كان ثمة سؤال كبير وغامض يرتسم على شفتيه ، ويريد الجواب عليه من أى انسان .. أى انسان !

اختفت الكشافة من الطريق ، وتلاشى وقع طبولها تماما ، وعاد البيت والمنطقة هدوءهما العميق المعتاد وجلس الصغير مع أبيه في الشرفة يأكلان وحدهما .. كانت الأم قد قالت ، موجهة الحديث للصغير انها هي واخوه مصطفى قد تناولا غذاءهما قبل أن يصل .. اما ابوه ، فقد فضل الانتظار حتى يعود ويأكل معه .

احس الصغير لحظتها بحب دافق لأبيه .. وخف قليلا احساسه بالحزن على انتصاره الذى لم يحس به أحد ، وفكر - وهو يجلس أمام أبيه والطعام بينهما - ان يحكى له عن الهدفين اللذين حققهما في اللعب .. وعاوده هتاف الأولاد له .. فتحمس واوشك أن يفتح فمه .. غير انه تذكر أعجاب أبيه بمنظر الكشافة ، وصيحة أمه الفرحانة وهى تشير بكل ذراعها على الولد حامل الطبله .. ثم .. أخوه مصطفى الذى اصطاد سمكا من النيل .

لا .. لا يقول له .. يبدو أن لعب الكرة ، وحتى تحقيق أى أهداف فيها ، ليس له قيمة .. سوف يهجر هذه اللعبة ، ويلتحق بفريق الكشافة ، ويصبح حاملا لطلبتها .. لا .. لا .. بل سيذهب من الغد الى النيل عند مرسى القوارب ، ويشترى سنارة من هناك ويصطاد سمكا أكثر من أخيه .

ولكن .. مصطفى سيقول انه غار منه .. واحس باختناق

وبحيرة تعذبه .. ماذا يفعل .. ماذا يفعل الانسان .. ؟ وازدحمت  
روحه بالرغبة في الانطلاق .. يترك الطعام ويجرى .. يخرق  
الحقول حتى يبلغ الجبل .. ثم يصعده حتى قمته .. ثم ..  
ثم ماذا .. ماذا يفعل الانسان في هذه الدنيا : ما هو أهم  
شيء في هذه الدنيا ، ليفعله .. لينظر اليه الجميع .. الجميع ..  
ويشيرون عليه باعجاب وانبهار ؟ !

— بابا ..

وخرج السؤال من شفتي الصغير :

— ايه أهم حاجة في الدنيا دي ؟ !

كان وقع السؤال مفاجئاً على الأب .. فتوقف لحظة عن  
مضغ الطعام مخفياً استغرابه بإبتسامة نبعت من قلبه .

يا للسؤال .. ما هو أهم شيء في الحياة ؟ !

ما الذي دعا الصغير لأن يسأل هذا السؤال .. آه ..  
كبر طفلي وأصبح يسأل أسئلة كبيرة .. فيها كلمة الدنيا ..  
وكلمة الحياة .. آه لو أستطيع أن أعلم ولدى حب الحياة ..  
ليس أروع من أن يعلم الآباء أطفالهم حب الحياة .

— شوف يا اسماعيل .. مفيش في الدنيا دي حاجة تقدر  
نعتبرها هي أهم حاجة .. أهم من كل الحاجات الثانية ..  
الشمس دي مثلاً .. مهمة جداً جداً .. الهوا اللي حوالينا ده ..  
برضه مهم جداً جداً .. الأكل اللي قدامنا : مهم كمان .. جبل  
المقطم اللي هناك ده برضه مهم ، بيعملوا منه الأسمنت والبيوت  
والخزانات .. الشجر ، الزرع ، الناس ، الميه ، كل شيء ..  
كل شيء في الدنيا لو فكرت فيه تلاقيه مهم .. ما تقلدش  
نستغنى عنه .. الدنيا على بعضها كلها مهمة يا اسماعيل !!  
وسكت لحظة ليأكل قطعة من اللحم أمامه ، ويرقب اثر كلامه على

طفله ، غير ان الطفل لم يبد عليه أى حماس لما سمع ..  
ليس هذا هو ما يسأل عنه .

— والكورة يا بابا .. مهمة هى كمان .. ؟

فابتسم الأب وقد تذكر انه يتحدث مع طفل صغير .

— طبعا .. الكورة مهمة .. وكل الألعاب الرياضية مهمة ..  
بتقوى الجسم ، وبتحسن الصحة .. و ..

ولم يكمل .. مر من فوق الطعام ظل عابر لطائر ، فارتفعت  
عيونهما الى أعلى ، فرأيا حداة سمراء كبيرة الجناحين ، تسبح  
فى دائرة واسعة من الفضاء ، فعاد الأب يقول بحماس :

— حتى الطيور مهمة يا اسماعيل .. انت عارف ابو قردان  
مثلا .. بيسموه صديق الفلاح ليه ؟ عشان بياكل الدود من  
الأرض .. كل شيء يا حبيبي فى الدنيا دى لازم له حكمة من  
وجوده .. حتى لو احنا ما نعرفهاش ، فيه غيرنا يعرفوها ..  
العلماء يعرفوا !! ولاحظ الأب ان ابنه لا يأكل .. وان طبق  
الخضار وقطعة اللحم لاتزال امامه ، لم تمسسهما يده .. فابتسم  
له وقال :

— تعرف المهم ايه دلوقت ؟ ! انك تأكل .. عشان تبقى ولد  
قوى .. ويبقى لك عضلات .. شايف انا خلصت اكلى بسرعة  
ازاى ؟ !

ونفض من على مقعده .

مرة اخرى مر ظل الحداة من فوقهما ، فنظر اليها الطفل  
فى فضول وقال :

— طيب والحدايات يا بابا .. لها فايده كمان ؟ ..

فضحك الأب ضحكة مرحة وقال ، وهو ينظر برضا الى كل ما حوله من فضاء وسماء وأشجار .

— لازم يا حبيبي لها فايذة .. كل حاجة في الدنيا دي لها فايذة ، والا ماكانتش اتخلقت .. أنا قايم اغسل ايدى .

وترك مكانه ، وغادر الشرفة ، وبقي الصغير يأكل وحده !

كان شىء ما لطيف قد بدأ يفتح في نفس الصبي .. احساس بالارتياح وبالرضا عن نفسه ، بدأ يشمل كل كيانه . ابوه يقول ان كل شىء .. كل شىء في هذه الدنيا مهم .. هو معهم . ولعب الكرة مهم .. وفتحت نفسه بالحب .. والطعام أيضا مهم .. وابتسم لنفسه ، وأقبل على الطعام بشهية .. فجأة وجد نفسه ينتفض من مقعده ويصرخ في فزع .. لقد خيل اليه ان شجرة ضخمة تكاد تهوى على رأسه .. فصرخ مرتعبا ، واذا بالحدأة التي كانت تدور فوقهما منذ قليل ، قد انتهزت قيام أبيه فانقضت على قطعة اللحم واختطفها بمخالبها من الطبق وفي انقضاضها المفترس على قطعة اللحم ، ضربته بجناحها ضربة هوجاء .. أسفل عينه ، فامتلا بالرعب ، وراح يصرخ ويبكى .. ولم يكف عن الصراخ الا حين وجد أمه تصرخ هي الأخرى من الجزع وتحضنه وتربت عليه .

« ابني حبيبي .. فيه ايه يا اسماعيل » .

وبكلمات باكية متقطعة :

« الحداية عورتني .. وخطفت حتة اللحمة بتاعتى » .

وأجهش بالبكاء .. ورأى أباه يقبل جريا على صرخاته :

— حصل ايه يا اسماعيل ؟ !

ازداد بكأؤه ..

— انت كنت بتكذب على يا بابا .. الحداية مش كويسه ..  
الحداية وحشه .. الحداية بتعور الناس .. عورتنى من غير  
ما اعمل فيها حاجة !

ودفن رأسه فى صدر أمه .. وانخرط فى بكاء مرير !

أحس الأب بكيانه يتهاوى أمام طفله .. تزعزعت ثقته فى  
نفسه .. وامتلات بروحه بالكراهية نحو هذه الحداة التى كادت  
تصيب عين ابنه .. ومع بكاء طفله كان يسأل نفسه وهو يدور  
بعينيه فى الفضاء بحثا عن الحداة .. أحقا يجب على الانسان  
ان يحب كل الأشياء كما كان يقول لطفله ؟ ! والتقت عيناه  
بالشمس فأجفل وهو يجز على أسنانه :

— النار تدفى ، لكنها تحرق أيضا .. والنهر يروى ،  
لكنه يفرق أيضا .. كيف نجب كل ما فى هذه الحياة .. وفيها  
هذه الجوارح والوحوش التى تجعل من الانسان فريستها ؟

واحس بأنه هو الآخر طفل جاهل تعذبه الحيرة ، وخيم على  
البيت صمت عميق لا يتخلله الا نسيج الصغير .. ودخل عليهم  
مصطفى فى تلك اللحظة ، كان يحجل ويصفر ، ومعه فراشة  
ملونة اصطادها من أحد الحقول القريبة ، وحين رآها اسماعيل  
المجروح تأكدت الهزيمة فى نفسه ، ومن جذب ، عاد يبكى ، ولم  
يكن أحد فى بيته ، يعرف حقيقة الشئ الذى يبكيه .

كان كل شئ يمكن أن يمر بعد ذلك بسلام ويقف عند  
هذا الحد ، خصوصا وان الأب ظل جالسا مع طفله ، يربت عليه  
ويحدثه ، حتى خفف على نفسه وقع الحادث .

لابد ان الحداة كانت جائعة يابنى .. الانسان حين يجوع  
يسرق .. كذلك الحداة حين تجوع تخطف .. لم تكن تقصدك

أنت بالذات .. كانت تقصد الطعام لتأكل .. هيا يا اسماعيل ،  
هيا اخرج والعب في الشارع مع أصحابك .

الى هنا ، كان كل شيء يمكن ان يمر وينسى ، لولا ان  
اسماعيل وهو يلعب مع أصحابه الصفار ، سمع واحدا منهم يشير  
على الجرح التي أحدثته هذه الحداة أسفل عينه : والمفطى  
بضمادة ، ويقول ساخرا منه :

— ها .. الحداية شافته صغير ، ضربته وخطفت منه  
حثة اللحم وطارت .. ها ها ها ..

وقال طفل آخر باعتزاز :

— او كنت إنا يا ابني .. كنت ضربتها ضربة وقعتها .

وقال ثالث موجها له الكلام بسخرية :

— يا ابني بعد كده ما عدتش تقعد لوحداك .. أحسن  
الحداية تخطفك بحالك ، وتطير بك .. ها .. ها .. ها .

رنت في رأسه قهقهاتهم .. فلم يرد بكلمة .

شردت عيناه بعيدا وبرقتا للحظة .. شامت في رأسه دماء  
حارة .. وتجدد الحقد مرة أخرى في قلبه نحو هذه الحداة  
التي استصغرت في عينيها ، فجرحته وخطفت طعامه وجعلته  
سخرية لأصحابه .. سيصبح جرحه هذا مدلة له طول العمر .  
والتمعت — مع الدماء الحارة في رأسه — فكرة تتابعت  
لها أنفاسه .

سيرى هؤلاء الأولاد انه ليس صغيرا .

وانسحب في سكون الى بيته .. ودخل حجرته .. لم يكلم

أحدا .. ظل وحيدا حتى هبط الليل ، ولم ينم الا بعد ان كان قد رسم الخطة في رأسه كاملة .. سيضرب هذه الحداة .. « نعم سأضربها » .. اسماعيل الذى حقق الهدفين وحده في اللعب ، سيضربها .. اسماعيل لم يعد صغيرا .. غدا سيعرفون هذا حين اذهب لهم بالحاداة مضروبة .. مجرورة من رقبتها بأحد الحبال .. !!

في الغد .. قبل الظهر بقليل ، كانت الخطة تسير بالضبط كما رسمها اسماعيل : قطعة من الجبن موضوعة في طبق ومكشوفة في عراء الشرفة ، وهو واقف يرقب السماء حتى حانت اللحظة ، واختبأ على الفور خلف الباب القريب من مكان الطعام ، وفي يده عصا : ساق أحد الكراسي القديمة ، وقد امتزج الغل في صدره بالخوف .. لم تنقض دقيقة ، حتى كانت الحداة قد لمحت قطعة الجبن .. فدارت حول نفسها دورة تستكشف بها المكان ، ثم انقضت كالسهم .. لتخطف الطعام غير أن الصغير برز فجأة بالعصا ، فانتبهت الحداة وانحرفت بسرعة ، وارتفعت مرة أخرى في الفضاء .. وابتعدت كثيرا .. غاص قلبه « لقد تعجلت .. لماذا تعجلت .. هل ستعود مرة أخرى ؟ !

آه لو تعود .. مرة واحدة .. مرة واحدة فقط .. لابد سأصيب الهدف .. ستكون الضربة في المنقار والرأس .

ووقف في مكانه يرقب الفضاء من كل الجهات ، وأحس برهبة .. السماء كبيرة .. واسعة وعريضة .. له أن لى أجنحة لطرت ورائها ، حتى آخر الدنيا ، وانتقلت منها .. آه ! ها هي .. كم هي صغيرة في كل هذه السماء .. وانكمش في مكانه ، وأسرعت أنفاسه . أنها تهبط وتقرب .. تكبر وتكبر .. شكلها مخيف وقبيح .. قد تجرحنى هذه المرة أيضا . لا ..



ونبص على ساق الكرسي بشدة .. انيا تدور حول نفسها ..  
ترقب قطعة الجبن ..

وانقضت ..

وبكل الغل .. وبكل الخوف الذى يملأ قلبه ..

— طاخ ..

وشهق من الرعب وهو يرى الحداة ، ترتدى من الضربة على  
بلاط الشرفة وترفرف بأجنحتها تحاول النهوض والظيران من  
جديد .. كان فى عينيها لمعة ألم ورعب مخيفين ، وأحس بها  
تريد أن تنهض لتنفذ عليه وتنهش فيه لو استطاعت ، فانقض  
عليها بالرعب المتزايد فى نفسه ، وانهال على رأسها بالعصا ،  
وراح يصرخ ويهتف :

— بابا .. بابا .. ماما .. ماما .. تعالوا شوفوا .

وراح وهو يضرب فى الحداة يصيح وقد تملكته نشوة النصر  
وانتفض ملتفتا على صوت الأب يصرخ عليه :

— ايه اللى بتعمله ده يا اسماعيل ؟

— ايه اللى بتعمله ده يا ابنى ؟ !

وبلهجة المنتصر :

— باضرب الحداية .

عاود الأب صرخته :

— ليه .. ليه تضربها ؟ !

— عشان هى اللى عورتنى امبارح .

وقفز الأب واختطف منه العصا ، وأمسكه من كتفه وراح  
يهزه بغضب .

— ومين قال لك ان هى دى الحداية اللى عورتك ؟

قال الطفل وقد اكتسحه رعب هائل خفى :

— هى يا بابا .. هى ..

وهز الأب ذراعيه فى الفضاء .. كأنما يتمزق ، ويتمزق الطفل معه ، لمنظر الحداة الهامدة على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة .

— فيه ألف حداية فى السما .. اش عرفك ان دى بالذات هى اللى عورتك .

ودار رأس الطفل ، وغامت الرؤية فى عينيه ، وقفزت الدموع من حلقه الى عينيه ، وراح ينظر الى الحداة الملقاه فى همود على الأرض .. والدباء تسيل منها .

ويبكى ..

يبكى انتصاره !

« ١٩٦٠ »

## الموتوسيكل

فى الوقت الذى كان فيه الصبى ( ميشو ) منطلقا بموتوسيكله « السهم الخاطف » على آخر سرعة ، عائدا من مدرسته بقصر النيل الى بيته بمصر الجديدة ، كان أبوه بطرس وهو رئيس قديم لاجدى الطوائف الدينية ، جالسا فى صالة البيت ينتظره ، وثورة من القلق والفيظ تأكل فى أعصابه .

كانت ثورة الرجل قد شملت كل شىء فى البيت .. والبيت لم يكن بيتا بالمعنى المألوف . كان قصرا فخما وضخما ، رغم أنه من طابق واحد وسلامك .. ودون أن يصدر أمرا ، أقفلت جميع النوافذ وأسدت الستائر ، وسادت الغرف والصالات والممرات ظلال كثيفة أشبه بلون الظلمة .

والى يمينه ، وتحت صورة كبيرة وقديمة للعداء ، جلست زوجته الست أم ميشيل فى صمت ، منحنية برأسها الذى شاب شعره وتجمعت خصلاته البيضاء فى عقدة واحدة كبيرة ، وراحت تشتغل بإبرتها فى قطعة من القماش ، وتتمتم ببعض كلمات فى سرها .

أما وكيل أعماله العجوز — عم عطا الله — فقد جلس أمامه ،  
لابسا طربوشه المخروطى الطويل الداكن واضعا بطن كفيه على  
ركبتيه فى أمثال وأدب ، وراح دون أن ينطق بحرف ، يرمش  
بعينيه الضعيفتين من وراء زجاج نظارته الطبية البيضاء  
السميكة .

كان الثلاثة ينتظرون عودة « ميشو » بفارغ الصبر ، وكلما  
نفخ الأب من أنفه ، أو تلملم فى جلسته ، اضطربت الابرة بين  
أصابع الأم ، واضطربت أصابع عم عطا الله هو الآخر فوق ركبتيه ،  
واختلس كل منهما من الآخر نظرة اشفاق وخوف .

لم تكن هذه أول مرة تثور فيها المشكلة ويكفهر جو البيت .

ثارت واكفهرت من قبل مرات ومرات .. عاد الرجل ذات  
يوم من زيارته لأرضه فى الشرقية ، فوجد ابنه « ميشو » قد  
أشترى موتوسيكلًا .. ولم يكذ يلقى على الموتوسيكل نظرة ،  
حتى راعته ضخامة حجمه .. ثم ما هذا أيضا ؟ ورقة ملصوقة  
على مقدمة الموتوسيكل ، ومكتوب عليها بخط اليد .. خط  
« ميشو » نفسه : « السهم الخاطف » .

تملكت الرجل ثورة ، وأصدر أمره بأن يخرج هذا  
الموتوسيكل من البيت فى الحال .. غير أن الثورة لم تلبث أن  
أطفأها دموع الابن وتوسلاته .

— مش حاخرج بيه كتير يا بابا .. وحاسوقه على مهلى ..  
على مهلى خالص يا بابا .

لكن المشكلة لم تنته عند هذا الحد .. كانت مجرد بداية ..

ان عددا من أصحاب ميشو فى المدرسة يملكون  
موتوسيكلات .. حسنى وعزيز ومجدى وشيرين .. كل واحد

منهم له موتوسيكل .. موتوسيكل مجدى اسمه « النسر الذهبى » وموتوسيكل شيرين اسمه « الصاعقة » .. وحسنى « الذرى » .. اما هو ، فقد بات الليالى يتقلب فى فراشه ويفكر فى اسم لموتوشيكله .. اسم يسمح كل هذه الاسماء ويفارون منه جميعا .

آه : « السهم الخاطف » ! .

وينسى ميشيل نفسه ، ويركب السهم .. وينطلق به مع أصحابه فى الشوارع ويتلوى ويطوى الطريق فرحانا ، ويسابقهم ، ويسابق الريح .

أهناك سعادة فى الدنيا اكثر من هذا ؟ لكن الخبر دائما كان يصل أباه ، فتثور المشكلة كالعاده ، ويكفهر جو البيت من جديد .

غير انها حين ثارت هذه المرة ، كانت من أولها عنيفة تنذر بشيء خطير .

عاد الرجل فى ذلك اليوم بعد غيبة طويلة فى أرضه ، فصدمه خبر فظيع . ابنه ميشيل اشترك فى سباق للموتوسيكلات . ليس هذا فقط بل وصل به الجنون الى انه ربح السباق .. وكان الفائز الأول .

جن جنون الرجل ، وتملكه هياج غريب ، وراح يشتم ويلعن ويسب ، وأمسك الخدم بأنفاسهم وهم ينصتون من خلف الأبواب الى صوته وهو يصرخ فى وجه امراته .

— أنا ألف مرة نبهت عليكى قبل كده .. الموتوسيكل ده ما يخرجش بره البيت .. حضرتة عامل بطل ويشترك فى السباق ؟ .. لو كان بيعمل لك حساب ، او يخاف منك . ما كنتش ده حصل .. لكن انا حاعر ف ازاي اربيه .

فى هذه المرة بالذات أحست الأم من نبرة صوته وبريق  
عينيه العزم والتنفيذ ، وكالعادة لم ترد على صراخه بكلمة .  
كان خبر اشتراك ابنها فى السباق قد صدمها هى الأخرى ،  
وهبط قلبها وهى تتصور .. لو ان كارثة كانت قد حدثت له  
فى السباق .. وتمتت فى سرها .. « ليه بس يا ميشيل  
يا ابنى .. ليه » .

وفى خطوات غاضبة ، اتجه الرجل الى الصالة ، وجلس فى  
نهايتها فى مواجهة الباب ، وحتى يكون وجهها لوجه مع ابنه  
لحظة دخوله .

جلست هى عن يمينه ، وامامه جلس الوكيل العجوز وخيم  
على فراغ الصالة القاتم سكون ثقيل وطويل ، وانعقد على  
الثلاثة صمت الانتظار .

فجأة .. تمزق الصمت .. ترمى الى اسماعهم من بعيد ،  
أزيز موتوسيكل يقترب ، وفى حركة لا ارادية .. اعتدل الأب  
فى جلسته وكأنه يتحضر للاقاة عدو له ، وارتبك عم عطا الله فى  
جلسته ورمش بعينه .. اما الأم ، فقد أحست بدقات قلبها  
تسرع فجأة وتتلاحق . أن قلبها دائما يدق بالفرح كلما  
سمعت هذا الصوت .. معناه أن ميشيل عاد بالسلامة .

لكن احسانا آخر داخلها هذه المرة .. تمنى الا يكون هذا  
الموتوسيكل هو موتوسيكل ابنها .. تمنى أن يتأخر بعضا من  
الوقت ، فمن الخير أن يدوم هذا الانتظار القاسى طويلا ، على  
الا تهب العاصفة .

لكن أزيز الموتوسيكل كان يقترب ويتصاعد حتى ملأت ضجة  
قرعائه حديقة البيت .. ثم فجأة ، توقف الضجيج والصخب  
وعاد السكون يلف الحديقة والبيت من جديد .

وبدون كلمة .. نهض الأب من على مقعده واقفا ، وأشار بأصبعه نحو الباب ونظر الى وكيله . فهم العجوز أشارته . كان عليه أن يخرج ليعود سريعا بالصبي .. وخرج .

وبقى الاثنان .. الأب يروح ويجيء بعرض الصالة . عافدا ذراعيه على صدره .. متجهما وصامتا ومتحفزا .. والأم جالسة في مكانها ، ترقبه من ركن عينيها وهو يروح ويجيء بصرامة ! .. منظره هذا .. ما اقساه .. وبشكل خاطف ولا ارادى تذكرت هيئة المرحوم حميها .. أبى زوجها .. المقدس سوريال .. الذى أورثهم هذا البيت وأرض الشرقية ، دائما كان منظره هكذا . يدخل البيت فيحاسب الجميع على انفسهم . كم كان صموتا ذلك الرجل ، لا يتكلم الا بعينه . وان تكلم بلسانه فكل شيء يصمت ويرهف سمعه ويتوقف .. وآه من غضبته . هذه الغضبة لا تزال تعيش وتبرق في عيني ولده .. بطرس .. زوجها هذا .. الذى تعدى الخمسين .. جاءت تضرع اليه وتقول : « لا تكن قاسيا عليه .. ميشو ما يزال صغيرا .. استحلفك بالمسيح .. انه ابننا الوحيد .. الوحيد من كل عشرتنا الطويلة .. لكن النطق خانها ، وسرعان ما سمعت وقع اقدام تقترب من الصالة .. فراحت تتمتم في سرها ، وتغرز ابرتها في القماش بعصية ، ولم تمض لحظات ، حتى رأت ولدها يدخل الصالة مع عطا الله ، ودون أن تدرى . شكت الإبرة أصبعها ، فعضت على أسنانها في ألم ، وانقبضت روحها .

كان ميشيل في مشيته يتقدم الوكيل العجوز بخطوة واحدة .. فرحته التى كان عائدا بها انقلبت الى غم وكآبة .. وحين بلغ منتصف الصالة توقف ، فتوقف العجوز بجانبه حتى كاد يلتصق به .

كان احساس كل من الصبي والوكيل قد الهمهما أن هذا

الموقع الذى وقفا فيه ، هو خير مكان يمكن أن يقفا فيه أمام الرجل . لا بالبعيد ولا بالقرب . وقفوا فى صمت ، وحين أحس بهما الأب يتوقفان ، توقف هو الآخر عن الرواح وعن المجيء ، ثم استدار نحو ابنه فى حركة مباغتة ، ورمقه بنظرة طويلة .

شئ غريب أحس به فى تلك اللحظة .. لقد خيل إليه انه يرى ابنه لأول مرة . لقد بدا فى عينيه فجأة - رغم انه لا يزال فى السابعة عشرة من عمره - طويلا جدا .. هذه هى رأسه ترتفع عن حافة طربوش عم عطا الله .. وهو عريض .. اكتافه عريضة .. وعظامه كبيرة واکمام قميصه مشمرة ، وخصلة من شعره ترمى على جبينه .

الولد كبر يا بطرس .. بل ويكبر يوما بعد يوم .. وساقاه تطولان وتتفرعان .. وجسمه يعرض يا بطرس وبهيش .. وذقنه نبتت وأخضرت .. الولد ينمو هذه الأيام بشكل خارق ومخيف .. هيئته تأخذ هيئة الرجال .. لا يا بطرس .. لن يكون أبدا رجلا عليك .. آن لك من الآن أن تأخذ دور المربى .. وان لم تأخذه من اليوم ، وبهذه المناسبة الخطيرة ، بشدة وحزم ، فسيقلت منك حتما ، بل وسيقلت من نفسه .. وينتهى كل شئ .

وانفجر .

- كلمة واحدة .. الموتوسيكل ده ما يقعدش فى البيت بعد النهارده .. فاهم باقول ايه ؟

ومال برقبته نحو ابنه كأنما يتحفز ليلاقى أى كلمة تصدر منه .. لكن الصبى لم ينطق بكلمة .. ظل واقفا كما هو .. مطرقا برأسه .

- سامع يا عطا الله باقول ايه .. الموتوسيكل ده يخرج من البيت حالا .



ثم توجه بنظرته الى الصبي وقال بلهجة ساخرة لاذعة :  
 - وابق اشترك حضرتك فى السبق بعد كده ! .. هه ؟ ! ..  
 انت ولد مستهتر .. مستهتر .. ما عندكش اى احساس  
 المسئولية .. وهى دى المسئولة ، و اشار الى الام :  
 والتفت نظرة الام بعيني ابنها بلا وعى .. وفى عينيها قرأ  
 توسلا حارا .. « لا ترد عليه يا ميشو .. لا ترد » .  
 - وانت ما بتردش ليه ؟

عاد الأب يصرخ :

- هه ؟ .. مبسوط أوى انك كسبت السباق ؟ فاكرك  
 نفسك بقيت راجل ؟ .. عامل حضرتك بطل وبتشارك فى  
 السبق ؟ .. كان نفسى اشوف البطولة دى فى المذاكرة .

وتدفق الكلام من فمه كالسيل .. ايضا لم يرد الصبي ..  
 احساس عميق فى نفسه كان يقول له بانه اخطأ فعلا فى دخول  
 السباق .. وان اباه بطرس عنده حق ، فيراوده شعور بالندم  
 لكن صورة السباق كانت تعاود خياله وهو واقف امام  
 ابيه .. صورة جميلة وزاهية وسريعة مرت امام عينيه ..  
 وهو منطلق يومها بالموتوسيكل واصحابه والناس يصفقون له ..  
 ويهتفون .. برافو ميشو .. برافو .. فينتعش صدره .

« ثورة وتمر يا ميشيل » .. وظل واقفا مطرقا فى خشوع .

- برضه ما بتردش ؟ ! .. أنا أصلى عارف اللى فى دماغك  
 كويس .. لكن لا .. الموتوسيكل ده يا عطا الله يتقفل عليه فى  
 المخزن .. ومن بكره الصبح تتصرف فيه .. بيعه .. توديه فى  
 اى داهية .. فاهم بأقول ايه ؟

وهمهم عطا الله في ارتباك : « حاضر يا فندم .. أوامرك يا فندم » .

ارتجت أعماق الصبي .. المسألة جد لا هزل .. خيل اليه ان يدا ضخمة تطبق على رقبتة لتسلب منه روحه .. وقفز الموتوسكل الى خياله . رآه في صورة آسية حزينة مركونا على الحائط .. كاليت .. في غرفه مظلمة قديمة بالحديقة مقفولة عليه .. ثم في الصباح سيأخذه رجل كره الهیة ؛ اشعت .. ويركبه .. ويطير به .. ثم يختفى به عن عينيه الى الأبد ! .

وناوشته الرغبة في الصراخ : « لا .. لن تأخذه منى يا عم عطا الله .. لن تستطيع يا عم عطا الله .. لن يأخذه أحد منى .. ولو مت » .

لكنه عاد فكتم الصرخة ، انعقدت الصرخة في قلبه ثم انفكت دموعا من عينيه .. دموعا صامتة أحستها الأم ولمحتها رغم ظلال الصالة القائمة ففزعت أعماقها وهي تحدث نفسها أن شيئا ما فظيحا سوف يحدث .. لأبد سيحدث .. ماذا يمكن أن تفعل ؟ هذا العملاق الواقف عاقدا ذراعيه على صدره يوقف دائما الكلمات في حلقها .. حتى كلمة .. « كفاية » تريد أن تقولها له .. لكنها لا تستطيع .. لحظات صمت ثقيلة كل شيء توقف .. حتى الأنفاس خيل للأب بطرس انها توقفت .. وجذب من صدره نفسا عميقا مسموعا .. ومط صدره ورأسه الى أعلى في شموخ .. وتحفز .. ان ميشيل لم يتكلم هذه المرة .. لم يرد عليه .. لا .. ولم يجرؤ حتى ان يتوسل له مثل كل مرة .. هذا هو بالضبط ما كان يريد .. وهو بالضبط أيضا ما كان يحدث منه هو نفسه مع أبيه « سوريال » .. أيام ان كان صبيا وشابا .. وحتى وهو رجل أيضا .. أيام كان

الأبناء يعرفون كيف يحترمون الآباء .. فيقفون بين أيديهم - وعلى بعد كاف - في خشوع وامتنال والكلمة لا ينطقونها .

ها هو ميشو بعيد الماضي الجميل . فيقف منه على بعد معقول ، مطرقاً برأسه ولا كلمة .. أحس بلمسة من الحنان تهف على قلبه .

- أنا قلت لك قبل كده انى مستعد اشتريك عريية .. أحسن عريية .. كاديلاك .. هدرسون .. رولزرايس .. أحسن عريية مستعد اشتريها لك .. لكن الموتوسيكل .. لا .

ودون أن يعى الصبى ، انفجر رغماً عنه باكياً منهنها :

- وأنا مش عايز الا الموتوسيكل .

دوع الأب .. « بتقول ايه » ؟ ..

وجمدت الكلمات على لسانه برهة .. وبرقت عيناه كأنما ترسل شراً .. تم تحول صوته الى ما يشبه الفحيح : انت ابنى ؟ .. مش ممكن تكون ابنى أبدا .. انت كلب .. مستهتر .. انت حقير .. أنا ما اقبلش فى بيتى واحد زيك .. بره البيت فوراً دلوقت .

ومع ذراعه الممدودة نحو الباب ، وجد الولد نفسه يستدير نحو الباب ويعطيهم ظهره فى خطوات سريعة .. كالمسوعة ! انتفضت الأم من جلستها وجرت خلفه لتلحق به وتوقفه ، ولكنها لم تلبث أن توقفت فى منتصف الصالة فى خوف ، وسقطت منها الإبرة والقماش على الأرض .. كان زوجها يصرخ بأعلى صوته كالمحموم : خليكى فى مكانك .. فاهمه باقول ايه .. انت السبب .. انت اللى دلعتيه وخسرتيه .. الكلب المستهتر .. السافل .. لكن أنا حاعرف من هنا ورايح ازاي أربيه .

قبل أن يجتاز « ميشو » باب الصالة صكت سمعه كلمات  
إبيه « من هنا ورايح .. حاعرف ازاي أربيه » . رغبة عارمة  
تملكته في أن يجرى ويجرى بآخر سرعة .. يجرى وينطلق الى  
بعيد .. بعيدا عن هذا الجو الظالم الكئيب .

وأسرعت خطواته وأسرعت .. وجد نفسه يجرى ويجرى ،  
وفي لحظات كان قد قطع ممر القصر الطويل ، وهبط السلالم ،  
وتوجه الى الجراج ، ثم ألقى بنفسه على الموتوسيكل .. أمسك  
ذراعيه بقبضته ووقف منحوبا عليه برهة .. يلهث .

كان قد قرر نهائيا أن يهجر البيت ولا يعود اليه أبدا ..  
دار بعينه من حوله دورة خاطفة كأنما يودع كل شيء . الحديقة  
الكبيرة .. عم عبده البواب .. والقصر ذاته ، وشرفة حجرته  
التي كان يستذكر فيها وينام .. والبنوت الأخرى المجاورة ..  
كم له فيها من أصحاب .. وقبل الأصحاب .. « فلورا » البنت  
الجميلة .. ذات الشعر المفضض والعيون السود والتي سكنت  
في الشارع منذ شهور قليلة وكان يحلو له أن يزهر أمامها  
وهي تطل من الشباك وقت الغروب ، فينطلق بموتوسيكله أمام  
بيتها ويأخذ منها نظرة ويطير .. وهز رأسه بشدة ينفذ عنه  
كل شيء . وركب الموتوسيكل واعتدل في جلسته عليه ، واحكم  
قبضته على ذراعيه ، ثم ضغط على البنزين . وفي الحال حدثت  
الفرقة متتابعة عالية . وفي أقل من لمح البصر ، كان قد قطع ممر  
الحديقة وانطلق بالموتوسيكل الى الشارع ، تاركا خلفه ضجة  
كبيرة تلف وتدور كالدوامة في فضاء البيت ، هلعت الأم لسماع  
الصوت .. وانخرطت في البكاء . بكاء ضاق به الأب فارتعشت  
عظام فكيه واصطكت أسنانه وصاح فيها كالمجنون « كلمة واحدة  
مش عايز اسمعها .. يروح في ستين داهية .. الكلب ده مش عايز  
أشوف خلقتة بعد كده » .

كان ميشو قد ابتعد بالموتوسيكل كثيرا .. لم تكن له وجهة معينة .. كل همه أن يترك البيت ويبتعد عن المدينة بأكملها .. كان نسيم الغروب يئز في أذنيه ويصطدم بوجهه باردا ، ومنعشا .. ومع اندفاع الموتوسيكل ، تحول النسيم الى ريح واندفعت الريح من فتحات قميصه الى جسده ، فاحس بالرطوبة تنعشه ، وتملكته لذة غامضة في أن يمن ويمنع في الانطلاق وانطلق .. خصلات شعره الطويل تتلوى وتراقص وتتناثر على جبهته ، ورأسه منحنية الى الأمام فوق ذراعى الموتوسيكل .. وكأنه يناطح الهواء .

وانوار المدينة بدات تضاء وتتناثر في كل مكان .. والعملة بدات تحتل قلب كثير من الشوارع وهو في حالة انجذاب غريب نحو شيء غامض وبعيد . ظل يسرع بالموتوسيكل . تارة في خط مستقيم وتارة يتلوى ليمرق من بين العربات والسيارات والناس .. كل أمنيته في تلك اللحظة أن يصل الى مكان بعيد هادئ . خالى ، ليس فيه انسان . ثم يهبط من على الموتوسيكل ويركنه بجانبه ، ثم يجلس الى نفسه ويفكر على مهل .. كيف يبدأ الحياة من جديد . من الآن ، لن يتحكم فيه انسان .. خلاص . لقد كبر وأصبح رجلا . سيذهب الى بلد آخر . الاسكندرية مثلا . يطوف في شوارعها بالموتوسيكل ويبحث عن عمل . أى عمل . ميكانيكى سيارات وموتوسيكلات . آه ، تمام ، انه يفهم في هذه الصنعة .. ويكسب .. ويعيش حرا .

بدت له الفكرة جذابة ومثيرة . وانبثق في نفسه الشعور بحلاوة المغامرة وسحرها وغموضها فترك العنان للموتوسيكل . وانطلق على آخر سرعة .. آه ما أحلى الموتوسيكل . الموتوسيكل العزيز المفضل ، القوى الجميل « السهم الخاطف » كان أبوه يريد أن يأخذه منه ويشترى له عربة . أى عربة تلك التى تعادل

الموتوسيكل .. السهم الخاطف ؟ يتحكم فيه الانسان هكذا .  
 يملء القبضتين هكذا . ويمرّق به بين العربات كالريح هكذا ..  
 تماما كما فعل في السباق .. لو كان قد تذكر - فقط - وجه أبيه  
 وهو يسابق اخسر السباق بالتأكيد ، او لعمل صدمة ..  
 هذا الوجه بحاجة الكثيفين وعينيه الbraقتين الصارمتين . كم  
 يود لو يخرج من رأسه وحياته الى الأبد . وهز رأسه .  
 ما هذا ؟ الوجه يتأرجح في الفضاء أمامه . وجه أبيه بطرس .  
 ينظر له بقسوة . كأنما يسد عليه وعلى الموتوسيكل الطريق .  
 لا . لا . وهز رأسه مرة أخرى ليعيد صورة الوجه عن عينيه  
 لكن الوجه ظل يخاله . يطارده كأنهما في سباق . سباق  
 سباق . لا .. لن يعود الى هذا الوجه أبدا . وفجأة .

بدا له في عتمة الشارع وكان جسما ضخما يبرز له فجأة  
 ويختلط بالوجه ويسد عليه الطريق .. وقف شعر رأسه ،  
 وتنبهت فيه غريزة الاحساس بالخطر .. وتركزت غريزته على  
 قبضته وفي عينيه . ان الجسم يكبر ويقترب ، والوجه يكبر  
 ويقترب . تملكه خوف كاسح واستماتت أصابعه على ذراعي  
 الموتوسيكل وبكل ما يمتلك من قوة فرمل .

أوشك وجهه ان يشع بنور ابتسامة . لكن رجة عنيفة  
 حدثت . انتفاضة مروعة هزت كل جسمه .. ولم يحس بنفسه  
 وهو يطير من على الموتوسيكل . ثم سقط على الأرض . غائبا  
 عن الوعي .



— ميشو .. ميشو .. ولدى ميشو .

والصبي يتقلب من الألم على فراشه .. ويهذى : ال ..  
 المو .. تو .. سيكل .. المو .. تو .. سيكل .

— ميشو .. ميشو .

وميشو غارق في الغيبوبة .. يصعد مع الدنيا ويهبط ..

ويهدى .

— المو .. تو .. نسيكل .. المو .. تو .. سيكل .

والأب بطرس يبكي .. وينهه .. وكان صوته وهو يجهد

بالبكاء أشبه بنشيج طفل صغير .

« ١٩٥٩ »

## الكلب عض لطيفة

الكلب عض لطيفة ..

لطيفة عضها الكلب يا أولاد ...

وانتشر الخبر بسرعة في القرية .. انتقل من « الكفر »  
حيث وقع الحادث ثم وصل الزراعية ، ومن الزراعية وصل  
الحقول ، وأخيرا .. بلغ عرفات !

كان عرفات يعزق بفأسه في أرض طماطم في اطراف أحد  
الحقول وما أن سمع بالخبر ، حتى تصلبت يده بالفأس في  
الفضاء .. بدا شاردا للحظة ، كأنه لا يصدق ، ثم لم يلبث  
أن انتفض فجأة .. أسند فأسه على كتفه وأعطى وجهه للقرية  
وأطلق ساقيه للريح .

كان المشوار امامه طويلا ، فمضى يعدو على الزراعية بآخر  
سرعة .. وود لو يغمض عينيه ويفتحهما ، فيجد نفسه هناك .

أيمكن أن يحدث هذا ؟ ..

لطيفة حبيبة القلب .. يعضها كلب ؟ ..



كانت الشمس قد انخفضت ومالت للغروب .. وخالته  
أشعتها وهو يجرى .. ورأى وجهها - وجه لطيفة - شاحبا ..  
متألما .. وعيناها ؛ بخضرتها التي يعبدها ؛ تقولان له في  
عتاب .. وفي ألم .. « كنت فين يا عرفات .. لما عضنى  
الكلب » .

وداودته الرغبة في البكاء ..

أهكذا الحب يا عرفات .. عذاب في عذاب ! ..

وعلى المدى البعيد للبصر ، لم يكن للقرية أى اثر .. واحس  
بانفاسه تتلاحق من الجرى . كان طويل القامة ، فبدا منظره وهو  
يجرى بجلبابه الفضفاض ، والفأس على كتفه مثيرا . ما من فلاح  
كان يمر عليه مهرولا ، الا ويصيح عليه بدهشة وفضول ..  
« حصل ايه يا عرفات .. سايب الفيظ وتجرى كده ليه » ؟ ..

لم يكن يتوقف برهة ليرد .. كان فقط يخطف نظرة منهم ،  
ويغمغم بكلمات غير مفهومة ، وبواصل الجرى .. بماذا يمكن  
أن يرد ؟ .. وخطر له أن ينفجر في وجوههم ويصيح بأعلى  
صوته .. « لطيفة عضها الكلب .. لطيفة يا أولاد الكلب » .. !

ولكن .. أيمن بعد كل هذا الصبر الطويل . أن يفقد  
عقله .. ويبوح بالسر ؟ ! .. السر الذى لا يعرفه غيره هو  
ولطيفة .. والذى تعاقد معا - بالنظرات - على كتمانها .. ؟

وخرجت من صدره زفرة تعاسة .. وبدأ الطريق أمامه  
الى القرية طويلا .. لا ينتهى ، وأن الانسان - كما يقول دائما  
الشيخ فودة خطيب الجامع بصوته المفجع الصارخ - لم يخلق  
على هذه الأرض الا ليشقى ويتعذب ! ..

أهناك في الدنيا عذاب أكثر من هذا ؟ ..

انسان يحب كل منهما الآخر بلا اى كلام .. ولاكثر من  
عام ؟ .. بل انه لحظة وصول الخبر كان يضرب الأرض بقأسه ،  
وصورتها امامه . بعيونها الخضراء النادرة في هذه البلاد .  
لحظتها بالذات .. كان يتخيل نفسه واقفا معها بالقرب من مدخل  
البلد . يتحدى العالم كله ويكلمها .. يخرج لها كل ما في قلبه  
من حنين .. « لحد امتى بس يا لطيفة ؟ من جمع القطن اللى فات  
واحنا على دى الحال .. يا لطيفة دوختينى .. أنت عارفة  
دست الفول وهو بيغلى ؟ .. هو انا .. لا أنت بتطفى النار من  
تحتة .. ولا بتصبى عليه ميه يبرد .. لحد امتى بس يا لطيفة  
حنفضل خايفين من كلام الناس .. » وفجأة .. جاء الخبر ..  
فاختنقت كل أفكاره ، ولم يعد يكلم نفسه .. نسى كل شيء ..  
نسى شغله .. نسى انه يريد منها كلمة .. كل ما يريده الآن  
الا يمسيها سوء .. أن تظل لطيفة على قيد الحياة ، حتى  
ولو عاشت مع غيره ولم يتزوجها .. ولم تكلمه طول العمر  
كلمة .

وقص حلقه بالدموع ، وارتسم على وجهه الأسمر المجهد ،  
وهو يجرى ، حزن كبير .

انطلق يجرى ويلهث ، حتى لاح له مئذنة القرية وبيوتها  
من بعيد .

قطع المسافة كلها جريا ، دون أن يتوقف لحظة ليلتقط  
أنفاسه .. وحين اقترب من مدخل البلد ، كف عن الجرى ..  
مضى بمشى بخطوات بطيئة ، وحاول أن يبدو لا مباليا .. كانت  
الشمس قد اختفت خلف البيوت وانتشر ذلك اللون الرمادى  
الحزين فى الفضاء ، والذى يسبق دائما سواد الليل ، فأحس  
عرفات بالتعاسة .. « أحقا ما سمع ؟ .. » كانت الطرقات شبه  
خالية .. فعاد يستحث خطواته .. وما أن اشرف على الكفر ،

حتى فكر للحظة أن الخبر كذب .. كان المكان هادئاً .. والناس  
يجلسون على المصاطب ويثرثرون .. و « فايقة » بائعة الجوافة  
تجلس تحت شجرة التوت ، أمام دكانها ، وبعض الرجال العزاب  
والشبان يأكلون الجوافة من يدها ويقهقهون ..

ربما نم يحدث شيء .. ربما ..

وأخرج من صدره زفرة وهو يتسمع ضحكاتهم ..

لماذا لم يعد يضحك مثل هؤلاء ؟ لماذا حتى قبل أن يصله  
الخبر - أصبح يسير في شوارع القرية وحواريها هكذا مهموماً .  
وكانه يحمل على كتفيه الجبال ؟ ! ..

قبل أن يعرف الحب قلب عرفات ، منذ عام واحد ، وكان  
في الثامنة عشرة ، كان ولداً مرحاً وبجوحاً ، يحمل فأسه  
في مواسم العمل ويذهب إلى القيط ليعزق أو يقلع أو يجمع ،  
يفنى زملائه ويسبقهم في الخط .. وفي مواسم البطالة ، يأخذ  
ذيله في أسنانه ويجرى على الجسور ويتسلق الأشجار ويأكل  
التوت والجميز ، أو يذهب إلى النهر ويصطاد السمك ويفذف  
نفسه - بجسمه الأسمر السرح - ضد التيار ويسبح ويزعق  
على زملائه ..

كان خلياً .. مفتوح القلب لكل ما في الحياة ..

ثم رآها .. رأى لطيفة ذات يوم ، فتغير كل شيء ..

كان جالسا مرتكناً بظهره على جذع شجرة صفاف ،  
تدلى فروعه حتى تلامس ماء التربة ، والدينيا حر .. والشمس  
قرص نار ، يأمر بالصمت كل شيء .. صمت يرين على الحقول  
وعلى الأشجار ويمتد حتى الجسور البعيدة .. كان العالم كله  
في لحظة صمت مطلق .. ومع هذا كان يفنى لنفسه ..

وفجأة ، سمع حركة .. التفت .. فوجدها .. تشير اليه  
 ليساعدها على حمل الجرة .. ذهب اليها .. وحين رفع معها  
 الكرة الى رأسها ، واستوت قامتها بصدرها ، وجد عينيها  
 الخضراوين في عينيه .. أسرعت دقات قلبه .. وأحس بحاجة  
 لأن يقول شيئا .. خائنه أنفاسه .. ماذا يقول ؟ .. واستدارت  
 عنه - والجرة فوق رأسها - في هدوء ..

قال لنفسه ، وهو يراها تمضي تطرقع بشبشبها في صمت  
 الظهرة .

« يكونش ده اللى بيسموه الحب يا عرفات » ..

واختفت عن عينيه .. ومن تلك اللحظة ، وعرفات شخص  
 آخر .. كف عن اللعب وعن الجرى ، عن الغناء الطليق لزملائه  
 في الحقول .. أصبح دائم الشroud ، لا تخرج من قلبه مثل  
 هذه الضحكات .

ولمح واحدا من أصحابه مقبلا من بعيد ، فأسرع اليه ..  
 وقبل أن يسأله عرفات . قال له « انت ماعرفتش ؟ .. مش كلب  
 عمك أحمد أبو ريا عض لطيفة ؟ .. وسفروها في قطر أربعة ..  
 وودوها على مستشفى الكلب .. في مصر .. ؟ !

أحس بقلبه يسقط .. اكتسحه حزن غامر .. وأحس أن  
 الدنيا خلت عليه .. ومضى يمشی وكأن غشاوة على عينيه .  
 لطيفة ليست موجودة في البلد .. اذن لا أحد فيها .. هو نفسه  
 ليس له وجود فيها .. كانت الدنيا قد أظلمت .. واستراح  
 للظلمة .. لو بكى فلن يلمح دموعه أحد وتراءى له وجهها ..  
 تغمض عينيها من الألم وتتأوه .. هناك .. في مصر أخذوها  
 في القطار وسافروا بها الى مصر .. مصر ! ..

وبرقت الفكرة في رأسه : لماذا لا يسافر الى مصر ،  
ويزورها في المستشفى ..

وتلقف الفكرة .. شع لها وجهه الأسمر بالفرح .. نعم ..  
هناك سيلتقى بحبيبة القلب ، ولأول مرة في حياتهما سيتكلمان ..  
بعيدا عن العيون .. سيقول لها كل ما كتبه القلب سنة بأكملها ..  
وهي الأخرى .. ستكلمه .. بصوتها الخافت من شدة الألم :  
ريتعاهدان هذه المرة بالكلمات ، وليس بالنظرات وحدها التي  
عذبتة .

غير أن حماسه اختنق فجأة .. ماذا لو عرف أبوها أنه  
سافر الى ابنته وقابلها في الغربة .. ؟ .. أى فضيحة .. ؟  
ثم ان معظم شبان البلد دائرون على لطيفة .. فليكن هو - كما  
يحاول دائما أن يكون - في نظر أبيها - شابا عاقلا وريزا ، فيوما  
سيأتى ويتقدم اليه يطلب منه يدها !

وعاوده الوجوم .. ومشى يتخبط على السكة في الظلام ..  
أحس أنه حبيس .. وثقل عليه الشعور بالعجز ..  
وبالهوان .. لطيفة يعصها كلب وهو على ظهر الأرض .. ؟ لو لم  
يكن ساعة الحادث يعزق في أرض الطماطم . لراها على الأقل  
وهم يحملونها الى القطار ، وتبادلا نظرة وداع .. وآه لو كان  
واقفا لحظة الحادث ، وراى الكلب يهجم عليها ، اذن لهجم  
عليه كالوحش وأطبق على عنقه وصرعه .. ثم حملها .. حمل  
الحبيبة على يديه حتى بيت أهلها ، كأشجع الفرسان !

ولكن .. يا ألف خسارة .. الكل راوها .. كل شبان  
البلد راوها .. ما عداه .. « ما عداك أنت يا عرفات .. ثم تقول  
لنفسك ان أجدا في الدنيا لا يقوى على حبها مثلك ؟ ! ما هو  
دليل جبك .. ؟ !

وغشيت عينيه سحابة ضنى .. ولولا انه يحفظ بالشبر  
كل شوارع القرية وحواريها ، لتعثر من الحزن في الحفر التي  
تملأ الطرقات .. وجز على أسنانه بشدة .. فجأة .. قفرت  
الى رأسه فكرة .. فتوقف عن السير .. « لطيفة عضها الكلب  
فسافروا بها الى مصر . فلماذا لا يعضنى أنا الآخر كلب .. نفس  
الكتب .. ويسافرون بى الى هناك .. آه .. وأصبح معها فى  
نفس المستشفى ؟ ! » وتدافعت أنفاسه .. لم يناقش  
الفكرة .. ارتسم على وجهه فرح وحشى .. وأسرعت خطواته  
فى الظلام .

كان يعرف الكلب الذى عض لطيفة .. انه كلب شرس ،  
يعرفه بحجمه الكبير .. ولونه الأسود الفطيس والاشارة البيضاء  
التي بين عينيه .. سيعرفه رغم الظلام .. ومضى يبحث عنه ..  
يعسس بعينه فى الظلمة ويرهف أذنيه . لكن الكلب لم يكن  
له أى اثر .. أيقن انه هرب بعد فعلته . ! فليبحث اذن عن  
كلب آخر .. أى كلب . ! أى مفاجأة للطيفة . حين يذهب اليها  
هو الآخر معضوا بعضة كلب . ! واكتسحه حماس ضار ،  
ومضى يبحث عن كلب فى الظلام ..

ولكن ، ولا كلب .. !

خاص قلبه .. !

هل هربت كل الكلاب الليلة من البلد .. ؟

وتذكر أن بعض الكلاب تتجمع فى العادة عند مدخل البلد ،  
فأسرعت خطواته الى هناك .. ودق قلبه ، فقد رأى كلابا  
كثيرة .. وسار ببطء نحوها حتى اقترب منها ، غير انها ما كادت  
تحس به ، حتى فرت خائفة .. هربت كلها .. الى بعيد .. !

هل ستفشل الخطوة .. ؟ وأثقله الحزن . إلا يوجد كلب  
واحد في كل هذا البلد يعضه .. ؟

ومضى يمشى في تعاسة .. فجأة تصلبت قدماه .. لمح  
رغم الظلام كلبا يرقد بجوار ضريح أحد المشايخ .. آه ، ..  
هذا الكلب لن يفلت مني ! وتلصص نحوه بحذر ، ثم فجأة ،  
كالسهم انقض عليه عرفات وأطبق على رقبته بيد ، ووضع  
الأخرى على فمه .. ذعر الكلب من المفاجأة .. فراح يصرخ عاليا  
في فزع .. وراه عرفات يفتح فمه .. تتابع أنفاسه ، وما أن  
راى أنيابه في الظلام ، حتى أسرع ووضع يده في فمه ، بين  
أسنانه .. غير أن الكلب انتهز حركة يده ، فانتفض انتفاضة  
مروعة ، وبحركة مذعورة ، تخلص من يده .. قفز وولى هاربا  
يرتجف من الخوف ، وفي لحظة كان قد اختفى في الظلام ..  
وبقى عرفات في مكانه .. تعيسا .. مذهولا .. شفتاه  
ترتعثان ..

كلب ..

كلب يا ناس ..

أى كلب يعضنى ..

لكن الكلاب كانت تولى منه هاربة .. أحس بالحزن يقهر  
قلبه ..

جلس بجوار الضريح .. وحيدا .. أسند خده على يده ..  
وراح ينظر بتعاسة ، الى وجه لطيفة في الظلام (\*) ..  
( ( ١٩٦٢ ) )

---

٢٧٣ عومجت هذه القصة كمشهد كوميدي انساني في مسرحية  
« الشخصيات » للمؤلف عام ١٩٧٣ .. وأصبح واحدا من الشاهد الاليرة  
التي يختارها طلبة معهد الفنون المسرحية ليتقدموا بها للامتحان .

## حد المحراث

كان يدرك انها الليلة الأخيرة له في هذا البيت .. ليلة  
الوداع .. الوداع المر .. ليس له وحده .. أخوه .. وإخواته  
البنات .. وكل من يحيط بالجسد المسجى وهى تلفظ أنفاسها  
الأخيرة .. بعدها لن يعود البيت بيتا .. سيصبح مسرحا لأشباح  
الذكريات !

ورغم انها كانت غائبة عن الوعي من يومين الا أن أخاه لم  
يبعث له بالبرقية الا بعد أن فقد الأمل : أحضر .. حالا ..  
أملك تريد أن تراك ..

وحين وصل ، عرف أنها سقطت مفشيا عليها ، دونما  
كلمة ، لم تلحق حتى أن تنطق للذين هرعوا اليها بما تتمناه ..  
ولقد أدركوا على الفور أن هذه لابد أن تكون أمنيته الأخيرة ..  
أن تراه قبل أن تموت .. الصغير الذى مات أبوه وهو فى بطنها  
جنين عمره ستة شهور ، وانكبت عليه طول العمر فاردة جناحيها  
عليه حتى وهو بعيد .. تسقيه الحنان والحب والبركات ..  
لم يشعر يوما أنه يتيم الأب .. كانت هى الأم والأب على السواء ..  
وها هو يعود ، بعد غيبة شهور ، ليجدها ممددة على ظهرها



بلا حراك .. مع بقايا انفاس تبدو للحظة قوية فيخيل اليه انها  
ستهيب واقفة على قدميها وتستعيد موقعها العظيم في الحياة .  
غير ان الأنفاس كانت سرعان ما نخت وتهافت . اشبه بأنفاس  
قاطرة نفذ وقودها فتوقفت ؛ ومع هذا لاتزال تصدر أصواتا ..  
لا تريد ابدا الاستسلام !

كان وجهها وجه محارب . انفها المستقيم الحاد ،  
والوجنتان الناتشتان المحددتان ، ونظارتها البيضاء ، لم يجرؤ احد  
على أن يخلعها ، وطرحتها الجورجيت السوداء ، لاتزال حول  
الرأس ، اطارا مهيبا للموت كما كانت اطارا رائعا للحياة ،  
لم يهن على أحد أن يمس اللوحة العظيمة بشيء ، فليبق المظهر  
الشامخ حتى آخر لحظة .

كان قد أفرغ على طول الطريق ، في القطار وعلى الزراعية ،  
كل ما عنده من دموع ، دخل جامد الوجه ، رأى أخوته البنات .  
وأخاه الكبير الوحيد ، ونساء قريباته ، وأخريات غريبات ،  
يجلسن حول الجسد المسجي ، يلبسن السواد ، كورس الأحزان  
القديم .. للكورس بقية في الخارج ، حول البيت يقف الرجال ،  
جماعات أو متناثرون ، كلهم صامتون ، مطرقوا الرؤوس ..  
حركة الأشجار ميتة ، صيف حار ، هل في الصيف دائما تحل  
الأحزان ؟ !

لم يتبادل كلمة مع أحد ، لم يأن بعد أوان العزاء ، واقترب  
من الجسد ، لم يصدق مع الأنفاس اللائحة القوية ، إنها  
الأنفاس الأخيرة .. لا .. لا بد في أية لحظة ستنتفض وتستوى  
جالسة .. متحدية ، وتطرد كورس الأحزان .. لو مانت حقا  
فسيكون في العالم موت .

وسمع أصواتا هامة تقول :

ت يومان والروح تريد أن تطلع .. أى عذاب ،  
لا تريد أن تفارق الدنيا قبل أن تراه . ها هو قد جاء  
اليها ..

— وشوشها يابنى فى أذنها . قل لها أنك جئت لتستريح ..  
أحقا ستسمعه ؟ يعطيها اذنا بالرحيل ؟

لو مال عليها فسيصرخ فى أذنها مستجديا منها البقاء .  
الاستمرار فى الحياة . رغم كل العذابات .. اسمعيني يا أمى ..  
اسمعى هذا الخبر : بالأمس فقط عينت : أصبح لى عمل ،  
بعد سنوات التشرذ ، ومرتب كل شهر .. وستحلو الحياة ..  
سأرد لك الدين مضاعفا .. اصح يا أمى .. اصح وسنبدا معا  
الحياة .

ويرنفع صوت واحدة من أفراد الكورس :  
— يا ناس . حرام . كانت تريح الكل . أريحوها من هذا  
العذاب ..

— حقنة تريحها .. لو تحبونها غيبوها عن الوعى ..  
سيده المعارك لا تلقى السلاح .. لا تسلم حتى الرmq  
الأخير ..

أحس بفشله أن يبكى .. أن يتكلم حتى .. خرج من  
الحجرة مطرقا ..

وقف امام البيت . الوسعاية . ملاعب الصبا والطفولة ..  
والكتكوت يجرى .. فى عز شمس الظهيرة .. والدجاجة تتبعه ..  
تشجعه تارة ، وأخرى تحذره من الفرق فى الليل ، ومن ذئاب  
الحقول ..

حر يونيو شديد .. وحول البيت لا ظلال .. الأقرباء الرجال  
واجمون ..

— ما العمل ؟ ! انها ستموت ..

— وهل بعد الموت عمل يستحق أن يكون ؟ ! اذكروا الله  
يذكركم ..

مع الوهج راح في غيبوبة . تأخذ الأحداث أحيانا مواقف  
عجيبة :

بالأمس فقط وجد لنفسه في المدينة عملا .. بعد سنوات  
التشرد والضياع والمطاردات وجد عملا .. « كان يجب أن  
تنتظري لكى تفرحي يا أمى بالخبر .. انى استلمت عملا .. أصبح  
لى مكتب .. وعنوان .. ومرتب أول كل شهر » ..

تراها احست أنه بلغ شاطئ الأمان .. فلم يعد لها من  
مهمة في الدنيا ، فقررت الرحيل ؟ !

ورأى حلاق القرية يأتى مهرولا ومعه حقنة .. وقف ينظر  
اليه وهو يفرس الحقنة في الذراع الصغير .. تراخى اللحم الذى  
كان يوما مدملجا أبيض ..

— حرام يا ناس .. لا تعذبوا جسمها ..

— الحرام الا ترحموها من الألم ..

واحتشد صدره بصرخة : أيها الوحش .. ابعد سن  
الابرة عن ذراعها .. لكنه كان قد تحجر . وفي الدهول وهو يرى  
الرجل يفرس الابرة في الذراع .. توجع .. دون أن يقول آه ..  
وداخلته رغبة عميقة في التلاشى .. بعد دقائق سينتهى كل شيء .  
كيف ستكون حياته ؟ بدونها لأول مرة في الحياة ؟ ! .. والثياب

السوداء .. ايها الكورس القديم العتيد .. علامة حزننا  
الأزلى .. إنت اطار الخضرة الأسود .. ليس بعد الموت سر .  
ليس بعد الموت مأساة !

وخرج مرة أخرى الى الوسعاية . قرص الشمس جبروت  
رهيب ومرهوب .. لا نسمة هواء . كل ما في الأرض والفضاء  
والسماء هامد وغير قادر حتى على الأنين .

ـ ماتت ..

وانطلقت الصرخات .. بالتياح .. وجنون ..  
انفجر قرص الشمس .. الشظايا متناثرة تملأ الجو ..  
انتهى عصر ..

بدأت أيام اليتيم . اجمع شظايا حياتك الثقيلة واحملها  
وحذك على ظهرك ، وامش محنيا بها ، الى أن تموت أنت الآخر ..

حدث ما لم يخطر له لحظة واحدة على البال .. المستحيل  
حدث .. ماتت .. أذن فقانون العالم هو الموت .

هرج ومرج . كان مذهولا . وبدأ على الجميع أنهم يدركون  
حاله ، فتركوه ومضوا يقومون بالمهمة ..

الآن يخلعون عنها الوشاح المهيّب الأسود . يخلعون النظارة  
الدقيقة البيضاء . ملابسها الفضفاضة الغامقة الطويلة . المحفظة  
الجلدية القديمة المليئة بأوراق غالبا لا نفع فيها . كانت تؤمن  
بالكتابة ، كانت دائما تقول في معاملاتها مع الآخرين : وهل العقل  
دفتر ؟ ! الورق والقلم يشهدون . حد الله بيني وبين حقوق  
الناس .

ترى : هل في المحفظة نقود ؟ !

فليأخذها لصوص الموتى لو يريدون .

هو الآن يريد أن يهرب . لا يريد أن يمضى وراء النعش ويرى الجسد النبيل يغييه التراب .. والظلام .. لو عليه ، لانطلق يجرى ويجرى حتى يصل الى الجسر العالى ويرسل صرخة .. عواء .. يملأ به فضاء النهر ووجه الحقول ، ثم .. ثم ينكفىء على الأرض .. تحت الجميزة ، وبغمض عينيه ، وبستسلم للأرض ، هامدا ، متحجرا ، بلا اى تفكير .. فالكل باطل وقبض الريح !

يبدأ الكورس اولى مهماته . سيخلعون عنها الطرحة السوداء ، وعصبة رأسها السوداء أيضا .. لكنكم لن تخلعوا عنها شعرها الجميل الناعم ، ولا « المقصوص » الطويل الرفيع الذى كان ينسدل دائما على جانب الوجه ، بجوار الاذن الدقيقة الصغيرة ، بقرطها الذهبى الدقيق ، المثلث الشكل ، والذى كثيرا ما كان يتأرجح مع حركة وجهها فيتذكر للحظات خاطفة انها انشى .. أجل .. نادرا ما كان يحس بها امرأة انشى .. كانت تبدو دائما متحفزة للقاء عدو ما .. وفى عز نومها كانت تبدو وكأنها مفتوحة العينين متيقظة . مات الرجل والأولاد كناكيت صفار ، وهى لم تزال جميلة وبضة وشابة .. دفنت معه الاحساس بالشباب وبالأناثة .. وأخذت دور الحارس والمربى ، وخاضت الصراع ضد الثعالب والذئاب !!

ثم ماذا بعد كل هذا الصراع والكفاح ؟ ! الأولاد كبروا وتزوجوا ، ورحلوا الى المدن .. الا البنت الوسطى ، تزوجت من فلاح طيب ، وعاشت بجوارها فى نفس القرية .. هى الآن الرابطة الوحيدة الحية له بالقرية .. ها هى تصرخ وتولول بجنون .. تهرع اليه وترتمى على صدره وتنوح :

— أمك ماتت .. ما تسبنيش لوحدى ..

واحتواها في صدره .. وأجهش بالبكاء . وفوجيء بالنعش  
خارجا من البيت محمولا على الأعناق .. أحس بنفسه شيئا  
كالرماد .. ليس أول نعش يراه في القرية خارجا ليوارى من فيه  
في التراب .. لكن الجثمان المحمول ليس أى جثمان .. أنها  
أمه .. وابوه .. لكن الموت حق ..

— حق من ؟ ! ..

— حق الله ..

— وحقى أنا فيها ؟ !

— أنت من سنوات بعيد عنها هناك . في مدينة الأنوار ..  
لم تكن تأتى لها الا وأنت مثقل بالهموم .. وبألمك « العبرى » ..  
فتمسح عنك ، وفي لحظة ، كل الهموم .

— هذا حقى .. وحق الصغيرة المسكينة . وحق هذا الأخ  
الذى يمشى مترنحا وراء النعش ، في ذهول .. كلنا لنا عليها  
حقوق .

— حقوق . حقوقكم أنتم . وحقها في الراحة والهدوء ؟ !

— راحتها دائما كانت في التعب .. « لذتها يا ابنى في  
شقها » .

— ذلك كان جيلها . عصرها ..

— اذن انتهى جيل . انتهى عصر .

وتحرك النعش . مضت قدماء وسط الجموع . وأخذته  
الغيوبة من جديد . تنبه فجأة أنهم ربما يكونون قد غيبوها في  
التراب وهو غافل . فانتفض يجرى . يشق طريقه وسط

المشييعين ليلحق بالنعش .. وعادت قدما ترحفان .. كان الموكب  
يواصل مسيرته . وعبروا الكوبرى الخشبي الى الضفة الأخرى  
من التربة . كانت المدافن وسط الحقول .. كيف ظلت هذه  
الحقول خضراء حتى الآن ؟ ! لماذا تتلون بلون القبور ؟ ! وعند  
المقبرة ، عند الفتحة المستديرة الظلماء ، وقف يرقب المنظر  
الغريب المروع . أهو وهم أم حقيقة . كانت الدموع قد جفت .  
وجحظت من الروع عيناه . اللحد الطويل الضخم ، الفماق  
البشرة ، بجلبابه البلدى البنى القديم ، يدخل المقبرة .. يسوى  
التراب التسوية الأخيرة . يضع لرأسها وسادة صغيرة - أشكرك .  
من الأعماق أشكرك ايها اللحد ! ورغيفا أيضا من الخبز ؟  
هل ستستيقظ ايزيس لتأكل ثم تنام من جديد وتستريح ؟ !

أجل .. انها لم تمت . ليست هى . وسأعود الى البيت  
فأجدها هناك ..

وقفلوا المقبرة .

انسل من الزحام ..

حول المقابر ، مقابر القرية كلها كان يدور . وعلى حافة  
حدودها المتربة جلس شاخص العينين . كانت حقول القمح  
النابتة الصغيرة تتراعى الى آخر الأفق البعيد . وخيل اليه ان  
أعواد القمح هى هكذا ، بنفس الحجم ، طوال العمر .. لم يحدث  
بذر أو حصاد جديدان منذ آلاف السنين ! .. نظر الى  
اليسار .. الى الضفة الأخرى ، من حيث جاء الموكب :  
أشجار الصفصاف ، والتوت ، وأم الشعور ، تحجب بيوت  
القرية .. وقام فى نفسه ان ينطلق بكل قوته ويجرى  
ويجربى .. يهرب .. لم يعد فى هذه القرية شئ عزيز  
يستقيه !! لكنه تذكر .. السراق الذى سيقام ..  
والكلوبات التى ستضياء .. وهو واقف ليتقبل العزاء ..

من كل البلاد المجاورة والبعيدة سيحيئون ليشدوا على  
يده ويعزوا أنفسهم قبل ان يعزوه .. كانت لها شجرة الرجال  
الكرام العظماء .. وكانت تفرح اذ يكون في البيت ضيوف ..  
وكانت تسعد باطعام الآخرين .. يا لجملتها العظيمة « كلوها  
تروح .. فرقوها تفوح » .. الآن سيرتك يا أمى هى التى تفوح !!  
اصمد ايها القلب واحتمل الليلة .. ستظل مستيقظا طول الليل ،  
فلم بعد لك مكانا هنا تنام فيه .. البيت القديم بدونها أصبح  
خرابة تسكنها الأشباح .. رغم انها هى التى علمتنى الشجاعة ..  
وانه ليس من جن ولا عفاريت .. وأن « البنى آدم يا ابنى هو  
العفريت » .. الآن .. هذا البيت بدونها هو الخوف ذاته ..  
محال أن يدخله أو يجوس فى ابهائه !

وهدأت الضجة .. لم يعد يسمع أى صوت . انسحب  
المعزون وعبروا الى الضفة الأخرى . وهو وحيد لا يزال جالسا  
على اطراف المقابر والحقول .. متى زرعوا هذه الحقول ؟ !  
كم مرة زرعوها ، وكم مرة حصدها ، ثم نبتت هذه الخضرة  
من جديد ؟ ! أو ربما لم يحدث بلر أو حصاد ، انما هى هكذا  
منذ آلاف آلاف السنين !

ونفض . مر على المقبرة . توقف أمام الفوهة المسدودة ..  
انتصب شعر رأسه . فتحت الفوهة . وراها ممددة فى سكون  
تستريح . كانت متعبة ، ومع هذا ، حين رآته ، نهضت بجلال  
جلست نصف جلسة .. كان على وجهها صفاء عميق . وفوق  
شفيتها ابتسامة أبدية ، وبسطت كفها .. تستوقفه : لا ..  
لا تدخل . ابق عندك .. تذكر . لم أتركك الا وانت رجل كبير ..  
الآن احمل حياتك على كاهلك وامض بشجاعة !! تقول انك اخيرا  
وجدت عملا ؟ ! كنت واثقة . مبروك . ألف مبروك ، سأزغرد لك .  
وانتشر فى كيانه صليل زغرودة ذهبية ملأت جنبات المقابر



والحقول .. وانتابته رعشة محمومة .. يريد أن يهجم على  
القبر ..

- أمى .. أمى ..

وعادت تبسط كفيها في وجهه .

- لا .. لا تتقدم . أنسيت يا ولدى الحرام والحلال .  
اطمانت الآن عليك .. امض الآن ودعنى أستريح . هل نسيت .  
تعبت كثيراً .. كثيراً .. أن لى أن أستريح .. عن أذنك .

ومالت بظهرها في هدوء ، واغلقت عينيها . وعادت الى  
رقبتها في سلام !

السلام عليك يا أمى .. وعلى الدنيا معك السلام .

وارتجفت شفتاه دون دمعة ..

أعطى القبر ظهره ، حمل نفسه وسار وحيداً ، يدب على  
الطريق الشيق المترب بين الحقول . وراى أمامه ، على بعد  
قليل ، فلاحا يسوق أمامه بهيمنتين تتودان محرانا ، والمحراث  
يشق خطاً ثابتاً في الطريق .

تباطأ في خطواته ، حتى يتفادى أى لقاء أو كلام مع  
الفلاح . يريد أن يغيب في الصمت . كانت ظلال المساء بدأت  
تهبط على الحقول وعلى الطريق . لكنه كان يرى قدميه تسيران  
فوق خط عميق محفور بطول الطريق ، هو الخط الذى حفره في  
الأرض ، سلاح المحراث ..

خط الحباة .. منذ آلاف السنين ..

« ١٩٦٤ »

## بحر الذنوب

كان كل خوفنا أن يمضى الأسبوع الأخير من اجازتنا  
والبحر هكذا هائج يهدر ! .

وقد ظل البحر طيلة ثلاثة أيام متوالية ، عاليا مزبدا غير  
آبه بأن لحظة الوداع تقترب ، وأنه حرام أن نقضى معه أيامنا  
الأخيرة هكذا مكبلين بالرمال ، والراية السوداء من فوقنا تخفق  
وتتلوى مع الريح العاصفة ! وكان صديقى « سعد » الذى ترك  
بيته فى قلب الاسكندرية ، واستأجر « كايينة » بالمندرة قريبا  
من البحر ليقضى فيها أجازته ، كان يتململ على الرمل ويقوم  
ويقعد ثم ينظر الى السحب المتلاحقة والطائرة رغم ضخامتها مع  
رياح الشمال الرطبة ، ويقول فى غيظ وأسف :

— مستحيل .. مستحيل يكون ده جو أغسطس .. فى  
سبتمبر البحر أهذا من كده بكتير ..

ثم جاء اليوم الرابع ..

كانت حدة الرياح قد هدا تنسبيا ، وبدا البحر وادعا

ولطيفا وكأنه يمد يد الصداقة للمصيفين . وكان أول من صاح  
مطالباً بالنزول الى البحر هم الأطفال !

— فلنسبح الى « الصخرة » ونصطاد !!

كان احتضانهم للموج قد أوحشهم مثلنا .. وأوحشتنا  
أيضاً تلك الجزيرة الصخرية المائلة هناك فوق سطح الماء ،  
بنتوءاتها البارزة ، وتشكيلاتها الجميلة الغريبة بفعل الرياح  
وضربات الأمواج على مر الزمان !

كانت هذه الصخرة والوقوف عليها أو الصيد منها قد  
تحول في الأيام الأخيرة من إجازتنا ، الى رمز لذروة سعادتنا  
مع البحر . ! كانت لذة الوقوف والتمشي على هذه الجزيرة  
الصخرية تسبقها لذة أخرى . لذة اجتياز الموج ، سابحين على  
الصدر أو على الظهر ، صاعدين هابطين مع الموج .. من تحتنا  
أعماق وفوقنا أعماق .. وفي رفقة سباح قوى ماهر . هو  
الصديق سعد ، خير نجدة إذا لاح التعب لواحد منا . !

وفي دقائق ، كان كل واحد من الأطفال الأربعة ، يلوح فرحاً  
بسنارته ، وقد علق في وسطه جراباً صغيراً من النايلون ملاءه  
بالطعم .. ثم .. القينا بأنفسنا جميعاً في البحر ..

ربما هي آخر رحلة لنا هذا الصيف !!

واندفعنا نشق طريقنا في الموج !! .. في كل مرة يقطع فيها  
الإنسان هذه الرحلة ، رحلة الثلاثمائة أو الأربعمئة متر الى  
الصخرة ، كانت تتابني مشاعر معينة بذاتها .. !

كثيراً ما كنت أدرك بومض خاطر ، وأنا أخطو عبر الموج ،  
ذلك الشعور الاسطوري العميق الذي يربط بين إنسان ما وبين  
البحر ، حتى يصبح هذا الرباط مصيراً وقدراً !!

والصدفة ، كنت في تلك الأيام أقرأ « حورية البحر » مسرحية  
العظيم « إيسن » ، وأعيش مع « إيليدا » بطلة المسرحية ، تلك  
الفتاة الجميلة التي ربطت مصرها ببحار غريب ، أثر لحظة  
إنسانية عميقة جياشة جمعتهم أمام البحر فارتبطا ، وكان  
قسمهما خاتمين ربطاهما الى بعضيهما بخيط رقيق دقيق ، ثم  
ألقيا بهما في الأعماق .

كانت كلمات « إيليدا » حورية البحر تعاودنى وأنا أصبح في  
البحر الأبيض المتوسط .

« لو كان الانسان قد عود نفسه على البحر منذ البداية ،  
لكان أكثر سعادة » !!

وكلمات أخرى لها ..

هذه هي الحقيقة الخفية .. وهذا هو السر الدفين وراء  
مسحة الحزن التي تستبد بالرجال أحيانا ، عندما يحنون الى  
المجهول .. الى الانطلاق .. في رحابة الكون الكبير !!

ومضيت انظر الى الصديق سعد وهو ينساب بخفة في  
قلب الموج ، وإلى طفليه وطفلى وهم يدفعون سنائيرهم بأيديهم  
على الموج أمامهم وعيونهم على الجزيرة الصخرية : اليست هذه  
هى روح حورية البحر تسكنهم جميعا ؟

وأنا ؟ ! ..

ان ما يدور كالدماء في عروقى ، تلك الرغبة الحارقة المشتعلة  
على الدوام في الخروج والانطلاق .. ولكن آه من كل هذه  
القيود التى بات الانسان يخجل من ترديدها ! ..

ذلك هو سحر الاجازة .

هأنذا في منطقة اللاقيود .. أمامي البحر .. كل البحر  
لو أستطيع .

ومضيت أسبح .. سعد يسبقني : والأطفال يسبقونه ..  
ودخلنا منطقة الأعماق ..

عند أول حدود منطقة الأعماق ، يهبط القلب للحظة ،  
ثم يرتفع الأوار من جديد ، مدفوعا بتلك الهجة الحسية المقتربة  
بزهوة الاحساس باقتحام الخطر ..

بعد الحدود ، هبت رياح رطبة ، فازداد ارتفاع الموج ..

تنهت .. أهى بوارد عاصفة ؟ !

لا .. هي رقصة للموج يعلو فيها ويهبط ، فلنستسلم  
جميعا للرقصة !!

كنت قد تعلمت من سباحتي في رفقة صديقي السكندري  
وطفليه ، ما معنى تلك النشوة الحسية التي يملأ بها الانسان  
نفسه ويضمخ بها جسده وهو يسبح في البحر ، على اعماق  
بعيدة الفور . فكثيرا ما كان يلقي بنفسه في منطقة ما بعد  
الصخرة ويتوغل ويتوغل حتى يصبح نقطة صغيرة سوداء في  
عالم رحيب واسع كله خضرة وزرقة ! كنت أجفل من الدهاب  
معه الى هذا البعد السحيق ، فيقول لى معاتبا : انت مش  
بتعرف تعوم ؟

فأهز رأسي ضاحكا ، فيقول : كل ما العمق يكون اكثر ،  
كل ما العوم يبقى أسهل وأجمل .

والمرة التي سبحت فيها معه فيما بعد الصخرة ، منحتني  
لحظات سعادة لا تنسى .. كما اعطتني كلمة السر الوحيدة التي  
يفهمها البحر :

جراحة القلب ..

ان لحظة خوف تهلك أعظم الأبطال ..

فلأفرح برقصة الموج ، ولا أخاف ! ..

وفقدت احساسى بوزنى ، وأنا أمشى رقصة الموج ..

والأطفال . ؟ ! ترى ماذا يفعلون الآن ؟ ! ليست مغامرة منا  
أننا صحبناهم معنا فى هذه الرحلة ! ؟ ماذا لو عدنا بدون  
واحد منهم ؟ !

غير ان نظرة سريعة منهم ، وهم يشقون طريقهم نحو الصخرة  
فى خفة ورشاقة ، دافعين سنائيرهم أمامهم اقنعتنى بأن انتبه  
لنفسى .

ومضيت أوصل السباحة .

اجتزنا نصف المسافة .. الأعماق تزداد .. والرقصة  
تعلو . ماذا لو تعب الانسان فجأة ؟ ! .. لا .. ولماذا يتعب ؟ !  
لسبت فى سباق .. لا عنف فى الضربات . بل واحدة واحدة !! ..  
يا لها من متعة .. متعة محفوفة بالخطر .. !

هناك تقلص العضلات ، عضلات السيقان !

وهبط قلبى ..

لا .. لا .. ساقى خفيفتان .. تذكر قصص الفرق  
هى بداية الفرق الحقيقى .. ! الرياح الرطبة تهب وتنعش  
النفس .. الموج يرقص .. وأنا مثل ريشة فوق جبال الموج ..  
سعادة تضيئ قلب الانسان .. احساس بالتطهر والاعتسال ..  
خفة فى الجسم وفى النفس .. جرثومة الجبروت لا بد يقتلها  
ملح البحر .. !

كان الأطفال يقتربون بسنانيرهم من الصخرة . حمدا لله ..  
ومضيت أتبعهم .. !! يا للفرابة ، أهنالك ثمة قربي بين الطفولة  
وبين البحر .. ؟ ! بالتأكيد .. هذه الخفة وهذه الفرحة ..  
الأطفال هم أصدقاء البحر .. وخايلني وجه عبد اللطيف  
أبو هيف .. طفولة العالم دائما أراها في عينيه .. ! .. نعم ..  
أبو هيف .. طفل كبير يرى .. جسده أبدا لا يثقله .. وروحه  
أيضا .. أبو هيف بلا ذنوب .. كل أبطال البحر لا يمكن أن  
ينزلوا الى البحر ووراءهم ذنوب أو أشباح تلاحقهم .. !

منذ عدد من السنين ، نزل أحد الحكام « العظماء » الى  
البحر .. مستعرضا قدرته وبراعته أمام رجال الحاشية  
« أنا لا أحكم الناس فقط .. أنا أحكم الموج أيضا » .. وراح  
يتوغل ويتوغل .. فجأة ، أحس بجسم ناعم يلمس ساقه ..  
فانتفض .. ! لا بد حوت .. ذعر فظيع أهوج أطبق عليه ..  
اندفعت ذراعا تضربان في الموج يلتمس العودة .. طاشت  
حركته .. تهدجت أنفاسه .. بدأ يبلع الماء من أنفه وفمه ..  
كان وجه ضخم يلاحقه .. وجه يعرفه .. يقول وعيناه متألتان  
تقطران ماء مالحا « لماذا قتلتنى .. لماذا قتلتنى » .. ؟ !

كانت ضحية من ضحاياه ، بعثت حية له وهو في قلب  
البحر ! وكانت نهايته !!

المثقلون بالذنوب لا يحملهم البحر أبدا الى غاياتهم ..  
وانا .. ؟ !

في رحلة الأربعمئة متر .. من تحتى أعماق وأعماق ..  
ما هي ذنوبي ؟ !

وتلاحقت دقات قلبي ..

ها فد أصبحت وحيدا في منطقة الأعماق .. سعد والأطفال

وصلوا الصخرة وأمسكوا بسنانيرهم وبدأوا الصيد .

هل لى ذنوب معك أيها البحر .. ؟ !

ولم يخيلنى وجه للانتقام .. !

وجه واحد تراءى لى .. فيه الشحوب ، وألم العتاب :

لم أرك من وقت طويل : أختى .. فى قريتى .. بل قريتى كلها ..

بلياليها الخرساء المظلمة فى النصف الآخر من القرن العشرين ..

تعاتبنى : إجازتك أصبحت تقضيها مرحا على الشاطئ ..

إجازتك كلها ، دون يوم واحد لنا .. !

أختى ..

قريتى ..

أنا معترف بلدنبي ..

ان لم أعد اليكم .. فالموت لى .. المغفرة !

كنت قد أصبحت وحيدا فى البحر .. غير أن منظر الصخرة

ومن عليها كان يؤنسنى .. بعد دقائق قليلة سأمسك بصخورها

وأصعد إليها وأنضم الى موكب الصيد المرح .. ولكن ما هذا ؟ !

لقد أصبحت على يمين الصخرة ، بعد أن كنت متجها إليها من

اليسار .. انه اتجاه الموج .. سحبتنى رقصة الموج شيئا

فشيئا بعيدا عن طريقنا الأصلي !! لا يهم .. فلاأخذ أقصر

الطرق .. ولأنشط قليلا ، ولأكف عن التفكير .. اى تفكير ..

حسن انى وجدت نفسى بلا ذنوب .. لا ذنب لى غير أختى ..

وقريتى .. وعما قريب سأكفر عنه .. ها هى الصخرة أمامى ..

قريبة .. وأنا لم أتعب .. أبسط تعب لم يصب ذراعى

أو ساقى .. ولكن .. شيئا ما غريب يحدث .. أننى لا أتحرك

والمسافة بينى وبين الصخرة ثابتة ..

وتنبه فى داخلى احساس عميق بالخطر ..



انا فى منطقة تيار قوى ينحدر نحوى مقبلا من حول  
الصخرة ..

سباحة الصدر الهادئة هنا لن تجدى ..

بدأت أضرب بذراعى .. ضربات مسددة قوية .. غير أن  
التيار أقوى .. الصخرة لا تقترب .. وكل ما تفعله ضربات  
ذراعى انها تحمىنى من الرجوع الى الوراء !! ضربتان وثلاث ..  
وستهن ذراعى ! انا واثق .. لن اصل الى الصخرة ، عشرة  
أمتار .. ولكن أصبح من المستحيل اجتيازها . كلما ضربت  
بذراعى ، وجدت موجة ثقيلة مندفعة تقول لى : ابق عندك .

ستحدث الكارثة حتما !!

كنت أود ان اصل الصخرة وحدى .. هل اصر لى  
أحصل على انتصارى ..

من جديد ، رحت أضرب بذراعى .

صدنى التيار .. ابق عندك .. وهنت تماما ذراعى ..

اذن فهو الفرق لا محالة ..

عيناي على الصخرة .. سعد ينظر الى مستفسرا .. أدرك  
على الفور الخطر ..

قذف بنفسه فى الماء ..

— خف .. تعوم ..

ألقيت نفسى على ظهري فوق الماء .. خفيفا بلا حراك ..

تاركا جسمى للتيار .. ذراعا سعد تضربان فى الماء ..

اقترب منى ابن البحر ..

اعتدلت على صدرى ..

— ضع يدك على كتفى .. واضرب برجليك .. دقيقة  
واحدة وسنبتعد عن مجرى التيار . !!

لاشئ فى الدهن غير الوصول .. بأى ثمن لابد سنصل .  
ها هى الصخرة على بعد أذرع قليلة ..

— ابتعدنا عن التيار ..

عادت الى النفس السكينة .. رقصة الموج اللطيفة  
تحملنا ولا تصدنا .. والصخرة تقترب .. مصطفى الصغير يصيح  
فرحاً : وقد رفع سنارته فى الهواء وسمكة صغيرة وقعت فى الفخ  
راحت تنتفض فى الفضاء وهى تلمع وتلمس الهروب ..

— دنيسة يا بابا .. دنيسة يا عمى ..

منحتنى صيخته القوة !!

على أية حال .. ها هى الصخرة ..

لمست يداى الصخرة .. تشبثت بها ..

نطرت الى سعد نظرة شكر .. اما هو ، فكان ينظر لى فى  
عتاب ثم قال : أرجوك لما تحب تسرح .. تبقى تسرح وانت  
فى بيتكم .. انما فى البحر ..

وضحك من أعماقه ..

وددت أن أبادله بضحكة .. غير انى لم أستطع .. كنت  
لا أزال أسترده أنفاسى .. وعينى على منطقة التيار .. رهيب ! ..

دنب أختى .. وقريتى ؟ !

ربما ..

ولن آتيك أيها البحر في انعام القادم : إلا وأنا منخفض  
من كل الذنوب ..

عماد .. الطفل الأكبر يصيح ..

— دنيسة تانية يا بابا ..

ولعت سمكة في الفضاء ..

وثقافز الأطفال فرحين بصيدهم العزيز ..

السماك يخرج حيا . تم يموت . أهى بداية للذنب جديد !

ولعت سمكة جديدة .. وانتفضت في الفضاء .. مرتعبة ..

ستموت .. وسيضحك الأطفال .. وسنأكلها في أمسية  
بهيجة !

« ١٩٦٨ »

## النمل الأسود

بدأت لها المسألة أشبه بالمفاجأة ، أو لعبة لطيفة من البحر  
يستقبلها بها ! .. كانت قد أخذت نظرة سريعة من وجهها  
في المرأة ، وسوت شعرها ، غير أنها لم تكد تفتح باب العشة  
لتخرج وتلحق بزوجها حتى استقبلتها دفقة هواء شديدة ،  
فتطاير شعرها بعنف وتراجعت إلى الوراء خطوتين وكادت  
تنكفئ ، وتملكتها رغبة طفلية في الضحك وهي ترى جهودها  
لتحافظ على نظام شعرها تضيع عبثا !

كان أول يوم لها في رأس البر ، ورغم أن العشة كانت  
بعيدة بعض الشيء عن البحر ، والوقت ضحى ، إلا أن الهواء  
كان يهب قويا ومنعشا .. وأحست بطراوته تنفذ من خلال  
ملابسها الخفيفة فتلامس لا جسدها فقط ، بل وروحها أيضا ،  
وابتسمت في سعادة ، وراحت وهي تستنشق الهواء بعمق ،  
تحملق بعينيها في لا شيء .. كأنها تدير شيئا في رأسها .. شيئا  
غريبا لا تكاد تصدقه !

أحقا هو شعور بالسعادة ؟ !

لم تكن تتوقع أن شعورا مثل هذا سيفغرها من اول صباح لها في المصيف ، بل وتمعجت كيف ان الاحساس بالرضى يمكن أن يغمر قلب الانسان هكذا فجأة ، لمجرد هبة هواء منعشة ، وكأن أشياء كثيرة وتعمدة لم تحملها في قلبها وهى قادمة مع زوجها الى هذا المكان !

وحانت منها نظرة سريعة الى السريرين الصغيرين اللذين يشغلان الحجرة وتنهدت ، أى ليلة كثيرة قضياها بالأمس في هذه الحجرة بعد أن وصلا المصيف ووضعوا حاجياتهما !

كانا قد هبطا « رأس البر » بالأمس في الليل ، ولم يكن يعلن عن وجودها في هذا المكان سوى اقواس النصر المضاء بالكهرباء عند مدخلها والا صوت البحر الذى كان يتناهى الى مسامعهما من بعيد ! .. وطوال الطريق من القاهرة حتى رأس البر وهما صامتان ، كلاهما يفكر في هذا الذى حدث ، هذا الذى جعلها في النهاية تصرخ في وجهه طالبة الطلاق ثم .. كان هدوء العاصفة واتفاقهما الكئيب في بيت أمها على أن يقضيا عدة أيام في المصيف !

وهزت رأسها بشدة لتطرد الصورة عن ذهنها .. « ربما تكون بداية جديدة لحياتنا .. كفانا كآبة » !

كانت موجات الهواء لا تزال تندفع داخل الحجرة : وابتسمت لنفسها مرة أخرى وهى تحس بأنفاسها نشطة وقوية .. وضعت كل قواها في ذراعيها الرقيقتين وجذبت الباب خلفها بقوة ، كانت صغيرة ونحيلة ، وكانت أيضا شقراء وجميلة .. ذلك الجمال الذى يعطى صاحبه سنا أصفر من حقيقته ، والمضحك أن عمرها لم يكن يزيد بحال عن التاسعة عشر ، فبدت وهى تهبط سلالم العشة قفزا وتقاوم لعبة الهواء

مع شعرها وثوبها ، بدت أقرب الى صبية صغيرة تحتاج الى صبايا لتلعب معهن ، منها الى أن تكون زوجة ، وزوجة لهذا الرجل بالذات ، الواقف هناك عاقدا ذراعيه خلفه وسط الشارع في انتظارها !

كان قد خرج وسبقها بعدة خطوات .. وبدأ بكتفيه العريضتين ورأسه الكبير مكتظ الوجه والجسم ، ورغم أنه كان يرتدى بنطلونا طويلا إلا أن ساقيه بدتا معوجتين ، وذراعيه المشمرتين يملؤهما شعر كثيف أسود وصدره بارز ومرتفع بشكل ملحوظ ، كأنه مصارع أو مدرب رياضي !

لم يكن هناك شيء في الشكل يؤلف بينهما .. ولولا وقفته ونظراته المركزة التي تحمل معنى الانتظار ، انتظارها هي بالذات وهي تشق طريقها نحوه ، لما قال أحد أن هناك ثمة علاقة بينهما !

كان شاردا .. وعيناه مزمومتان على وجوم !

ومضت تمشي نحوه بخطوات مسرعة ، حريصة على ألا تتركه وحده طويلا في الشارع ! .. وأحست بالأرض الرملية تعوق سرعتها فنظرت اليه معتذرة بوجه ضاحك ، وتجولت للحظة بعينيها العسيلتين الواسعتين في كل ما حولها ، كأنها تكتشف ولأول مرة هذا المصيف الذي دخلته بالأمس - ولأول مرة في حياتها - في الليل ! .. كان الوقت ضحى . والعالم يغمره الضياء .. وبدأ كل ما حولها خلاء في خلاء ، رغم صفوف الكباين والعشش الصغيرة الممتدة في نظام بديع حتى الشاطئ ، ولاحت لها زرقة السماء لا تختلف عن زرقة الفضاء ، وانطلقت نظرتها الى البعيد ، الى نهاية الشارع .. ولمحت تلك النقطة التي يلتقى فيها البحر بالسماء وأشباح المصيفين بملابس البحر

يروحون ويحيثون ويجرون . أحست بنشوة تملكها وجرفها حماس طفولى طاغ ، أن تقطع الخطوات الباقية على زوجها جريا . ثم تجذبه من يده وهى تضحك ، ويجريان معا ويظلان يجريان حتى يبلغا الشاطئ ويضربا الموج بأقدامهما وهما يضحكن من قلوبهما !

كان قد مسها سحر الطبيعة فتفتحت كل الطفولة الكامنة فيها . غير انها حين نظرت اليه ، وجدته لايزال شاردا ، مقطب الجبين . فتنهدت : « أنه لم ينس بعد .. ولكن ، لابد أن ينسى » .. وقررت أن تبدأ هى بالكلام . لو اقتضى الأمر أن تعتذر له . فستعتذر رغم كل شيء ! .. يكفيها أنه هو الذى عرض فكرة السفر الى هذا المكان الجميل .

وحين وصلت مكانه لغت ذراعها بحماس حول ذراعه ، فتحرك من مكانه وسار بجوارها فى صمت فى اتجاه البحر ، وفكرت .. ماذا تقول ؟ !

كان واضحا أن روحه معقودة على صمت ثقيل ، وأيقنت ان الحاجز لايزال بينهما .. ومع هذا فقد ظلت ابتسامتها على شفيتها ، وحلا لها وهى تسير بجواره أن تستنيم لايقاع خطوائها البطيئة على الرمال .. وفكرت بقلبها المفتوح ان المشى البطيء على الرمل له جماله أيضا ، تماما مثل الجرى والانطلاق . واغمضت عينيها لبرهة تتسمع أزيز الهواء وهو يصطدم بأذنيها ، وصياح أطفال المصطفافين وهم يلعبون بمرح ، ان العالم منذ بدء الخليقة يسوده السلام ، وأن تلك هى حقيقة الحياة .. ولابد ان تكون أيضا هى حقيقة علاقتهما معا .. وأن هذا الذى حدث بينهما لم يكن الا كابوسا .. وانتهى ! .. « نعم .. كل الرجال يفارون على زوجاتهم . من قرط حبه لى ، يفار على .. يبدو اننى فعلا تسرعت فى طلب الطلاق » .

وانتابها احساس عابر بالندم .. وضغطت بيدها على ذراعه .. وهمت أن تقول له بكل جوارحها . « أنا متشكرة ، متشكرة أوى يا حسين على الفسحة اللطيفة دى » . غير أنها فوجئت بكرة صفرة تندفع إليها . كان بعض الأطفال الصغار يلعبون بها .. وبلا وعى اندفعت نحو الكرة وقذفتها بقدمها بشدة ، ثم انطلقت تضحك للصغار من قلبها ! ونظرت إليه لترى أثر لعبتها وضحكتها عليه ، صدمها جمود وجهه ، بل وخيل لها أنه يضغط على فكيه .. هبط شيء ما في قلبها واستدركت خطواتها التي كانت توشك - بلا وعى - أن تسرع وتفلت منها ، كما لو كانت تريد أن تجرى وراء الكرة وتلعب مع الأطفال .. وشردت ببصرها نحو البحر ! .. « تلك هى عقدته .. الكارثة أنك لازلت تتصرفين كطفلة .. لم تصدقى بعد أنك أصبحت زوجة ! » . اليس هذا هو بالضبط كلامه ؟ ! .. لا .. سأصرف كامراة كبيرة وعاقلة ورزينة .. « نعم .. لن أفعل شيئا ولو تافها ربما يثير غضبه .. لابد أن أهيب الجو لتصفو نفسه ، وبسرعة » ومرة أخرى لفت ذراعها حول ذراعه ، ومضيا يقطعان الطريق الى البحر ، فى صمت وعلى مهل .

كانت كل أمنيتهما أن تصل البحر وقد انقشعت هذه السحابة عنهما ! .. تلك أول مرة سترى فيها « بحر رأس البر » .. بعد دقائق ستكون هناك . واكتسحها شوق لأن ترى أمواجه وتمشى على البسلاج وتستحم بنفس صافية ، لقد راح تماما من نفسها كل شيء وانتهى ، فلماذا هو مصر على هذا الوجوم الرهيب ! ؟ .. ربما هو فى انتظار كلمة منها ترضى كبريائه . واستدارت إليه بكل وجهها دون أن تخلى ذراعها من ذراعه ، وقالت برجاء وهى تبتسم مداعبة :

— حسين ؟ ! .. مش حتضحك بقى ؟ !



وابتسم ، لكن ابتسامته كانت ساخرة . تقطر مرارة !  
ولم تياس .

— شايف قربنا من البحر ازاي .. يا الله نجرى لغاية  
هناك !

ولم يرد . راته ينظر الى رجل يخرج من احدى الكباين  
ويمشى في نفس الطريق متجها نحوهما .. كان الرجل يرتدى  
بنطلون شورت وفي يده مضرب ، ووجهه وسيم لوحته  
الشمس ، وحين اقترب منهما راته يسدد نظراته اليها ! ..  
ارتجفت وسقطت نظراتها كالمذعورة الى الأرض لتتفادى عينيه .  
وما أن مر بهما وابتعد حتى رفعت بصرها عن الأرض وهى تلفظ  
نفسا عميقا ، وكان كابوسا انزاح عن صدرها .

كان الرجل غريبا لم تره من قبل أبدا ، لكنه كان يبخلق  
فيها بشكل وقح ، ولا يبالي بزوجها . وودت لو تختطف في تلك  
اللحظة نظرة من عيني زوجها لترى أثر نظرة الرجل عليه ! ..

وغاص قلبها وهى تراه يخرج سيجارة من جيبه ويشعلها ،  
وأطفأ الهواء أول عود ثقاب ، فأشعل الثانى بعصبية ، ولحت  
وجهه وقد احتقن !

أحست برغبة حارة تجيش في نفسها ، أن تبكى ، وأن  
تحس بطعم الدموع في حلقها ! .. أيمن أن يطاردها ذلك  
الرعب حتى في المصيف ؟ .. الرعب الذى كانت تعيش معه في  
القاهرة ؟ !

واستبشعت الخاطر « مستحيل .. مستحيل أن يفار  
على أيضا هنا .. من نظرات المصطافين » !

لن يكون مصيفا ، بل سيكون الجحيم ، نفس الجحيم .

منذ ان تزوجته ، بل ومن ايام الخطوبة وهذا عذابها .  
 غير ان غيرته هذه كانت تبدو اول الامر شيئاً تافهاً ومحتملاً .  
 أكثر من هذا كانت تتقبلها بنوع من الزهو الاثوى كشاهد  
 حى على جمالها ، وهو العاطل من كل جمال .. لكن المسألة  
 كانت تستفحل مع الأيام على نحو خطير ، فبالضبط كما يختار  
 الميكروب نقطة ضعف فى جسم الانسان ليمارس عليها حياته  
 ويتغذى على مهل ، كذلك كانت غيرته ، تلمست لنفسها نقطة  
 فى حياتها ثم توقفت عندها : تلك هى قرابتها ، او ما اسمها  
 هو « علاقتها » بابن خالتها المسمى « صلاح » ، ذلك الذى يقطن  
 فى الشقة المجاورة لها بنفس المنزل ، وب نفس الدور مع عائلته ..  
 والذى طالما ضحكت ولعبت معه وهى صغيرة .. وحتى بعد أن  
 خطبها من أبيها المريض وتزوجها ، لم تجد فى الخطبة او فى  
 الزواج ما يمنعها من أن تضحك معه من قلبها ! .. وكان هو  
 يرى انطلاقها هذا مع ابن خالتها ، فيحس - رغماً منه - بشيء  
 ما أسود يأكل فى قلبه ! .. كانت غيرته فى اول الامر مستورة  
 وبطيئة ربما لانه كان يدرك أنه لابد أن يتحكم فى غيرته . فهو الذى  
 اختارها صغيرة .. وهو الذى جعل الزواج منها معركة حياته فى  
 تلك الفترة واستطاع أن يحصل عليها بالتأثير على أبيها المريض  
 قبل أن يموت .. حصل عليها وهو يعلم أنه قد سلبها من كل  
 أقرانها الشبان .. فهى أجمل بنات العائلة .. وعليه اذن  
 أن يتحمل متاعب جمالها .. ويغالب غيرته .

غير ان غيرته الهائلة البطيئة هذه ، كانت أظفح الأنواع ،  
 عليها وعليه على السواء .. كانت بالنسبة لها أشبه بنقط  
 ماء صغيرة دائمة السقوط من صنبور غير محكم الاغلاق ..  
 تسقط نقطة بعد نقطة ، وبشكل رتيب بجوار رأس انسان مرهق  
 يريد أن ينام .

انها لا تنسى أبدا حين دعا أحد أصدقائه على الغداء ..

وجلس الثلاثة حول المائدة : ثم قام فجأة متعللاً بحجة واهية ، وأدركت بعد لحظات أنه يقف خلف الباب ينصت الى ما عساه يمكن أن يحدث ، أو يدور بينهما من كلام !

كان شكه هذا مقلقا لسكينة روحها ، بل أصبحت نحس أنها تعيش معه في رعب دائم .. وشيئا فشيئا أتلفت غيرته أعصابها حتى انفجرت في النهاية : تركت له البيت وصرخت لأمها .. « أريد الطلاق » .. ثم كانت جلستهم الصاخبة التي انتهت بذلك القرار الكئيب : أن يسافرا - ويقضيا عدة أيام في هذا المصيف .

فهل يلاحقها ذلك الرعب هنا من جديد ؟

وتذكرت نظرة الغريب لها ، فغاص قلبها .. ما ذنبها هى فى هذه النظرة ؟ .. ثم ما الذى سيحدث حين يصلان الشاطئ ، ويدخلان الزحام ؟

ومرت بيدها على عينيها كأنما تزيل ضبابة تكاد تفتش بصرها . وكانا قد اقتربا من البحر .. وتناهى الى سمعها فجأة صوت الموج . ورات أنها بدأ يدخلان منطقة زحام ، فهزت رأسها بشدة .

« ساعمل كل جهدى لأحافظ على شعوره .. سامنى دون أن انظر الى أحد .. سأهبط الى البحر والاعب الموج دون أن تلتقى عيناي برجل . هذه الطبيعة الحلوة تكفى وحدها لأن انظر اليها . يكفى ملمس الماء على جسدى . وأنا لا أعرف العوم .. سأطلب منه أن يعلمنى ، وسنضحك .. سأجعله يضحك على .. »

وتفتح وجهها مرة أخرى ، كأن خاطرا كئيبا واحدا لم يروعها منذ لحظة .. ورات شابا وفتاة ، يسيران معا بين العشب

بخطوات مسرعة ، وراهننت في نفسها انهما عريسان جديدان ..  
ورات بعيدا ، هناك في أقصى البحر ، نقطة صغيرة بيضاء  
تتأرجح ، وتراهننت مع نفسها مرة أخرى انها لابد مركب صيد ..  
يا لهم من شجعان ، هؤلاء الرجال ، وتصورت أن هناك  
عالما وراء هذا الأفق الأزرق البعيد ، وتذكرت ان الأرض  
كروية ؛، وأن العالم رحيب واسع لا ينتهى .. تعبأت روحها  
دفعه واحدة بالاحساس بالحب . حب كبير يشمل كل شيء .  
وجرفها شعور بالحنين لأن تفجر احساسها هذا .. استدارت  
بوجهها اليه .

— حسين .. أنت لسه برضه زعلان ؟

— ابدا .. حازم من ايه ؟

قالها بلهجة أدركت معها على الفور أنه لم ينس بعد ..  
توقفت عن السير . توقف هو الآخر . أمسكت بيده وعادت تقول  
ووجهها الحلو الصغير ينطق بالضراعة :

— انس بقى يا حسين .. الى فات مات .. عثمان  
خاطرى ..

كانت نظرائه مركزة في عينيها ، كأنما كل همه في هذا  
العالم أن يسبر أغوار احساسها .. أهى حقا صادقة فيما  
تقول ؟ .. أنه يريد اليقين . وبدت تلك الصغيرة الضارعة  
الحلوة ، التى لا يشغلها في تلك اللحظة غير رغبتها في أن تضحك  
للبحر وتفرح معه بالحياة في المصيف ، بدت غامضة مغلفة ،  
جوانحها تنطوى على أشياء مبهمه تحيره بل وتعلبه .

قال وفكاه يرتعشان ، مركزا عينيه في عينيها أكثر وأكثر ..

— نقدر نتكلم بصراحة ؟ ..

صراحة ؟

ارتبكت وشل تفكيرها .. كانت تريد أن تنهى الموضوع .  
ولكن ها هو يريد أن يبدأ من جديد .

وأغمضت عينيها للحظة ، وقالت بلهجة تدعو للثناء ..  
« صراحة ايه بس يا حسين .. عايزنى أقول لك ايه » ؟

وأربدت ملامحه . في أعماقه ذلك الشيء الأسود يأكل  
قلبه ، شيء أشبه بالنمل الأسود يرعى في جوفه ، ويجعله دائما  
يتساءل في قلبي .. اكان من حقه أن تتزوج بنتا صغيرة وجميلة ؟  
ما يدريك أنك من الأزواج المخدوعين !  
وانفجر .

— تقدرى تقوليلى طلبت الطلاق ليه ؟ ! .. هه ؟ ! ..

قالت وقد شحبت وجهها فبدت كالشهيدة ، كمن تريد أن تحمل  
نفسها ذنوب العالم ، لتحصل بعد ذلك على الخلاص .

— غلطت يا حسين .. حقك على .. نبتدى من جديد .

ارتسمت على ركن فمه ابتسامة سخرية ، ووسع ما بين  
قدميه كأنما يشبهتهما جيدا في الأرض الرملية ، وقال بلهجة  
قاطعة :

— انا شايف نصفى القديم اول !

أطرقت في تعاسة .. قالت موافقة :

— نصفيه !

— تقدرى تقوليلى .. ايه علاقتك بصلاح ابن خالتك ؟ !  
وكما لو انه ألقي على رأسها بقنبلة .. فتراجعت مرتبة

الى الوراق خطوتين وقد دوى انفجار وطاش فى رأسها .  
صرخت .. « أنت برضه اللي فيك لسه فيك .. مش عايز  
تصدق أبدا » .. وأحسست بالهوان .. وانفجرت تبكي ..  
« أنا مش قتلتك قبل كده على كل حاجة » ! ..

وكمن النقط خيطا كان ضائعا منه ، فتشبث به بوحشية  
حتى لا يضيع منه .

– ايه هى الحاجة اللي قولتيها لى ؟ !

وضربت قدمها فى الرمل « ان مفيش أى حاجة .. ده ابن  
خالتي يا حسين .. ومتربية معاه من صغرى .. متربين مع  
بعض لحد ما كبرنا » !

وارتعش ركن فمه بسخرية مريرة ..

– لحد ما كبرت ؟ ! هه ؟ .. وبرضه مش عايزة تكلمنى  
بصراحة .

وبأحزان العالم كله .. « عايزنى أقول ايه بالضبط ..  
فهمنى .. أنا مش فاهمة حاجة خالص » !

وجذب نفسا عميقا من صدره ، ونراجع برقبتة وزأسه .  
قليلًا الى الوراق ، كمن يتهيا لأن يقدفها بقنبلة أخرى .. وزم عينيه  
ليرتقب جيدا وقع ما سيقوله عليها .

– أنت عارفه انه هنا ؟ !

– مين ؟ !

– حضرته .. صلاح ابن خالتك !

قالت وهى تبسط كفيها بدهشة واستغراب ، وخوف  
أيضا !

— لا ما أعرفش طبعاً !

وارتعش فكاه ..

— لا تعرفي .. أنا مش مغفل .. وانت اللى قتيلته اننا  
جاين هنا .

جحظت عيناها فى ذهول .. ولم تنطق بحرف . أحست  
ببقية حماسها للأشياء تنهار وتتداعى .. ونظرت اليه طويلاً  
وعلى وجهها الشاحب الصغير تموجت كل المعانى وتعاقبت :  
الاحترار .. الاحساس بالعثيان .. ثم التعاسة والياس اللدان  
لا حد لهما !

أحقا هذا الذى يحدث ؟ !

ربما .. ربما جاء صلاح فعلاً .. احضرته الصدفة  
نساخرة الى رأس البر !

وكما تصل المهزلة أحياناً بالانسان الى قمته فيندفع ضاحكاً  
بتعاسة على الموقف ، ارتعشت شفتاها بابتسامة مسكينة وشبه  
غشاوة تغطي عينيها !

وصرخ .. « قولى انك طلبت الطلاق علشانه .. انا  
ما عندبش مانع .. بس تقولى الحقيقة » .. وهدأ صوته  
قليلاً فبدأ رغم ما فيه من رنة رجاء ، أشبه بالفحيح .. « ليه  
مش عايزة تقولى الحقيقة وتريحينى .. ليه » ؟ !

وبيرقت عيناه بابتسامة وحشية ، واقترب منها خطوة ،  
فارتدت مغزوعة الى الوراء خطوات .. لو تقدم منها خطوة  
واحدة ، فسوف تصرخ ، وعبر بها خاطر مخيف ، أنه قد جاء  
بها الى هنا لينفرد بها ويقتلها ، ويتخلص منها .. وبدأ او نزلت  
معه البحر لاغرقها دون أن يشعر أحد . وخيل لها أن صوت

الموج يعلو ويعنو من ورائها ، وتمثل لها البحر أشبه بغم وحش  
مفتوح . وأمواجه أنياب في انتظار أن يلتهمها .

وتملكها قشعريرة خوف .. وثقلت عينيها ، بين البحر  
وبينه ، كان البريق الوحشي لا يزال يطل من عينيها .. وعبر  
بها خاطر مروع .. انها لم تر وجه قاتل أبدا .. وها هي تراه !  
ودق قلبها بسرعة .. كانت أمواج البحر تلطم في بعضها  
وتزجر من ورائها ! .. وهو .. واقف أمامها ، برقبته  
ورأسه ممدودة نحوها .

— قوليلي الحقيقة باقول لك !

وخطا نحوها خطوة .. قفزت من الرعب واستدارت تجرى  
في اتجاه البحر .. كان عاليا يزمجر .

شهقت وأغمضت عينيها لبرهة ..

ارتدت مدعورة تجرى في اتجاه آخر .. أحست بوقع  
قدميه على الرمل يلاحقها ..

صرخت الصغيرة الجميلة من الرعب في وجه الفضاء  
« .. ماما .. ماما .. يا ماما » ..

وكان صوت البحر يطفئ على صرخاتها ، وضجة المصيفين  
وصياح الأطفال تشيع في فضاء المصيف !

« ١٩٦٥ »



## العاصفة

ضائفه وهو يمشى .. هدوء العاصفة .  
غير انه منى النفس ان تكون مجرد لحظات ، تتجمع فيها  
السحب والرياح لتعود بعدها العاصفة وتزار من جديد .  
وليت الأمطار أيضا تسقط .

كان يريد العالم في ذلك اليوم بلا نظام ، على الأقل بغير  
نظامه المؤلف . لكن العاصفة كانت قد سكنت . والغريب  
بمجرد أن نزل من القطار الى أرض الضاحية . عاد الهدوء  
فجأة ، عاد بشكل تسترخى معه الأعصاب والأنفاس .. وبدأت  
أمامه « الضاحية » بيوتها المنخفضة وكأنها في عراء ..

الهمسة تكاد تسمع ، أى سر لابد أن يكشف .. وتأرجحت  
مقلته في عينيه .. أيمن أن يكشف سره أحد ؟ !

وللحظة أحس بالخطر ، غير أن الرغبة الجارفة أقوى ..  
تدفعه .. كالجلدوب كان يندفع ، بخطواته الكبيرة ، ورأسه  
الضخم ، يمتد منه الى الأمام ، كأنما يمشى إليها في سرداب ،

لا يرى سواها .. جسدها .. لعة عينيها .. صفى أسنانها  
وهي تضحك .. ضغطة يدها على يده في آخر كل زيارة وتقول  
« وماتبقاش تغيب علينا كثير » .. وشكرى زوجها وصديقه  
واقف معهما يودعه هو الآخر .

اليوم يذهب الى البيت وشكرى ليس فيه .

شكرى الزوج والصديق .. مسافر .

منذ ساعتين فقط ، عرف عفوا بالخبر . كان في مكتبه ،  
وحانت ساعة الخروج - وسمع العاصفة تعوى خارج المبنى ،  
من الصباح وهى تعوى . وفكر فى سهرة الليلة .. تذكر  
شكرى .. جلستهما فى المشرب التقليدى .. أو سهرة فى بيت  
الضاحية لو فضل شكرى . ومن زمن لم ير « نحوى » . هى  
الآن عاتبة عليه فى نفسها .

ورفع الساعاة .. طلب شكرى فى عمله .. رد زميل  
« شكرى مسافر .. وحيرج بعد يومين أو تلاته » .

لحظتها قفزت أمامه صورة نجوى . رآها بكل اشتهاه  
المكنون .. وحدها فى الضاحية .. ماذا لو ذهب .. والمفروض  
انه لا يعرف أن شكرى مسافر ؟ !

وخرج من مكتبه ، لاغيا فكرة القيلولة فى بيته .. وترك  
نفسه للعاصفة فى الشوارع .

هى الآن وحيدة . وهو وحيد . والرجل الذى ربط بينهما  
مسافر ! أحقا لا لقاء لهما ولا كلام الا بحضوره ؟ ! لقد تعودها  
وتعودته ! أصبح هناك خيط خفى يربط بينهما ومع الأيام كان  
يقوى : حتى أنه أحس فجأة وبالذات فى آخر مرة بالكراهية  
نحوها ، وأنه لابد من الهروب .. لقد أصبح احساسه بها مقرونا  
بالحزن وبالتعاسة !

بعد آخر سورة لهم - الثلاثة - في بيت الضاحية . إلقى بنفسه وحيدا في الشوارع ، متجها الى المحطة ليركب قطار الليل ويعود الى بيته في المدينة . اكسحه فجأة شعور بالضياع وبالوحدة . رأى قطعة من تغط الليل فآخذها معه . وحين أضاء النور رأى على وجهها بعض البثور . ومع البثور تعاسة ، ومن فمها رائحة خمر تفوح ..

وقارن بينه وبين شكرى ، تمة فقد هائل انفجر في نفسه : اية ميزة يستمتع بها هذا ال شكرى . ليمتلك الجسد الضاحك البض بين ذراعيه كل ليلة بل وكل ساعة لو أراد ؟ ! بل هو الآن قطعاً محتويها . وهى بكل ذراتها مستسلمة له بعدوبة .. وباغراء !!

وتحول الحقد من شكرى اليها .. كم هى فى صميمها انشى بارعة : وبالسليقة مدربة . لست بالنسبة لها سوى معجب عظيم تتغذى باعجابه ! .. ان أقصى ما تعطيه لى نظرة أو ضغطة من كفها .. وهى الآن بكل جسدها الوردى العارى تتأوه بين ذراعيه .. وأنا ؟ ! مع قطعة على وجهها البثور ، ومن فمها تفوح رائحة خمر رخيصة !

ليلتها أحس بالقرف منها ومنه ومن نفسه .. وصمم الا تطفأ قدماء أرض الضاحية ! انها - يوما بعد يوم - تستعبده ، رؤيتها أصبحت جزءاً من برنامج حياته ..

والنتيجة ، ان علاقته بشكرى بدأت تتعقد وتدخل فى منطقة مخيفة وغريبة .. بل ومحزنة للغاية !

لا .. لا بد ان يكرهها .. لثموت بذرة الحقد التى بدأت تنمو فى صدره نحو صديقه .. أى مرارة أن تتحول الصداقة الى حقد ؟ ! فلتخرج المرأة من بينهما ، ولتعد أيامهما الجميلة كما كانت .. أيام الصداقة المصفاة . أيام ما قبل زواج شكرى .

يتواعدان على الالتقاء في مشربهما التقليدى . عالمهما الشوارع والمحلات العامة ، ويتحدثان عن عصر القلق .. هو يتساءل عن جدوى وجود الانسان فى هذا الوجود .. أما شكرى فيتكلم عن ضرورة أن يكون للانسان دور فى تحديد المصير ! ثم تزوج شكرى . ودخلت بينهما نجوى على هذا النحو الغريب .. كأنما كانت الضربة الحاسمة فى تحديد مصير صداقتهما !

ها هى العاصفة تجرفه الى المشرب التقليدى ، لكنه وحيد ، بدون صديقه ، وعواء العاصفة يتردد فى أذنيه « شكرى مسافر .. شكرى مسافر » .

بوضوح ، كان يحس بقبضة الشهوة تضغط على الجزء الأسفل من بطنه ، وشيئا فشيئا ، كانت النوبة تشتعل ، نوبة الدوار الغريبة التى تملكه حين تغزوه الرغبة فى الخلاص بالانتحار أو فقدان الذات فيصبح الجنس هو الاعلان أو الضمان الوحيد للبقاء والاستمرار .. أن يفرق فى صوتها .. وفى جسدها ..

« وما تبقاش تغيب علينا كثير » . لابد انها تساءلت فى نفسها .. فترة القطيعة ، لم غاب كل هذه المدة ؟ ! لو ذهب اليوم ، ستفرح بالتأكيد لرؤيته ، وستسأله على الفور ، لم كانت كل هذه الفيبة . وربما سترتبك قليلا لأن شكرى غير موجود .. ولكن .. الى متى لابد من شكرى ؟ !

مرة واحدة بلا شكرى .. ونصف ساعة بالقطار ويكون هناك .. والناس لاهون بالعاصفة ، والمكنون ينفجر .. مرة فى العمر ينفجر !! وشرب كأسا ، وطلب ثان ليؤكد فى نفسه القرار !!

كان قد اتخذ جلسته خلف النافذة ، وراح ينظر الى

الشوارع من خلال الزجاج .. « شكرى مسافر .. شكرى مسافر »  
والرياح تعوى ونجرف امامها كل ما فى الشوارع ..  
والناس يجرون مهرولين كأنما تطاردهم سياط ، مغلقين عيونهم  
كيلا يدخلها التراب !

كل العيون اليوم مغلقة ، ومنطق الحياة العادى لا وجود  
له .. صرخة فى أعماقه .. قم واذهب .. ومن يدريك أنها  
الآن لا تفكر فيك .. الجميلة النابضة .. وحدها فى الضاحية  
وحولها العاصفة .. وانتما وحدكما .. واى اصوات ! ولهاث  
أو حتى صرخات مقاومة فى البداية سيصرخ فيها : أريدك ..  
ادغدغ ذراتك .. أغرق فيك . أغرق واغرق . وكل الأصوات  
.. كل الحشرات . حشرات الاستسلام .. ما قبل الفرق  
الجميل .. العاصفة فى الخارج وفى الداخل عاصفة .. وهم  
بالتهوض .. ولكن .. هل حقاً شكرى مسافر ؟ ! اليس من  
الجائز أن يكون فى البيت ؟ ! كيف يعرف ؟ ! ومضى فى رأسه  
الخطر .. فليأكد .. سيطلبه فى التليفون وسيغير من صوته ..  
وأدار الرقم ، أنها هى التى ترد .. وحين سألت من الذى يتكلم :  
قال بصوته الغريب الأجش : صديق لشكرى جاء من  
الاسكندرية ، ويريد أن يراه ! قالت بصوت رقيق آسف : آه  
شكرى مسافر .. من يومين فى الاسكندرية ! وضع السماعة .  
كانت أنفاسه تتهدج . واشتدت القبضة على الجزء الأسفل  
من بطنه . استعرت النوبة فى أعماقه . هى الآن وحدها .  
هناك .. فى البيت الواسع .. يكاد يكون مخبوءاً وسط أشجار  
الحديقة الصغيرة .. والعاصفة تتلوى .. ربما هى الآن خائفة ..  
فيحتويها .. وكل ما يصدر من أصوات .. حتى ولو كانت  
أصوات المقاومة منها .. ستأكله العاصفة .. وأخيراً  
ستستسلم .. تتذكر رغبتها القديمة فيه ! .. نعم .. ياما التقت

عيونهما في نظرة اهتز لها كل كيانه .. ولوجود الزوج كان يرتبك ويخفض بسرعة عينيه ؟ فلينفجر اليوم كل المكنون . ذات زيارة لهم رآها خارجة من الحمام .. كاد يصطدم بها . كانت تلف رأسها بالفوطة ، وبعض خصلات شعرها مبلولة ومدلاة على وجهها .. والثوب الرقيق على جسدها : يفسر كل الخطوط والأجزاء .. شهقت في خجل ، وجرت الى حجرتها .. حافية .

يوم واحد في حجرتها ويموت . والعاصفة تعوى .. في الداخل والخارج تعوى .. محال هذا الجسد أن يكون لرجل واحد .. واى رجل .. هذا المصفوط ، بساقيه النحيلتين كعودى البوص ، وأنفه المكور ، ونظارته الطبية البيضاء .. وأنا .. الرجل الجميل القوى .

وطلب كأسا نالثة .. جرعا مرة واحدة ، ثم خرج الى العاصفة .. وركب القطار : يتحكم في أنفاسه وعيناه نلمعان !!

حين هبط من القطار ، فوجيء بانتهاء العاصفة : تسمر لحظة . أحيانا يكون الصمت انذارا من الطبيعة لكى تراجع خطتك ! .. ولكن لا .. ها هى الشوارع لاتزال خالية ، وكأنما الناس يخشون الخروج حتى يستوثقوا من أن العاصفة لن تعود !

فجأة أحس برذاذ يسقط .. نظر الى السماء الغائمة .. انها ستمطر .. وتتابع الرذاذ .. ولم يلبث أن انهزم .. ارتبك . وأسرع من خطواته .. وبحث بعينه عن تاكسى .. قليل هو التاكسى فى مثل هذه الضواحي .. لابد أن يجرى رافعا كفيه كمظلة فوق رأسه .. كان المطر غزيرا . لابد أن يجرى بأسرع ما فى طاقته .. انه يفرق فى المطر .. يفرق ويفرق .. ويلهث ويلهث .. تعبت يدها فوق رأسه .. هبطتا .. انهزم المطر فوق

رأسه .. نزلت السيول من شعره على وجهه .. على عينيه ..  
محال أن يستمر هكذا يجرى وسط المطر .. بعض الناس الذين  
دهمهم المطر استظلوا بشرفات البيوت .. وهو يجرى .. إحس  
بالماء البارد ينفذ من ثيابه الى جسده . اصابتة رجفة . ووجد  
كتفيه تنتفضان .. لم يعد الجرى شيئاً باختياره .. لابد أن  
يجرى ليتردد هذه الرعدة من جسده .. البيت هناك ..  
في آخر الضاحية .. والشوارع . في اطراف الضاحية لم ترصف  
بعد .. لاتزال رملية .. أجمل ما كان يعجبه في البيت أن الطريق  
اليه مفروش بالرمال ! ما حال الرمال في المطر ؟ !

واستمر يجرى .. بلهث ! ..

على نحو غريب كانت الرؤية تهتز في عينيه .. خيوط المطر  
أستار بعد أستار .. كالسهام تصفعه .. الشارع الرئيسي  
الطويل ينتهي .. آن له أن ينحرف في الشوارع الرملية ..  
اندفع حتى كاد ينكفيء .

انقرست قدماه في الرمال المبلولة .. لابد أن ينزع قدميه  
بسرعة وقوة .. المطر يشتد .. المياه تدخل جسده ..  
ازدادت الرجفة . يود لو يجرى ليقاوم .. انه ينزع قدميه  
بصعوبة من الرمل .. تعب في ساقيه .. وأنفاسه تتتابع ..  
وقطى عينيه بيدد ونظر الى السماء .. معبأة لاتزال .. برق  
وشرر .. السحب تنطح بعضها وترعد . صوت الرعد في  
الضواحي رهيب مدوى . الى أين أنت ذاهب .. لماذا أنت  
ذهاب . تعبت أنفاسك يا مسكين . وراى طفلين يلعبان تحت  
الماء ، ويتلقيان المطر في سعادة .. هو يذكر لعبته هذه تحت  
المطر . يجرى ويضحك ويعطى قمه للسماء ويشرب !!

وهنت أنفاسه .. تباطأت خطواته .. تصلبت في الرمال

وقف تحت المطر يجيل بصره .. فى آخر الشارع كان البيت .  
أشجار الحديقة تفرق فى المطر . دقائق ويصل ، لكنه لم يعد  
قادرا ، سيظل هكذا واقفا .. يفرق .. نظر اليه الطفلان فى  
عجب .. رجل يقف فى الرمل تحت المطر ولا يتحرك .. وهمسا  
لبعضهما .

لابد انهما يقولان « المجنون أهه » .

ليكن .. مجنون مجنون .

واندفع على الباب .. وراح يدق ويدق .. ولكن لا مجيب .

— افتح يا شكرى .. افتحى يا نجوى ..

ولا جواب غير أصوات الرعد والمطر !!

سقط رأسه على صدره للحظات .. ثم استدار عن الباب ..  
ينزع خطواته من الرمل ، والمطر لا يزال ، ليركب القطار ..  
ويختبئ . يختبئ من نفسه !

« ١٩٦٨ »



## التفاحة

هو : أجمل يوم رايتك فيه . طوال السبع سنوات التي  
عرفتك فيها .. لم أرك جميلة مثل اليوم .

هى : ( فرحة ومندھشة ) غريبة . مع انى كنت خجلانة من  
منظرى ، وأنا آتية اليك هكذا ..

هو : بالعكس .. هذا هو بالتحديد سر جمالك .. انك لم تعرى  
على « الكوافير » قبل مجيئك .. ليس فيك شيء واحد  
مرسوم ، أو محفف .. حتى الحذاء الخفيف البسيط  
فى قدميك ، وبلا جورب .. لو كنت رايتك بهذا الشكل  
مرة ، لطلبت منك تثبيت هذه الصورة .. الا تغيرها  
أبدا .. على الأقل بالنسبة لى ..

هى : ( بنشوة وسعادة ) ليس الى هذه الدرجة .

هو : وأكثر .. صدقيني .. ( ينظر فى عينيها بابتسامة ، متأملا  
ملاحها بشقاوة ) الآن ، أفكر أن أصف لك جمالك ..  
ولكن ( يرفع كفه كراية استسلام ) للأسف . انتهت  
اللعبة .. لم يعد من حقى .

- هى : ( بعتاب ) تعتبرها لعبة ؟ .. ما بيننا .. كان لعبة ؟ !
- هو : ( مستدركا بسرعة ) من باب المداعبة .. ليس أكثر ( يتنهد ) بالعكس .. أنا معتز جدا بالأيام التى كانت بيننا . انها بمثابة الرصيد .. رصيد الماضى .. رصيد طيب .. لا يصح أن ينفد بسرعة .
- هى : الماضى ؟ ! لماذا تدخل علاقتنا فى حكم الماضى ؟ ! هل لأننى سأتزوج ، تنتهى علاقتنا .. صداقتنا ؟ ! .. نحن تحدثنا كثيرا فى هذا الموضوع .
- هو : ( مؤكدا بحركة من رأسه ) لم أقل : انها ستنتهى . انما بالتاكيد ستحدد أكثر .. ولنتكلم بواقعية أكثر .. كنا نعرف أن هذا اليوم قادم . وأنا فرحان جدا من أجلك . أنك ستتزوجين انسانا تحبينه . غير أن هذا لا يمنع مما أقوله .
- هى : ما هو ؟
- هو : مهما كان حبيبك . فهو قبل كل شيء رجل . رجل مصرى وفى الغالب حمش ودماؤه شرقية حارة . من النوع الذى يفلئ بسرعة ( يتصنع الخوف ) أحسن لى أن ألزم حدودى ( يضحكان ) .. والا ..
- هى : ( نافية بثقة ) أبدا .. حازم ليس من هذا النوع . متحرر جدا فى أفكاره .. من أول يوم ، وهو محترم لصداقاتى وارتباطاتى .
- هو : ( يضحك فجأة كأنما حبكتة النكتة ) من أول يوم فى الحب . خللى بالك . وليس من أول يوم فى الزواج ..
- هى : لست أفهم ..

**هو :** فرق كبير بين اليومين . ا يضحك مرة أخرى ، اسمعى .  
 سأعطيك بعض أسرارى . من أول يوم فى الحب نبدؤ  
 نحن الرجال متحررين جداً ، متفتحين جداً . واسمعى  
 الصدور جداً .. فى شكل فرسان الحرية . الداعين  
 لانطلاق المرأة . اما من أول يوم تدخل فيه بيتى . فقد  
 أصبحت فى حيازتى بوضع اليد . أصبحت زوجتى ..  
 ( تى ) .. تعرفين معنى ( تى ) هذه .. فيها ضمير الملكية ،  
 إنها تصبح ملكى أنا وحدى . لا شريك لى فيها . ( يسطد  
 كفيه بحركة تراجيدية ساخرة ) وهكذا ينتهى عهد التحرر  
 الفكرى بالنسبة للمرأة مع أول يوم فى الزواج .

**هى :** ( معترضة بشدة ) لا .. ليس هكذا بشكل مطلق .  
 ما معنى ( لا شريك للرجل فى المرأة ) ؟ من أى ناحية ؟ هى  
 ناحية واحدة فقط . أصبح ملك زوجى . انا كائن لى له  
 وحده . أما بقية ما امتلك ، فهو ملكى انا . لا شريك  
 لأحد لى فيه .. اتصرف فيه باختيارى ، بأحاسيسى  
 ومشاعرى .

**هو :** لم يدخل الرجل عندنا بعد ، هذا العصر الذهبى ..  
 مازال الرجل منا يحاول أن يوسع من رقعة ملكيته ..  
 ويزيد من عدد أتباعه :

بقايا العصر العبودى ، والاقطاعى والراسمالى .. الذى  
 ساد العالم كله .

**هى :** ( تهز كفيها بثقة ) من يخضع : يستحق العبودية .

**هو :** موافق بشدة . هذا هو البدأ ( يضحك ) معركة . الحياة  
 كلها معركة . حتى الزواج . لكنه معركة ممتعة  
 ومثيرة : الى أى حد يستطيع الواحد منهما أن يوقف

الآخر عند حده .. أو .. الى اى مدى يجب أن يتحررا من بعضهما .. رغم الارتباط الأبدى . هذا هو امتحان الحب الحقيقى .

هى : ( ضاحكة ) انت هكذا تخيفنى من الزواج . كنت فى أول الأمر تشجعنى .

هو : ( مسارعا مثبتا عينيه فى عينيه بود ) اسمعى . لو أن لى كلمة واحدة أقولها لك ، بمناسبة زواجك . فهى : « العطاء » .. رغم كل شىء أعط . اعطه بكل ما تملكين من قوة .. وصدق .. وشباب . ودماء . لا تبخلى عليه بلحظة صدق فى مشاعرك . لا تقتصدى فى اعطائه كل ما يمكن أن يسعده .. ما دمت قد اخترته من بين كل الملايين من البشر ، هبىه كل ما تقدرين عليه ، بالحب الصافى يزدهر الانسان ويزهر ويتزعرع . بالحب يخضر عوده .. لا تخافى أبدا من العطاء .. الكرم فى الحب ليس مهانة ، أنا واثق انه سيبادلك العطاء . سيحس من خلاك بجمال العطاء . وسيعطيك لكى يضمن استمرار الأخذ منك . العطاء هو أول درس فى مدرسة الحب وأصعب درس فى نفس الوقت .

هى : ( تنهد وتسرح ) ربنا يوفقنا .

هو : لابد سيوفقك . أنا واثق منك . وستنجحين بإرادتك . على فكرة . أنا سعيد بك . وفخور أيضا .

هى : اخجلتم توأضعنا .

هو : ( بجدية ) أنا أقول الحقيقة . لو كل بنات جيلك هكذا مثلك . بفتحتك . وصفائك ووعيك . تصبح الحياة فى بلادنا أكثر اشراقا .. وبهجة ، و ..

هى : وانت . لو ان كل الرجال . كل الشباب مثلك . فى نبلك  
ونظافة مشاعرك . انا ايضا فخورة بك ..

هو : ليس الى حد الفخر .

هى : واكثر .. سبع سنوات . سنة بعد سنة . يوما بعد  
يوم . كانت ثقتى بالرجال من خلالك تزداد ، وايمانى  
بالحب يتعمق . ليس بالرجال وبالحب فقط . بالحياة  
كلها .

هو : ( مغمغما مع نفسه ) الحمد لله .

هى : انا ما بدأت اتصالح مع الحياة الا من يوم أن عرفتك ..  
من يوم أن رددت على أول رسالة بعثت اليك بها . انا  
فخورة بك فعلا .. وبصداقتنا .

هو : آه . ربما لا تعرفين كم كلفنى هذا . انى ابقىت على  
التفاحة نصارتها وبكارتها من أجل أول أكل شرعى لها .  
لزوجك . كثيرا ما كانت الأصابع تتحرك منى لتمسك  
بالتفاحة وأقضم فيها .. أكلها . أقرقشها .. واستمتع  
بها . لكنى كنت أجمد الحركة فى عروقى . لا بد أن ننجح  
فى التحدى وتستمر الصداقة . المثل العظيم . انا سعيد  
لانى انتصرت على نفسى . سعيد لانى أقدمك هدية مصنونة  
لزوجك المحترم ( يضحك ) يجب أن يدرك ويؤمن انه حقا  
محترم . بشهادتى . ( ينهض من جلسته ليصلب عوده ،  
ويواصل لهجته الضاحكة ) ممتع جدا بالنسبة للرجل  
المصرى ، بل ولكل رجل فى العالم أن يكون واثقا انه الرجل  
الأول . أنت مريم العذراء قبل أن يحصل الحمل الالهى .  
( يضحكان )

( يدخل أحد زملائه .. يلحظ جو الانسجام . يخرج فى

الحال تاركا له الجو ، يخرج بشكل كاريكاتيرى ضاحك ،  
ويغمز له بعينه ) .

هو : ( يعاود الجلوس ) مبروك . عليك وعليه .

هى : الله يبارك فيك . ومبروك عليك أنت أيضا .

هو : ( مؤمنا برأسه بحماس ) ومبروك على أيضا . ( تتسع  
ابتسامته ) اننى اضحك مع نفسى كلما تصورتك جالسة  
فى الكوشة ، بطرحة العروسة التل البيضاء الهفافة ،  
والتاج على جبينك ، والزغاريد من حولك ..

هى : وتضحك لماذا ؟ !

هو : اضحك بسعادة . وانا أقارن منظرك هذا ، بمنظر اول  
يوم رأيتك فيه . من سنوات . كتكوتة . الآن . أصبحت  
عروسة ، ناضجة . وسأحضر عرسك . سأمتلىء فى هذه  
الليلة بالفرح ، وسأنسى نفسى وسأندفع ، وأقبلك من  
جبينك فوق التاج . هكذا أمام الجميع .. بحماقة .  
وأمام زوجك .

هى : وماذا فى هذا . لن يحدث أى شىء . قبله بريئة .

هو : رائع . دفاع عظيم . براءة . هذا هو حكمى أيضا على  
حماقتى . أما « هو » فلا أعرف ماذا سيكون حكمه .

هى : ( مؤكدة ) براءة أيضا . انا واثقة . انه سيعجبك . لابد  
ستعارفان يوما .. « حازم » انسان معقول جدا . وثابت  
وجاد . نحن اتفقنا معا على شىء أساسى . أن يكون كل  
منا واضحا للآخر . الى أقصى حدود الوضوح . الا يوجد  
موضوع فى الدنيا نخاف أو نتردد فى أن نتفاهم حوله .  
ونتكاشف فيه .

هو : ( يزفر بابتسامة ) جيل عظيم . انبتت الشجرة . وهذا هو ما يجدد في نفسى الأمل . كرجل سياسى قديم . لم يعد له دور . غفى عليه الزمن ( يهز رأسه بشروء ) فيكم العزاء . الدور أصبح لكم . اياك ان تتركى السياسة .

هى : تتكلم كرجل عجوز ..

هو : انا عجوز بالفعل . وهذا هو الدليل ا يشير على الشعر الأبيض فى رأسه ) .

هى : ( مسرعة ) لا . لا . الشيب ليس هنا . الشيب هنا .. ( تشير على قلبها ) واذن فانت شاب ( وضاحكة ) انت الشباب ذاته .

هو : ( متجاوبا ) الله الله مدهش . مزيد من التشجيع ارجوك .

هى : أبدا . انا أقول الحقيقة . انا ادركت من اين ينبع شباب الانسان الحقيقى ، قوته الحقيقية ، من عينيه ( تنظر فى عينيه ) وانت قوتك .. وشبابك .. فى عينيك ..

هو : ( بابتسامة ساخرة ) اذن فهو شباب متعب . هاتان العينان المرهقتان . أحيانا تتعبان الى حد ان تغيم أمامهما الرؤى .

هى : وأحيانا يطل منهما البريق ( تضحك ) وعلى كل حال فهذه رحمة بنا . البريق المستمر سيكون له ضحايا كثيرة .. حاسب من فضلك .

( يضحكان . فترة صمت . تلتقى عيناهما ، تبتسم وتخفض عينها فى حياء ) .

هو : ( باسطة ذراعه بشكل تمثيلى مرح ) اذهبى . فانت مباركة .

هى : ( بنفس الشكل التمثيلى ) لا تذهب ، فانت صديقى  
العزیز الأبدى .

هو : أشكرك ..

( ضحكة خفيفة . ثم صمت مفاجيء . يسرح هو . تتململ .  
تنظر فى ساعة يدها . تضع يدها على حقيبتها ) .

هى : لا أريد أن أعطلك أكثر من هذا ..

هو : لم تعطيلنى عن أى شىء .. الا اذا كنت أنت ..

هى : أبدا . قلت لهم فى البيت انى سأكون هنا .. وسأعود لهم  
على الغداء .

هو : عظيم . عظيم . ( يعاوده الشرود . شىء ما يشغل باله .  
ينهض واقفا مرة أخرى ) هناك موضوع أريد أن أتحدث  
فيه معك .. لأبد هذه المرة .. ( تنظر اليه بانتباه  
وفضول ) لا أظن انى سأراك بعد هذه المرة ، قبل الزواج .

هى : نتركها للظروف . وبيننا التليفون .

هو : اذن أن الأوان . لم يعد من الممكن تأجيل الكلام فيه .

هى : ( وقد اشتد فضولها ) أى موضوع ؟

( يفتح درج مكتبه ويخرج مجموعة خطابات داخل مظروف  
كبير منتفخ ويضعه أمامها على المكتب ) .

هو : رسائلك لى .. !

هى : ( بدهشة ) مالها .

هو : ألم تفكرى فيها ؟ !

هى : فكرت طبعاً .



هو : وانت هيت الى ؟ !

هى : الى لا شىء .. كل شىء سيظل فى مكانه ( بجدية ) تريد انت  
أن تسترد رسائلك ؟

هو : ( مرتبكا ) أنا .. اطلاقا .. انما افكر .. من إهلك انت  
.. بالنسبة لرسائلى التى عندك . اخاف عليك منها .

هى : تخاف على من ماذا ؟ !

هو : هل ستعرضينها عليه ؟

هى : وماذا لو قراها . ليس فيها ما يشين أو يسيىء . ومع  
هذا ، لا أريد أن أفتح معه موضوعا كهذا .. فى هذه  
الأيام بالذات .. لا أريد ومضة شعاع تحجب بينى  
وبينه .. لا دامى على الإطلاق الآن هذه الأيام .. ولكن ،  
مع الأيام ، قد تأتى اللحظة التى أجعله يقرأها فى هدوء ..  
وبلا انفعال .

هو : ( ضاحكا ) حين يكون الحب قد برد .. أقصد هذا ؟ !

هى : بالعكس .. حين يكون الحب قد تدمم .

هو : رائعة .. إنا واثق فى قدرتك على وزن الأمور .

هى : هى أوراق وسط أوراق .. أوراقى كلها سأخذها معى فى  
بيتى الجديد .. انما لن أخفيها ولكنى أيضا لن أظهرها ..  
سأترك كل شىء يمضى طبيعيا .. ثم .. مما أنا خائفة ؟  
رسائلك مشرفة !

هو : ( ضاحكا ) أخشى ألا تكون كلها . قد يكون فى بعضها  
حماقات ( يتحسس فجأة فى الكلام ) قبل أن تدخل بوقت  
بسيط ، كنت أقلب فى خطاباتك بشكل سريع .. قلت فى

نفسى ربما ( نسبة ١٪ ) تطلبها منك يا ولد بمناسبة زواجها فلتتذكر ماذا كانت تكتبه لك .

هى : ( بتشوق ولهفة ) ماذا كنت اكتب ؟

هو : أشياء كثيرة . وجميلة . آخر رسالة وقفت عندها ، كنت تكلمينى فيها عن حبك للمشى فى الشوارع بالليل .. وحيدة . قلت شجاعة . ورسالة أخرى تصفين لى فيها حياتك وسط منظمات الشباب . فى المعسكر الصيفى . وأخرى تقولين فيها رأيك فى مسرحية شاهدتها .. حلاق بغداد على ما اذكر .. كان من الممكن أن تصبحى ناقدة فنية خطيرة .

هى : ( شبه صائحة بفرح ) ياه .. تصور .. نسيت فيما كنت اكتب لك .. كنت اكتب فى كل شيء .. ثمة طاقة غريبة كانت تدفعنى .. ما أجمل أن نتذكر .

هو : هذه هى عظمة الكتابة .. تخليد اللحظة .. تثبيتها ضد الفناء والنسيان .. لو قرأت انت الآن بعض هذه الرسائل .. ستشعرين بلحظات ممتعة وفريدة ..

هى : بالتأكيد .. بالتأكيد ..

هو : الآن أحاول أن أتذكر .. ما الذى كنت أنا اكتبه لك .. ( وبلهجة من برق فى ذهنه خاطر جميل ) جاءتنى فكرة .. ما رايك لو تبادلنا هذه الرسائل .. مؤقنا .. تعطينى رسائللى لفترة محدودة .. اقرأها .. أعيشها .. كيف كنت أفكر منذ سبع سنوات .. وأنت أيضا تأخذين رسائلك هذه ، تقرأينها فى ليلة أو ليلتين ، قبل الزواج طبعاً ، ثم تردينها لى .. وكأن شيئاً لم يكن .

هى : موافقة ..

هو : وانا صاحب الاقتراح ( يقرب رسائلها منها ) تفضلى ..

هى : ( تهز رأسها بالنفى ) لا .. لن آخذها .. ان كنت انت تريد رسائلك لتقرأها فسأحضرها لك .. اما انا ، فلا .. انا يسعدنى ان يكون معك دائما شئ منى .. اعد رسائلى الى الدرج كما كانت : لو سمحت .

هو : ( يعيد الخطابات الى الدرج ) وانا ايضا لا اريد رسائلى . لا احب ان ندخل الآن منطقة ذكريات .. اجل .. ليس هذا وقت بعث الماضى . انت تبين حياة جديدة .. قفى بقدمين ثابتتين .. كونى .. انت وهو .. مثل عمودى الهيكل .. واحملا السقف معا .. ولكن لا تأكلا من رغيف واحد .. كل منكما له رغيفه الذى يأكل منه .. اتذكرن .. جبران العزیز !

هى : لا أنسى . أعيش به . سأخذه معى ضمن أوراقى الى البيت الجديد .

هو : اما انا .. ( يشرد بعينه وينظر فى السقف ) فمشروعى اليوم ركوب طائرة والتنفس من على متن الفضاء . ورؤية أمنا الأرض .. من فوق .. انا ذاهب هذا الشهر الى بغداد .. مدينة السندباد . سأبدأ من الآن فى رحلة حول العالم لو أمكن .

هى : مستقبل عظيم وأعمال أعظم وأعظم . ( تنهض واقفة وتمسك بحقيبتها ) .

هو : ( يتناول كفها ) شكرا .. كنت فتاة عظيمة .. وستكونين سيدة أعظم ..

هى : ( ضاحكة وسعيدة ) ياه .. هذه الثقة انا خائفة منها .

هو : لست خائفا عليك .. انا واثق منك .. ( يهز يدها )  
وحافظى على صحتك .

هى : ( تضحك ) الصحة خلاص .. عجزنا .. راحت علينا .

هو : لاتزال التفاحة ، التفاحة الالهية ، كما هى .. مبروك على  
حازم طعمها . ومبروك على انا منظرها ( يضحكان )  
( تنظر فى ساعة يدها ) .

هى : جاء موعد الغداء .. مع انى لست جائعة .. لكنهم فى  
انتظارى .

( بهز يدها مرة اخرى ) مع السلامة - يوصلها الى الباب .  
يرقبها وهى تمضى . يعود بوجه باسم ، وخطوات هادئة .  
يقف بجوار المكتب فى صمت وسكون . يخرج حزمة  
الرسائل من الدرج .. يضعها فى كفه .. يتأملها ..  
يبتسم ثم يعيدها الى الدرج . ويقفل عليها بالمفتاح .  
يخبط فجأة على المكتب ، وبصيح بمرح ممزوج بأسى ) .

هو : يا ارض السندباد . يا ارض السندباد .

( لحظة صمت ثقيلة ) .

ووداعا تفاحتى الالهية ..

وداعا .. تفاحتى الالهية ..

ا ويعاود الجلوس الى مكتبه صامتا ) .

« ١٩٦٥ »

## كوميديا في أوتوبيس

رغم ان حكايتنا هذه بدأت من اولها مليئة بالاثارة والمفاجآت  
الا ان احدا من الواقفين أو الجالسين بالأتوبيس ، لم يخطر بباله  
على الاطلاق ، ان الأمر سيتطور ويتصاعد الى هذا الحد  
الصارخ في الغرابة : حين فوجئوا بالرجل . رجل الفضيلة  
يخلع ملابسه قطعة بعد قطعة ، متحديا كل من في الأتوبيس ،  
ثم يصبح .. متحديا الجميع :

— أنا كمان حر ..

ويمضى في خلع ملابسه قطعة بعد قطعة ، عملية « سترتيز »  
مذهلة أمام خبطة هائلة من البشر المصريين ، وعلى الصباح وهم  
لايزالون بقولون : يا فتاح يا عليم ؟

والحكاية بدأت هكذا ببساطة .

في احدى المحطات الرئيسية .. كانت قد سعدت فتاة .  
كيف يمكن وصفها .. وبسرعة ؟

هل تعرفون شمس .. الباردى ؟ من منا لا يعرف أميرتنا

العربية السابقة ، ذات الشعر المنسدل على الجانبين ، والمفروق من الوسط ، والساقين الرائعتين ، وما فوق الساقين - وهذا هو بيت القصيد - أروع ، فالفستان ميكروجيب .. يكشف عن عظمة الصانع المبدع لحظة .. وعن همس الشيطان لحظة أخرى ..

الفارق بين فتاتنا والأميرة ان أميرتنا تخطر عادة في مربة صالون ، أما الفتاة فمن راكبات الأتوبيس ، وأميرتنا تحمل في يدها حقيبة رقيقة ودقيقة ومدندشة ، أما فتاة الأتوبيس فحقيبتها من ذلك النوع العملى الكبير الحجم ، والذي يعلق الى الكتف بما يوحي بأنها موظفة عصرية نشطة وغالبا في إحدى الهيئات او الشركات المفتوحة بحكم نوع عملها على بلاد العالم .

وجه الشبه الأكبر اذن هو في « الميكروجيب » .. انما من المحال ان يقال ان فتاة الأتوبيس فقيرة الى الحد الذى رات معه أن توفر لمن ربع متر من قماش الفستان ، لتشتري به ما هو أهم ، فلا أهم - في رأى رجل الفضيلة - من ستر تلك المنطقة التى تعودت حواء ، أو عودناها على سترها منذ آلاف السنين .

فكيف يحدث هذا .. وفي أتوبيس ؟ !

كان حظ الفتاة حسنا اذ وهى تشق طريقها وسط الزحام ، عثرت على مقعد يخلو ، فأسرعت بخفة اليه وجلست . جلست في سعادة ، انها انتصرت .. فلتت من جحيم الزحام . ستقطع الطريق الطويل جالسة مستريحة ، لا صلة لها بهذا العالم .. فلتسترخ أكثر ، ولتسترخ في جلستها ، وتسلمى برؤية الشارع ، والأفشيات ، والواجهات حتى تصل في هدوء ! وحين استرخت بالفعل ممددة ساقها بقدر ما تسمح به المسافة أمامها ، رأى الأفندى الواقف بجوارها حرف الفستان يتراجع

ويصعد أكثر مما هو صاعد - كاشفا عن مساحة أكبر ،  
 وأسرت رغما عنه ، أنفاسه : من فرط العرى : أم من فرط  
 الجمال ؟ ! .. من هول الحرام ، أم من عظمة وسحر الحلال ؟؟  
 واختلس نظرة من حوله ، فرأى العيون وأقربها عيون ذلك الشاب  
 النحيل الواقف بجواره تكاد تخرج من محاجرها لتنقض على  
 اللحم العارى المشرب بورد الشباب وعلى الصباح ، وكأنما هو  
 وجبة افطار شهية والفتاة غير شاعرة بأى شيء !

بشعور حار ، كأنما اللحم العارى هو لحمه ، ويجب أن  
 يستره فوراً ، أخرج مندبلاً من جيبه وفرده ثم بحركة سريعة  
 خفيفة انحنى وغطى به المساحة العارية ، ثم عاد الى وقفته في  
 هدوء ، كأنما لم يفعل شيئاً ، أو أنه فعل ما لابد أن يفعل !

غير ان الفتاة كانت قد انتبهت منتفضه على الحركة  
 وباحساس من أنها قد اهينت ، التفتت المندبل بأطراف أصابعها ،  
 وبفضب رهيب ألقت بالمندبل من النافذة الى الشارع ، ثم لم  
 تكلف نفسها حتى بالنظر لتعرف من يكون هذا الطفيلى السمج !

أحس الرجل وكأنما تلقى صفة هائلة وبطريقة غير  
 مباشرة ، تدفقت الدماء فى عروقه ، ورأى العيون التى رأت  
 الحادث تنظر اليه مشدوهة ، خاصة ذلك الشاب النحيل  
 ذو النظارة الطبية ، والذي راح يرمقه قائلاً بعينيه اللامعتين  
 الخبيثتين : هيه .. يا حامى حمى الحرمات ، ماذا أنت فاعل ،  
 بعد أن قدفت بمنديلك ألى الشارع ؟ ! الأفضل لك أن تبلىع  
 الإهانة وتحول نظرك عن المنظر المثير وتريح نفسك ، أو تنسحب  
 وتنزل فوراً من الأتوبيس ، وتدع الملك للمالك !!

غير ان المفاجأة الثانية كانت تحدث ، حين فوجئ الشاب  
 ومن حوله بالرجل يخلع جاكته ، ثم يفردها ، ثم - مرة

أخرى - ينحنى ويفطى بها المساحة العارية ، ويفطى الركبتين أيضا .

احمر وجه الفتاة . لكنها بجهد هائل أمسكت أعصابها ، قبضت على الجاكطة ، ثم - وبغضب بالغ ، ألقت بها على أرض الأتوبيس ، وواصلت النظر من النافذة ، كأنما لم يحدث شيء على الإطلاق .

ارتج كيان الرجل . انحنى بسرعة على جاكته ليلتقطها من على الأرض وينفض عنها التراب ، وفي نفس الوقت خرقت أذنه ضحكة مقهقهة ساخرة ، ضحكة خيل إليه ان صاحبها يكاد يسقط من طوله من فرط القهقهة .. هو جاره الشاب ذو النظارة الطبية والذي كان ينظر الى ما يحدث على انه أعظم نكتة ، وان شيئا كهذا لا يحدث الا في بلد مثل بلدنا ، بلد العجائب والمتناقضات .

صرح فيه الرجل وهو ينفض التراب عن جاكته :

- بتضحك على ايه .. ده بدل ما تقف معاى وتقول لها تستر نفسها .

انتقل الشاب فورا من الضحك الى الهجوم ، وقد بدا من عينيه انه سيتحول الى خصم خطير .

- وانا اقول لها ليه ؟ ! بصفى ايه اقول لها ؟ ! دى حرية شخصية .

- حرية شخصية ؟ !

- طبعا .. مزاجها يا أخى .. ثم اذا كان ده تاعبك ، بص الناحية الثانية !



- وحضرتك تاخذ حريتك في البص ؟ ! يا ناس حرام ..  
كده على جهنم .. جهنم الحمرا .

وجه الفتاة كان يرتعش ، لكنها كانت مصرة على تجاهل كل ما يحدث ناظرة عبر النافذة .. بترفع ، لكن اذنيها في الحقيقة كانت مع المناقشة التي انفجرت حول « الحرية الشخصية » وارتباطها بالمجتمع وبالدنيا وبالأخرة وشظية من هنا وشظية من هناك ، حتى قارب الانفجار ذروته ، واذا رأت الرأي القائل بوجوب احترام حرية الانسان الشخصية ينتصر ، بقيادة الشاب النحيل ذى النظارة الطبية ، ارتسم على وجهها نوع من الرضا ، غير أن انفجارا آخر لم يلبث ان حدث ، حين فوجئت ، وفوجيء الجميع بالرجل يصيح غاضبا :

- كده ! ؟ طيب .. وانا كمان حر .

وراح وسط ذهول الواقفين والجالسين ، يخلع بنطلونه ، وفي ثوان ، كان قد خلعه ، ووضعوه هو الآخر مع الجاكته على ذراعاه .

- مش حرية ؟ ! انا كمان حر .

وبدا كأنما يستعرض ساقيه العاريتين الضخمتين المشعرتين ولباسه الفضفاض المهرول والواصل قرب ركبتيه .

بين عالم الضحك وعالم الجنون شعرة ! ورأى الشاب ذو النظارة هذا الذى يحدث ، واذا بالدهوة التى ألجمته والجمت الجميع للحظة تتحول فجأة الى ضحكة ، ضحكة جماعية كبرى ، فالنكتة فى رأيه بلغت ذروتها .. وراح وهو يتأمل منظر الرجل يضحك ويضحك ، حتى كادت الدموع تطفرف من عينيه .. وحدث هرج ومرج فى الأتوبيس ، حتى أن السائق أوقف العربا وجاء هو الآخر يتفرج .. حتى الذين كانوا فى الدرجة الثانية

تركوا أماكنهم ، وهرعوا يزاحمون رجالا ونساء وشبابا وبناتا ..  
يتفرجون على المنظر العجيب .

اما الفتاة ، فقد أحست أنها دخلت مصيدة ، عالما من  
المجانين . وتولاها اذ لمحت ساقى الرجل المشعرتين ولباسه  
المهرول ، وكرشه الكبير ، خوف داهم ، فانتفضت واقفة وراحت  
تدفع كل من أمامها ، لتصل الى الباب ، وتغادر الأنوبيس ..

على غير العادة ، ولأول مرة ، لم يأبه أحد بالميكروجيب  
النسائي . تحولت الأنظار كلها الى الميكرو الرجالي ، حتى الذين  
كانوا جالسين فى الخلف تركوا مقاعدهم وهرعوا يزاحمون  
ليتفرجوا على المنظر المثير ، ورأى الشاب ذو النظارة الطبية  
ان الفاصل بين عالم الضحك وعالم الجنون مرهف ودقيق ، ومع  
ذلك ظل يضحك ويضحك مع الآخرين ، حتى اذا ما توقف  
الأنوبيس فى المحطة .. وتوقفت أيضا كل الضحكات وان  
استمرت التعليقات .. ورأى الرجل الفتاة تهبط ، ورأى فى  
نفس الوقت الشاب ذا النظارة الطبية يشق طريقه مسرعا الى  
الباب ، ليهبط هو الآخر .. خلفها !! هنا ، قفز الرجل عليه  
وأمسكه من جاكته .

— تعال هنا .. رايح فين !!

غلى الدم فى عروق الشاب .. ضرب الرجل على يده بقوة .

— أوع ايدك دى ( ثم للسائق بعصية ) ماتمشيش  
يا أوسطى من فضلك . دى محطتى .

صاح الرجل فى السائق .

— أوع تصدقه .. ده كذاب .. توكل على الله يا أوسطى  
( ثم للشاب وهو لايزال ممسكا بجاكته بقوة ) لا يمكن

حاسيك تنزل في المحطة دي . آه تقلعنى بنطلونى : وبعدين  
تنزل وراها . لا يمكن !

بين الكوميديا والمأساة خيط رفيع .. انفجر ذو النظارة  
رغما عنه ضاحكا مقهقها .

— انا اللى قلعتك بنطلونك ؟

— مش حضرتك بتاع الحرية الشخصية : قاعد تغنى على  
البنت من الصبح .. لكن ده بعدك .

واستمات على جاكته .. فجأة . انفجر غيظ الشاب .  
صوب لكمة الى فك الرجل ، فازداد هذا استماتة على الجاكته ،  
وهو يصرخ متوعدا . اندفع الركاب يحولون بينهما ، غير انهم  
فشلوا فى ان يجعلوا الرجل يتخلى عن جاكته الشاب خوفا  
عليها من ان تتمزق .

فجأة راوا الاتوبيس يتحرك ، وفجأة راوه أيضا ينحرف  
عن اتجاهه الطبيعى ، ويأخذ طريقا آخر .  
صاحوا جميعا عليه :

— رايح على فين يا اوسطى .. السكة كده غلط .

ولم يرد السائق . بل ظل منطلقا .

بعد دقائق قليلة وامام باب اقرب قسم للشرطة ، كان  
السائق والكمسارى وبعض الركاب يهبطون ، ومعهم أفندى  
ضخم وسمين ، بدون جاكته ولا بنطلون ، وفى وجهه كدمة  
زرقاء .. وشاب نحيل يرتدى نظارة طبية لكن زجاجها ملء  
بالشروخ .

وانجهوا جميعا ، الى ضابط القسم للتحقيق .  
وبدأت قمة جديدة في الكوميديا .  
أم انها تراجيديا من الأصل ، وأنا اغالط ، لأجذبكم ..  
واسليكم قليلا .. ثم بعد ذلك تفكرون على مهل ؟ !  
« ١٩٧٦ »

## على المقعد الرخامى

فى ليلة من ليالى الصيف . وكانت ليلة عيد ميلادى ،  
خرجت وحدى لأتمشى فى احدى الحدائق المنتشرة على كورنيش  
النيل . كان الهواء رطباً ومنعشاً ، والناس فى الشوارع كثيرون ،  
لكنى كنت احس وأنا أمشى بينهم انى وحيد ..

هبطت من الكورنيش الى ارض الحديقة . وعقدت ذراعى  
خلف ظهرى ورحت أتمشى فى ممراتها على مهل .. كانت الأنوار  
فيها متناثرة خافتة ، والعممة تسود الفضاء .. لم يكن هناك  
الا نفر قليل جداً ، اثنان او ثلاثة على الأكثر ، متناثرين متباعدين ،  
يبدون فى الضوء الخافت كالأشباح .. ساعة يظهرون وساعة  
يختفون ..

حتى الأشجار كانت صغيرة ونحيلة ، تتمايل فى العممة  
بهدهوء غامض مع نسيم الليل ..

كانت الدنيا من حولى ساكنة صامتة .. فقط أصوات  
كالهمهمات تأتى من بعيد .. وخيل لى أننى فى عالم ، والمدينة  
كلها فى عالم آخر ، كان الصمت يطن فى اذنى ، وأحسست أن

هناك في الدنيا كائنات حية كثيرة غيرى تعيش مستوحدة في هذا الليل ، لا يحس بها أحد ، لكنها تشترك في تلك الجوقة الضخمة التى تصنع هذا الصوت الغامض المرهوب .. صوت الليل !!

لا بأس أن أحتفل وحدى بعيد ميلادى ..

وقد ظللت طول النهار أدير أسماء أصدقائى وصديقاتى فى رأسى ، وأبحث فيهم عن واحد أحتفل معه بعيد ميلادى ، لكننى لم أجد اسما واحدا يثير فى نفسى أى حماس .. حتى اسم « نبيلة » وقعت عنده هو الآخر كثيرا .. وتخيلت وجهها اللطيف المستطيل ، وعينيها الحلوتين الباسمتين ، برموشهما الطويلة ، لكننى لم ألبث أن هزأت رأسى بأسى .. لقد راحت من حياتى .. لماذا .. ؟ .. لم أشأ أن أرهق نفسى للمرة العشرين أو الثلاثين ، بالبحث عن الجواب ..

وهبت من سطح النهر نسمة شديدة ، فمال شبح شجرة قريبة منى .. أحسست برهبة ، وظللت وحدى ماشيا فى العتمة ، مطرقا رأسى .. !

نقل على من جديد ، الاحساس بالوحدة .. لماذا أظل هكذا وحيدا .. وفى ليلة مثل هذه ، ليلة عيد ميلادى ؟ النهر نفسه ليس وحيدا .. البيوت تطل عليه من جانب ، والحدائق من جانب .. ومن بعيد .. بعيد جدا ، كوبرى تعبر من فوقه العربات ، ومن تحته تتدافع الأمواج .. ليس من موجة وحدها أبدا فى هذا النهر الكبير .. !

فجأة ، وجدتنى أتوقف ، وأحلق فى العتمة ..

لمحت جسما صفرا مكوما وراقدا أمامى فى الممر .. تجمدت فى مكانى ، ورحت أمعن النظر ..  
انه كلب ..

وجدته يضرب في الأرض بذيله ، ويمد رأسه برقبته  
نحوى ، وينظر لى . التقت عيناه بعينى . كانت عيناه تبرقان  
في الظلمة ..

.. خفت ..

في مرة من المرات ، سافرت الى قريتنا ، فوصلتها بالليل .  
وكان لابد لى أصل بيتى أن اقطع مسافة على الطريق الزراعى .  
وكنت أفرح بهذه المسافة القصيرة ، أحس فيها اننى انتقلت من  
المدينة الى الريف فأشم الهواء وأغسل به رئتى ونفسى أيضا .  
وأأمل الحقول والشجر ، وأشم رائحة الزرع واتسمع الصوت  
الذى يلف الكون .

غير انى فوجئت ليلتها بكلب يظهر فجأة امامى في الطريق ..  
لم أهتم .. ظلمت ماشيا .. لكنى وجدته يقف في عرض الطريق ،  
ويمنعنى من المرور . ولما حملقت فيه ، تبينت الشر في عينيه .

كان ذئبا ..

عدت بظهرى الى الوراء خطوة ، فتقدم نحوى خطوة ..  
خطوات نحوه خطوة ، فتراجع خطوة .. نفس الخطوة ..

لم ينقذنى منه ليلتها الا القدر . جاءت عربة لورى . كانت  
كشافات أنوارها قوية ، وما أن أحس الذئب بالنور ، حتى قفز  
كالسهم واختفى وسط الحقول ، ورحت أعدو أنا الآخر جريا ،  
حتى وصلت بيتى ..

تذكرت كل هذا في لحظة وأنا واقف في ممر الحديقة المظلم ،  
والكلب ينظر لى بعينه .. ويمد رأسه نحوى ، ويضرب في  
الأرض بذيله .

لبماذا لا يكون ذئبا ؟ ! أو على الأقل كلبا مسعورا وشرسا ؟

٣٣٧

{ ٢٢٠ - مؤلفات عيد الله الطوحي }

لكنى سرعان ما راجعت نفسى « لا توجد ذئاب هنا » وحاولت  
 ان اهدىء من روعى .. تابعت مسيرى فى اتجاه آخر .. !  
 كنت لا ازال خائفا من لمعة عينيه وهو ينظر لى فى العتمة ،  
 نظرت خلفى لأطمئن ، فوجدته يمشى خلفى .  
 أسرعت دقات قلبى .. ما الذى ينويه هذا الكلب ؟ لماذا  
 لا يتركنى وحدى ؟  
 توقفت من جديد .. فتوقف هو الآخر .. وراح ينظر لى ..  
 عاودتنى عيون الذئب .. تعالت دقات القلب .. لو تقدم  
 منى خطوة واحدة فأصوب الى فكه ضربة مجنونة بمقدمة  
 حدائى ..  
 استدرت .. وواصلت المسير ..  
 بعد خطوتين نظرت خلفى .. وجدته لا يزال يمشى ورائى ..  
 صرخت .. « امش »  
 ومشى ..  
 تنفست الصعداء . لم يكن لدى اى استعداد لأن أعانى اى  
 خوف من اى نوع فى مثل هذه الليلة .. مشيت .. وعلى مسافة  
 بعيدة جلست على أحد المقاعد الرخامية ..  
 رأيت الكلب فى العتمة يرقد .. ويمد رقبته على الأرض ..  
 « ما الذى كان يريد منى هذا الكلب » ؟  
 لم تمر دقيقة ، حتى لحيت من بعيد ، شابا يسير على نفس  
 الممر ، مقبلا فى اتجاه الكلب .. ولم يكد يقترب منه ، حتى  
 رأيت الكلب ينهض من رقدته ، ويقف له وسط الطريق ، ولحيت  
 ذيله يضرب فى الأرض ..



## توقف الشاب ..

ابتسمت .. سيحدث له بالضبط ما حدث لى .. لكنى  
فوجئت بالشاب يواصل سيره ؛ وحين اقترب من الكلب وجدته  
ينحنى عليه .

— هيه .. عايز ايه ..

وراح الكلب يهز له رأسه ويمسح ذيله فى الأرض ..  
جلس الشاب على حافة العشب ؛ وخرجت من فمه  
اصوات أشبه بالصغير .. رايت الكلب يدخل فى صدره ؛  
فراح يمسح على رأسه ويقول له بود ؛  
— لكن انت جاي منين ورايح على فين ؟ .. هه .. ؟ !  
قاعد لوحدهك ليه ؟

شب الكلب فجأة ؛ ووضع ساقيه الأماميتين على كتفيه .

— ها ها ها ...

ضحك الشاب ..

— انت باين عليك نبسه قوى .. طيب .. تعرف  
اللعبة دى ؟

ونفض واقفا ؛ فبدا طويلا نحىلا ، وخصلة من شعره  
ملقاة على جبهته ؛ ثم أخرج من جيبه منديلا وراح يدليه نحو  
الكلب . قفز الكلب نحو المنديل . أسرع الشاب فأبعده .. وبدأت  
بينهما لعبة لطيفة ..

— تبقى جدد لو حصلته .. هه .. خد .. !  
ومن جديد وثب الكلب نحو المنديل .. وانتابت الاثنين  
نوبة نشاط مرحة ، وراحا يلعبان معا ويجريان ..

أحسست بفرحة دافقة تسرى في عروقي .. ها أنذا أتفرج  
في ليلة عيد ميلادي على لعبة مسلية وجميلة ، وتمنيت لو قمت  
واشتركت معهما في اللعبة ، لكنني ظللت جالسا في مقعدي  
الرخامي . خيل لي أنني لو ذهبت ، فسيرانى الكلب وينظر لي  
نظرة عتاب .. وربما يتوقف عن اللعب أيضا ..

ظللت جالسا في مكاني على المقعد أتفرج .. تمنيت لو تظل  
اللعبة دائرة بين الكلب والشاب حتى الصباح ..

وسمعت دقات لنش بخاري في النهر يتجه الى بلاد مجهولة،  
التفت الى النهر . كان كل شيء فيه تلفه ظلمة الليل ..

نظرت من جديد ، فوجدت الشاب يمر بي بخطوات سريعة  
مرحة والكلب يشب خلفه ويتبعه .. ظللت أتبعهما بعيني ، الى  
أن غابا في العتمة ..

أما أنا فقد بقيت جالسا وحدي ..

على المقعد الرخامي ..

(( ١٩٦٦ ))

## جرح .. في وجه المدينة

للحظ الجميل - أو هكذا بدا أول الأمر - كان الجو دافئاً  
ومنعشاً وحبباً الى القلب .. أى قلب !

والسعادة بالطبع مسألة نسبية . غير أن موجة عاتية من  
البرد كانت قد اكتسحت المدينة بأكملها ، حتى لم يعد  
لأهلها - بما فيهم اللصوص والحراس - الا أن يلتمسوا الدفء  
في أى مكان له سقف وجدران !

وقد طالت هذه الموجة أياها وأياها ، حتى خيل للبعض  
من دارسى التاريخ أن عصر الجليد قد عاد ! .. لكن القرن  
العشرين سرعان ما قال كلمته .

انتهت الموجة العاتية فجأة ذات صباح ، وحل محلها  
هواء دافئ أزرق بكر ، وحينذاك حدث على الفور رد الفعل  
الطبيعى . غشى المدينة نوع من الحماس ، وأندفع الناس جميعاً  
في رغبة عارمة تصل الى حد الشيق يفتحون النوافذ والأبواب  
ويخرجون ليروا الحياة ، ويتفنوا بها ، مهما كان بؤسهم  
وتعاستهم ، ولو للحظات !

غير أن « سوسن » لى تكن تعسة . العكس هو الصحيح ،  
وان كانت طبقة عميقة من الحزن بانت ترقد فى أعماقها ، فهى قد  
تصالحت معها على وجه ما . . باعتبار أن ذلك جزء من الماضى . .  
أنتهه بيدها . . ولن يعود !!

شاركت « سوسن » أهل المدينة فرحتهم بانتهاء الموجة ،  
حين فتحت الشرفة العالية ونظرت الى حركة الشارع وهتفت  
لنفسها : يا له من حظ جميل . اعتقد أن « صفاء » ستجىء  
فى موعدها . .

كلمتنى بالأمس فى التليفون . . أكدت الميعاد فى حالة انتهاء  
الموجة . . سيجمعها دفء الجو .

وربما كانت سوسن هى الوحيدة فى مدينتنا فى ذلك اليوم ،  
التي لم تكن متحمسة للخروج الى الحياة . . كانت تريد الحياة  
أن تدخل اليها ممثلة فى زيارة صفاء . . واحدة من صديقات  
العهد القديم . . بل هى الوحيدة من بينهن ، رغم ما اعترى هذه  
الصداقة من مرارة انتهت يوما بالقطيعة . . هذه الصداقة  
آن لها أن تعود !

أبدا لن تخاف على حياتها من صفاء !

منذ أن حصلت سوسن على الطلاق من محمود وتزوجت  
من كمال - وكان ذلك قبل موجة البرد العاتية بشهور - وهى  
مختبئة فى عش الحب معه . . ولا أحد من أهل المدينة ، حتى  
أصدق الأصدقاء ، يعرف مكان هذا العش . . ! وكان ذلك  
اتفاقهما وهى بين ذراعية . . يومها قال كمال :

- فلنولد يا سوسن من جديد . . وبأصدقاء جدد . .

قالت سوسن وهى تخفى فزعاً هب من أعماقها « لا . . لا  
ولا حتى أصدقاء . . لا قدامى ولا جدد . . أنا لا أريد من هذا

العالم غيرك . وانت ؟ ! أتريد غيرى ؟ ! » .

— ما أريده .. قبلة .

— قبلة نسيان ماضينا .. كم تألمنا يا حبيبى .. كم أكره كل يوم مر بى قبل أن أعرفك !!

وبهذه القبلة التى أشعلت الحريق فى جسديهما المشتاقين فالتحما لأطفائه : انفق الحبيبان على اعتزال الماضى . فأمام قسوة التجربة الخطيرة التى اجتازها كل منهما ( سوسن تركت زوجها وابنتها .. وكمال ترك زوجته وابنه ) أمام قسوة هذه التجربة التى تحديا فيها سلطة المجتمع وعواطف الأبوة والأمومة ، اندفعا نحو بعضيهما ملتحمين فى وحدة نفسية عارمة أفقدت احساس كل منهما بنفسه وأذايته فى الآخر . وقد زاد من التحامهما تلك الموجة العاتية من البرد ، حتى تحول عشهما المختبئ فى قلب المدينة الى ما يشبه الجب المسحور فى روايات ألف ليلة وليلة .

غير أنه فى لحظة من لحظات هذه الوحدة ، وهى غارقة فى حضنه تكاد تدخل بكل كيائها داخل كيانه :

— كمال ..

همهم لها مبتسما بعينيه :

— لقد كلمت « صفاء » فى التليفون .. وستزورنى بعد غد !

هب من رقدته ، واتسعت المسافة بين عينيها وعيشية .

— هذا اخلاخل بالاتفاق .. تريدن اثاره الماضى ؟ !

أسرعت دقات قلبها فزعة .

— الماضى ؟ !

أى ماض يقصد ؟ .. هل عرف شيئا ؟ ! .. لا ..  
لا اظن .. أنا اقرأ عينيه .. مستحيل .. لقد كان هو ختام  
هذا الماضى .. ختام التخطيط المر من أجل البحث عن حبيب ..  
هذا التخطيط الفظيع ، والذي يبدو لى الآن بشعا ، لا يدري ،  
ولا يصح أن يدري عنه شيئا .

أهى لعنة الماضى تثور بهذا الاتفاق مع « صفاء » لتأتى  
وتزورها فى بيتها . فى مخبأ حبها ؟ ! .. لا .. لا حتى صفاء ..  
لابد أن يبقى الماضى ميتا بكل أشباحه .. حتى الشيخ الطيب  
« صفاء » .

— أنا آسفة يا كمال .. سوف ألقى الميعاد .. مازال  
أمامنا وقت !

ونفضت من جواره على السرير قاصدة التليفون .. غير  
أنها توقفت على صوته .

— كيف أخذتما هذا الميعاد ؟

— بالتليفون !! أنت تعرف صفاء . حدثتك عنها كثيرا . أنا  
أثق فيها وأحبها . قلت لنفسى ، لتكون صفاء صديقتى الوحيدة .  
أنت يا كمال تخرج الى عملك .. ترى الناس ، وتحدث معهم ،  
يحكون لك وتحكى لهم .. أما أنا ..

وكما لو أنها أدركت فجأة ، ذلك المعنى الخطير الذى يطل  
من كلماتها لأول مرة منذ أن تزوجا ، فاستدركت بسرعة .

— لا .. لا حتى صفاء .. سألقى الميعاد الآن .

امتدت يدها الى التليفون ، غير أنه اعترض قائلا :

— لا .. لا داعى .. فلتأت صفاء ، ما دامت هذه رغبتك .

وقبل رغبتك ، مادمت تثقين فيها ، اهلا وسهلا .. انا لا امانع  
ان تكون لك صديقة ! ..

حينذاك سطع وجهها بفرحة رآها كمال تلتمع في عينيها  
وكل خلجات وجهها ..

- الحقيقة ان هذا الموضوع مهم .. يجب ان نتحدث  
فيه ، ننتهى منه أيضا !

قالت وقد عاودها الفزع الخفى ، وبكل طاقتها حاولت ان  
تتحكم فيه :

- اى موضوع ؟

- خوفنا من اصدقاء الماضى بل ومن الماضى كله ! لقد  
وجدتنى منذ أيام أفكر : اى ماض هذا الذى نخاف منه ؟ ..  
ماضيك مع زوجك .. وماضى مع زوجتى .. ما الذى يخيف فى  
هذا ؟ القصة انتشرت ولاكها الناس جميعا حتى ملوها ..  
ما الذى بقى حتى نخافه ؟

لا يا عزيزتى .. نحن أقوى من هذا الماضى ، بدليل اننا  
واجهناه وتجاوزناه .. ذبل الجرح يا عزيزتى ومات .. ماذا بقى  
على موعد صفاء ونظر فى ساعة يده ) كلميها .. واكدى عليها  
المجئ .. أما أنا فسأرتدى ملابسى وأخرج الى عملى .. وربما  
أعود قبل أن تنتهى من زيارتك ، وأقضى معكما بعضا من الوقت  
هيا .. كلميها !

وربت بكفه على خدها ، ثم مضى نشطا الى حجرته ليرتدى  
ملابسه .. أما سوسن ، فقد بقيت واقفة بجوار التليفون وقد  
امتلات روحها بخوف فظيع !!

كلمة واحدة تدور فى رأسها وتلف كاعصار هائج ..

« الماضى .. الماضى » كم ترتعب من نطقه لهذه الكلمة !!  
هو يقول : يجب ان نكون اقوى من الماضى ، احقا هو  
قادر على هذا ؟ !

ندت عن صدرها تنهدة حارة .. ساخرة .. مسكينة  
« لو أن الانسان منا يولد على السعد والهناء من أول يوم » !  
قلبي يحدثنى أن شيئا ما مروعا يمكن أن يحدث ! سوف الغى  
زبارة صفاء .. صفاء هى الجانب الحلو النقى .. من الماضى ..  
سيثور الجانب الآخر .. من يدري !! بشكل ما قد يثور ..  
أمانة .. وفانى ، وكاميليا ، ومرفت .. وبقية الشلة . أخطرهن  
مرفت .. يكفى أن يعرف أنى كنت صديقة لمرفت ، لتبدأ  
أول طوبة فى بيتنا تنهار ! انها الآن تبحث عنى .. أنا واثقة انها  
تسال الآن عن بيتى كل الناس !! .. ألم تكن صديقتى ؟ !

وغاص قلبها ، أحست به يهبط مع أنفاسها فى بئر عميقة .  
هذه الفضيحة التى طلقت مرفت على اثرها ، وقرأها الناس  
بما فيهم كمال ! يومها أشار لها على الجريدة قائلا وقد انقلبت  
سحنته « حادث فظيع . أيمكن أن تصل البشاعة الى هذا  
الحد بالانسان ؟ ! »

وهزت رأسها بشدة تطرد أشباحا تلاحقت فى رأسها !! كم  
كان حظها عائرا .. المسكينة .. ضبطها زوجها متلبسة  
بخيانتة .. طالقة المسدس أخطأت قلبها ، واستقرت فى ذراعها .  
فضيحة بشعة . كان يمكن أن تحدث لى ، وأنا فى تخبطى فى  
البحث عن حبيب .. عن حبيبى !

وشهقت رغما عنها .

- الحمد لله .. الحمد لله .. الماضى يجب الا يثور ..



ولا حتى الجانب النقي الحلو منه . ورفعت سماعة التليفون ،  
وطلبت صفاء .

— صفاء .. أنا آسفة جدا جدا يا صفاء .. ظرف ضرورى  
وطارىء اضطرني ..

— .....

— ماذا ؟ ! ( وقفز الرعب من عينيها وتلفتت حولها  
لتطمئن ان كمال لا يزال فى حجرته ) مرفت ؟ ! فى الطريق الى  
بيتى .. الآن ؟ ! مستحيل .. مستحيل يا صفاء . من اعطاها  
العنوان ؟ انت الوحيدة فى هذا العالم التى اعطيتها عنوانى ..  
وتهافت يدها بسماعة التليفون وقاومت حتى لا تسقط من  
الدوار .. نعم .. لا بد ان تمالكك .. وبسرعة .. لم تسمع  
شيئا . لم يحدث اى شئ . لو لمحها الآن كمال بطرف عينه  
من بعيد : لقرأ كل ما فى نفسها دون ان تنطق بحرف .. انه  
متخصص فى قراءة عينيها وافكارها ، بداية الكارثة .

لو عرف طرفا من ماضيها قبل ان تلتقى به .. « آه ..  
يا طفلى النقية الندية » هذا هو نداؤه الحبيب لها باستمرار ..  
« أنا فعلا نقية .. وندية . انا لم يعلق بجسمى ولا بروحى شئ  
ممن عرفتهم قبلك ، من نوبة الهستيريا يستيقظ الانسان ،  
خفيفا ، نقيا ، ناسيا كل شئ ، كانت نوبات هستيريا واصابتنى  
ذات يوم معك ، لكن بعدها كانت اليقظة الأبدية ، وعلى يدك .. »  
لا .. سأقاتل بوحشية . ستستمر اليقظة .. أبدا لن تضع منى  
يا كمال !

سمعت وقع اقدامه : فبرقت عيناها بفكرة ، فكرة ذكرتها  
بأساليب تلك الحياة السرية والفوضوية التى كانت تحياها قبل ان  
تعترف به ، انفلتت الى الحمام ، وقفلت على نفسها الباب .

.. سوسن .. أنا نازل يا حبيبتي .  
ومن وراء باب الحمام ، وبكل حياء الذي تخاف عليه من  
الضياع .

.. مع ألف سلامة يا حبيبى .  
.. كلمت صفاء ؟  
.. بلا أبسط لجلجة ..  
.. نعم .. وفى الطريق الآن .  
.. جميل .. وربما أعود قبل أن تخرج .. سلام .

لم تخرج من الحمام ، الا بعد أن سمعته يقفل خلفه الباب .  
كانت أنفاسها تتدافع ، ودقات قلبها تتوالى .. حمدا لله أنه  
خرج ولم يرها .. ماذا بالضبط سيكون الموقف بينها وبين  
مرفت ؟ .. باختصار - يجب أن تقطع أمامها مثل هذه  
الزيارة مرة أخرى . انتهى الماضى . انتهت أيام الشلّة  
والهستيريا والجنون . لم يعد من شىء يجمعهما « أتركينى لحياتى  
يا مرفت .. أرجوك .. انسى ان لك صديقة اسمها سوسن .  
أنا لم .. أنا أقصد .. أنا حياتى بدأت ..

أما أنت ..

وانتفضت فجأة على صوت الجرس يملأ رأسها ويملا  
البيت . اندفعت الدماء فى عروقها . أنفاسها تحولت الى لهات ..  
خطت الى الباب . لا يصح أن يراها أحد واقفة ببابها . أمسكت  
مزلاج الباب .. جذبت نفسها عميقا .. يجب أن تتمالك  
أعصابها .. من الممكن أن تصل الى ما تريد بالحسنى ، وان لم  
تصل ..

ومرة أخرى رن الجرس .

وفتحت ..

كأنت مرفت تقف بالباب .

الماضى كله يقف بالباب !!

ـ أهلا يا مرفت

ومدت لها يدها بالسلام .

كل حرف من كلماتها : وكل مليمتر من حركتهما كانت بحساب . لا صد ولا ترحاب . غير أنها وجدت دموعها تتساقط منها بلا وعى ، وهى ترى مرفت تلقى بنفسها على صدرها . كل القديم بينهما فى لحظة واحدة ثار .

واشتبكا فى عناق .

ـ قلبت عليك المدينة ، سألت عنك أمينة ، وفانى ، وكاميليا ، والتى لم أسألها عنك : وجدت عندها العنوان . صفاء !

ـ قالت لى الآن . بالتليفون . كنت ( وخطر لها خاطر تعلقته به ، ووجدت فيه ـ مؤقتا ـ بر الأمان ) كانت مستزورنى الآن ( ونظرت فى ساعتها ) غير أن ظرفا طارئا حدث .. ويجب ان أخرج الآن .. زوجى كمال فى انتظارى ..

« تعالى » وأشارت لها بالدخول .

قالت مرفت وهى تطوى مدخل الشقة الجميل بنظرة :

ـ حسن انى رأيتك .. يكفينى من هذه المرة اننى عرفت بيتك ، والأيام طويلة .

( وتنهدت ) أنعرفين . بيتك جميل . وهذه ألفازة ..  
آه .. من يوم أن عرفتك وانت تحبين الجمال . كمال لأبد  
جميل .. سمعت أنه جميل !

وضحكت سوسن ضحكة متهافئة ولم تعرف على أى جملة  
مما قالته ترد ! الجملة التى علقت بذهنها :

ـ يكفينى من هذه المرة أذى عرفت بيتك ، والأيام طويلة !  
معنى هذا أنها تعتبر صداقتهما مستمرة ! وهذا هو  
المستحيل .. فلتدخل فى صميم الموضوع .

ـ منذ متى خرجت من السجن يا مرفت ! ؟ ..

ـ أنا لم أسجن . كانت أياما على ذمة التحقيق ، وتنازل  
محمود عن دعواه . وحين خرجت طلقنى . العالم كرهه ..  
سببه .. لم يعد لى فى العالم الا أنت .. أنت التى تفهمينى  
جيذا يا سوسن !

ـ تشربين شايا .. أم ..

ـ لا .. ولا أى شيء .. يكفينى انى رأيتك ! بالأمس كنت  
أفكر فى الانتحار ( وضحكت ضحكة مرهقة ) ولكنى قلت : فلاؤجل  
الانتحار حتى تنتهى موجة البرد الفظيعة .. وهذا الصباح  
خرجت الى الشارع ، فاذا بالجو دافئ ولطيف .. والشارع  
حتى الناس ، منظرهم فيه جميل .. ومرة أخرى وجدتنى أوّجل  
الانتحار ، وقلت لنفسى ( وضحكت ضحكتها المسكينة مرة أخرى )  
سأنتحر بعد أن أرى صديقتى سوسن وأهنئها . ثم نهضت واقفة  
فى عصبية ، وعيناها تنتقلان بين الفريجيدير الذى يتصدر  
الانترية ، واللوحات التى تزين الجدران .. والستائر الحمراء  
الغامقة التى تعطى العين راحة وسلاما .

- يبدو أنني لن أنتحر يا سوسن .. بيتك هذا جدد في  
نفسى الأمل .. وعادوت الجلوس ا انت محفوظة .. فليزدك  
الله . كان من الممكن . وسكنت ! ..

رغم أن سوسن كانت تفهم ما تعنيه وسكنت عنه ، الا انها  
ارادت أن تستونق من دخيلتها ..

- كان من الممكن ماذا .. ! ؟

- كان من الممكن ان يحدث لك ما حدث لى . الم تكونى  
تفعلين ما فعلته ؟ !

الماضى يهب .. ها هى تتكلم بصراحة .. لا .. فلاأفلز  
الباب فى وجهها بشدة ومن الآن .  
وبشيرة حاسمة متزنة :

وما الذى كنت افعله ؟

- يا سوسن .. لا داعى لتقليب الماضى . جميل منك انك  
نسيت كل شيء . هذا فى مصلحتى كما هو فى مصلحتك .. بيتك  
الجميل الهادىء هذا لا يصح أن يدور فيه مثل هذا الكلام !  
وجالت بعينها مرة اخرى فى المكان .. وبدا انها استنامت  
للجو وللظلال ..

- بيتك هذا ، هو الذى ربما يمنعنى من الانتحار !

ارتج على سوسن . كان الخناق من حولها يضيق ، وأمام  
عينها صورة كمال ، لا تبارحها .. ماذا لو جاء الآن وراها ،  
وعرف انها تصادقها .. صاحبة الفضيحة التى نشرتها الجرائد  
فى صدر صفحاتها فى أحد الأيام ! هه : ماذا تعنى هذه  
الصداقة التى كانت معقودة بينهما .. قبل ان تعرفه ؟

ـ مرفت يا حبيبتي . أريد أن أقول لك شيئاً .. ولكن ..  
ولكنى لا أعرف .. كيف أقوله لك ؟

وتحمست مرفت للهجتها .. الصداقة ستعود ..

ـ وهل بيننا سر !! ؟ ..

ونهضت سوسن ودارت حول نفسها .

ـ لا أدرى كيف .. أنت .. ربما لا تعرفين أن كمال  
قرأ حادثتك مع ..

ـ كل الناس قرأوها .. وأنا مفترضة أن كمال قراها  
قبلك !

ـ اذن ماذا سيقول حين يراك معى هنا .. فى بيته ..  
ويعرف أننا كنا صديقتين ؟ !

ـ سيقول ماذا ؟

ـ قولى أنت .

ـ لا .. قولها أنت . كونى صريحة يا سوسن . لا تريدنى  
أن ادخل بيتك مرة أخرى .. أليس كذلك ؟  
وطأطأت سوسن برأسها .

ـ أنت تعرفين مدى حبى لك يا مرفت . ولكن .. ها هو  
الوضع أمامك .. تصرفى كما تشائين !

ـ على شفتى مرفت ابتسامة ساخرة متوحشة ،  
والتمع فى عينيها بريق رهيب ..

ـ حتى أنت يا سوسن .

— أنا لم أقل شيئاً !

— لا .. قلت كل شيء ! لقد فكرت في هذا وأنا في الطريق اليك .. كانت كل البيوت قد أقفلت أمامي .. قلت هذا هو البيت الوحيد الباقي .. اذهب الى سوسن .. سوسن هي التي تقدر ظروفى .. سوسن كان يمكن أن يحدث لها ما حدث لى ، لولا الحظ خدمها وضحكت فجأة ضحكة ساخرة مريرة ومخيفة ارتعبت لها أعناق سوسن ) ولكن .. ها هي المعلمة .. معلمتى في الخيانة - تطردنى من بيتها !

صدمت الكلمة أذن « سوسن » .. فتحفظت لكى تلطمها بكلمة توقفها عند حدها ، غير أن منظر تحفظها أثار مرفت . فاقتربت منها وفي عينيها بريق الجنون .

— اريد منك كلمة واحدة : نعم ، او لا . أنا .. قبل أن أعرفك . هل كنت قد خنت زوجى ؟ !

— ليس لى الآن شأن بهذا الكلام .. كل انسان مسئول من نفسه .

فقهقته مرفت فى سخرية .. قهقهة عالية هستيرية .

— تهريبن الآن بنفسك .. هه ؟ بعد أن خربت بيوتنا .. انت التى حرضت كل من عرفت على هدم حياتها ، ولم تغلت منك غير صفاء ، ولهذا كنت تسخرين منها .. الآن تريدین صداقتها .. انسيت موقفك منها والذى تبعناك جميعا فيه « صفاء هذه لا تنفع فى شلتنا .. انها تحب زوجها .. العبيطة .. الآن هى صديقتك .. تعرف بيتك ونمرة تليفونك اما نحن .. اما أنا بعد أن فتحت لى الطريق .. بعد أن قضيت على تطردننى من بيتك .. هاهاهاهاه .. ولكن ما أبعد هذا عن شاربك الذى

كنت انتفه لك بالحلاوة وانت تختلسين المواعيد مع كل من كانوا  
قبل كمال .. المسكين المخدوع فيك ؟ ..

هنا انشق قلب سوسن عن صرخة وحشية بشعة : اخرسى  
يا حقيرة .. هذا البيت لو اقتربت منه فسأقطع رجلك ..  
أسمعين .. أنا لست خائفة منك .. ولا من تهديدك .. كل  
ما عندك قوليه .. أنا لا أخاف .. لا أخاف .. ولا حتى من  
كمال . أفهمين ..

واشتعلت عيناها بغضب الوحوش .  
— قلت لك اخرجى .. اخرجى .. اخرجى ..



خرجت مرفت من هنا ، والتفتت سوسن خلفها ، وأنفاسها،  
تلهت أثر حركة خيل إليها أنها سمعتها ، وإذا بكمال ، واقف  
بالباب . باب الصالون .. بنفس ملابسه .. ! كيف حدث  
هذا ، كيف عاد ودخل دون أن تحس به .. لابد نسي شيئا ،  
وعاد ليأخذه .. ليس هذا هو المهم ..

كان واقفا متخسبا كتمثال .. صفرة الموتى دبّت فيه ..  
لا حركة ولا كلمة .. فقط ينظر في عينيها .. ومن نظراته ،  
وارتعاش فكيه .. أدركت أنه سمع كل شيء ..  
انكشف السر ..

وتبارزت نظراتهما . صليل صمت عاصف يقترب ..  
عيناها تقولان ألف شيء .. أولها « يا خادعة » أبدا لست  
طفلتى النقية الندية » .

عيناها مع اللهاث المتتابع المتصاعد بجنون من صدرها :  
هيا احسم موقفك .. قل ما تريد .



ونطق بوجه جامد صارم :

– أنا خادج ..

وأشاح بنظراته عنها ، وانجه نحو الباب .

طاش عقلها . قفزت واعتصمت طريقه .

– ابق هنا .. لا تتحرك .. العذاب البطيء محال !

أيضا لم يتكلم .. عيناه في عينيها تصعقان النور المرتعش  
في نظراتها .

صرخت .

– قبل أن تخرج ، طلقني .. ألم تعرف كل شيء !!

وارتسمت على ركن فمه ابتسامة وحش مطعون ..

– هكذا ببساطة ؟ أطلقك .. بعد هذه الخديعة الكبرى ؟  
( وهز رأسه بسخرية ميتة ) استريحى قليلا .. وفكرى في  
نفسك .. ثم .. أطلقك .

وكوحش يهجم على وحش آخر :

– اسمع . لا أنت . ولا أى انسان آخر في هذا العالم ،  
سأمكنه من تعذيبى ! أفهم ؟ قدمى من الآن على قدمك ..  
ننفصل .. يكفينى منذ أن تزوجتك .. لا .. بل منذ أن عرفتك  
لم انظر الى رجل واحد .

وبابتسامة ساخرة عريضة ..

– الخداع مرة أخرى ..

صرخت في وجهه :

— اخرس .. اياك ان تنطقها امامى .. وان شئت محاسبتى  
فمن يوم ان عرفتك !

— من يوم ان عرفتك وانت تخدعيني .. نعم .. لماذا  
لم تقولى لى شيئا عن ماضيك هذا ؟ هه ؟ لماذا لم تقولى لى  
ان زواجنا بدأ بلعبة الخداع ؟

وصوبت عينيها فى عينيهِ :

— تعتبر حيننا كان خداعا ؟ من كان فينا يخدع الآخر ؟ هه !

تكلم يا من تريد ان تأخذ دور الطاهر النقى .. ألم تكن  
تعرف انى اخون زوجى وانا بين احضانك ، وقبل ان يتم  
الطلاق ؟ هه .. ألم تكن خائنا أنت الآخر لزوجتك وانت بين  
احضانى وقبل ان تطلقها .. !

ماذا تسمى كل هذا ؟ أنا الخائنة . وانت الشريف ..  
القديس .. !!

انعقد لسانه وجحظت عيناه .

— ما فعلته معك قبل طلاقى لم يكن خيانة .. ليس كذلك؟!  
لكنها الحقيقة .. لقد بدأت حياتك معى بالخيانة . وكنت سعيدا  
بذلك .. لقد كنت اتخبط .. واوصلنى التخبط اليك .. ألقيت  
بشبكة الباردة فاستسلمت لك ودون حب . نعم .. هى  
الحقيقة .. الأيام الأولى ، لم يكن بينى وبينك حب . لكنى كنت  
أقول لنفسى : ربما .

وحين تحققت المعجزة ، وحدث الحب — سواء اعترفت به  
الآن أم لم تعترف — اعتبرت أن المعجزة معجزتك .. انك الرجل  
الوحيد الذى انقذنى .. ( واقتربت منه أكثر وأكثر ) هل نسيت ؟  
ألم تكن تسهر مع زوجى ؟ ألم تأكل معه ، كما يقولون ، عيشا

وملحاً .. دويسمكي أيضا .. زمع هذا كنت تختلس النظرات  
منى وهو بجانبك .. كنت تضغط على يدي بشدة في كل سلام  
وهو يقف معنا يودعك !

وبعد هذا .. أنا الخادعة ..

أنا الخادعة .. أيها القديس .. الشريف .. هيا ..  
طلقني .. لقد حدث ما كنت أتصوره مستحيلاً .. لا مفر !!

كانت دماؤد قد هربت تماماً منه .. الدوار لف رأسه ..  
ولا جملة استطاع أن يجدها لينطق بها .. دخلت حياته بشكل  
كاسح ، وها هي تخرج من حياته كعاصفة هائجة .. وكلماتها  
كاللطمات ، تلطم بها نفسها قبل أن تلطمه ، كما لو أنها الانتفاضة  
التي تسبق الرقاد الأخير .

نعم .. لا مفر ..

الطلاق .. الهزيمة الكبرى .. زوجها .. زوجته ..  
الناس .. المدينة .. ولكن ..

أى خداء ؟

حدث هذا كله قبل أن أعرفها .

وبعد أن عرفتها .. ما يدرينى :

وصرخت : لن أحتمل أبداً صمتك معى لحظة .. هذا  
السكين الذى تذبحنى به وتذبح نفسك .. محال .. لم يعد  
أماننا سوى الانفصال . انظر الى عينيك فى المرأة .. هذا  
الشك الذى بدأ يلعب ببريقهما سيصبح أبدياً .. هو الموت  
بالحياة .. وأنا لا أحتمل أبداً ، أبداً ..

وأجهشت بالبكاء .

أما كمال ، فقد انهار على نفسه . لم تحمله ساقاه .  
جلس على اقرب مقعد . لم يكن يستطيع .. الكلام ..  
ولا الحراك ..

وأغمض عينيه ..

نعم .. الطلاق ..

مهما يكن من شيء .. فهو الطلاق .

وأحس بدقات قلبه تضعف .. وانفاسه تتباطأ .. وفتح  
عينيه ورئتيه .. لكن ذلك لم يجد في شيء ..

- سوسن ..

ونظرت اليه من خلال الدموع .

- ارتدى ملابسك ..

وحين استدارت ، انفتح جرح في قلبه .. جرح سيظل  
طول العمر يبحث عن طبيب .

« ١٩٥٩ »

## ما نملكه نحن الفقراء

لى طريقتى الخاصة من أجل أن أكون ثريا .. واسع الثراء ..

طريقة تمكننى من امتلاك أكبر قدر من ثروات هذا العالم  
وروائعه ومدهشاته !! .. وقد اكتشفت هذه الطريقة لنفسى  
بعد أن ثبت وبشكل قاطع ، أنى فاشل فى عالم المال والأسواق ،  
وأن جوادى دائما فى هذا السباق خاسر .. وقد أسر لى  
جوادى معزبا ومشجعا : لا عليك أيها الصديق .. ان كنت قد  
خسرت بى فى هذا المجال ، فمن الممكن أن انطلق بك فى مجالات  
أخرى وتكسب . أجل . لا تجلس قدراتى فى مجال واحد ..  
وصحت فلسفته ..

فقد بدأت انطلق واحلق ، شاعرا بأنى امتلك واحدا من  
جياذ الأساطير !! .. فى الصباح الباكر ننطلق الى الأطراف  
لأرى قرص الشمس يبرز بتؤدة وجلال من خلف الجبل ويغمر  
العالم وقلبى بأشعته الذهبية .. أهرع الى نهر النيل ، أجمل  
انهار العالم واغترف من موجه وأنسامه ، فأحس بالحياة تدب  
فى الصدر بعد الموات !

أخذ حبيبتي خفى وانطلق بها الى غابة « الأورمان »  
ونجلس على ضفة بحيرة صغيرة. تموج بزهرة اللوتس .. زهرتنا  
المصرية الفاتنة العتيده !

انام فى السادسة أو السابعة مساء ، واصحو فى منتصف  
الليل بتوقيت القاهرة، فاذا بالمدينة عالم آخر مختلف تماما عن  
عالم النهار .. فسيحة الشوارع .. مهددة للأعصاب ، تسمع  
فيها حتى الهمسات .. واركان وشواطئ لموسيقى البرنامج  
الثانى والأحلام ، وتصيح حبيبتي بالنشوة ، لو كانت معى :  
ما أكثر ما فى هذه الحياة من أشياء رائعة الجمال !

ثم ننثنى - ان كنا فى آخر الشهر - نتناول سندويشات  
من الفلافل ، وبعد دقائق مع أنسام الليل تكون المعدة قد هضمتها،  
وأضحك وأقول لها : ان من أعظم وأروع ممتلكات الانسان ،  
ان يكون لديه معدة سليمة .

وقد علمنى جوادى أيضا ، حقيقة هامة من حقائق الملكية :  
ليس شرطاً لكى تكون المالك ان تكسب ممتلكاتك كلها فى بيتك  
أو فى خزانةك ، بل الأفضل والأجمل أن تكون موزعة على مساحات  
أوسع وأرحب من هذا العالم .

وقد كان من حظى أنا وحبيبتي أن سكنا فى أحد الأدوار  
العالية . ولذلك ، فى يوم أن استقبلتها فى « بيت العمر » وبعد أن  
طفنا معا بأشيانا وممتلكاتنا الصغيرة ، أخذتها الى الشرفة ،  
وقلت لها وأنا أشير على قباب القلعة وجزء من قمة الجبل ،  
وسحابات مشعة وملتهبة بألوان الشفق : وهذه أيضا من  
ممتلكاتنا !

وقد انفعلت لحظتها حبيبتي ( ولحسن الحظ أنها هى

الأخرى رومانسة / وقبلتني من خدى وقالت : وهذا الخد أيضا  
لى .. فقبلتها من فمها وقلت : وهاتان الشفتان ملكى ..  
وامتزجنا ..

أجل يا جوادى العزيز .. ما أكثر ما يمكن أن يمتلك  
الانسان فى هذه الدنيا !!

وقد علت ضحكاتنا السعيدة ذات ليلة ، حين فوجئنا  
بممتلكاتنا الجميلة تزداد واحدة ، كنا نجلس فى شرفتنا الصغيرة ..  
فى الظلمة نرى بالقلب ملامحنا ، حين فوجئنا بنافذة أمامنا -  
كانت دائما مقفولة - تفتح وتضاء .

ومن الوهلة الأولى أدركنا أن ساكنين جديدين قد استأجرا  
هذه الشقة فوق السطح ، وأنهما « عروسة وعريس » ابتيج  
قلباننا .. ها قد أصبح المنظر أمامنا يضم حياة جديدة . فالسطح  
الذى كان فارغا دب فيه الحياة ، بهجة اثنين يبدان بالحب والفرح  
طريقهما فى الحياة .. كانت المسافة بين نافذتنا والسطح بعيدة  
لا تسمح بالتعارف ، فاكثفينا برؤية المنظر الجميل !

كان المشهد يزداد جمالا يوما بعد يوم ، فقد رأيناها  
يزرعان حديقة على السطح وبينان تكعيبية خضراء ، وحين هل  
الربيع ، ماج السطح أمامنا بمختلف ألوان الورود والزهور !

قلت لحبيبتى ونحن نستمتع بالمنظر الجميل : وهذه  
الحديقة من ممتلكاتك أيضا .. هل يستطيع أحد أن يمنعنا  
من الاستمتاع بجمالها كل صباح !

قالت ضاحكة : دون أن ندفع مليما واحدا .. ليتنا  
نتعرف عليهما .. لنشكرهما !

كنت أعشق منظرهما ، وهما يرويان الزرع كل صباح ،

ويقطعان الزهور ويجريان خلف بعضهما ، ويتواثبان . وفي بعض الليالي ، كانا يدعوان أصدقاء وصديقات ، وتزدان التكميبة في الليل بأنوار حمراء وزرقاء وصفراء . ويموج السطح بأغان وضحكات تصلنا من على البعد ، فتحس بها دعوة لنا لتجديد الحب .. وللتفاؤل ولثقة بالنفس وبالحياة .

و ذات ليلة ، انتفضت أنا وحبيبتى على صرخات ألم تمزق سكون الليل .. فتحنا النافذة ، نسمع ملهوفين في ظلام الليل البهيم .. كانت الصرخات تتوالى وتتصاعد ..

قالت : امرأة تلد .. يارب تقوم بالسلامة .

وانكمشنا في بعضينا ، كأنما نلتمس من بعضينا الأمان وقد شممنا من نوع الصرخات رائحة خطر يحوم حول المكان .

أجل .. فحين حل الصباح ، كانت الصرخات قد توقفت ، لتحل محلها أصوات ملتاعة أبشع .. هل يكن أن يصدق العقل البشرى ما يحدث ؟ كانت حبيبتى تدق على صدرها وتنسج .

لقد ماتت .. ماتت العروس وهى تلد .

فلتنطفئ شمس هذا العالم ..

وبالفعل .. حل الظلام على النهار ..

لم نر النافذة تفتح بعد ذلك . ويوما بعد يوم ، كانت أشجار الحديقة تبشف والألوان تذبل هى الأخرى وتموت .

وأحسنا أن أشياء جميلة فى نفسينا هى الأخرى تموت .. ضاعت منا أجمل الممتلكات .

واننا أصبحنا .. فقراء .

« ١٩٦٦ »



## قوة الجذور

— معايا الفل والياسمين ...

طرق النداء سمعها وهى تسير .. بدا لها غريبا ، ومدهشا  
وله رنين . لكنه بدا فى نفس الوقت كخدعة ، او كاغنية جميلة قد  
تضلل القلب الوحيد . الحزين .

— يا عاشقين الفل والياسمين ..

كان المنادى بائع زهور يدفع امامه عربة خشبية صغيرة  
بمجلتين ، مليئة بأصص فخارية مزروعة بمختلف انواع الأزهار ،  
ما أن رأتها حتى تذكرت على الفور حوض زرع فى شرفة شقتها  
خاليا منذ شهور . كان منظر هذا الحوض الخالى يعيق الحزن  
فى قلبها لهذه الغيمة السوداء الثقيلة التى هبطت على حياتها  
مع زوجها . أصبح كل منهما يحس أن حياتهما معا باتت كهذا  
الحوض الخالى . كان ذلك كئيبا ومروعا ، بعد ان كان مزروعا  
بالأشجار بفوح بالخضرة ويطرح الأزهار ، أصبح خاويا الا من  
الطين الذى جف وتشقق . لم يعد أحد يهتم أن يسقيه بعد أن  
خلع هو بيديه شجرة الفل التى كانت مزروعه فيه !

لقد فوجئت بذلك ذات يوم ، فأحسست كأنه قطع شرياننا من جسمها .. كأنه يرمى بها هى نفسها بعيدا عنه وعن البيت وعن حياته كلها ، قالت لحظتها بتزجيج من الحزن والغضب : لماذا خلعتها ؟

ببساطة شديدة وكئيبة قال : لم يعد فيها فائدة . لم تعد تزهر . سابحت عن شجرة جديدة أزرعها .

لم ترد بكلمة . لم تدافع عن شجرتها التى كانت .. قالت هى نفسها : ليست الشجرة فقط هى التى كانت . كل شيء كان . ( وشدت نفسا من صدرها بتحد وكبرياء ) ولكن بعد ذلك ما يكون .. لقد جفت شجرة حياتنا هى الأخرى .. فلنكن واقعيين !

كان الوقت صيفا .. وفاتت شهور الصيف دون أن يأتى بشجرة جديدة ، وبقي الحوض خاويا .. جافا .. تزداد الشقوق فيه وتعمق فيتعمق فى روحها الحزن والتشاؤم والاكتئاب . غير أنها كانت سرعان ما تطرح رأسها بشعرها الطويل الناعم إلى الخلف فى ثقة وتحدى : لم لا ؟ كل شيء يتغير . لا يصح أن يخيفنى ما يحدث . لا يصح أن نخدع أنفسنا أكثر من هذا .. هو نفسه قالها مرة : « نحن لم نعد نحيا إلا بقوة دفع الماضى . أما الحاضر .. فقد جفت شجرته » . كان شجاعا فقالها .. ساكون أشجع وأقولها : الطلاق . نضع الحقيقة فى عين الشمس . وفى عيون كل الناس . ولن أعبأ بأى شيء غير الصدق .. أن نذهب بالموقف إلى أبعد حد .. نتفق على الفراق .. ذلك هو الامتحان : اما أن يكون الفراق أبديا .. واما أن نتزوج من جديد .. وأزف إليه مرة أخرى ، بكل العشق القديم والجديد .

— يا عاشقين الفل والياسمين .

مين يشتري مين ؟!

— بكم شجرة الفل دى يا عم .

— ما تفلاش على الناس الطيبين .

لم تشأ أن تساومه على الثمن . شجرة فل مثل هذه مترعة  
بالزهور فى وقت مثل هذا لا تقاس قيمتها بالمال . انها  
تساوى الكثير . أكثر مما يتصور هو .. لو طلب منها أكثر  
مما معها ، فستطلب منه تأجيل الباقي . لا .. لا . النقود لن  
تكون المشكلة . المشكلة من يحملها ، ويذهب بها الى البيت .  
الى الشرفة .. ويزرعها .

غير أن القدر حين يعد ، يحقق وعده بيسر وسهولة . فلم  
يات عصر ذلك اليوم ، حتى كان ذلك البستانى المتجول قد جاء  
البيت بالشجرة فى الميعاد الذى اتفقا عليه وزرعها فى الحوض .  
واختلج قلبها بالفرح وهى ترى لأول مرة بعد شهور طويلة ، الطين  
الجاف وفد ارتوى بالماء واختفت كل الشقوق ، وانتعش قلبها  
بالأمل .

فى ذلك اليوم كان زوجها مسافرا .. سفره قصيرة ..  
وحين عاد فى اليوم التالى ، رآته يدخل صامتا ، جامد الوجه  
كالعادة . وتبادلا كلمات السلام التقليدية .. ثم اتجه مباشرة  
الى حجرته الخاصة ليقلعها عليه .. ويواصل كل منهما  
حياة التفرد والاعتزال التى اتفقا عليها .. لكنها وجدت نفسها  
تقول له :

— فيه حاجة جديدة .. جبتها البيت .. من غير اذنك !

— حاجة ايه ؟

— ادخل البلكونة شوف .

من الوهلة الأولى ، خمن ما فعلته . وصح تخمينه ..  
فرح في سره . فرح لأنه مازال — رغم البعد — يفهم ما يدور  
بأفكارها .. وفرح ايضا أنها لاتزال تحمل في قلبها ، حس  
الأمل .. وحب البيت والمحافظة على جماله .

« هذا البيت لا يهون على واحد منا إن يهدمه » . استيقظت  
عواطفه . قاوم بشدة . اكتفى بالابتسام :

— شجرة جميلة فعلا . كويس انك جبتيها فلة . بدل  
الفلة اللي ماتت .

قالت : هي الحقيقة ما ماتتش .. انت اللي قطعتها !

هل تدينه ؟ لكن لهجتها كانت هادئة ، فيها الود اكثر مما  
فيها من عتاب .. ومع هذا فقد أحس بالانهمام .

قال : يعنى أنا اللي بأقطع .. وانت اللي بتزرعى ؟ !

بدأ على وجهها الألم : لا .. مش قصدى .. دى صدفة ..  
وأنا ماشية في الشارع ، لقيت راجل بيعع فل وياسمين اشتريتها  
منه . منظر الحوض فاضى ومشقق ماكنتش طايقاه !

— وأنا كمان طبعاً .

التقت عيونهما في نظرة سريمة هربا منها الى الشجرة ..

كان بدء الربيع .. موسم تفجر الحياة .. ورأيا الشجرة  
الجديدة المزروعة تموج بعشرات الزهور .. رقيقة ناعمة  
بيضاء .. وعطرها يفوح .

انتعش الحنين في قلوبهما . ربما شيء بسيط مثل هذا  
يحرك الركود ويروى الشقوق .. غير أن خفقة الأمل هذه كانت

مثل طائر غريب مر مسرعا فوق صحراء وسرعان ما خلفنا وراءه  
لوحشة الصمت وجفاف الحياة !

يوما بعد يوم كانت الفلة تتراجع ومعناها يذوب .. وعاد  
الصمت والخواء يثقلان على البيت يشد مما كان . وسرعان  
ما أيقنت من خدعة الرموز .. « كثيرا ما تفللنا الرموز . لقد  
زرعت هذه الشجرة رمزا لانعاش الأمل . ولكن ها هي نفسها .  
مع فصل الخريف نسير بالتدريج في طريق الجفاف . وبعض  
أعوادها تعرى من الأوراق وتموت » !

غار في نفسها الاحساس بالتشاؤم ، وتأكدت الغيمة  
السوداء !

يوما .. وقفا في الشرفة ، بلا اتفاق ، وحانت منهما نظره  
الى الشجرة .. حينذاك أدرك كل منهما نفس المعنى الذى أدركه  
الآخر دون أن يتحدث به . كانت الطبيعة تؤكد الموقف بينهما  
وتعريه مع سحب الخريف .. وفتامة الألوان . وقال كل منهما  
لنفسه في لحظة واحدة : أجل .. حتى الحب يمر بالفصول  
الأربع .. الحب ايضا يشيخ .. الحب كائن حى .. يسرى عليه  
ما يسرى على الكائنات من ميلاد ونمو .. وفتوة .. ثم شيخوخة  
يعقبها الفناء .. لم لا نعترف بالواقع .. ونعلن الانفصال ؟ قد  
يكون فى الانفصال الشفاء . الانفصال ولو لفترة .. هذا الالتصاق  
الطويل الطويل .. التصاق الجلد بالجلد ، والأنفاس بالأنفاس ..  
يسد المسام ويورث الاختناق . فلتحرر . نفصل الجلد عن  
الجلد ، والأنفاس عن الأنفاس . ولكن : هل لديهما الجرأة على  
اتخاذ القرار ؟

شهور عصيبة مرت .. تتراوح بين لون كآبة الخريف :  
ولون وهج النار الذى يشعلها التمرد على أن يكون الحنين الى  
الحب الذى كان ، هو قاتل الانسان .

مرت شهور الخريف .. وكان كل منهما يرقب وحده  
الشجرة في السر .. ويرى فيها طالع العلاقة بينهما .. كأنما  
يستشيران النجوم .. ماذا يفعلان ؟ هل يصرخان ويفعلانها ،  
ويحققان الانفصال .. بل صراحة : الطلاق ؟

وتجمعت كل كآبة الخريف ذات يوم وأطلت من الشجرة .  
كانت معظم الفروع قد جفت وتحولت الى أعواد جافة ينطق  
لونها بالموت .

ورأيا ، في هدوء شديد ، ان الشجرة والطبيعة تشير عليهما  
بالحل السليم :

الطلاق .

وفعلاها في هدوء .

أزمة المساكن ؟ .. ليكن .

البيت الواحد أصبح بيتين .. الجلد انفصل عن الجلد ..  
والأنفاس ابتعدت عن الأنفاس .. وبدأ لكل منهما انه يتنفس  
بشكل أقوى وأعمق .. حقا .. لقد كان فيما فعلا انقاذا لهما ..  
كان الحب بينهما على وشك أن ينقلب الى كراهية .. ليس  
أشجع في العالم من أن ينقلب الصديقات الى خصمين .. والحبيبان  
الى عدوين .. وحينما كانت جرثومة الكراهية تتحرك ، كان  
جمال الماضي وروعه يقفان بقوة ضد الجرثومة ليقتضيا عليها .

تنفصل المسام عن المسام ، والأنفاس عن الأنفاس .. لكن  
الأرواح لا تنفصل . أتاححت الحرية لكل منهما أن يطير بعيدا ..  
بعيدا .. يعود أو لا يعود .. يغير الحب بآخر أو لا يغير .. أصبح  
المالك لقلبه فلمن يعطى القلب الجديد .. مع العام الجديد ؟

كان شهر ديسمبر يتجه مسرعا الى نهايته . قادتها قدمها

الى الشرفة ذاب صباح ، تريد أن تملأ صدرها بهواء طازج .  
انها منذ حوالى اسبوعين لم تخرج الى هذه الشرفة . وتذكرت  
فجأة .. صاحت تعانب نفسها .

ـ آه .. ام أرو الشجرة .

وتوجهت بنظراتها اليها . ندت عنها صيحة فرح عظيم ..  
فوجئت بمنظر غريب ابهج قلبها : كان فرعاً جديداً قد انبثق  
منها .. نبت من قلب أسفل الجذع وانطلق يشق طريقه الى  
الوجود .. كان قويا وممتداً وفياضاً بالخضرة والحياة .. كأنها  
يتهيأ لأن يصبح جذعاً مع الجذع القديم .

وجرت اليه .. تحتضنه بعينها .. بقلبها .. آه ..  
وما هذا أيضاً ؟ عدة فروع أخرى تبرغ وتطل .. وتتهيأ بدورها  
للنمو والانطلاق .

هبت انسام منعشة .. تحركت مياه البحيرة الراكدة ..  
واحست بالميلاد فى كل شيء .. فى الزمان .. وفى الأشجار ..  
وبدا لها انها تقف على اكتشاف رائع .. ها هو الميلاد يحدث  
فى الشتاء حيث يظن الناس انه فصل الجفاف والموت !

ترى .. هل رأى هو هذا الفرع الجديد ؟

واحست بثمة حركة خفيفة . كان واقفاً ينظر .. أشارت  
بلا وعى على الفرع الوليد وقالت .. بابتهاج هادئ :

ـ هل رأيت ؟

أسرع مقترباً من الشجرة .. أحس أن فروعاً تنبثق فى  
قلبه .. وتصبح شرايين خضراء .. وقال بفرح كبير : ليس  
فرعاً واحداً .

وراح يعدد الانبثاقات الكثيرة الجديدة فى الشجرة :

كانها زحف الحياة ..

والتقت نظراتهما ..

قالت : لأن الجذور سليمة .. وقوية .

قال مؤكدا بثقة : كنت أوالى ريتها .. رغم البرد الشديد .

امتزج بريق عينيها ببريق عينيه .

– تحب هذه الشجرة ؟

– ألسأ أنت الذى اشتريتها ؟

– وأنت الذى رويتها .

تحرك فجأة كل الحنين .. منذ متى لم يلتق الجلد بالجلد .

والمسام بالمسام .

امتدت يداهما الى بعضهما .

قال : أعظم الأشجار هى التى تولد فى الشتاء .

قالت : شجرة الحب أبدا لا تشيخ .

غمغم : انها تغير جلدها .. لحاءها .. ولكن ل ..

غمغمت : لتولد فيها الخضرة من جديد .. وقريبا ..

ستمتلىء بالزهور .

قال : أوحشنى العطر الجميل .

واندفعأ الى عناق عظيم .

الجلد فى الجلد .. والأنفاس فى الأنفاس .



## البحر يكشف كل الأقنعة

بشكل لا ارادى ، وبقوة عدم التصديق لامكان ان يحدث هذا ، وجدتني بالخيال ، إخلع عن المرأة ثيابها . كان ذلك هو الشيء الوحيد لكى اتأكد انها هى ! فقد بدا الأمر لى أشبه بالصدمة ، أو اننا فى دنيا الحوادث والخرافات ، حيث نرى الكائنات وهى تتشكل وتتحول من نوع الى نوع ببساطة : البنات يصبحن جنيات ، والجنيات يصبحن بنات . وقد ساعد على ذلك وجودنا على شاطئ البحر . على البلاج . ومهرجان الصيف قائم على قدم وساق . أقول رحت بسرعة الخيال انزع عن المرأة ثيابها الغريبة .. البالفة الغرابة ، لكانها طبقة قشرية نبتت لها وأدخلتها فى عداد الكائنات الأخرى ، فلم يكن يبدو منها - وهى السائرة على البلاج ، غير عينيها الواسعتين ، وأنفها الدقيق ، وبالكاد فمها . أما الباقي فقد اختفى : ثلثا الوجه على الأقل ، مع الوجنتين والشعر الكستنائى الطويل والأذنان الجميلتان وعنقها البض كانت ترفع الشعر ، واختفى أيضا بقية الجسد الطويل المتناسق المشدود ، ذلك الذى كان بالمايوه كل صيف ، يشع حياة وجمالا وانطلاقا .. على الرمل .. وفى البحر .. أمام عيوننا ..

هَذَا الْجَسَدُ الْآنَ ، يَغْلِفُهُ ثَوْبٌ طَوِيلٌ فَضْفَاضٌ يَتَدَلَّى حَتَّى  
يَتَلَامَسُ مَعَ الرَّمْلِ مَخْفِيًا الْقَدَمَيْنِ ، وَإِنْ كَانَ الْقَدَمُ بَعْدَ الْآخَرِ  
يُظْهِرُ - بِالضَّرُورَةِ - عَارِيًا وَاضِحًا بِكُلِّ جَمَالِهِ وَدَقَّتِهِ ، وَهِيَ تَنْزِعُ  
خُطَوَاتِهَا مِنَ الرَّمْلِ ، مُتَقَدِّمَةً نَحُونًا ، ثُمَّ تَقُولُ لِي مُعَابَتَةً ..

- أَهْكَذَا .. لَا تَعْرِفْنِي عَلَى الْفَوْرِ ؟

وَأَنْقَلَبْتُ الْمَوْقِفَ صَدِيقَتِي الْمَتَمَدِّدَةَ عَلَى الرَّمْلِ بِجَوَارِي ،  
صَائِحَةً بِي ..

- نَانِي .. أَهِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ تَرَاهَا بِهَذِهِ الْمَلَابِيسِ ؟

صَحْتُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : نَبِيلَةٌ ؟

وَأَوْشَكْتُ أَنْ أَقُولَ .. رَافِضًا : مُسْتَحِيلٌ . غَيْرَ أَنِّي أَمْسَكْتُ  
نَفْسِي عَنْ جَرَحِ مُشَاعَرِهَا ، غَيْرَ قَادِرٍ فِي الْوَقْتُ نَفْسَهُ عَلَى كِتْمِ  
دَهْشَتِي ..

- أَوْ لَمْ تَكُنْ عَيْنَاكَ لَمَّا عَرَفْتُكَ ( ثُمَّ مُتَعَمِّدًا الْإِسْرَاعَ بِالْذَمَّةِ  
سُخْرِيَّةً خَفِيفَةً - كِتْسَجِيلَ لِمَوْقِفِ ) مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتَهُ  
بِنَفْسِكَ ؟

شَدْتُ قَوَامَهَا الطَّوِيلَ الرَّائِعَ ، يُوْجِّهَهَا نِصْفَ الْمَقْنَعِ ، أَوْ شَبِهُ  
الْمَلْثَمِ ، وَقَالَتْ مُعْتَزَّةٌ :

- أَلَمْ تَعْرِفْ أَنِّي حَجَجْتُ هَذَا الْعَامَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ؟

- آه . عَظِيمٌ . مَبْرُوكٌ ، وَلَكِنْ ، هَلْ مِنْ الضَّرُورِيِّ أَنْ  
يُخْفِيَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بَعْدَ أَنْ يَحْجِجَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ ؟

شَمَخْتُ بِوَقْفَتِهَا وَنَظَرْتُ فِي صَمِيمِ عَيْنِي ..

- أَنَا لَا أَخْفِي نَفْسِي . أَنَا أَخْفِي الْمَنَاطِقَ الْحَرَامَ مِنْ  
جَسَمِي ..

قلت باسمي : لكنك لم تستطعي اخفاء أجمل ما فيك .  
عينيك .

اهتز شعاع عينها واضطرب . غير انها سرعان ما تجاوزت  
ضعفها الأنثوى والانساني ..

— العينان ليستا عورة . العين نافذة الانسان على الدنيا  
ليرى منها الحرام والحلال .

— ليس بالعين فقط نعرف الحرام والحلال . بالقلب أيضا  
نعرف ..

هزت رأسها ، ضائقة بكلامي ، بل بدا لي انها ضائقة  
بأى كلام ..

قلت : ستكون لنا جلسة .. أرجو .. نناقش فيها ..  
ما الحرام وما الحلال !

عاودها الشموخ المزوج بالتحدي ..

— مستعدة . وان كان الايمان لا يحتاج الى مناقشة .

قر في نفسي ان جلسة نقاش أو جلستين لن يجديا معها ،  
فهذا الذي حدث في حياتها انقلاب ضخم ، ولا يمكن أن يغير  
منها الا انقلاب آخر مضاد . « ناني » التي ما كنت آراها  
على البحر الا وهي تجرى وتقفز وتلاعب الموج . هوايتها التصدي  
للموجة العالية ثم الروغان منها بالمروق داخلها كأنها سمكة  
« دنيس » طويلة مشوقة ، ثم الاستمرار في السباحة غوصا  
تحت السطح لمسافة طويلة ، ثم نفاجا بها خارجة من تحت الماء  
بوجهها المشع المندى وخصلات شعرها المبتلة المتناثرة ، وتضحك  
وتلوح لنا بذراعها الجميل الأبيض . وأحيانا كنت أخاف  
الذهاب اليها خشية الفرق في المناطق البعيدة العميقة ، وأنا في

رحاب جمالها ، لكنى كنت اذكر براعتها في السباحة ، وانها لن تتركنى أغرق .. سيعطينى جمالها طاقة كبرى للحياة وللنجا ، فأسرع - أنا والآخرين - مستحيين لاشارتها ونطلق اليها ونسبح ونمرح في البحر جماعة ، لكنها دائمة واسطة العقد ، وقائدة اللعبة المرحية ، لعبة السباحة في المناطق العميقة، حيث اغراءات العمق والصفاء والبعد عن ضجة الشاطئ والبلاج . ثم حين نتعب ، ولم تكن هى تتعب أبدا ، نعود . تتقدمنا « نانى » مسرعة بحنين رائع للعودة الى الشاطئ . ورغم أنها كانت في الثامنة عشر ، وزوجة ، ولها طفل ، الا اننا كنا جميعا - وأولنا زوجها - نعاملها كطفلة ، حتى فى عرى جسدها ، وما أغرب الجسد الانسانى الجميل المتفجر بالشباب وبالحياة حين يعطى البراءة ..

ها هى البراءة تدخل قفص الحرام والحلال . من الذى ادخلها ؟

وتذكرت زوجها . قلت وأنا أشير على قناعها ..

- اعتقد أن الأستاذ « سيد » راض عن هذا وسعيد جدا به !

ران الفضب على الجزء الظاهر من وجهها وقالت :

- ليس هذا هو المهم . أنا .. سعيدة بهذا . أنا التى أريد هذا ..

ضغطها على كلمة « أنا » أفهم معناه : ليس زوجها هو الذى فرض عليها ارتداء هذا الزى ، انما هى .. التى قررت .. هى .. مازالت - كما كانت - مالكة أمرها وصانعة حياتها وما يحدث فيها من تغيرات !

قلت مشيراً القضية التي تيمنى في تلك اللحظة : معنى هذا  
 انك لن تنزلى معنا البحر اليوم لتستحمى !

نلت عن عينيها نظرة استنكار : اعرى جسمى ؟ إمام كل  
 هؤلاء ؟ ( وأشارت بنظرها على زحمة المصيفين ) حرام .

مرة أخرى دوت في اذنى كلمة « حرام » دخلت منطقة  
 « التابو » . والتابو الآن هو جسدها الجميل . وتنقلت عيناى  
 بين جسد صديقتى الممدد بجوارى على الرسل ، مرتدية مايوها  
 « الهيلانكا » المحبوك عليها ، وقناع نانا وعباءتها الطويلة .

— افهم ان تطلى ثوبك بعض الشيء . ان تجعله فضفاضاً  
 ولكن وجهك ، ما ذنبه . تخفينه وتحرمين بشرتك من الشمس  
 والهواء .. من النعمة ..

— الشمس والهواء في بيتى ، حيث لا يوجد احد غريب .  
 أمشى عارية في الشقة لو أردت .

— وحبك للبحر . وبراعتك في السباحة ، ولعبك مع الموج .  
 انتهى كل هذا ؟

اتسع الاستنكار في عينيها : من قال هذا ؟ لا احد يستطيع  
 أن يأخذ منى البحر او يحرمنى منه . ولكنى حين احب أن أعوم ،  
 آخذ قارباً أنا و « سيد » . ونذهب بعيداً عن الشاطئ ..  
 الى ما بعد الصخرة ( واتجهت بعينيها الى جزيرة صخرية صغيرة  
 وبعيدة بعض الشيء ) هناك ، أقفز من القارب وأسبح .. لا احد  
 الا أنا وسيد .. والماء هناك .. فى المناطق العميقة جميل .  
 السباحة هناك متعة .. انت تعرف ..

قلت بحماس ، مستعيداً الذكرى : آه كم عمنا هناك ،  
 وكم ضحكنا . وكنا دائماً جماعة . كنا نستمتع بالسباحة العظيمة

هناك . هذه حقيقة . السباحة في المناطق العميقة رائعة ..  
بالتأكيد .. ولكن ..

ولم أعرف بماذا اكمل . فقد حدث فجأة ثمة اختلال في تفكيري ، وفقدت تتابع الصور ، وتناثرت الأشياء وتجمعت دون أن يحدث لها ترتيب جديد . والأكثر من هذا أن خيالي الجامح رسم صورة رهيبة تخلصت منها بقوة وسرعة . فقد رأيتهـا - نانى - وهى تفرق فيما بعد الصخرة ، فى المنطقة العميقة ، و « سيد . ف » زوجها واقفا فوق الصخرة ، ممثلا بالربع . غير قادر على انقاذها ، أو ربما هو راغب فى حقيقة أعماقه أن ينتهى منها .

ولوحشية الصورة ، كفت عن الاستمرار فى الحديث معها ، وربما أيضا - وهى الذكية اللماعة ، أحست من خلجات وجهى ، أنى غير راض عن هذا التحول . ورغبة منها فى تجنب اثاره ما قد يزعج سلامها النفسى ، ردت على دعوتى بالجلوس .. معذرة ..

- اننى أبحث عن « حودة » تقصد « أحمد » .. طفلها الصغير .

ومضت مبتعدة ، تخب فى الرمال بقدميها الحافيتين وثوبها الطويل ، ثم اختفت فى زحام المصيفين . وقالت صديقتى وهى تعاود التمدد على الرمال الدافئة :

- أرايت كيف تتطور الأحداث ؟

قلت : النتيجة الطبيعية . ومازلت أذكر أول مرة رأيتهما معا فيها . أوشكت لحظتها أن أسأل : أهى ابنته ؟ !

قالت صديقتى : مازال الرجل فى بلادنا يملك أسلحة

الخدیعة ، كى یستمر فی السلطة . فبعد ان احس « سید . ف » انه بنفسه وامواله وعربته لم یعد قادرا علی مواصلة سلطانه . وان الزمن ضده ، فالعمر یتجه به الى الغروب : ! ما هی فشابها یزداد تفجرا .. فقد لجأ الى ..

ولم تكمل ، فقد وجدتها تهمس لی : ها قد جاء .

ورایته قادما یرتدی بنطلونا صیفیا وقمیجا من الحریر وقد شمر عن اكمامه . وفی قدمیه صندل ینزعهما من الرمل مع كل خطوة ، ویبحث بعینیه .. طبعاً عن نانی ..

وعادت صدیقتی تهمس فی اذنی : ارایت الرجل . ماذا صنع فی نفسه . لقد صبغ شعره !

استثارتنی الملاحظة والمفارقة . فقد بدا الرجل بالفعل ، مع شعره الأسود اللامع ، ووجهه المتفجر بالحمرة ، كانه قد صغر عشر أعوام . وهی « نانی » كبرت عشرة او عشرين عاما . اذن فقد اكتملت اللعبة : اخفی هو الآخر وجهه الحقیقی ، وأصبحت الآیة معكوسة !

وتمنیت لو أصبح علیه : ایها اللاعبان . لعبتك مكشوفة !

ولحنی انا وصدیقتی فأقبل نحونا بحماس ، ینزع قدمیه ، وقبل أن یصل الینا كان یسأل ان كنا رأینا « المدام » ، وأجبناه ونحن ننهض ونسلم علیه بانها كانت معنا منذ دقیقة ، وأشرنا له علی اتجاه سیرها . فاستأذن ومضى مسرعا لیلحق بها ..

ثعلب ماکر . علمه اللعب فی السوق وصفقات الاستيراد والتصدير کیف یلعب بنانی ویصوغها كما یرید .

قالت صدیقتی : ما یفیظنی منها انها تدعی انها فعلت ذلك

باختيارها .. ( وببسة سخريه ) وهل يدخل أحد الصندوق  
باختياره ؟

قلت مؤكدا : اوزوريس .. دخل الصندوق باختياره .  
رغم انه كان مليئا بالشكوك !

شوجت بيدها : هل ستحولها الى دراما .. نحن لن نحمل  
أوزار الآخرين على اكتافنا . قم وانهض . هيا . نسبح بعض  
الوقت . أوحشني الماء .. ها هم الأولاد والبنات يلوحون لنا في  
البحر . ينادون علينا .. وقفزت واقفة على الرمل بقوامها الممتلئ  
الرشيق وفردت ذراعيها ) : الحياة للحياة . وتسابقنا الى  
البحر .

هكذا انسخت « ناني » عن مجموعتنا المرحه ، أصبحت  
سيدة هادئة وقور ، تجلس تحت المظلة ، بتلافيف ثوبها وقناعها .  
لا يبدو من وجهها غير العينين والآنف ، وبالكاد الشفتين ..  
وبشكل تلقائي ، فقدت هذه الأجزاء مقاييس جمالها في نفسى ،  
وتخيلتها امرأة مصابة في حادث وربطوها في الجبس ، لكنهم  
لن يفكوا الرباط أبدا ..

أخرجتها من فكرى . بل كنت أحيانا اتعمد اشعارها انى  
أهملها . تمنيت لو اننى أملك توقيع عقوبة ما عليها . جزاء لها  
على أنها باعت حياتها ، وأنها - دون أن تدري - خانت أخطر  
معركة يخوضها الانسان في بلادنا ، وهى معركة التطور . لكنى  
أعدت نفسى من القسوة . فصفقة بيعها تمت من يوم زواجها .  
أنها فى الحقيقة لم تفقد حريتها ، لأنها لم تكن يوما حرة فى صنع  
حياتها ..

وخفف من وقع « حادثتها » ان البلاج كان قد ضم أجيالا  
جديدة منطلقة ومحبة لحياة الصيف والسباحة فى البحر والانطلاق



الى المناطق العميقة ، ولم تختف روح البهجة من مجموعتنا . وفكرت : ان التطور اقوى . واذا كان البعض يسقط فى الطريق ، فلا أهمية كبرى لذلك . ها هم شبابنا وبناتنا ، فى عمر الورد ، معرضين اجسامهم للهواء وللشمس ، والصبيان بعضهم شعره أطول من شعر البنات . وبدا التناقض واضحا بشدة . وأنا أنقل بصرى بينهم وبينها ، وهى جالسة على الرمل ، فى القوقعة ، تنظر بعيون شاردة ذاهلة . . وانطلقنا فى البحر نسبح ونضحك ونملأ الفضاء بهجتنا .

بمرور ذلك الصيف ، فقدت حكايتها غرابتها فى نفسى . لا سيما ان ظاهرة النساء والفتيات المقتنعات بدات تتزايد . ولم اكن افسر هذه الظاهرة الا بان دولة الرجال تخشى من دولة النساء القادمة الزاحفة . وقلبتها كوميديا ساخرة مع صديقتى وتركنا البحر وعدنا الى القاهرة لأعمالنا . كان شبحها يعاودنى بين الحين والآخر ، ثم نسيتها تماما . الى ان عدنا فى الصيف التالى ، الى نفس منطقة البحر والبلاج التى تعودناها . فوجدتها . . كما هى . . بالقناع والثوب الفضفاض . وفى تلك المرة ، خيل لى أنها ولدت هكذا ، ونسيت تماما صورتيها الأولى . . بالمايوه . وقر فى نفسى ان « نانا » الأولى ماتت فى صباها أو غرقت فى البحر ، فى المنطقة العميقة وانتهى الامر ، بل وفقدت أى انفعال بها . اللهم الا اننى كنت اتجنب النظر اليها ، فقد كانت تمثل لى الهزيمة والاستسلام للثعالب الماكرة العجوزة !

غير أن أكثر ما كان يثير حزنى وأسفى ، هو ابنها الصغير « حودة » أو « أحمد » كان هو أكثر الخاسرين من هذا الانقلاب الذى حدث فى حياتها . فكتم رأيتها تصطحبه الى الماء وتعلمه كانها أخت كبيرة تلعب معه . وقد تعلم السباحة مبكرا ، وأصبح

« مجنون بحر » ، ومع هذا فقد اتفقت معه اتفاقا صارما ألا ينزل الماء الا مع أبيه . ولهذا فقد كان الصغير معظم الوقت جالسا الى أن يأتي أبوه الذى كثيرا ما كان يسافر بعربته لمتابعة أعماله .

أقول تراجعت من نفسى تماما مع الأيام ، الى أن كان هذا الصيف ، على نفس الشاطئ . وجدتني أسأل عن كل الأصدقاء والصديقات ، الا هى .. لم تخطر على بالى . غير أنى فوجئت بصديقتى تقول لى وفى عينيها فزع :

— سمعت شيئا غريبا وفظيعا الآن — « سيد . ف » غرق .

صحت بفزع : تقولين غرق ؟

احسست بشعر رأسى يقف . اختلطت المشاعر فى نفسى : بشاعة الاختناق تحت الماء .. الرعب .. والنجدة .. حيث لا نجدة ..

— كيف .. حدث هذا ؟

— تفاصيل لا اعرف . يقولون انه غرق منها بعد الصخرة . ذهب بها الى هناك كالعادة ، لتستحم بعيدا عن العيون ، غرق منها .

— غرق منها ، أم هى التى أغرقته ؟

ورأيت نظرات اللوم فى عيني صديقتى ..

— حرام عليك . هذا اتهام فظيع . أرجوك لا تنطق به امام أحد ..

هزنى هذا النبأ هزا عنيفا ، حتى أنى بقيت عدة أيام أخاف النزول الى البحر وشبح سيد . ف يطاردنى وهو يصارع

ويختنق ويفوص بالتدريج الى اعماق البحر . وسيطر على خيالي المشهد التراجيدي الرهيب . ابيع عمري واعرف ما الذي حدث فيه . وكيف حدث ؟ لا أحد يعرف تفاصيله الا هي . . . فهي الشاهدة الوحيدة على ما حدث في منطقة المياه العميقة البعيدة . وفكرت في زيارتها في بيتها . لكنني لم أجرو . ان يقوم الانسان بدور المحقق في موقف مفجع مثل هذا .

واذ كنا في الصيف كالعادة ، طلاب لحظات مرح وسعادة ، وكرنفال المصيفين والمصيفات على الشاطئ . واجيال جديدة نتتابع . . صيفا بعد صيف . . سخاء الحياة وعنفوانها . . فقد تراجع من نفسي شبح الموت ، وانطلقت مع أصدقائي وصديقاتي نعب من بهجة الحياة على البحر بكل ما نملك من شغف وحنين . . فكلنا يأتي هذا الشهر من الصيف لبيع من جديد . يفصل نفسه من ركامات التعب ، واللهاث ، والاختناق داخل المدن ، ويتمنى لو يصبح هذا الصيف بداية جديدة على نحو ما لحياته . .

وكنت قد تعودت في العصارى ان اخرج وحدي واقطع مسافة طويلة على الكورنيش ، املا صدري بأمواج الهواء ، وأرى قرص الشمس وهو يقرب . كانت تلك قمة متعتي . وكانت متعة درامية . فقد لاحظت ان اعظم مهرجان من الألوان للشمس . . ألوانها الحادة والصريحة والمتوهجة ، هو الذي يسبق غرقها في البحر . ثم بدأ شيء غريب يحدث لي مع هذا المنظر كل يوم ، والشمس تفوص امامي : كنت أجدني اثلقت في اتجاه الصخرة اياها ، ويعاودني منظر « سيد . ف » وهو يفوص ويفرق . وناني في القارب ، أو تسبح بجواره ولا تستطيع ان تنقذه ، أو هي التي تغرقه . . فيفوص الى القاع . . مع الطحالب والأسماك . وبدأ هذا الخاطر يزعجني . وكان هذا الانزعاج يتصاعد في نفسي الى حد القشعريرة ، حين امر على مكان الصخرة في الليل . . في الظلام . .

وأفكر : هنا جريمة قتل لم تكتشف بعد ! ونانى هـى  
القاتلة ! لو قابلتها فسوف المح لها بهذا الاتهام وأبرى وقعه عليها .  
سأراه فى عينيها اللتين لم تخفهما وراء القناع . .

وما أغرب ما يحدث أحيانا فى الحياة . أن تفكر فى انسان  
وترسمه بخيالك ، فإذا به هو نفسه ، بلحمه ودمه أمامك .

تسمرت قدمى اذ فوجئت بها . . نانـى . . مقبلة فى اتجاهى  
فستان أسود طويل . . والوجه . . قمر فى حداد .

والتقت نظراتنا . أدركت انى وقفت من أجلها . ران على  
شفتيها ظل ابتسامة امتلأت بالأمل . . وأنا أسلم عليها .

ـ هل تصدقين اننى كنت أفكر فيك فى هذه اللحظة .

ـ فى انا ؟ ( وتنهدت ) جميل أن يكون فى هذه الدنيا  
أحد يفكر فى .

قلت مندفعاً وبحماس :

ـ انت . . يا نانـى . . تستحقين أن يفكر العالم كله  
فيك . . انا شخصيا لا اكف عن التفكير فيك . لم أقل لك  
« البقية فى حياتك » . كنت أضعف من أن أقولها لك . لا أدري  
لماذا . وللحظة أحسست بالندم . فقد أربد الهدوء الذى كان  
يكسو وجهها ، وأغمضت عينيها للحظة ، كأنما تبعد صورة . .  
وزفرت : مرسيه . الله يبقـى حياتك .

واذ بدا أن لقاء الصدفة على وشك أن ينتهى ، قلت  
متشبهاً :

ـ لم نجلس معا منذ وقت طويل . منذ كم صيف !

ـ هذا صحيح . زمن طويل ( وشردت بعينيها )

قلت متشجعاً : نانى . اذا لم يكن وراءك الآن شيء  
سيحول مجرى التاريخ : فأرجوك . اقبلى دعوة منى على فنجال  
شاي ، او قهوة .. تغير طعم الصيف كل تلك السنوات  
بدونك .

ابتسمت بمرارة : أنت روائى .. وخيالك احبه .

— اذن فقد قبلت دعوتى . هيا الى اقرب كازينو .

تنهدت . وأشارت بيدها موافقة . وسرنا صامتين على  
مهل . ما كان يخطر ببالي او بباليها ، ان اقرب كازينو ، هو  
ذلك الكازينو الذى يطل على الصخرة ومنطقة المياه التى غرق  
فيها زوجها .. كان قريباً جداً منا .

وخيل لى ونحن نتجه اليه انها ستصرخ فجأة فى وجهي،  
حين تنتبه الى ذلك : ايها المخادع . ايها المتوحش . لماذا  
هذا المكان بالذات . ثم تجرى منى هاربة !

غير انها كانت تصعد سلالم الكازينو فى هدوء وصمت  
بجوارى . وكانت ترفع ذيل فستانها الطويل كى لا تتعثر فيه .  
وأوشكت ان اقول لها : كفى هذه الملابس .. حركتنا فى  
الحياة ، يجب ان تكون منطلقة وخفيفة .

غير انى امسكت نفسى . يجب الا اتسرع بأى كلام يمس  
صلب الموقف .

فقد كانت قضية خلع القناع مرتبطة فى نفسى بحادثة  
الفرق على نحو ما .. اننى داخل على غابة انسانية ، وليس على  
جلسة بحرية رومانسية ، وبعد لحظات ، بعد هذه الانحناءة  
الأخيرة فى السلم الصاعد ، ستجد نفسها للفضاء وللبحر ،  
وبالذات المنطقة التى حدثت فيها المأساة ، وسأضع عيني فى

عمق عينيها واكتشف كل الأسرار .. وأسرعت دقات قلبى : تراها نسيت الموضوع ، او الفته .. وخف اثره فى نفسها والزمن أبو النسيان ؟ !

وفوجئت بها ، أول ما انتهت من السلالم ، تستند على حاجز خشبى ، ثم تعطى وجهها لموقع الصخرة فى منطقة المياه العميقة .. مكان الحادث .. ترى أى شريط من الصور يتراءى لها .. الحقيقة التى لا يعرفها شخص فى العالم غيرها . وتفurst بقوة فى وجهها .. بروفيل وجهها ، لأعرف بالضبط بأى مشاعر تواجه الموقف . ذكرى الموقف . لكن قناع الوجه ، مع وقفها الجانبية كان يساهم فى اخفاء الحقيقة عنى . وللحظة راودتنى فكرة ان المجرم يجب أن يحوم حول مكان جريمتة . قلت قاطعا الصمت ، لكى تنظر لى بكل وجهها واكتشف الحقيقة من عينيها .

هنا وقع الحادث . اليس كذلك ؟

أغمضت عينيها . وأمسكت الحاجز بيديها ، كأنما تخشى السقوط . أسرعت فسندت ظهرها بأطراف أصابعى . - تعالى نجلس فى الشرفة . أو ان شئت نترك هذا المكان . نذهب الى كازينو آخر .

تدت عنها زفرة طويلة .

- بالعكس . أنا أحب أن أجلس هنا . وأنظر الى هذا المكان الذى غرق فيه .. هل كان يمكننى انقاذه من الغرق ؟ .. لم يكن ممكنا .. أبدا .. لم يكن ممكنا !

كانت تكلم نفسها أكثر مما تكلمنى . وتوقعت أن تنفجر باكية ، لكنها أخرجت - بديلا - تنهدة حرقت قلبى بصدقها .

- هو الذى اغرق نفسه . هو الذى اغرق نفسه ! وفجأة انفجرت باكياً ( كان يريد أن يفرقني معه . لو كنت اعطيته يدى لكان اخذنى معه الى القاع وغرقت معه . وكان يمكن أن اغرق معه . كان يمكن . ونغرق معا .. ولكن ممدوح الصغير .. لمن أتركه فى هذا العالم المتوحش .. العالم البشع ؟

وانسالت دموعها ..

- عالم بشع .. هذا العالم بشع ..

- لا .. لا يا نانى .. واسمحي لى . فانه لا يخلق عالماً بشعاً . البشر .. بعض البشر هم الذين يصنعون هذه البشاعة .. تعالى نجلس قليلاً .. هنا ..

وامسكت عفويًا يدها ، أسلمت يدها ليدى . وسرنا الى الشرفة .. جلسنا .. طلبنا كوين من الشاى .. الصخرة أماننا .. والشمس .. يا لها من صدفة غريبة .. كان قرص الشمس يغطس فى البحر .. يغوص ..

- كنا نسبح كالعادة . ربطنا القارب فى الصخرة . فى ذلك اليوم كانت انتابتني حالة حماس غريب للسباحة .. رغبة عارمة للانطلاق فى البحر .. أود لو اذهب الى الشاطئ البعيد الآخر .. فعلى قدر حرماني من السباحة معكم بالنهار .. كنت اضرب وحدى فى الموج وأدخل فى الأعماق . أعماق الأعماق .. وكان يصيح على وهو يتبعني : كفاية يا نانى .. كفاية . فأقول منتشية : ليس أجمل من السباحة فى المياه العميقة .. أنا استمتع بما لا يستمتعون به .. هؤلاء الخوافون الذين يسبحون بجوار الشاطئ . فى المياه الضحلة .. تعال .. تعال واستمتع معي ..

وفجأة .. اذ به يصيح على . والذعر في عينيه ، ويلوح  
بيديه .. شيء ما يمكن من قدمي ..

وانطلقت اليه ..

كان يفهم : انقذيني .. هاتى يدك .

وصرخت فيه مشجعة : امسك نفسك . لا شيء  
يمسك بك .

— بل وحش يمسك بى ..

انتابتنى قشعريرة خوف رهيبية : انت تتوهم . استلق على  
ظهرك وارخ اعصابك وأترك نفسك للموج . انت تعرف .

— انا غير قادر . انه يجذبني الى أسفل . هاتى يدك ..  
الا تريدان ان تنقذيني ؟

وأعطيته يدي . فاذا بى فى لحظة واحدة تحت سطح الماء  
والماء يدخل فمى ، وهو متشبث بى . ورأيت الحقيقة واضحة  
أمامى تحت السطح ، فلا وحش ولا شيء على الإطلاق يمسك  
به . وكنت أحاول الصراخ عليه : أنت تتوهم .. لكن الماء  
كان يندفع الى فمى ، ويداه تتمسكان أكثر بى .. فاختنق وأغوص  
معه .. يريد أن أغرق معه .. لا .. وبالفزع من الموت اختناقا  
نزعت يدي من يديه .. نزعتها بعنف .. خلصت نفسى منه .  
أصبحت خفيفة ، واستطعت أن أطفو الى السطح . حيث لم  
يكن غيرى فى البحر . والقارب بعيد لا يزال مربوطا الى الصخرة .  
رحت أسبح بقدر ما بقى لى من قوة — حتى وصلت القارب .  
وارتميت فيه .

وسكنت . فخيلى لى أن الموج فى البحر أمامى سكن . ثم  
عادت الأمواج تضرب وتزمرجر حين قالت : البعض يقول اننى



الذى اغرقته : ولو كنت أنا التى غرقت . وهو الذى عاش  
لقالوا إنه هو الذى أغرقنى ؟ كُن أحدا منا كان لابد أن يفرق  
الآخر . ما رأيك أنت لا :

ـ رابى :

ولم أجد كلاما . بل لم يكن لى أى رغبة فى الكلام . كنت  
ماخوذا بالحكاية .. المشهد .. واللهجة . والصدق الطافح  
من وجه جميل معذب يطمح للخلاص .. وأحسست برعده  
اذ رأيت القرص فى تلك اللحظة .. قرص الشمس .. القوس  
الأصفر الأخير منه .. يفوص فى الماء ..

قلت ، مشيرا على القرص : اترين ؟ الشمس اختفت ..  
لكنها فى الصباح ستطلع من جديد .. اكيد ستطلع من جديد ..

واختلج شماع عينيها ، بل وكل وجهها بفرحة . وهمت  
أن تقول شيئا ، لكن موجات هواء قوية هبت من البحر ورأيتها  
ترفع يديها وتمسك بالقناع لتمنعه من الطيران . أما أنا ، فقد  
رأيت - بعين الخيال - رأيت القناع الذى لم يكن مثبتا جيدا  
وقد طار مع الهواء وظل يطير حتى سقط بعد الصخرة .. فى  
نفس المكان وغرق فيه .. بينما خصلات شعرها الكستنائية  
الناعمة تحررت وراحت تتراقص مع موجات الهواء . وعادت فى  
عينى .. طفلة البحر الرائعة .. قائدة مجموعتنا المرحّة أيام  
الصيف ..

(( ١٩٧٨ ))

## هنولاكو .. والطفلة

كل شيء واى شيء فى هذا العالم كان يمكننى احتماله  
فى تلك الليلة الا دموع « زينب » زميلتى فى العمل ، وهى تنظر  
لى بعينيهما الجميلتين المحمرتين ، تنظر لى معائبة وهى تنشج ،  
كأنى أنا المدنب .. كأنى أنا الذى أصدرت القرار الرهيب بكل  
ذلك الخصم من مرتبها البسيط المحدود .. دفعة واحدة ..  
كأنى أنا الجزار الذى هو بسكينه البائر بلا رحمة ، وقد تركزت  
كل سعادته فى أن يرى الدماء تنزف أمامه .. وضميره فى غاية  
الارتياح والسكينة .

كانت تنظر الى أنا بالذات ، من خلال دموعها ، نظرة  
ساخرة تقطر مرارة .. مرددة أمام كل الزملاء والزميلات ،  
كلماتى التى كنت أرددها بثقة وقوة ، ونحن نتحدث فيما بيننا  
عن مظالم هذا الرجل : « فلنثق بالعدالة الطبيعية .. وأنها  
لا بد يوما آتية » .

وقد خطر لى لحظتها أن أندفع عليه مقتحما مكتبه ،  
واتحول أنا الآخر الى جزار وأشهر عليه سكينى ونتبارز .. غير

انى كنت أعلم سلفا انى فى هذه المبارزة سأكون انا الخاسر .  
فأحد امرين : اما أن أوجه اليه ضربة واحدة صائبة اتوجه  
بعدها من تلقاء نفسى الى السجن لأدفن فيه بقية حياتى ،  
واما أن اتعقل فى المبارزة ، فيطعننى هو فى النهاية بسلاح  
السلطة الباتر : فصلى .. أو وقفى عن العمل ، حينذاك سيكون  
الجنون وتغطى الدماء وجه العالم !

طاطأت راسى أمامها خجلا . ان طوفانا من الكلمات  
المتحمسة المتفائلة لن تمحو روح الشر من العالم ، والعدالة  
الطبيعية لأبد لها من سلاح عات تشق به طريقها ، وتعيد الصفاء  
الى العيون الباكية !

وطالعتنى عيناها الواسعتان برموشها الطويلة المنداة  
بالدموع .. والتى ياما تغزلت فيهما ببراءة .. ممجدا فيها  
روح البطولة والمرح التى تواجه بها مشاكل حياتها كزوجة  
بسيطة تناضل مع زوجها - البسيط أيضا - كى يحققا  
لنفسيهما ، ولطفلتهم الصغيرة ، معجزة ايجاد شقة صغيرة ..  
وحياة شبه آمنة فى غابة هذه المدينة . انما الرائع فيها ، أنها  
كانت ماضية فى تحقيق المعجزة بروح المرح . كانت مثل زوجها  
تعمل فى الصباح . وكذلك فى المساء ، دون أدنى شكوى  
أو ضجر .. وكانت بطولتها تتبدى لى فى المساء .. كل مساء ،  
وانا أراها قادمة للعمل ، وفى يدها ابنتها الصغيرة .. اذ كيف  
تتركها وحيدة فى البيت ولا شغالة أو قريبة . لا حل أمامها  
الا أن تصحبها معها كل مساء ، وتجلسها بجوارها على أحد  
الكراسى ، فتمثل الصغيرة لجلستها ، وتتفرغ الأم لالنها  
الكأبة .

كان أروع ما فى الطفلة ، أو أغرب ما فيها ، وهى ابنة  
السادسة .. الهدوء الذى يطبع تصرفاتها ونظراتها الرزينة

العاقلة .. كأنما هي الأم ، والأم بمرحها هي الطفلة . كانت تدرك جيدا أن وجودها في هذا المبنى وفي هذا الوقت خطأ وظيفي ، وعليها إذن أن تلزم غاية العقل والهدوء ، وتميت في نفسها كل رغبات الطفولة في الجرى واللعب والصياح والقفز من مكان الى مكان !

إذن ما الذي جعل طفلتنا العاقلة في تلك الليلة تتحرك من مقعدها دون أن ينتبه اليها أحد ، ثم تخرج من الحجرة بهدوء شديد ، وتترك نفسها لتقديمها تتجولان بها على غير هدى .. ثم لتجد نفسها - بحجمها الدقيق الصغير - دون أن ينتبه اليها ! حد .. تدخل إحدى الحجرات الفخمة الواسعة .. دون أن تدري أنها حجرة مكتب الرئيس الأعلى للعمل .

كان الرجل جالسا الى مكتبه يقرأ في بعض الأوراق ، وكالعادة ، كانت أباجورة المكتب هي الوحيدة المضاءة . أما بقية الحجرة فمعتمة ، وأطنان من الصمت تثقل جو الحجرة . أحس الرجل فجأة بثمة حركة خفيفة في الحجرة ، كيف لم يدق السكرتير قبل أن يدخل ؟ رفع رأسه ، وإذا به يرى في العتمة كائنا صغيرا دقيقا يتحرك في اتجاهه . ومن المؤكد أن الطفلة كانت تنظر اليه والى عالمه بابتسامة ممزوجة بالاستغراب والفضول ، الا أن رعبا ساحقا غزا نفسه ، فتراجع فزعا في جلسته . وتصور الطفلة في العتمة جنا أو عفريتة أخذ شكل قزم صغير . فوقف شعر رأسه وتلاحقت أنفاسه ولم يتمالك نفسه فمضى يصرخ ويصرخ مستغيثا بصوت عال . واذا فوجئت الطفلة بمنظره المفزع وصرخاته المرتعبة ، انتقل الرعب اليها هي الأخرى ومضت تصرخ وتصرخ . وامتزجت صرخات الاثنين وعلت على نحو جذب كل العاملين والعاملات في المبنى الى الحجرة ، ودخلوا جميعا .. مروعين ليروا المنظر العجيب !

وما أن رآها الرجل : وفي مقدمتهم سكرتيره الذى أسرع  
واضاء بقية الحجرة : حتى أحس بالأمان . وبدأ يسترد أنفاسه  
الزاهية . أما الطفلة . فقد كانت ماضية فى الصراخ وفى البكاء ،  
ولم تتوقف حتى رأت أمها تندفع إليها ونصرخ فى وجهها . تكاد  
تمزقها - أيه اللئى جابك هنا يا مجنونة ؟ !

حل صمت مروع على الجميع : تركزت النظرات على  
الرجل الضخم الكبير ، كان شاحب الوجه .. مفكك الاوصال ،  
متداعيا ، أسرع سكرتيره ليساعده على الجلوس . أشار معترضا  
بكفه .. وبصوت كالفحيح : أمر الجميع بالخروج .

- اتفضلوا .. كلكم .

وفى الصباح بعد ليلة مليئة بالتعليقات على ما حدث ،  
ومحاولة تفسير كل ذلك الرعب الذى ملأ قلب هذا العملاق  
من تواجد طفلة صغيرة معه ، فوجئنا وفوجئت ( زينب ) وهى  
محملة بأطنان من الاحساس بالخوف والندم ، بقرار الخصم  
الرهيب من مرتبها الضئيل ، وانذار للجميع بعدم تواجد أى  
عنصر غريب ، حرصا على حسن سير العمل ، وكانت دموع  
زينب ، ونظراتها المعاتبة لى ، ساخرة من كلمتى المتحمسة  
عن العدالة الطبيعية ، الا اننى لم البث أن عدت أقول فى نفسى :  
أجل . ان ما حدث دليل على وجود العدالة الطبيعية . الا أنها  
لا تقتص من امثال هؤلاء الرجال ، الا على مراحل ، وأحيانا  
على صورة طفلة صغيرة أو كائن صغير ، يظهر لهم فى العتمة ..  
فيكشفون على حقيقتهم ..

حقيقتهم الهشة !!

« ١٩٧١ »

## اغنية اليمام

شفتى لها نافذة تطل على سطح الجيران • على السطح تسكن  
يمامتان كنت استمتع بمنظرهما كل صباح • استيقظ كعادتي قبل  
طلعة الشمس ، فى غبشة البكور ، والهواء لا يزال نقيا نديا ، املاً  
صدرى بالهواء الطازج ، وأرقب مطلع قرص الشمس من خلف جبل  
المقطم ، فأرى اليمامتين تتلاعبان على السطح ، تقفزان ، تطيران  
تحطان ، تتوشوشان ، تتطاردان ، تتناقران ، تتناغيان ، تتماسكان  
• الانثى تتدل وتراوغ ، والذكر يصر •• يترصده ويلف ويدور •  
ثم فجأة ومن الخلف •• من فوق •• ينقض ، يحط على الظهر ،  
تستسلم الانثى ، تحلو لها لعبة الاستسلام • أه : ما أجمل الحب بعد  
طول المطاردة •• ثم ينطلقان محلقي فى فضاء المدينة •

وكثيرا ما كان يحل عليهما أصدقاء آخرون ، يمام وعصافير  
وحمام ، فيتحول السطح أمامى الى ملعب صباحى مرح سعيد  
لتشكيلة جميلة من الطيور ، ثم لا يلبث هؤلاء الاصدقاء ان يرحلوا ،  
وتعود اليمامتان الى ثنائيتهما وقد ازدادا اقترابا وتوحدا •• !

كنت أعتبر سكن هاتين اليمامتين احدى نعم الحياة على ،

وكننت ادعو فى سرى الا يغيرا هذا السطح ، فاسطح المدينة كلها  
مبسوطة امامهما ، وتستطيعان التغيير لو شاءتا ، لكنى ادركت ان  
اليام من أكثر الطيور وفاء للمكان وتمسكا به !

وكثير ما كنت أسمع صوتيهما ، بالذات اوقات الضحى ، وأنا  
داخل شقتى ، اسمعهما يهدلان بنغم شجى رقيق ، فاعود ذاكرتى الى  
أيام طفولتى فى القرية ، حين كانت أمى تنبئنى الى صوت اليمام  
قائلة :

— هل تعرف ماذا يقول ؟ وحدوا ربكم . وحدوا ربكم .

منذ طفولتى وأنا أحب جدا اغنية اليمام .. الا اننى فوجئت فى  
ضحى أحد الايام ، بصقرين يتواجدان على السطح . نفس السطح  
الذى تسكنه اليمامتان ، هبط قلبى خوفا عليهما ، خاصة وانى لم  
ار أحدا من الطيور الاخرى اصدقاء لعبة الصباح . وقدرت أن هذه  
الطيور ، حين فوجئت بالصقرين ، تركت السطح على الفور هاربة  
من شرهما ، وبقيت اليمامتان بجوار عشهما .. لا مقر !

تصاعد خوفى عليهما . اننى اعرف طبع الصقور ، انها مغرمة  
بالنهنش ولها مخالب تجرح . واليمام وديع ورقيق ، ومشغول بالحب  
وبدعوة التوحيد ، ولن تنبت له مخالب يدافع بها عن نفسه !

وددت لو معى بندقية وأطلق عيارا أخيف به الصقرين ، لكنى  
فكرت ان الفزع سيعم السطح ، وستكون اليمامتان أول الراحلين !

قلت لنفسى : قد يتعايشون . فالخلاء وهذا السطح مثل كل  
السطوح ملك لجميع الطيور ، ثم لماذا أكره الصقور ؟ انها رواسب  
منذ أيام الطفولة ، حين كانت لعبتى صيد أفراخ الصقور من  
أعشاشها فتعضنى ، وهى صغيرة ، بمناقيرها الحامية دفاعا عن

نفسها !! الآن على ان اتخلص من هذا الشعور ، فأحب الصقور  
كما أحب اليمام ، وأوسع من دائرة الحب فى قلبى !

وقد أسعدنى هذا الفكر المتفائل ، حين لاحظت شيئاً غريباً  
ومثيراً يحدث • الصقران واليمامتان بدءوا يتقاربون ويتعايشون •  
أكثر من هذا ، بنى الصقران لنفسيهما عشا على السطح وسكنا  
فيه دون أن يحدث شئ يعكر صفو المكان !

هتفت فى سرى : يا للمعجزة ، وتمنيت لو تأتى الطيور  
الآخري ، أصدقاء لعبة الصباح ويتفرجون على المعجزة التى  
تحدث ، ويجربون مع اليمامتين معايشة الصقور ، الا ان الطيور  
ظلت على تباعدها وحذرهما ، وبقيت اليمامتان وحدهما مع  
الصقريين !

لكنى مع الايام ، كنت لاحظ شيئاً غريباً يحدث ، كان لعب  
اليمامتين وغناؤهما وتواجدهما معا بدأ يقل ، والاغرب أن أنثى  
اليمام أصبحت تتواجد مع أنثى الصقر • تنجذب الاثنتان الى  
بعضهما وتبادلان الحديث بحماس وشغف !

تمنيت لو أوهب معرفة لغة الطيور ! ترى ماذا تقول كل منهما  
للأخرى ؟

وابتسمت فى نفسى : لابد أنهما تتناقلان الاخبار والمعارف  
والخبرات ، وبذلك تزداد اللفة وروح التعايش !

وقد توقعت أن تنشأ صداقة مماثلة بين الذكريين ، ذكر اليمام  
وذكر الصقر ، الا أن التقارب بينهما لم أره أبداً يدخل فى مرحلة  
الصداقة ، وفكرت : لابد أن هذا يرجع الى حذر ذكر اليمام واحساسه  
بمسئوليته عن تطور الموقف ! أو •• ربما الى عقدة النقص النابعة  
من احساسه بضعفه ويماميته أمام قوة الصقر وشراسته ، كان -



فى بعض اللحظات - يغمرنى احساس عميق بان ثمة معركة مقبلة بالحتم ، وان على اليمام أن يستنبت لنفسه ، مقابل مخالب الصقر ، أسلحة أخرى يضرب بها وقت الحاجة ٠٠ ولكن ٠٠ أية أسلحة يمكن أن يتسلح بها هذا الطائر الوديع الرقيق البسالىح الرقة ٠٠ أية أسلحة ؟!

كنت أراء يأخذ جانبا ويرفع منقاره الصغير ويصيح بأغنيته أو بدعوته : وحدوا ربكم ، فتسرع اليمامة وتصيح معه حتى وهى بجوار الصقرة : وحدوا ربكم ، وحدوا ربكم .

أيمكن أن تكون هذه الاغنية هى سلاحهما ؟؟ !

ويبدو ان الصقر لم يكن يحب هذه الاغنية ، فقد كانت تند عنه حركة عصبية ، وينبش فى الارض مثيرا بعض التراب ، فتسرع اليه انثاء منبهة ، فيتوقف فى الحال عن النبش وينظر فى وجوم وعيناه تلمعان . ترى ٠٠ هل هناك فرق بين اناث الصقور ونذكورها ؟؟

كنت كثيرا ما أستغرق فى عالم الطيور هذا وأراقبهم وهم يتصرفون واتخيلهم أيضا يتكلمون ويتحاورون ! والطريف أيضا أنه كان عندى منظار مكبر ، كنت أستعمله بحذر شديد لأرى تفاصيل ملامح الصقرين واليمامتين ، فأرى بالفعل ان الطيور تفرح وتحزن وتغضب وتبتهج وتنفل وتنقلب أيضا مثلنا نحن البشر !!

وقد فوجئت ذات يوم بحادث غريب يحدث : فقد رايت اليمامة واقفة على سور السطح مع الصقرة ، ثم فجأة طارتا معا ٠٠ أما الذكران فقد بقيا وحدهما على السطح ، متباعدين كالعادة !

شغلتنى هذه الظاهرة : كيف تترك اليمامة وليفها وتطير مبتعدة عنه مع صقرة ؟! قلت باسمها : انها قدرة الاناث على التعارف

والتحالف ضد الذكور ، يلتمسن القوة من ترابطنهن ، ويروحن عن النفس أيضا !

غير أن المسألة تطورت فيما بعد الى ما هو أخطر . كان ذلك أحد أيام الصيف الحارة ، ساعة من ساعات القيلولة ، تلك التي تتجبر فيها الشمس فتهمد الكائنات وتدوخ وتسكن حركتها وأصواتها . وأصاب المدينة مس من هدوء شامل عميق . فجأة سمعت الاغنية : وحدوا ربكم ، وحدوا ربكم .

آه . ما أجمل صوت اليمام مع هدوء المدينة الشامل العميق ! شرعت منظارى ورحت أرقب خفية ، وجدت الذكر هو الذى يغنى ويدعو . أما اليمامة فكانت راقدة بجواره فى العش ، ومنقارها فى صدرها ، تكاد تخفيه داخل ريشها . انها لا تغنى معه !

ويبدو أن ذكر اليمام أحس - مثلى - بغرابة صوته منفردا ، فنظر اليها . كانت مغمضة العينين ساكنة ، لابد أنها من شدة الحر فى غفوة . توقفت عن الغناء احتراما لراحتها وحرصا أيضا على صحتها ، فهى أصبحت تجهد نفسها كثيرا فى الطيران والتجوال مع انثى الصقر ، غير أنه لمحا فجأة تفتح احدى عينيها نصف فتحة . حينذاك فكر انها استيقظت فعاد الى الغناء بحماس : وحدوا ربكم ، وحدوا ربكم . لكنى فوجئت بها تنظر اليه بعينيها الاثنتين ولا تغنى معه . نظر اليها مستغربا مستنكرا :

- لم لا تغنين معى ؟

نظرت اليه بنصف وجه : انى متعبة !

- الغناء يمسح عن القلب التعب ، وقد انتهزت فرصة هذا الهدوء لنغنى ويسمع الكل دعوتنا .

بدا عليها الضجر : وما الفائدة ؛ كلها ساعة ويعود الزئير .  
أريد أغنية يسمعها الكل رغم الضجيج .

بدا عليه الاستغراب : اية أغنية تريدان ؟ نحن نغنى  
ما نستطيع .

— بل نستطيع الكثير ، لكننا فقدنا الرغبة فى التغيير ، فقدنا  
الطموح .

ركزت نظارى أكثر عليهما . يا لها من معركة تحدث بين  
أنثى اليمام وذكرها ، مثلما تحدث كثيرا بين اناث البشر وذكرهم .

ولأننى مع ثورة المرأة فى عالم البشر ، ومع التمرد والتغيير  
بشكل عام ، فقد تعاطفت لحظة مع موقف اليمامة . أجل . . هذا  
العصر . . عصر الضجيج والزئير يتطلب أغنية أقوى . . أغنية  
تجلجل وتدق اجراس الخطر . . غير أننى مع اكتئاب ملامح  
اليمامتين ، تذكرت أن موقف اليمامة الجديد هذا ، جاء مقترنا  
بمصاحبة الصقور ! لا بد اذن من التوقف والتحذير : انت تدخلين  
فى منعطف خطير . وارتباطك الزائد بهذه الصقورة هو السبب !

ند عنها صوت غريب . هو خليط المواز والقرقرة : اسمع . .  
اياك أن تمس صديقتى بكلمة .

— أو تصادقين الصقور ؟

— وأصادق الجن والعفاريت . . انا أكثر ذكاء وعقلا . .  
وعينائى وسط رأسى .

— انت لا تعرفين ماذا تريدان .

— بل انت المغرور . . انت الذى تريد أن تظل محتفظا  
بسيطرتك وعلويتك من فوقى . . ولكن لا . . انتهى هذا الزمن !

كانت تقرقر بحدة وعصبية • وراعنى انى رأيت ملامحها وقد  
اتخذت للحظة ، شكل الصقور •• هل يمكن يا الهى ؟ !

ورائيهما فى لحظة يكادان يشتبكان ويتنافران ، ثم اذا باليمامة  
تطير مبتعدة عنه وتحط على السور • طار وحط بجانبها ، ضاقت  
بوجوده بجانبها وابتعدت عنه فى غضب •

— لم تعودى تطيقين وجودى بجوارك ؟ اذا سأترك لك العشى  
وأمضى •

— بل أنا الذى سأتركه •

— لا أنا الذى سأتركه ، لتعيشى فيه بحريتك •

واندفع طائرا مبتعدا •• ولم يلبث أن اختلفى ! ورأيت اليمامة  
تترنح للحظة كأن زلزالا أصاب قلبها ، وأن أركان حياتها توشك على  
الانهيار ، وأوشكت على الصراخ : لا يا يمامى •• عد الى •• فلا  
حياة لى من غيرك •

غير انها تماسكت وقاومت صرختها ، ثم شمخت بصدرها  
ومنقارها : لا •• لن أموت بدونه •• أنا قادرة على الحياة من  
غيره •• سأثبت هذا له وللجميع •

وجهت منظارى الى الصقور فى عشمها •• كانا ينظران اليها  
بتعاطف شديد ، واقتربت منها الصقرة وقالت •• بهدوء وسخرية :

— يا لهم من مغرورين هؤلاء المذكور • يحسبون اننا لا شىء  
بدونهم •

قالت اليمامة وقد بدا عليها عدم الموافقة :

— لا اظن ان القضية هى قضية ذكور وأناث • ولا اظن أن

صقرك هذا يعاملك بمثل هذا التعلى والعنجية ٠٠ القضية هى  
الاحساس المتبادل بين الاثنين بالمساواة ٠

قالت الصقرة مقرقة بضحكة ساخرة : لا يايمامتى الرقيقة ،  
ان حب التسلط والوصاية شىء فى دم الذكور . كل الذكور ، فى  
اليمام او الحمام او الصقور ، ولا تؤخذ الحرية منهم الا هبشا  
وبمعركة ( ونظرت الى صقرها ) اليس كذلك يا صقري الحبيب ؟

قال الصقر مداريا غيظه بابتسامة : لكنك لم تفرضى على  
شيئا ، وحريتك فى التنقل والظيران بكامل رضى ٠

— آه ٠٠ ولكن لاتنسى ان رضاك هذا لم يات الا بعد معارك  
كثيرة بيننا ، حتى اقتنعت انت بحريتى الكاملة فى الطيران ، وفى  
المبيت أحيانا بالخارج ٠

— تقصدين انك اقنعتنى بالقوة ؟

فأسرعت الصقرة وقالت برقعة خبيثة : القوة لك يا عزيزى ٠٠  
لا نقاش فى هذا ، انما الميزة التى فىك عن بقية الصقور انك متقدم  
فى فكرك ، متحرر من تلك العقد التى تملأ الذكور . انت صقر ولا  
كل الصقور ٠

شمخ الصقر بمنقاره وقال لها بلهجة أمرة : اذا طيرى  
واحضرى لى شيئا اتعدى به ، فأنا اليوم متعب ، وأحس بثقل فى  
جسمى ٠

ندت عن الصقرة قرقة ساخرة وقالت مبسمة :

— ألعب غيرها ٠٠

قال الصقر مستغريا :

— ماذا تقصدين ؟

قالت وهى تنتقل نظراتها بينه وبين اليمامة :

– تريد أن تبعدنى لتنفرد بهذه اليمامة الجميلة ٠٠ بعد أن تركها صاحبها ٠

فوجئت اليمامة بهذا الذى سمعته ، تولاها خوف ممزوج بالاشمئزاز ٠

قالت للصقرة بغضب : هل تتهمين زوجك ، أم تتهمينى أنا ؟  
– مالك أنت وهذا يا عزيزتى ؟

– ان كنت لا تثقين فيه ، فالمفروض ان تثقى فى أنا ٠ ان المسؤولية فى هذا كما تعرفين تقع على الانثى ، أكثر مما تقع على الذكر ٠

#### قرقرت الصقرة بضمكة

– ذلك قد يصح يا عزيزتى فى دنيا اليمام ، أما فى دنيا الصقور ، فيوجد عندنا شيء اسمه الاغتصاب ٠

وفجأة اذا بذكر الصقر ينتفض ويفرد احدى جناحيه بغضب ويهوى به على الصقرة ، فصرخت من شدة الألم ٠ غير انها لم تلبث أن نفشت جناحيها وأطل من عينيها بريق مخيف ، ثم انقضت عليه وراحت تكيل له ضربات متوحشة مجنونة ، واشتبك الاثنان فى معركة رهيبية تعالت فيها صرخاتهما وصياحهما ، تملك اليمامة احساس بالهول وبالفرع وهى ترى المعركة الوحشية بين الزوجين تتصاعد والدماء تسيل منهما ، ولم يتوقفا الا بعد ان عجز كلاهما عن الحركة !

كان قلبى مع اليمامة ٠ وتمنيت لو يجهز الصقران على بعضهما فى هذه المعركة ويخلو السطح منهما الى الابد ، الا أننى فوجئت بالصقرة بتبسم لليمامة وتقول لها وهى تلهت : لا تنزعجى

يا حبيبتي • هي معارك خفيفة نبدر بها الملل . الحياة تحتاج دائماً الى تغيير ، ليس كذلك يا صقري الحبيب ؛

قال بصوت متحذرج : هو كذلك •• يا صقرتي الحبيبة ••  
لقد حركت هذه المعركة اضرافى التى كادت تتيسر من قلة الصراع  
وانعدام المعارك ،

— هل سمعت يا يمامتنا الرقيقة ؟

وفوجئت باليمامة تنطلق طائرة مبتعدة . رحت اتابعها بمنظاري  
حتى اختفت • تراها انطلقت لتبحث عن رليتها وتعيده الى عشها ؟

عدت بمنظاري الى الصقرين ، فوجدتني امام مفاجأة اخرى  
أكثر بشاعة • فقد انتهن الصقراوان غياب اليمامتين عن عشهما  
وراحا ، رغم جراحهما واجهادهما ينبشان فى العش ويذروانه فى  
الهواء •

قالت الصقرة وهى تعاني من الالمها : اننى متعبة ، وانت  
مازلت تعرج • فلنؤجل العملية حتى شغائنا •

— لا تضخمى من العملية . نظرة واحدة منى او منك اليها  
تجمد الدماء فى عروقها • هيا نواصل الهدم لنبنى مكانه عشا آخر  
يناسب أولادنا القادمين •

— قد تعود ومعها زوجها •

— هو ذكر جبان • وسيرضى بالامر الواقع ، بل سيفرح  
بذلك ويأخذها ويبحثان لنفسيهما عن سطح آخر وعش آخر ••  
هيا •• لا ترددى •• ان السعادة تنتظرنا وتنتظر أولادنا فى العش  
الجديد •

{٠١}

( م ٢٦ — مؤلفات عبد الله الطرخى )

عاودها الحماس : نعم .. وسنبنيه على طريقتنا • يصبح  
عشا للصقور •

وراحا رغم أوجاعهما يذروان أوراق العشب وأعواده  
الطرية الرقيقة • امتلأ صدرى بالضيق وبالغضب • لسوف أبحث  
عن طوبة أو حجر أو أى شىء والقى به عليهما فيبتعدان خوفا  
وتتوقف العملية الكريهة • • الا أننى ويا للفرحة ، لمحت اليمامة  
عائدة ترفرف ملهوفة على عشها ، وما أن رأتهما يذروان العشب فى  
الهواء حتى صرخت فيهما :

— ما هذا الذى تفعلان ؟

التفتا إليها ، دون أن يبدو عليهما أى أثر لصرختها ، ثم مضيا  
فى عملهما • اندفعت عليهما ل تمنعهما ، رمقتها الصقرة بنظرة  
غاضبة وفردت إحدى جناحيها مهددة : هذا السطح كان سطحنا ،  
قبل أن تبنيا عشكما فيه !

— كذب • • كذب • أنتم لصوص • • مقتصبون •

— اصرخى كما تشائين • • والافضل أن تغنسى لنا أغنية  
اليمام !

— أنتم وحوش ، مخربون • مقتصبون •

ولم يأبها لصرخاتها ، بل مضيا يذروان ويهدمان ، وفجأة ،  
رأيت ذكر اليمام وقد عاد وحط على أرض السطح وراح ينظر الى  
ما يحدث بغضب وارتعاب •

صرخ وهو ينبش فى الأرض : كفا عن هذا الذى تفعلان •  
توقف الصقر لحظة عن الهدم ، ونظر اليه ساخرا متلظا :  
انت لا تعرف ماذا حدث أثناء غيابك ، لقد استضافت وليفتك ذكرا  
آخر ، فغضبنا لكرامتك •



صرخت اليمامة : كذاب .. لا تصدقه .. انهما يدعيان ملكية  
السطح ، انهما لا يريدان هدم عشنا فقط . بل وحياتنا أيضا .  
اندفع ذكر اليمام نحو الصقرين . مبقيا مسافة قصيرة بينه  
وبينهما .

صاحت اليمامة :

— خذ حذرك منهما .  
— اننى احذركما من نتائج ما تفعلان .  
— ها .. وما الذى ستفعله ايها الطائر الهزيل . ياطائر الحب  
والتوحيد .

— سوف نهدم عشمكما مقابل هدمكما لعشنا .  
توهجت عيون الصقرين ببريق مخيف :  
— اذن لا مفر من محوكمما من الوجود .  
قالت اليمامة : هذا خير من أن نفقد عشنا ونحن أحياء . هيا  
يا يمامى اتركهما يهدمان العش ، ولنهدم نحن عشمهما .

وطارت اليمامتان وحطا على عش الصقرين وراحا ينكشان  
فيه بمخالبهما الصغيرة . حينذاك انتفض الصقران غضبا وتركيا  
عش اليمامتين وطارا عائدين الى عشمهما ، فى نفس اللحظة طارت  
اليمامتان ثم حطا على السور ووقفا يتربعان أى هجوم آخر . كان  
الصقران ينظران اليهما وقد بدا الاجهاد واضحا عليهما .

قالت اليمامة ليمامها .. هامة منبهة : انظر كيف يلهثان ،  
انهما خارجان لتوهما من معركة كادا يقتلان فيها بعضهما .  
فلنرهقهما . نحاورهما ونستنفد قوتهما .

• - حذار أن يمسك أحدهما بواحد منا

• - المهم ان نبقيهما بعيدا عن عشنا

كان الصقران قد تحاملا على نفسيهما واندفعا طائرين في هجوم غاضب على اليمامتين الواقفتين على السور ، غير أن اليمامتين ، في آخر لحظة ووفق الخطة ، انطلقا كالسهم مبتعدين •• فحط الصقران على السور وقد ازداد لهاتهما •

قال الصقر وانفاسه تتوالى : حسن انهما تركا السطح نهائيا، فلنواصل هدم عشهما ولن نبقى منه هذه المرة أى أثر •

قالت الصقرة : لكنى مجعدة • وانت ، لقد عادت جراحك تنزف من جديد •

قال بغضب : اياك ان تظهرى أية علامة للضعف • لو عادا فسيكون مقتلهما •

وانذ راحا يواصلان هدم العش ، فوجئا باليمامتين وقد حطا من جديد على عشهما وراحا يهدمان فيه •

صرخ الصقر : لن تفلتا منا هذه المرة •

واندفع الذكر منقضا على الذكر ، والانثى على الانثى ، الا ان اليمامتين كانتا منتبھتين ، واستطاعا في آخر لحظة أن يراوغا ويفلتا ، وان مست كليهما ضربة قاسية •

• - احتملى يا يمامتى

• - لو مت ، لن أتراجع

وحطا مرة أخرى على السور ، وراحا يرمقان الصقرين

الذين بدا عليهما الاجهاد . كانت انفاسهما متدافعة . . . وليناثيما  
يكاد يسمع .

قال اليمام : أرى انهما لم يعودا قادرين على مطاردتنا  
بالطيران .

قالت اليمامة : سيطارداننا على الأرض .

— جاءتني فكرة . . . اد لو نفعلها .

— نفعل ماذا ؟

— كومة التراب هذه . نقف فوقها . ثم نستنرجعها اليها ،  
وبمجرد أن يقتربا منا ، نملأ عيونهما بالتراب .

— فكرة عظيمة . . . ليتها تصح .

— هذا يعتمد على يقظتنا . هما بالقوة . ونحن بالحيلة .  
أن نصيبهما بالعمى ، ثم ننهل عليهما !

كان اجهاد الصقرين وضعفهما . وجراحهما النازفة ، مشجعا  
لليمامتين على أن يواصلوا التحدى . فراحا يناوشان الصقرين  
ويسخران منهما ثم يروغان كابرقي الخاطف .

— فلننفذ الخطة .

وحطا فوق كومة التراب وراحا ينظران الى الصقرين بسخرية  
وتحدى . امتلأ الصقران بالغضب . وهما بالطيران لكنهما احسا  
باجنحتيها تخونهما .

قالت الصقرة : انهما يستنفدان قوتنا بالطيران ، لم أكن أدرى  
ان اليمام له كل هذه السرعة .

قال الصقر في غيظ وهو يلهث : كلما صغر حجم الطير ، كلما  
ازدادت سرعته في الطيران .

- وفى المراوغة وفى المحاورة فى الجو •
- اذا فلنستدرجها الى الارض ،ضربة واحدة قاضية تجهز عليهما •
- قال الصقر لذكر اليمام : انت يمام جبان ، لو انك حقا شجاع ، ابق فى مكانك ولا تطير •
- بل انت الجبان •• انت وهى •• ونحن نتحداكما •• سوف نبقى فى مكاننا ولن نظير •• فلتأتيا الينا ، لو كنتما حقا شجاعين •
- اندفع الصقران يحجلان ويعرجان •• حتى اذا ما اقتريا من كومة التراب ، انهالت عليهما اليمامتان بالتراب وقد سددهتا الى عيونهما • صرخ الصقر من الالم : عيناي ، عيناي ، لم أعد أرى •• وصرخت الصقرة متخبطة : لا •• لا تستخدمنا هذا التراب •• هذه ليست طريقة شريفة فى الحرب وفى النزال •
- لم ترد اليمامتان ، بل تشبث كل منهما بموقفه ، وكلما حاول أحد الصقرين أن يفتح عينيه ليخلصهما من التراب أسرعاً وملاهما بحفنة جديدة ، حتى عجز الصقران عن الحركة ، وراحا يترنحان ويصرخان وهما لا يريان أى شئ •
- وعلى الفور انقضت عليهما اليمامتان ، وراحتا – بحذر – تنقران فيهما بكل الغضب الذى يملؤهما ، متجنبين خبطات أجنحة الصقرين الهوجاء العمياء •• فى تلك اللحظة كان زوج آخر من اليمام يمر فوق السطح ، فنادت عليهما اليمامتان : تعاليا ساعدانا ، كانا يريدان اغتصاب عشنا •• فضربناهما •• أنظرا •
- واذ رأت اليمامتان الوافدتان حالة الصقرين تشجعتا •• وبكل الكراهية القديمة فى صدور اليمام نحو بطش الصقور

وعدوانها ، انقضا مع اليمامتين . وراحا ينقران فى الصقرين حتى  
أعجزوهما عن أية حركة ٠٠ ثم بعد قليل توقفت أنفاسهما عن  
الخفقان !

شعت البهجة فى العيون ٠٠ كانوا جميعا يلتهون ٠٠ لكن  
السعادة سرعان ما امتصت كل التعب ، وكل الاجهاد ٠٠ وكل الحزن  
أيضا ٠٠ ومضى الجميع يبنون عش اليمام ويعيدوه كما كان ٠٠  
وأجمل ٠٠

وتماست الاجنحة والمناقير ٠٠ كل وليف مع وليفته ، وراحوا  
يغنون معا أغنياتهم الجميلة ومناقيرهم الى السماء : وحنوا ربكم  
وحدوا ربكم •

وعاد السطح أمامى ملعبا ومزارا للاصدقاء من اليمام والحمام  
والعصافير ٠٠ وامتلاً قلبى بالبهجة ٠٠ والحكمة أيضا •

، ١٩٧٧ ،

## الطبقات العليا والطبقات السفلى

لا بد أن العنوان ٠٠ عنوان الدرس ٠٠ هو الذى أوحى للبنت أن تلقى فجأة على مدرستها هذا السؤال الذى بدا خارجاً عن الموضوع ، وهو يشرح للفصل درساً فى الجغرافيا كتب عنوانه على السبورة منذ قليل : الطبقات الهوائية العليا للجو ٠

ورغم أن الأستاذ يحيى - وهو اسم المدرس - كان فى تلك اللحظة يحلل طبقات الجو فى المناطق العليا ويرجعها الى عناصرها الأولية من اكسوجين وأزوت وعناصر أخرى ، الامر الذى كان يذهب بشاعرية العنوان ، الا أن الطالبة وهى فى السابعة عشرة من عمرها وجدت نفسها تحلق فى عوالم بدت جميلة وغامضة ومثيرة ٠ وفكرت بنشوة ممزوجة بالحيرة : ياله من كون عجيب ٠ كيف أفهم هذه الدنيا ؟

كان المدرس مستغرقاً فى شرح الموضوع ٠ والبنات يتابعون شرحه ٠ كان فياضاً ٠ وكان مرتباً فى كلامه مثلما هو مرتب فى هندامه ٠ بعوده المتوسط النحيل ٠ وعينه الواسعتين بالمعرفة وبالتجربة ٠ وبعض شعيرات بيضاء فى الفودين ، وتذكرت أنه

تزوج هذا العام واشتركت مع زميلاتي في شراء هدية له .  
وفكرت : لابد أن الاستاذ يحب هذا يفهم الحياة على الأرض مثلاً  
يفهم الحياة في الطبقات العليا للجو . . و . . وفجأة . . رفعت  
أصبعها واندفعت قائلة له بحماس وود : أستاذ يحب . . أياك  
في الحياة ؟

كان السؤال مفاجئاً . أحدث نقلة كبرى في مسار تفكيره ،  
غير أن المفاجأة الأكبر له كانت في البنت نفسها . تلك التي لم يكن  
يحس بها من قبل الا كوجه من الوجود . أو كرقم من الأرقام .  
ها قد جاء الدرس الذي جعل صوتها ينطلق ، ووجهها يتحدد في  
عينيه أكثر من بقية الوجود . بل ويصبح أكثر جمالاً وتعبيراً .  
انتابته دفقة سعادة . كل الآبار تتفجر . ولكن لكل بئر لحظة  
وميمات . وطريقة للاكتشاف . . وفكر . مع ابتسامة ملأت كل  
وجهه ، أن يقول لها : « نحن في حصة جغرافيا ، ولسنا في حصة  
فلسفة . فلنؤجل الكلام عن الحياة الى ما بعد الحصة » . الا ان  
الحماس واللهفة على وجه الفتاة . وشيئاً آخر أراد يحدث لبقية  
البنات حالاً القت عليه السؤال . . كأن موجة هوائية منعشة هبت  
على الفصل ، وكان اليوم بالفعل حاراً والنوافذ مفتوحة . . وباب  
الفصل أيضاً . . على أمل نسمة . . تفتحت الوجوه واشترابت  
الاعتناق وتركزت العيون عليه . ومع اللهفة والحب للذين أحسهما  
في هذه النظرات ، أحس بالخطر التقليدي . ذلك الخطر الذي يحسه  
المدرس أو الخطيب أمام التلاميذ أو الجماهير . فاما ان يرتفع  
بكلماته في عيونهم الى أعلى ، أو يسقط في نظره ويخيب الرجاء  
. . هل هو حقاً له رأى في الحياة ؟ والمهم هل يستطيع التعبير عنه  
لهؤلاء البنات . . وكلهن في الربيع . . من سن السابعة عشرة الى  
سن العشرين أو أكثر بقليل . . كيف يقول . . والى أى مدى يمكن  
أن يقول . وتنبيه . كأنما لأول مرة . أن باب الفصل مفتوح . ومرت

بخياله صور لوجوه كئيبة ٠٠ قديمة وحديثة ٠٠ لكنه أبعدما بقوة :  
لن أغير منهجى فى الحياة !

طوال السنوات التى عاشها مدرسا ٠٠ وفى كل المدارس التى  
تنقل بينها ، ومنهجه الذى يتبعه ، والذى جر عليه كثيرا من المشاكل ،  
هو ربط دروسه بالحياة ، وعقد صداقة بينه وبين الاولاد ٠٠ بنين  
وبنات ٠٠ « ولقد تزوجت ٠ لم انجب بعد ٠ لكنهم مثل أولادى ٠٠  
كلهن بناتى ٠ ومن حقى ومن حقهم على أن يعرفوا رأىى فى الحياة »  
٠٠ داخله احساس بشوة ٠ وإن بثرا بداخله يريد أن يتفجر ٠٠  
يقول لنفسه مثلما يقول لهم ٠٠ كانت النظرات متركزة عليه فى  
لهفة ٠٠ فاندفع قائلا ٠٠ بلا أى تحضير :

- رأىى فى الحياة ؟ ( واستعان على البداية بإشارات من  
يديه وإيقاعات جسده الرقيق النحيل ) أنا شخصا أحس أنى محظوظ  
أنى جئت الى الحياة ٠ حتى لو كنت جئت الى الحياة على شكل  
طائر ٠٠ أو ٠٠ حتى على شكل سلحفاة ٠٠ المهم أنى حى وأمتلك  
عناصر الحياة ٠ فما بالكم وقد جئت على أرقى صورة وهى الانسان  
٠٠ أن يكون الواحد منا انسانا ، هذا فى حد ذاته شىء عظيم ٠  
أن نحس بالسعادة أننا ننتمى الى بنى الانسان ٠ ولأن أجمل وأرقى  
ما فى الانسان هو عقله ، فإن سعادتى ، أعظم سعادة لى ، هى  
الأوقات التى أعيشها بعقلى ٠ أما الأوقات التى أعيشها بحواسى  
وغرائزى ، فمهما كان فيما من سعادة ، فهى سعادة تشترك معى  
فيها الحيوانات والنباتات ٠ لكن السعادة الاعظم أن نحيا  
كإنسانيين ٠٠

من اتساع نظرات البنات الى المدى الأخير ٠٠ ومزيج  
التعبيرات التى رآها على الوجوه الغضة ٠٠ الاعجاب والدهشة  
والاستمتاع بالمتابعة ٠٠ أحس بطاقة كبرى وبرغبة أكثر فى أن  
يواصل ٠٠ ويستمر ٠



انما ( ولوح باصبعه محذرا بجذبة ) يجب ألا يكون الإنسان مسرفا فى التفاؤل . لقد علمتنى تجربتى مع الحياة ان كل شيء له مقابل . كى يحدث التوازن . ذلك التوازن والتناسب الذى رأيناه منذ قليل ( وأشار على السبورة ) يحدث فى الطبقات الجوية العليا .

اننى حين أحس بالبهجة فى وقت من الاوقات ، اقول فى نفسى : سوف يأتى وقت الألم . واذا أصابنى ألم ، اقول : سوف يأتى وقت البهجة . الحياة قائمة على الاضداد وعلى المتناقضات . وهذا سر حيويتها وديناميكتها . انما ( ولوح مرة اخرى محذرا باصبعه ) يجب ألا نكون نحن مصدر الألم للآخرين . بل بقدر الامكان مصدرا للسعادة والبهجة وتخفيف الألم . انما ايضا ، وهذه نقطة اخرى بالمقابل . يجب ألا نخاف الألم أو نكرمه بشكل مطلق . هناك ألم عظيم ومقدس . مثل ألم الأم وهى تعطى للحياة مولودا جديدا . ومثل الألم الذى يحس به المحارب الجريح وهو ينزف فى معركة يدافع فيها عن وطنه . هى الحياة كما رأيتها . أعظم الأعمال والانجازات تأتى دائما مقترنة بالألم . فهل نخاف الألم ؟ ان جمال السكون لا نحس به الا بعد انتهاء العاصفة . صحيح أم لا ؟

وازداد النبع فى داخله تدفقا : « المهم . ان نحيا الحياة . وبصوت جماعى موحد : صحيح يا أستاذ . صحيح .

— نحياها كيف؟ كل بطريقته والعظيم هو من يكتشف لنفسه طريقا جديدا . سكة جديدة . وألا . فما الفائدة للحياة اذا كان الجديد يأتى بنفس شكل القديم ؟! لا تصدقوا أن التاريخ يعيد نفسه . وإذا أعاد التاريخ نفسه فى بلد من البلاد ، فان هذا يعنى أنه يعيش فترة تخلف وارتداد الى الوراء . لا تصدقوا أن التكرار يعلم

الحمار ٠٠ الحمار يظل حمارا ٠٠ لأنه يقبل التكرار ٠٠ نحن نستعبد الحمار بالتكرار » ٠

أسعدته الضحكة العالية التي انطلقت عالية من صدورهن ، وبدأ الجو أكثر انعاشا ٠٠ والمهنة أكثر جمالا ٠٠ ماذا يقول أيضا لعمر الورد ؟ ٠٠ « أن ندرب أنفسنا على اكتشاف المجهول ، والا نخاف ٠٠ أن ننمى في أنفسنا روح المغامرة من أجل الاكتشاف ٠٠ أما الخوف ٠٠ وأما التجمد الذي يعمق روح الجبن في الانسان فهو ٠٠ » ٠

ولم يكمل ٠٠ لقد أحس بشيء ما غريب يحدث لنظرات بعض البنات ٠ وأدرك على الفور من اتجاه النظرات أن هناك شخصا ما عند الباب ٠٠ ونظر ٠

كانت الناظرة واقفة ٠٠ شبه متخفية ٠٠ وتتسمع باهتمام ٠٠ وحين وجدته كف عن الكلام ، دخلت الفصل بهدوء شديد ٠٠ ورغم أنها لم تلق بأية تحية ، فقد وقفت لها الطالبات كتحية تقليدية ٠٠ أشارت لهن بالجلوس ٠ كانت تقاوم رعشة في فكها ٠٠ وقالت بنظرة ينطلق منها الشرر :

— اذن فهذا هو الذي تعلمه للبنات ؟ تحرضهن على القيام بالمغامرات ٠ ( وضغطت على أسنانها ) اذن فكل ما سمعته عنك صحيح ٠

كان قد أفاق من المفاجأة ٠ قال وهو يتماسك ، وقد داخلته روح التحدي : ما الذي سمعته عنى ؟

— لم أسمع عنك شيئا ٠ لكني الآن سمعت منك ٠٠ بأذنى هاتين ٠٠ وهؤلاء أيضا يشهدون ( وأشارت على البنات ) ٠

وأوشك أن يقول شيئاً لكنه فوجيء بالبنت التى كانت قد ألفت عليه بالسؤال تنتفض واقفة وتصرخ فيها برجاء :

— لا .. لم يحدث شئ .. أنا التى سألته : ما رأيك فى الحياة ؟

ازداد الشرر فى عيني الناظرة ، وقالت للبنت متفكمة :

— ورأيه فى الحياة ان تقوم البنات بمغامرات ؟

— ثم صرخت فيه بكل قوتها ، عامدة متمعدة كى ترهب البنت وتخرس أى لسان ..

— اننى أُمْنَعُكَ من التدريس .. ليس فقط فى هذا الفصل .. بل فى مدرستى كلها ..

قالت هذا وفوجئت بنفس البنت تضرب الدرج بيدها بعنف وتصرخ : لا .. واذا تركنا الاستاذ يحيى قلن أبقي فى هذه المدرسة !

وانتقلت صرختها الى كل البنات الأخريات :

— نعم .. لو ترك الاستاذ يحيى المدرسة ، فسنتركها نحن أيضاً ..

— واذا رأيت البنات ينهضن واقفات ، أحسست كأن جيشاً سيهجم عليها ويفتك بها ..

— وتحرضهم أيضاً على التظاهر ضدى ؟ اذن سترى ..

وخرجت مسرعة ..

حط على الفصل هدوء ثقيل الوقع .. البنات عاودن الجلوس والنظر بعيون دامعة الى الاستاذ يحيى .. قوة هائلة ملأت نفسه .. قوة الحب والصدق تهزم قوة الظلم والجهل ..

لكن ملامح الناظرة .. وكلماتها .. وأشباح الهوة الجديدة

بدأت تلوح له ٠٠ وشد نفسا عميقا ٠ لو حدث فسيقفز فوقها مثلما قفز من قبل على كل الهوات السابقة ٠٠ ألم يكن يقول لهن هذا ٠٠ ؟!

وفوجيء بالبننت الاولى تقول وهي تمسح دموعها ؟

— أكمل لنا يا أستاذ ٠٠ أكمل ٠٠

أرسمت على شفتيه ابتسامة نابعة من القلب ، وان اختلطت بالمرارة ٠٠ قال وهو يمر بعينه على وجوههن جميعا : بعد ما حدث ( وهز رأسه مع تنهيدة ) على أى حال ٠٠ عظيم هذا الذى حدث ٠ لقد رأيتن بعيونكن كيف يخاف البعض من أن تتفتح العقول على حقائق الحياة فيفقدون السيطرة على الناس ٠ فلتبقى عقولنا مفتوحة على كل ما يحدث فى الحياة ٠٠ وما يحدث فى الطبيعة ٠

ألا نخاف من أى شيء ٠٠ حتى من الشر ٠ ألم أكن أقول لكم اننى ساعة البهجة ، أكون فى انتظار لحظة الألم ؟ ( وابتسم ) فلنعد الآن لو سمحتم — الى درسنا الاصلى ( واتجه بعينه الى العنوان المكتوب ) الطبقات العليا للجو ٠

( وأتسعت أبتسامته ) ننسى الطبقات السفلى بعضا من الوقت ٠ انتبهن معى لو سمحتن ٠

وعاود شرح الدرس ٠٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

وكان يدرك أنه الدرس الأخير له ٠٠ مع عمر الورد

(( ١٩٧٩ ))

## هو الذى سقط

يحكى ان سلطانا منحه الحياة خاتما مثل خاتم سليمان ، قامتلا بالفرح والنشوة وانطلق يمارس قدراته الخارقة ، فاجتاح فى أيام قليلة بلادا كثيرة وضمها الى ملكه ! لم يعد سلطانه بفضل هذا الخاتم مقصورا على البشر وما فوق الارض ، بل امتد أيضا الى الجن والطير حتى بلغ متن السحب !

صحا سلطاننا هذا من نومه ذات صباح ، فوجد أن خاتمه قد سقط من أصبعه ! حينذاك ندت عنه شقيقة كاد قفصه الصدرى ينخلع معها ، وقفز من رقدته وراح يبحث عن الخاتم ٠٠ أولا بين ثنايا الفراش والاعطية ثم فى كل الأركان وجنباة الغرفة ، فلم يجد له أثرا !

وقد خطر له من أول لحظة أن يصيح بأعلى صوته : «خاتمى ، خاتمى » ٠٠ فيهرع الكل من انس وجن وطير ونمل ويبحثون معه عن الخاتم ، لكنه سرعان ما تنبه الى معنى خطير ، فما يدريه أن هؤلاء جميعا ما زالوا حريصين على بقاء الخاتم معه ؟! ٠ اليس من الجائز أن ينتهزوها فرصة ويعلنوا تمردهم عليه ٠٠ يسترد الكل

حريته ٠٠ بل وقد يحدث الأكثر هولا : لو أن واحدا من الشياطين  
عثر على الخاتم ٠٠ لسوف يخفيه فى أقصى بقاع الأرض أو فى  
أعمق أعماق البحر ، ثم يطلق ضحكاته المجلجلة ساخرا من السلطان  
الذى فقد مصدر قوته ! ثم يبدأ فى استعماله ضده !

لا ٠٠ لن يصيح ولن يهمس ٠٠ ولن يجزع هكذا بسرعة ٠ ان  
مجرد الجزع على وجهه سيكشف السر للطيور حين تأتية بعد قليل  
لتلقى عليه تحية الصباح وتضع نفسها تحت أمره ٠٠ وفى مقدمتها  
الهدمد ٠٠ ذلك الصديق العزيز حقا ، لكنه الثرثار المغرم بحكى  
غرائب وعجائب القصص ٠٠ وهل هناك قصة أعجب وأكثر إثارة  
من هذا : ان يفقد سيده السلطان العظيم خاتم ملكه ؟

فليهدأ نفسا ، ويفكر على مهل : كيف ، حدث هذا ؟! أيمن أن  
يكون قد فقدته ليلة الأمس فى تلك السهرة الحافلة الرائعة عند  
لاميس ٠٠ فى جناحها ؟! ( ومر برأسه خاطر كئيب مفزع ) أيمن  
أن تكون هى التى فعلتها ؟! تسلبه قوته وتنتقم مما كان فى  
البدايات الأولى معها ٠٠ حين اجتاحت جيوشه بلادها ، وكان أسر  
!بيها ، ثم استقدمها على بساط الريح ، وفى غمضة عين بنى لها  
جناحا ذهبيا فى بستان قصره ٠٠ ثم اطلاق !بيها من الأسر وأعادته  
الى بلاده حاكما كما كان ٠٠ مقابل بقائها معه مليكة وعشيقة ؟!

أيمن أن تكون قد حانت ساعة الانتقام ؟! غير أنه هز رأسه  
نافيا بشدة : لا ٠٠ لا ٠ ليلة الأمس بالذات تساقينا أروع كنوس  
الحب ، وكنا نظير سوييا من فرط النشوة ؟! ثم الأهم من ذلك  
أننى خلعت الخاتم من أصبعى قبل أن أدخل جناحها ، وأعطيتها  
لوصيقتى المخصصة لتلك المهمة المقدسة ٠٠ ثم بعد أن انتهت الليلة  
أخذته منها ولبسته ٠ أذكر ذلك جيدا ٠٠ والأكثر من ذلك أننى وأنا  
أدخل أصبعى فيه كنت أحس بصعوبة ، حتى أن الوصيقة قالت لى

باسمة : يبدو أنك سمعت بعض الشيء يا مولاي " فكيف اذن يكون  
قد سقط من أصبعي ؟ ولقد عدت مباترة الى جناحي وصعدت الى  
سريري ونمت على الفور ٠٠ فأين يمكن أن يكون سقط ؟!

« تراه سقط في الممر الواصل بين جناحها وجناحي ؟! وحين  
استعاد منظر الرمال التي تفرش الممر ، غاص قلبه وهو يتصور  
الخاتم وقد غاص في قلب الرمل واختفى ٠٠ فهل يجمع كل رمال  
الممر ويكومها ثم يغربلها ؟! أنه بذلك يكشف السر ويذيعه ٠٠ ثم ،  
ما الضمان أن الخاتم سقط منه فعلا في هذا المكان ؟!

وأحس بخلط في ذهنه وأطرق في تعاسة ٠٠ ما العمل ؟! كيف  
أتصرف ؟!

— مولاي لا تجزع ٠ ان لك أصدقاء يظهرن وقت الشدة !

رفع رأسه بلهفة : من ؟ الهدد ؟

— أجل ٠٠ صديقك الذي عاصر مجدك ، ويعز عليه زوال  
هذا المجد ! اطمئن يا مولاي ٠ فالخاتم لم يضع !

اصطفقت في قلبه امواج الأمل وصاح به : أين هو ٠ يا صديقي  
العزيز ؟

— في مكان أمين ٠ لا تخف ٠

— اذن فأسرع باحضاره ٠ لا تضيع وقتا ٠ أنت تقدر معنى  
ما أقول ٠

— مولاي لا أحب هذا القلق على وجهك العظيم ٠ ففى دقائق  
سيكون معك !

بذل السلطان طاقة كبرى لكى يبدو متماسكا ٠٠ فرك كفيه من  
السعادة وقال : لا أعرف كيف أشكرك أيها الهدد ٠ لسوف ترى

حين تعيد الى الخاتم أى خير سيفمرك • بل تستطيع من الآن  
أن تطلب ما تشاء • مهما كان هذا الطلب • سوف أحققه لك •  
أطلب أيها الهدهد •

— ولسوف أطلب يامولاي ، لكن ليس الآن • انما بعد أن  
يعود لك الخاتم • وانت فى عز إحساسك بسلطانك وقوتك !

— أعرف انك لست انتهازيا أيها الهدهد • ومن أجل هذا  
اعتبرتكم أصدق أصدقائى من بين كل أهل المملكة • هيا لا تضيع  
وقتا • طر واحضر لى الخاتم • هيا أيها الهدهد قاوم حبك للكلام •  
سوف تتكلم كثيرا بعد ان يعود لى الخاتم •

— نعم أيها السلطان • بيننا كلام كثير لابد أن يقال ••  
فلنؤجله كما ساؤجل طلبى • استأذنك •

وفرد جناحيه فجأة وطار •• ولم تمض أكثر من دقيقة بدت  
يالدهر بالنسبة للسلطان ، حتى كان قد عاد والخاتم يبرق فى  
منقاره •

هبل السلطان فرحا وتناول منه الخاتم وعلى الفور ادخله فى  
أصبعه •

واختلطت سعادته بنوع من القلق حين رأى الخاتم لا يدخل  
أصبعه الا بصعوبة ، لكن ذلك على أية حال ادعى الى الطمأنينة •  
وما أن دخل الخاتم بالتمام وأحس به ملتفا بإحكام حول أصبعه  
حتى صاح واثقا منتشيا •

— الآن أطلب أيها الهدهد • مهما كان طلبك • تعال أولا  
أعانقك وأشكرك •

وإن رفع كفيه ليتناول الهدهد ويعانقه ، فوجىء بشيء رهيب



انخطف معه قلبه .. ووجد نفسه يصبح على الهدهد فى فزع .  
وهو يريه لكفه .

– الخاتم سقط .. مرة أخرى سقط . مرة أخرى سقط .

\*\*\*

كان لسقوط الخاتم على هذا النحو الغريب والمثير وقع  
الزلزلة .

اكتسحه خوف ساحق ممزوج بالتشاؤم وفكر بأن هناك بالقطع  
روحا شريرة تسعى لسلب الخاتم منه ، واسقاطه هو نفسه من على  
عرشه !

ومع ان الخاتم كان واضحا يبرق على البساط قرب قدميه ،  
الا انه خشى ان تجذبه الروح الشريرة وتبتلعه الى جوف الأرض .  
فأسرع منكفئا بكل وجهه ويديه على البساط ، وفى ثوان كان  
الخاتم فى يده .. يقبض عليه بقوة . لكنه لم يفكر هذه المرة فى  
الاسراع بلبسه .. فما الضمان ألا يسقط مرة أخرى .  
وقد يكون فيها الضياع الابدى ؟! فهل يظل ممسكا به .. أم يضعه  
فى أحد جيوبه أو فى أحد ادراجة ويقفل عليه ؟! ولكن ما معنى هذا ؟  
هل سيتخلى عن لبس الخاتم ؟!

واستهول المعنى فتوجه الى الهدهد مستنجدا .

– أرايت أيها الهدهد ماذا حدث ؟ ! ثمة روح شريرة تتأمر

ضدى .

قال الهدهد بهدوء : بالقطع يا مولاي هناك روح شريرة تسعى،  
والكثيرون يقولون بهذا من زمن !

تنبيه السيلطان : « كثيرون » .. ومن زمن ؟ اذن فكنت تعرف  
وتكتم عنى ؟!

- أعرف يا مولاي ٠٠ لكنى كنت أنتظر وقوع البرهان !!
- أى برهان ؟!
- البرهان الذى يقنعك انت يا مولاي قبل ان يقنع الآخرين !
- يقنعنى بماذا ؟ تكلم بسرعة !
- سوف أتكلم يا مولاي ٠٠ ولكن بشرط ٠٠ عفو مولاي ، ليس شرطاً وانما هو طلب ٠ الطلب الذى وعدتني به اثناء الضياع الأول للخاتم ، لكنى أجلته حتى يعود الخاتم لك ٠٠ فهل يمكن أن أتقدم به الآن والخاتم معك ؟ !
- بالتأكيد أيها الهدهد ، أطلب ما تشاء ولا تتردد ٠
- حريتى يا مولاي !!
- حريتك ؟ ( كان وقع الكلمة غريباً على اذن السلطان ) وهل أنا عاملتك أنت بالذات كعبد ؟ ومع هذا فلن أجعل من ذلك الآن موضوعاً للنقاش ، من الآن أيها الهدهد أنت حر ٠
- صفق الهدهد بجناحيه سعيداً طروباً : أشكرك يا مولاي أشكرك ( ثم ضم جناحيه وقال بجديّة ) الآن أستطيع أن أتكلم دون خوف أو وجل ٠ أجل يا مولاي ٠٠ فالأحرار وحدهم هم الذين يقولون الصدق والحقيقة مهما كانت مرارتها على النفس ٠٠ أما العبيد والاتباع فلا يقولون الا ما يتجاوب مع غرور أسيادهم وملوكهم ، حتى ولو كان فى ذلك مصرعهم والقضاء عليهم !
- ازداد توتره ٠
- اذن فأسرع بهذا الصدق ولا تخفى شيئاً ٠
- كنا نتكلم يا مولاي عن وقوع البرهان ٠ الحق ان الانسان هو الذى يسقط أولاً ، ثم بعد ذلك تسقط منه أشياءه !

- تنبه السلطان لخطورة ما يقال .
- ماذا تعنى أيها الهدهد ؟ تكلم بشكل واضح ومباشر .
- وكذلك فى دنيا الابطال يا مولاي . البطل يسقط أولا ، وبعد ذلك يسقط منه خاتمه !
- اصطفقت أمواج الغضب فى صدر السلطان . ومع هذا جاهدها .
- هل تعنى اننى سقطت أيها الهدهد ؟!
- مولاي أطمح فى مزيد من رحابة صدرك .. اننا الآن بصدد انقاذ المملكة .
- تكلم أيها الهدهد . هات كل ما عندك .
- لقد تغيرت ، فأحس الخاتم بالاغتراب معك . لم يعد يحس بالطمأنينة معك !
- تسارعت أنفاسه :
- الى هذا الحد انا تغيرت ؟! كيف ؟!
- مولاي ادارت الانتصارات والنجاحات رأسك . فأصبحت تمشى فخورا فى موكب ذاتك ، ولم تعد تتحمس الا لمن يدورون حولك ، يسبحون بعظمتك وبعجائب قدراتك !!
- تصاعد الغضب مرة واحدة الى رأس السلطان وقال مستنكرا :
- هراء وادعاء هذا الذى يقال ، اثنى لا أكف عن التحدث والتسبيح بعجائب الاله وقدراته .
- مجسدة فيك أيها السلطان ، فأصبحت عجائب الاله هى

عجائبك أنت ، ومن صنعك ، وليتها بقيت كما كانت فى البدء ، من أجل مسرة أهل المملكة • لكنك حولتها الى مسراتك انت • وبعد ذلك لا يهم أى شىء • الشرير يا مولاي يفتخر بشهواته !

قاوم السلطان بشدة غضبه • بل من بشاعة الاتهام احس أن ركبتيه تتخلخلان ، فأصبح كل جهاده ان يتفاسك •

— أنا شرير أيها الهدهد ؟ اذن فأقم الدليل على هذا •

— كنت يامولاي خاشعا متواضعا • تخالط المساكين وتجالسهم • وكنت أسمعك تقول : مسكين يجالس مساكينا • الآن فلم تعد تجالس الا أصحاب وصاحبات العروش !

— أه تقصد لاميس • اليس كذلك ؟ لاميس لم تعد صاحبة عرش • لاميس أصبحت زوجة وجارية لى باختيارها • هى وشعب أبيها !

— ليس بالاختيار يا مولاي • دعنا لا ننسى البداية • لقد حاربت أباهـا وهزمته • ثم استقدمتها بسحرك وتزوجتها وفرضت الصداقة على شعبها ، فتظاهروا بالاستسلام وبالرضا •

— تقول تظاهروا ؟! لكل هذه السنين يتظاهرون ؟!

— الشعوب يا مولاي غضبها مستتر وطويل المدى •

— انت تخرف أيها الهدهد • وليتك كنت بالامس مغى عند لاميس لترى السعادة التى كانت تسبح فيها معى وأغنيتها الحزينة على الايام التى لم ترنى فيها •

— ربما يا مولاي • • انما • •

— ليس هناك ربما • • بل هو اليقين أيها الهدهد • انما هو عيبك الذى أعرفه هناك • ثرثار محب للكلام ولتأليف الروايات • •

لكنى احذرك • أتريد أن تقنعنى بأن هناك فى المملكة من يردد كلامك هذا ؟! لو كان هذا حقا ، لكنت قد سمعته • أنت تعرف أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء الا وتنقله الريح لى على الفور • ( وتذكر فجأة ان خاتم الملك ما زال فى قبضته . فأسرع بلبسه واطمان لاحكامه حول أصبعه ) اننى أسمع كل شيء أيها الهدهد • اسمع حتى دبیب النملة على بعد ، ولهذا فكل ما قلته هو من أوهامك • • ومع هذا ، سوف التمس العذر • • لأن • •

وتوقف فجأة عن الكلام ووجد نفسه يصرخ متاوها من ألم شديد داخل أذنه • • فاندفعت يده ، ماذا أصبغه الى مكان الألم ، غير أنه سمع صوتا يدوى داخل أذنه : مولاي • استحكك بالله ان تبعد بطش يدك عنى !

أحس بدوار فى رأسه ، وقاوم احساسا بالترنح •

– من الذى يتكلم ؟

– أنا النملة يا مولاي !

لم يصدق ما يسمع • • رغم انه واثق من انه يسمع • كيف تجرؤ نملة ؟!

– وما الذى جاء بك الى داخل أذنى أيّتها النملة ؟

– لتسمعنى يا مولاي . فمنذ زمن طويل ونحن النمل نشكو إليك وننادى عليك لكنك لا تسمعنا ، فقرر أخوتى النمل وفادتى اليك حتى نضمن وصول شكوانا !

أزداد الدوار فى رأسه ، وتملكه احساس بالمهانة • • أیصل به الأمر الى هذا الحد أن يقرصه النمل فى أذنه لى يسمعه ؟

والتقت نظراته بنظرات الهدهد •

كان حال الهدهد يقول : ذلك برهان آخر يا مولاي • لكنه لم  
ينطق بها !

- والآن لم يبق لى شيء يقال يا مولاي • استأذنك • ( وفرد  
جناحيه استعدادا للطيران ) •

- الى أين ؟!

- الى حيث تشاء حرיתי •

اضطرب السلطان ، وداخله حزن عميق مختلط بالغضب •

- وتتركنى أيها الهدهد ؟ فى موقف كهذا تتركنى ؟

- مولاي لقد ظهر كل شيء ، ولم يعد لى أى دور • الدور  
الآن هو دورك أنت وحدك • استأذنك • لقد أوحشتنى حرיתי •

وتجمع فى ذاته ناشرا كل جناحيه استعدادا للانطلاق ، غير  
ان السلطان صرخ عليه بغضب •

- لا أيها الهدهد • لن تطير الآن • وإياك أن تفعلها •

تجهم الهدهد ، وتجمد فى وقفته •

- مولاي يسحب عنى حرיתי ؟

- أنا لا أسحبها • لكننى أؤجلها •

- اذن فانت تنقض وعدك يا مولاي •

أحس بالاهانة •• صرخ فيه :

- أو تجرؤ على قولك هذا ؟! أهذه هى أول تباشير الحرية ؟!  
لا أيها الهدهد • ولا تحسب انى وصلت الى هذا الحد من الضعف  
والاستسلام والبلاهة • نعم • فأنا أعرف ما هو أول شيء ستفعله

بحريتك • ستدور في البلاد وتحكى عن النملة التى قرصت السلطان  
فى أذنه • السلطان الذى لم يعد يسمع الا صرير نفسه • • ليس  
هذا هو كلامك • لا أيها الهدهد • • لن تبارح هذه الايام قصرى !  
هذا أمر • هل تسمعننى ؟

أطرق الهدهد برأسه حزينا ممثلا وغمغم فى سره :

حتى حرية طائر صغير أصبح يخاف منها • ( ثم رفع صوته  
بعض الشيء ) ذلك برهان آخر يا مولاي • لماذا أصبح الخاتم  
لا يبقى فى أصبعك !

صرخ فيه مستنكرا ، ومشيرا بكل ذراعه ، عارضا عليه كفه  
المزين بالخاتم : لن يسقط الخاتم منى بعد ذلك أبدا • هل تسمعننى •  
لن يسقط أبدا • وسأضرب كل روح شريرة تسعى للتآمر ضدى • •  
سأخرج الآن وأعلن هذا لكل أهل المملكة •

لم ينطق الهدهد بحرف • تذكر الجملة : الشرير يفخر  
بشبهواته • • تداخل فى نفسه خوفا • غير أنه لم يلبث أن لمح شيئا  
مثيرا يحدث بينما السلطان ينزل ذراعه الى جانبه • رأى الخاتم  
ينزلق من أصبعه ويسقط دون أن يحس به • • صاح رغما عنه :  
— مولاي • مولاي أنظر الى أصبعك •

واذ نظر السلطان الى كفه فلم يجد الخاتم تملكه الذعر  
والهلع :

— ما هذا ؟ الخاتم سقط • مرة ثالثة سقط ؟ !

وفى تلك المرة ، لم ينكفىء بسرعة ليلتقطه ، بل ظل يحدق فيه  
وهو ملقى على الأرض دون أن يقوى على النطق بكلمة • • كان  
يحس من أعماقه بأن الذى سقط ليس الخاتم • • بل هو • •  
هو الذى سقط !

« ١٩٧٨ »

## سباق مع القدر

لا شيء فى تلك اللحظة كان يستطيع أن يوقفنى ، ألا حادثة  
تطيح بحياتى ، أو جنية تصعد من قلب النهر ملوحة لى بذراعها  
تنادينى ، أو موكبا لشخصية كبيرة توقف بمرورها حركة المرور كله  
فأتوقف أنا الآخر بالتالى ! شيء من ذلك النوع لم يحدث ، ومع هذا ،  
فقد وجدتنى ، اذ لحتهما فجأة يسيران على الكورنيش ، قرب مرسى  
« الفونثانا » للقوارب ، اليد فى اليد ، اكروسين ، لا بل كخطيين ،  
وكانفجار النبع ، شع فى رأسى « الحادث » .

أحمد .. وكاميليا !؟

صحت فوراً على السائق .

– أوقف هنا ياأسطى .. لحظة واحدة من فضلك .

على صوت الفرملة ، التفتا ، وما ان رأيتنى ، حتى هتف  
الاثنان فى لحظة واحدة بأسمى .. وعناق حار لأحمد ، وسلام  
أكثر حرارة ، يعوض العناق ، لكاميليا .

– رغم أنى مستعجل جدا ، قلت لايفكن .. لازم أسلم  
عليكم .



فى عينيهما الصافيتين العسليتين وكانفجار النبع أيضا ، شع  
الحادث ، مازال السر بينى وبينك ياكاميليا محفوظا بين الجوانح •  
لم أبج لأحد •• ولن أبوح ••

— تسمعوا تاخذوا نفرة التليفون • لازم نقعد •• كام سنة  
دلوقت يا أحمد !

— من سنة ٥٥ • شوف يبقوا كام !؟

وأنا أعطيهما رقم التليفون ، ضاحكا وسعيدا ، ثم ألوح  
خودعا •• وأعود الى التاكسى •

حقا : كم سنة !؟

يغمض الانسان عينيه أحيانا ليرى ! مهما بدت الايام أحيانا  
مجدبة ، فقد عشنا أيها الأصدقاء زمنا ! كأننا مررنا بعصور  
وعصور ، انما فى ذلك اليوم بالذات ، حيث بدا القدر مؤلفا لأعقد  
المواقف ، وليتصرف الانسان •

ذلك اليوم ، والمشهد تحت سفح القلعة ، داخل قنص كبير  
مهول من الحديد ، هو « سجن مصر » انما القنص فى ذلك اليوم  
كان فى عيوننا جميعا بلا قضبان ، سواء الذين جاءهم فجأة ، أمر  
بالإفراج أو الذين اشتد بالتالى عندهم الرجاء ، كذا جميعا نغنى  
وترقص وننشد •• وأنا وأحمد ، نتبادل نظرات الفرح ، وعهد  
باستمرار الصداقة : لمدة عامين فى حجرة واحدة عشنا ، وفى ليلة  
واحدة قبض علينا ، وفى ليلة واحدة يفرج عنا ، وحتى وهم يحتفلون  
بنا ، جلسنا بجوار بعضنا !

أكذب ان قلت انى كنت فرحا لأحمد ، أكثر مما كنت فرحا

لنفسى ، وانما فرحتى بخروج أحمد كانت فرحة مضاعفة فما أكثر  
ماخيلنى وجه كاميليا ، مشعا بالفرح ، وهى تراه - فجأة وعلى  
غير انتظار - داخلا عليها : أحمد . عريسها التى لم تعيش معه  
أكثر من شهر واحد ، ثم جاء . زوار الليل . واختطفوه ، وفى  
الغياهب ضاع منها زمنا . كانت مثل ايزيس تبحث عنه فى كل  
مكان ولا مكان ! . وفى آخر مرة رأيته فى احدى الزيارات ، من  
خلال الاسلاك ، كان صفاء عينيها العسليتين قد شابته حمرة البكاء :  
ضيق فى العيش ، وضيق مع الأهل ، واليأس فوق بعضه أمواج  
وأمواج من الظلمات .

ما أروع شعاع الشمس ينبثق ثاقبا من قلب الغمام . وانظر  
لأحمد من جديد ، جالسا كالعريس فى قلب الاحتفال وقد ارتدى -  
لأول مرة مثلنا - بدلته التى كان قد خلعها على باب السجن منذ  
سنتين ، ومع النظارة الطبية التى تزين وجهه الدقيق الجميل الحليق  
عاودنى منظر « المعيد » بكلية الآداب ، الأنيق الوديع . واضغط  
على يده ، مؤكدا فرحتى من جديد : ستخرج الى الشوارع .  
والزحام والمسارح والسينمات . ونهر النيل . و .

- ولا تنسى ان تدعونى ، على أكلة سمك مشوى ، من صنع يد  
كاميليا بالذات .

- وعد منى ايها الصديق . أول اكلة سمك ، ستكون لك ،  
وبك وقبل ان ينقضى أول اسبوع ( ويضحك ) ايها الاعزب الشريد  
على الدوام ! اطمئن . سنزوجك فى الحال .

ونضحك .

- رقصة اخيرة ايها الاصدقاء .

ونحن نصفق على ايقات الرقصة مع المصنفين ، ونغنى ،

فوجئت بيد أحد الزملاء تضغط على ذراعى ، ثم تجذبني برفق  
وهدوء ، ثم ، بصوت هامس اثار هواجسى ، فضلا عن ملامح  
وجهه المنقبضة ..

— تعال .. عايزينك بسرعة .

— فيه ايه ؟! الغوا أمر الافراج ؟

— أحمد جاله جواب من مراته ، وطالبه منه الطلاق !

كمطرقة نزلت على رأسى .. وجدتنى اترنج .. وعلى وشك  
السقوط رافضا التصديق وقد تملكنتى رعب فظيع .

— مستحيل .. مستحيل .. كاميليا ، مش ممكن .

( وفى سخريّة مرة ) — حتقرا الجواب دلوقت .. مش عارقين  
نقول له ، أو مانقولوش ؟!

انتابتنى رغبة جارفة فى أن أعود الى « أحمد » واحتضنه  
فى حنايائى احميه من الضربة التى جاءت من أقرب الاقربين ..  
واتلقاها بدلا منه .. غير ان زميلى كان يحث الخطى ويقول : لازم  
نناقش الموضوع بسرعة .. قبل ما تخرجوا .. نعطيه الجواب او  
مانعطيهموش ؟

من تقاليد الحياة المعترف بها فى السجن فى تلك الايام ، ان  
جميع الخطابات كانت تفتح بمعرفة اثنين « موثوق بهما » يقرانها  
قبل ان يتسلمها اصحابها حرصا على « الأمان » !

أى فاجعة ، أو ضحكة مجلجلة ساخرة يطلقها القدر فوق  
رءوسنا فى هذا اليوم .. بل وفى هذه الساعة بالذات .. ساعة  
الفرح .. ليضعنا فى الامتحان وليرى : كيف يتصرف الانسان !  
غامت عينائى .. كيف يا كاميليا . كيف توجهين كل هذه

الضربة لأحمدك الوديع الرقيق ؟! أما كنت قسابة على مقاومة  
الخطبوط اليأس ولو بضع ساعات اخرى ويتأخر الخطاب ؟

ودون حتى ان اقرأ الخطاب ، صحت : لا ٠٠ مستحيل نقول  
له ٠ مستحيل نقلب الفرح محزنة ، مش بالنسبة له بس ، بالنسبة  
للجميع ٠

كان الزميل الثالث يجلس فى أحد الأركان ، جلسته  
القرصائية المعتادة ، نقطة الارتكاز فى وجهه شارب كث غزير ،  
وعينان صقريتان يتكلم بهما معظم الاحيان ، ويقول ما لا يريد ان  
ينطق به اللسان !

نطق فى هدوء : اسمع يا زميل ٠٠ الموضوع ده موضوع  
خطير ٠٠ قبل ما نتناقش فيه ٠٠ لازم نرمى العواطف بعيد !

ادركت على الفور رأيه ، هممت بالاعتراض ٠٠ اسرع معترضيا  
بكفه :

— اعطني فرصة أقول رأيي أنا كمان ٠٠ أنا عارف ان ايه  
وقع الخبر حقيقى مؤلم ٠٠ لكن حياتنا ايه غير الألم ومواجهة  
الصدمات ؟! دى دروس لازم نتعلم منها ٠٠ ودرس النهاية من  
أخطر الدروس ٠ لازم يتعلم منها الجميع : المكافح لا يصح أنه  
يتجاوز إلا واحدة بمكافحة زيه ٠ لازم أحمد يواجه نفسه بالحقيقة  
دى قبل ما يخرج ٠٠ أحمد انسان نادر وعظيم وما يصحش يربط  
نفسه بانسانه ضعيفة زى دى ٠٠ ثم مين عارف ( والتمعت عيناه )  
يمكن تكون متأمة مع البوليس عشان تحطمه !

اشحت بوجهى من فظاعة الاتهام ومن قسوة المنطق ٠ كرهت  
« رتم » صوته الهادىء المثير ٠٠ شحبت رومانتيكية الكفاح فى  
نفسى ، صحت رافضا ، ومعترضا : ايا كان ٠٠ أنا شخصا غير

موافق انكم تعطوه الجواب ٠٠ نسيبه يعرف الحقيقة منها عى ٠٠  
أو ٠٠ سيبونى اتصرف انا ٠٠ انا خارج معاه . مش حاسيه  
حاروح البيت معاه !

رفع الزميل الآخر يده مؤيدا وقد رأى شبح الفاجعة ينزاح عن  
جو الاحتفال ٠٠ وقال :

— أنا موافق ٠٠ وبناء عليه . نقطع الجواب !  
قال ذو الشارب الكث ٠٠ وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة  
الخاضع على غير اقتناع :

— اتنين ٠٠ ضد واحد ٠٠ اذن فانا خاضع للاغلبية .  
ورحنا نمزق الخطاب نتفا صغيرة بينما كانت ضجة الرقصة  
المرحة الأخيرة تصل الى ذروتها ، فاندفعت الى جوار أحمد ،  
أصفيق مع المصفيقين والمغنين لكن قلبي من الداخل كان يدمى بالسر  
الحزين !

فى الشوارع كان أحمد مبهورا بالحريه ، وكان يقول : لو  
ان لى جناحين واطير بهما لأرى كاميليا بسرعة ٠٠ وكنت أقول  
له فى نفسى لو ان لك جناحين لفكرت فى قصهما ٠٠ ان يجب ان  
يحدث شئ قبل ان تراها وتترك .

ونبتت الفكرة :

— ايه رأيك يا أحمد ٠٠ آجى معاك ٠٠ اسلم على كاميليا  
ونشرب فنجال شاي بيتى وبعدين ٠٠

ودون ان أكمل ، وبحماس شديد وهو يحتضننى بحنان :  
يا سلام ، ونسهر الليل مع بعض و ٠٠

– لا ٠٠ سهرتك الليلة معاما ، وأنا سهرتى ٠٠ فى القاهرة  
العظيمة ٠٠ الليلة القاهرة كلها حثبى ملكى ٠٠ أنا العازب الشريد  
على الدوام ٠

وضحلنا ٠

حين دخلنا الشارع واقتربنا من البيت ٠٠ كانت خطواته  
تسرع ٠٠ أما أنا فكان قلبى يخفق ، وازدادت الخفقات سرعة ٠٠  
وانا أرى طفلة صغيرة تطل من احدى النوافذ وتصيح بل وتصرخ  
فرحة مهللة :

– ابيه أحمد ٠٠ ابيه أحمد ٠

ولوح لها بذراعه ٠٠ لكنها فى لحظة كانت قد اختفت ٠  
قال أحمد : دى اخت كاميليا ، كويس انها تقول لها ٠٠ عشان  
تخفف وقع المفاجأة !

وبدأنا نصعد السلالم ٠٠ ودقات القلب تتصاعد وتتصاعد  
٠٠ فى منتصف السلالم فوجئنا بالصغيرة قد وصلت الينا قفزا ٠٠  
واحتضنها أحمد ، ومضى يقبل فيها بل ويقفز بها فى الهواء ٠ هنا  
انتهزت الفرصة ٠٠ ومضيت اصعد ودقات القلب تزداد تصاعدا ٠٠  
وعلى باب الشقة ، رأيت كاميليا واقفة شاحبة الوجه مصفرة تكاد  
تسقط ٠٠ اسرعت هامسا : اطمئنى ٠ الجواب ماوصلوش ٠٠ قريته  
٠٠ وقطعته !

اتسعت عيناها ٠٠ فرحا ، وبمعجزة هائلة قاومت نفسها من  
أن تعانقنى ٠٠ !

بعد لحظات ، كان أحمد يصعد حاملا الطفلة ٠٠ ورأيت

كاميليا تقفز اليه فاردة كل ذراعيها ٠٠ كل نفسها والدموع تنهمر  
من عينيها ٠

— أحمد ٠

— كاميليا ٠

وعناق ٠٠ يندر ان يحس بجماله وبهجته ، اثنان من البشر !  
وفى لحظة ، كنت قد اختفيت ، تاركاً لهما الليلة ، ومضيت  
احوس وحدي ٠٠ انا الشريد الأعزب ٠٠ فى شوارع القاهرة ٠

« ١٩٧٦ »

## الخروج من المربعات الضوئية

حين قذفوا به الى الزنزانة وأغلقوا عليه بابها ، ظل واقفا  
يتسمع وقع الأحذية الثقيلة ، وهى تبتعد بالتدريج ، تصك فى رأسه  
اضعاف ما تصك الكعوب الحديدية فى بلاط صالة العنبر الجهم  
الكبير وعادت الكلمات تطرق فى رأسه وتدوى .

– سنتركك لنفسك ساعة ونعود . خير لك من الآن أن ترحم  
نفسك . ساعة ونعود .

تحسس « الحبة » فى جيبه السرى ، أعلى سرواله الداخلى .  
الشيء الوحيد الذى أبقوه من كل ملابسه ، ثم البسوه بدلة السجن .  
ذلك هو المهم : فلتت « الحبة » الصغيرة . حبة الخلاص . انها  
من الدقة ، بحيث فانت عليهم فى التفقيش ، وانها أيضا من النعومة  
بحيث لا تحتاج الى ماء لبلعها . لحظة واحدة ، وبحركة خاطفة ،  
وينتهى كل شيء ، كل شيء !

– أجل . لن أمكنهم لحظة من تعذيبى . لن أمكنهم منى .

وفكر ان يخرج « الحبة » من مكنها ، ويتأملها . . . يتهدى  
نفسيا للانتحار . . . للحدث العظيم : أن يقتل الانسان نفسه بنفسه



٠٠ باختياره ، لكنه أجفل ٠ سقطت يده الى جانبه ٠ لم تأت اللحظة الحاسمة بعد ٠٠ بقيت له فى الحياة ساعة بلا تعذيب ، فليعشها ٠٠ ويهدوء ، كانت انفاسه لاتزال تتدافع ، وأحس بخلطة فى ركبتيه ، وتنبيه - كأنما يرى لأول مرة - أن الزنزانة بها سرير ٠ جلس على حافة السرير ٠

عاوده الصوت : أجلس واسترح على السرير ٠ مدد ساقيك واسترخ بأعصابك ودعك من هذا الجنون ٠ فكر على الأقل فى ابنتك الصغيرة ٠٠ اللطيفة ٠٠ نحن لا نريد بك أنت شخصيا أى سوء ! هب واقفا كالنمسوع ٠ التصق بظهره بالحائط ، وراح ينظر الى السرير :

- هذا أول اعدائى : هذا جزء من الخطة اللئيمة لاضعافى ٠ لن انطق بحرف مما يريدون ٠ والموقف فى يدي ٠ ( وعاد يتحسس الحبة ) ٠

وحانت منه لفظة حذرة الى العين السحرية التى تتوسط الباب الضخم الكالح ٠ ربما يتجسس الآن أحدهم عليه ٠ أعطى ظهره للباب ٠ وقعت عيناه على الكوة العالية الصغيرة ذات المربعات الحديدية السوداء ، تتسلل منها أشعة ضوء باهتة ومتهالكة لاتكاد تصل الى أرض الزنزانة السوداء ٠٠ الأسفلت ٠

جال بعينه فى فراغ الزنزانة ٠ فراغ يمتد مستطيلا الى أعلى وإلى أسفل ٠٠ كجب عميق محفور لدفن الاحياء الموتى ، وسرت فى جسده قشعريره ٠ عاد ينظر الى الكوة ٠ خلف المربعات الحديدية السوداء مربعات ناعمة زرقاء ٠ هل يمكنهم أن يحبسوا السماء هى الاخرى ؟ اختفت المربعات السوداء والزرقاء ، ورأى شوارع وميادين وحدائق ونافورات وبيوتا ٠٠ بيوتا دافئة بالحنان ٠ استقرت عيناه هناك على شقة صغيرة ٠٠ لها شرفة أصغر ٠٠

لكنها على أية حال كانت تسع وقفتك مع الصغيرة وانت تشير لها على اسراب الحمام ، وقت العصارى ايام الصيف ، وتحكى لها بحنين عن الطيران ٠٠ لسوف تطيرين معى يوما الى بلاد العالم ٠

— فكر على الأقل فى ابنتك الصغيرة ٠ تستطيع ان تكون معها بعد ساعة ٠

سقط الطائر فى الفخ ووقع ٠

من رأسه يعنف ٠ أسراب مذعورة من الحمام تتخبط ٠ ورأى بقية الرفاق بعد الضربة ، مذعورين لحظات ، يغيرون مواقعهم بسرعة ٠ ثم ٠٠ لابد أنهم الآن لائذون بأحدى مكامنهم السرية ، وأيديهم على قلوبهم فى جميع الاحتمالات ٠ بل فى احتمال وحيد ٠

— ماذا لو ضعف واعترف ؟!

— وهم يحسون بالأرض تهتز من تحت أقدامهم ، وسيلجأون معه بالتأكيد الى التعذيب الرهيب ٠

وينطلق صوت « عاكف » مستنكرا ٠٠ ومدافعا ٠

— لا ٠ لن يعترف ٠ انا واثق بالذات هذه المرة ٠ أنتم لاتعرفون ٠ أنا الوحيد الذى يعرف ٠ لقد حسب حسب هذه اللحظة ، فأخذ معه سلاحه !

ثم يخبرهم بالسر العجيب ٠ السر الذى ضحك عليه أول الأمر ثم عاد بايمان يباركه وهو يخبطه على ظهره بود : رومانسى حتى فى الكفاح لقلب نظام الحكم ٠

سيخبرهم بالحكاية من أولها : حين ابلغته التكليف بالمهمة لم يتردد للحظة ، بل تلقاها بفرح ٠ قلت انتظر قليلا ٠ وشرحت له

خطورة العملية • أن هناك احساسا بعدم الطمأنينة على المذبذبة •  
ان ضرب المطبعة يعنى ضرب قلب الحركة فى الصميم • لا بد من تغيير  
مكانها بسرعة • لم نجد خيرا منك ليقوم بالمهمة • هل تساعدك  
ظروفك هذه الأيام ، أم نسندها لغيرك ؟ فكر الليلة . وقل لنا غدا  
فى الصباح •

— لماذا الصباح • المسألة لا تستدعى • أنا الذى ساقوم بها •  
الغريب أنه ، وهو يؤكد قبوله للمهمة — لا يزال يذكر ، فى  
نفس تلك اللحظة . داهمه احساس عميق بأنه هذه المرة واقع •  
من فترة غير قصيرة ، وهو يحس بذبذبات غريبة شئ الجوى من  
حواله • هل بدأوا ينتبهون اليه ؟ أم هى غريزة الدفاع عن النفس  
ولا بد مع تصاعد العمليات والصدام أن يتصاعد أيضا حذره ؟

وحين شد « عاكف » على يده ثم مضى عنه وانفرد بنفسه ،  
وراح يستعد نفسيا للمهمة ، وجد خاطر مرة أخرى يداهم •• ويلج  
عليه : ماذا لو وقعت فعلا هذه المرة ولجأوا معك الى التعذيب ؟  
لقد حرقوا المدينة ، فهل يصبح كثيرا عليهم حرق انسان ؟ كيه  
بالنار • التعذيب البشع البطيء • اقشعر جسده • مرت بخياله  
قصص التعذيب البشعة •• ثم قصص السقوط الابشع : الذين  
كانوا أبطالا ، ثم بالتدريج ، ومع نقطة الماء النازلة بهدوء وانتظام  
فوق الرأس •• الرأس المخلوق الأخضر . بالضبط فوق المخ •  
نقطة ، نقطة ، الى ان يتم التفكك والانهيار فالاعتراف الكامل أو ••  
•• فالجنون المطبق !! وهؤلاء الذين أرقدهم ممددين بظهورهم على  
الأرض ، وبالشوم الضخم على بطونهم • ضربة واحدة على البطن ،  
على الامعاء • شهقة واحدة ويعقبها الصمت الأبدى •

هل تعجلت فى قبول المهمة ؟ وتذكر فجأة نوبة الآلام التى

تنتابه في « الغضروف » بين الحين والآخر : اذن فالضرب على البطن أهون .

وأحس كأنما الضربات نازلة بالفعل مرة على بطنه ، ومرة على ظهره ، وراح يتلوى .

— لا .. لا على الظهر ولا على البطن . لن أسمع بشيء من هذا ولو للحظة . هنا الموت انتحارا أفضل .. ينقذ الانسان نفسه وشرفه . لحظة واحدة وينتهى كل شيء !

وقرر .

نظرات الدهشة وعدم التصديق التي ارتسمت على وجه صديقه الطبيب ، حين ذهب اليه في بيته لا في عيادته .. وفاجأه يطلبه :

— أريد نوعا من الحبوب ، اذا تناول الانسان منه حبة واحدة سقط على الفور ميتا .. في هدوء .. بلا ألم ولا ضجيج !

مازال يذكر النقاش الحاد الذي جرى بينه وبين صديقه الطبيب ، الى حد تهديده الجاد بالقطيعة : أنت تعرف جيدا حبي للحياة ، حبي لابنتي وامراتي .. حبي للوجود في حد ذاته .. هل تتصور اني سأفرط في حياتي بسهولة ؟ ولكن افترض انهم لجأوا معي الى التعذيب وأنت تعرفهم . وتعرف أيضا مأساة الغضروف عندي .. ماذا لو إنهالوا عليه بالضرب ؟ تظن اني سأحتمل عليه ضربتين ؟ هنا الخوف يا صديقي .. فأنا بشر ، بشر وقد انهار .. وتتساقط مني الكلمات والاسرار .. ويضيع كل شيء . يضيع الرجل بضياح شرفه ، عند تلك النقطة تصاعد بينهما النقاش وازدادت حدته : الحياة أم الشرف ؟ لو تعارض الاثنان : حياة الانسان مع شرفه ، أيهما تفضل يا صديقي الطبيب ؟ ثم

أن المسألة ليست مسألة شرفى فقط ٠٠ الكفاح ٠٠ لابد أن يتصاعد  
وأن نضمن استمرار صعوده ٠٠ أنت نفسك لا تكف عن السخط  
والشكوى ٠ أنت نفسك قلتها أكثر من مرة : الحل الوحيد هو الثورة  
٠٠ هاهى قوى الثورة ماضية ولكن فى الخفاء ٠٠ اذن ساعدنا على  
أن نبقى أقوياء ، أو نموت شرفاء !

رائع يا صديقى الطبيب انك اقتنعت فى النهاية ، ولو أنك  
لم تعطنى سوى اسم الحبوب ، ثم قمت أنا - بطريقتى -  
بشرائها ٠

الآن ٠٠ لابد أنك تعاني حالة ندم ، لو حدث وتناولت «الحبة»  
ومت ، ستحس ، أمام حزن الصغيرة وأمها ، أنك أنت القاتل .  
وربما أنت الآن أيضا خائف ٠ أن يأتى ذكر اسمك على نحو مافى  
القضية : لا يا صديقى الطبيب العزيز ، ذا الوجه الوسيم الأبيض  
المضىء ٠ اطمئن واحداً بالآ ٠ لو حدث ٠ فاعلم أنك أنت الذى  
ساعدتني على أن أموت رجلاً ، فما الرجل يا صديقى ٠٠ يارجل  
التشريح ؟! هل هو مجموعة خلايا وغدد وعروق وشرابين وأمعاء  
وعظام وكيس من الجلد الرقيق يجمع كل هذا ؟!

الرجل قيمة يا صديقى ٠٠ الانسان قيمة يا صغيرتى التى كنت  
دائماً احدثك عن الطيران ٠٠ وحكايات البطولة ! لو حدث ، فسيحدثك  
الرفاق من بعدى عن طيران الروح ، فليست المادة فقط هى التى  
تطير ، بل الروح أيضا ، وتحلق ٠

- ولم لا تضع كلامك هذا تحت بند « الانثانية » ؟ أتظن أن  
هذا سيكون عزاء للصغيرة ٠

- نعم يا بابا ٠٠ أريدك أنت ٠ أريد كفيك وحضنك وكلماتك  
ولعبك معى فى الحديقة الواسعة المطلة على نهر النيل !

– أنا أيضا أريد يا صغيرتى • بل أشتاق •• أشتاق •  
ولكن ••

– تستطيع أن تكون معها بعد ساعة • استرخ •• وفكر على  
مهمل •

عاودته وجوه العسكر الخشنة الفظة الجهولة • والضابط  
الطويل النحيل ، ذو الأهداب المنتوفة • العينان ثعبانيتان ، ومع هذا  
فى حركة الجسد رقاعة كريهة توحى بشر مستطير ، ثم وهو واقف  
على الباب •

– تذكر ان الملك شخصيا يتتبع القضية ، ولابد أن يعرف كل  
من له صلة بهذه المنشورات ، وأين تطبع •

– ضربة كبرى للكفاح وللرفاق ستكون ، وسأكون أنا  
الضارب لا الملك •

– ساعة ونعود ، لقد اعذر من أنذر •

ورأى أبواب جهنم تفتح ، صرخ فى أعماقه •

– ألا التعذيب الجسدى • إلا الضرب على الغضروف ••  
نقطة ضعفى •• أه لولا الغضروف •

وتقلص كل كيانه فى وقفته ، كأنما التعذيب الحقيقى بدأ •  
لا •• لن أحتمل •• لا مفر من أن ••

فجأة • شد قامته وارهدف أذنيه •• الكعوب الحديدية مرة  
أخرى ، وثمة مهمات تقترب • الوحوش قادمون • فلأخرجها  
بسرعة • أتناولها فى لحظة وينتهى الأمر •

تخشبت يداه الى جانبيه •• ذهبت نظراته الى مربعات  
الضوء •

— لا ٠٠ ليس هكذا بسرعة ٠٠ انه الموت يحدث مرة واحدة ،  
أجله الى اللحظة الحاسمة ، الى اللحظة التي تحس فيها أنك غير  
قادر على الاحتمال ٠٠ وإنك أصبحت تماما على شفا الانهيار . في  
تلك اللحظة تستطيع أن تقفز طائرا منهم الى موة الموت بارادتك ٠٠  
والموتف في يدك ٠٠ الموت في جيبيك ٠ تستطيع أن تستدعيه في أية  
لحظة ٠٠ بمشيئتك ٠٠ و ٠٠ وبعد أن تكرر قد صيبت عليهم اللعنة ،  
نعم ٠٠ وأعلق دمي في رقبتهم ٠٠ لا يمكن أن أعفيهم من مسئولية  
موتي ٠

الخطوات تعلو وتدوى ٠٠ كل شيء هنا يضاعف من بشاعة  
الصوت : الاسلاك والبلاط والاحجار والأسفلت وأسياخ الحديد ،  
والعنابر الثلاثة القريبة ٠ كل عنبر بثلاثة أدوار ومئات الزنازين ٠  
لكنهم القوا به في زنزانة بعيدة منفردة ٠٠

الخطوات وصداها تعلو وتقرب وتخلط في رأسه وتخطب ،  
ورأى الباب يفتح ٠

ودخلوا عليه ٠٠

الضابط ومجموعة العسكر ٠

بحركة تلقائية ، كمن يتحسس سلاحه ، وضع يده على  
موضع الحبتين ٠

— هل أنت متعب ؟

قالها الضابط وقد لمح حركة يده بنظرة صقرية ٠٠ مستريبة ٠  
— لا ٠٠

واسقط يده فورا الى جانبه ٠٠ وأسرعت دقات قلبه ان رأى

الضابط يقترب منه ثم يمد يديه ويتحسس حول خصره بحذر • هل سيكتشف الأمر ؟

– أنتم قوم خطرون • لا أمان لكم •

– فتشناه جيدا يا سعادة اليه •

أحس بارتياح عميق ••

كان يظن انى أخفى مسدسا ، نعم •• أنا أخفى مسدسا ولكن من نوع آخر •• وأحس بلسعة حزن • سأقتل به نفسى ، ولاأستطيع للأسف أن أقتلكم به ••

– هل استرحت جيدا ؟

– نعم •• ( غمغم بها ) •

– اذن فأنت مستعد !

– لماذا ؟

– تقول لنا •• كل شىء !

– أنا لا أعرف أى شىء •

ولح فكى الضابط يرتعشان رعشة خاطفة • والعسكر ، ندت عنهم حركة الاستعداد للانقضاء • كلاب صيد تستعجل صدور الاشارة ••

– لآخر مرة أقولها لك •• أعقل وتكلم •• أنت لاتعرف ما الذى سيحدث لك •

– أرح نفسك وأرحنا ، يا مغفل ••

صرخ أحد العسكر فيه •• ورأى شومة تهتز •• وأخرى



ترتفع فى الفضاء • وأحس بأنفاسه تذهب ، ماكان يجب أن أوّجل  
كنت زمانى انتهيت • ومع هذا فالموقف فى يدي •

— ماذا قلت ؟ •• لا تريد أن تتكلم ؟

— قلت لك لا أعرف أى شىء ••

ويابتسامة بشعة ، مع رفعة حاجب •

— هل تظن نفسك بطلا •• أو زعيما ؟

— أنا لم أقل أى شىء !

— لم تقل ، ولكنك تتصرف •• هه ؟ لقد حاولوا من قبلك  
وخرجوا ساجدين •

قال فى عمق نفسه ، الآن أريد أن أموت • الآن حصل وقت  
الموت ••

— يبدو أنك من الصنف اللئيم • لكننا نعرف كيف نتعامل  
مع صنفك !

هل يمد يده ويخطف الحبّتين ؟ فى نفس اللحظة كانت  
الإشارة قد صدرت ، وحدث الانقباض ، أحس بذراعيه تلتويان  
فجأة الى الخلف بشكل وحشى ، وخيل اليه مع الألم الصارخ أن  
الذراعين ستفصلان ، أو انفصلتا عن الكتفين •• ثم بضربة يد  
هائلة — سيفها — على عنقه •• خرجت منه شهقة •• كأنها النفس  
الأخير • أحس أن العنق طار من فوق الكتف ، وانسان العين قفز  
من محجره ، ودارت به الدنيا رأسا بلا جسد ، أو جسدا بلا رأس •  
غير أن الدّورة سرعان ما توقفت • وأحس بارتجاجة ضخمة فى  
بطنه ، ضربة حذاء فى البطن فانكفا صارخا على الوجه ، غير أنه  
عاد فوجد نفسه يرتد الى الخلف اثر ضربة فى الظهر ، تبددت معها  
شظايا الوعي الباقية • وسقط على الأرض بلا حراك •

– أنه يتنفس • أليس كذلك ؟ رشوا عليه بعضا من الماء ، من هذا الجردل •

ومع اندلاق الماء على الوجه الملتصق بالأرض •  
– هذه عينة أولية •• يا بطل !

ومع احدى شظايا الوعي التى كانت تروح وتجيء : لا خلاص الا بالموت السريع أو أتكلم وينتهى الأمر • لابد أن ينتهى هذا العذاب على أى وجه • وفكر أن يدس يده بسرعة ويخرج الحبة ويبتلعها ، لكن العيون الشرسة واقفة له بالمرصاد •• سيحولون دون أية حركة من اليد ، بل ان اليد نفسها والذراع •• أين هما ؟ وحاول أن يجرب الاحساس بوجوده الجسدى ، ليتأكد من انه لا يزال على قيد الحياة •• ومضى يتأوه •

– أذن فقد أفقت •• عظيم •

وفوجيء بقبضة تجذبه جذبا من شعر رأسه الى أعلى ، ووجد نفسه معلقا يتطوح •

– هذا الشعر الناعم لن تحلقه لك ، بل سنقتلعه من جذوره •  
خصلة خصلة •• أيها المسلول الابله •

وعادت الركلات واللكمات والضرب بالهراوات •

– كل هذا فتح شهية لا غير •• أما الأكلة نفسها ، فلم تبدأ بعد •• أنت لا ••

ولم يسمع بقية الكلمات • أصبح جثة فى أيديهم تروح وتجيء وفق ايقاع الضربات •

– ابعدوا عن الرأس • انزلوا الى أسفل •  
– اتركوه •

تركوه • سقط •

— شيلوه •• وارموه على السرير •

ورفعوه من على الأرض ، وألقوا به على السرير •

— هذا يكفى الآن •

ثم خرجوا • وقفلوا عليه باب الزنزانة •

شيئا فشيئا كان يعود اليه وعيه • أولى علاماته أنه رأى  
سقف الزنزانة ، والحوائط ، ثم المربعات الضوئية • وخيل اليه  
أول الأمر أنه فى قبضة كايوس ، أو حلم فطيع ، لكنه أحس بسبخ  
محمى يخترق غضروفه والألم يخرج من الرأس •• بل من العينين •  
صرخ ! وحاول أن يرتفع بظهره قليلا عن السرير ، فقد يخف الألم •  
انبعثت منه صرخات الألم • ترك نفسه ذرات مفتتة على السرير ••  
وانتابته رغبة شديدة فى البكاء وفى النواح • لقد انهالوا على  
نقطة ضعفه • على عموده الفقري • كم فقرة من الفقرات بقيت  
مرتبطة باختها ؟ وأحس بشيء ما ثقيل على الشفتين ، عند ركنى  
القم • رفع يده بجهد هائل يتحسس قمه • أحس بشيء لزج • وحين  
نظر فى يده ، رآها ملطخة بالدم • استبشع المنظر •

— متوحشين •• متوحشين •

— قلت لك اعقل وتذكر ان الملك شخصيا يتتبع القضية • ولو  
فشلت أنا معك ، فسيبعث لك برجال من عنده • رجال مخصصون  
لهذا • رجال خرس •• مخصيون • هل تعرف ما الذى سيفعله معك  
هؤلاء المخصيون ؟

وانتابته رعشة ، مع رغبة فى الغثيان • يعرف ماذا يفعله  
العجز الجنسي عند بعض الرجال •• لا •• ليس عجزا •• بل  
بترا •• يتحولون الى اكلى لحوم البشر كتنويض •

— لا ٠٠ لم يعد لى احتمال ذرة من التعذيب أكثر من هذا ٠  
وتملكته رغبة فى النواح : المخصيون يا امرأتى ٠٠ وقد  
لا أصلح معك ان عدت لك حيا ٠ انهم يودون ابادة الرجولة فى  
البشر ، بعد أن أفقدوهم اياها ٠٠

هل يصيب للحياة طعم بعد ذلك ١٩

أحس بالمهانة ٠

وان لم يفعلوا بى هذا ، فساخرج محنى الظهر ٠ تفتت عمودى  
الفقرى ٠ لن اصلب عودى وأنا أسير مثلما يفعل الرجال ، بل  
والأطفال ! سأمضى بقية حياتى طريح الفراش ، وان سرت فمحنى  
الظهر ، واذن ما معنى الحياة ٠ ومضى يتأوه ٠

— اهنك حقا شىء فى العالم يستحق أن يعذب الانسان نفسه  
من أجله كل هذا العذاب ؟ ( كلمات الطبيب تعاوده ) اكان عنده  
حق ؟ ٠٠ » ٠٠ ولماذا تتحمل أنت أوزار التاريخ ٠ لماذا ؟ وأنت كنت  
تؤمن حقا بالتطور التاريخى ، وأنه قانون الحياة الطبيعى وان  
النصر فى النهاية للشعوب ، فلماذا هذه العجلة ؟! لماذا تضع نفسك  
فى منطقة الاحتراق ، بينما الآخرون يتفرجون ثم فى النهاية يأخذون  
هم الثمرة والضوء ؟ ٠٠ تقول انك تتعجل التاريخ ؟ بل قل انك  
تتعجل موتك ٠ ولن تخلف ضوءا للصغيرة وأما ، بل حزنا مقيما ٠٠  
أجل يا صديقى الطبيب ٠ وكنت ضحوكا معهم ، فرحا بالحياة ،  
سعيدا بتلك الهناءات الصغيرة ، تصنع بعرقك ويديك عالما جميلا ٠  
وكانت الحياة يمكن أن تمضى جميلة وبسيطة ، وتطور الحياة  
يمضى الهوينا ، لو لم أقابلك يا « عاكف » ٠ فى البدء قاومتك بعضا  
من الوقت ، ثم أخيرا وجدتنى أنا الذى أجرى وأبحث عن مناطق  
الذهب ٠ استهوتنى حياة الخطر العظيمة ٠٠ أصبحت تلك هناءاتى  
السعيدة ٠ أجل يا عاكف ٠٠ لست انت المسئول ٠ بالعكس ٠ انت

فتحت لى بعض الأبواب المقفولة منذ الاف السنين ، فمضيت أفتح  
باقى الأبواب ٠٠ بأنبهار ٠٠ بابا بعد باب ٠٠ مفتونا بسحر  
الاكتشاف ، وان عالما جديدا رائعا ، يمكننا صنعه لا لصغيرتى  
فقط ، بل لكل الصغار ٠٠ بل ولكل الناس ٠

الكان كل ذلك غرورا ٠٠ وهما بالبطولة ؟ ٠٠ ( ومضى يتقلب  
فى حمى الألم ) وبعد قليل سيبتعدون وربما يأتى المخصيون ٠٠  
لمر قشلنا معك فسيأتى لك الحرس ٠٠ المخصيون !

سوف يأتى الدور عليهم ٠٠ لم أعد بقادر ٠ لم أعد بقادر ٠  
أسياخ الألم ٠ وسقطت من عينيه دمعتان ٠

— اما الاعتراف الفورى ويكفون عن هذا الجنون — أو  
الانتحار الفورى وقبل ان يجيئوا ، فيجدوننى جثة هامدة بلا  
احساس ٠

القرار السريع ٠ لابد من قرار سريع ٠

الانتحار هو الخلاص الوحيد ٠ وبجهد هائل نكثنا صرخات  
الألم ، استطاع ان يدس أصابعه فى المكمن السرى ، واخرج الحبة ٠  
أنس بها ملفوفة داخل ورقتها الصغيرة المرفقة ٠ تدافعت أنفاسه ٠  
أطبق كفى على الورقة ووسد ذراعه بحركة سريعة الى جانبه ٠ ربما  
رأه واحد منهم يراقبه من العين السحرية ٠ وضع كل وجوده فى  
أذنيه ٠ لم يسمع صوتا ٠٠ الآن ٠٠ فى هذا الهدوء العميق الشامل،  
سيبتخر ! ! حل الوقت ٠ لحظة واحدة وينتهى كل شئ ٠ ورأى  
نفسه ممددا محمولا داخل نعش ، ورجال من أهل الحى يحملونه على  
اكتافهم متجهين الى المقابر ٠

— لاحول ولا قوة الا بالله ٠ يقولون انه انتحر من كثرة  
التعذيب ٠

— بل يقولون انه انتحر قبل ان يبدأ التعذيب ، ليتجنب  
التعذيب .

— أما كان قادرا على أن يتحمل ! تعالوا وانظروا نوع  
التعذيب .

ورأى الصغيرة وأمها فى السواد . الصغيرة أيضا تلبس  
السواد ، وتصرخ مع امها فى التلياع .

ورأى الرفاق يسرون وسط الجنازة ، منكسسى الرؤوس  
بالحزن الجليل .

— بابا .. لماذا تركتنا يا بابا . لمن تركتنا يا بابا ؟

اما كان قادرا على أن يحتمل . كان لايد ان يحتمل .

— لكنه لم يعترف .. قلت لكم انه لن يعترف .

يا عاكف .. يا صديقى قبل ان تكون رفيقى الحبيب .. لماذا  
لاتبتسم لى ! هل انت غاضب منى ؟

عاكف يصرخ .

— أجل .. لا تنتحر .. اياك من الانتحار .. لايد أن تحتمل  
.. أو على الأقل أجل . انتحارك الى لحظة اليأس المطلق .. أخسر  
ذرات اليأس الكامل .. مازلت قادرا على الاحتمال .. مازلت  
قادرا .

— والخرس يا عاكف .. والمخسبون .. الآن الموقف فى  
يدى .. قد يقلت الأمر منى بعد هذا .. بعد قليل قد افقد القدرة عليه  
.. ويتم السقوط .. أنا لا أهرب .. أنا أحافظ عليكم .. أنا .

واحس فجأة بكل وجوده المتهالك ينتفض وتعالى دقات قلبه  
كالطبل . سمع وقع الكعوب الحديدية تصك فى بلاط العنبر . ما

قد عادوا • وستفتح أبواب جهنم من جديد • أسرع ورفع يده  
بالورقة •• الى مستوى عينيه •• رمقها بنظرة ذاهلة • أحس بها  
ترمقه : ولماذا تتعجل ؟ لماذا ؟ الآن أصبحت فى يدك • بين أصابعك  
أصبحنا الآن مسيطرين على الموقف • فى أية لحظة يمكن • واذن  
فانتظر • وأنا معك •• سأرحمك فى الحال • وقتما تشاء •• المهم ان  
تكف عن الرعشة ، شدد قبضتك على ، أكاد أسقط منك على  
الأرض •

— وتسقط جميع الأشياء •• بل انى موشك على السقوط ••  
لم أعد بقادر • ( وازدادت الرعشة ) •

— عظيم •• احس بقبضتك تزداد قوة •• وحينما ينتهى  
التشريح ويكتشفون ذراتى ، سأقول لهم : قاوم حتى المنتهى •• حتى  
النهاية • اياكم ان يلومه أحد على الانتحار •

— لم •• لم •• لم أعد قادرا ، أخاف ان •

وانقطع هذيانه • فتح الباب ودخلوا • نفس الوجوه • لم  
يأت المخصيون •• سوف يأتون بعد ان يفشل هؤلاء •• ولكنهم  
سيأتون ليجدونى ميتا •

واستطاع ان يرى ابتسامة كريهة متزلفة على فم الضابط •  
— هل أخذت راحتك ؟

لم يرد •

— أمازلت مصبرا على انك بطل ؟ ( وصرخ ) انطق • ليس  
عندنا وقت !

— ماذا أقول ؟ !

— اعترف بكل شيء •

— أنا •• لا أعرف •• أى •• شيء !

ارفعوه من على السرير ، وارموه فى الأرض •  
وأحس بمخالب تطبق على بطنه • ثم بجسده يرتفع فى الفضاء  
ويسقط على الاسفلت ، اشتعلت النار فى بدنه • تأوه صارخا بلا  
وعى •

– اقفل فمك هذا • النجس • اياك ان تخرج اى صوت ،  
أربطوا رجليه ومدوه •

– لا • لا • لا تفعلوا هذا •

– تكلم • ونحن لانفعل أى شىء !

– أنا • أنا •

• واستماتت يده على الحبة ، بل ان كل وجوده تركز فى كفه •  
فليتداعى كل جزء فيه الا هذا الجزء • يجب ان يظل محتفظا بها  
حتى اللحظة الأخيرة • مازال فيه بعض عروق قادرة على الاحتمال  
• والاهون ان يضربونى على قدمى • بدلا من الضرب فوق  
الغضروف • لكتهم كانوا قد انقضوا عليه وربطوا رجليه بحبل  
ورفعوا قدميه الى أعلى •

لم يأت الألم طافحا من القدمين ، بل من كل ذرة فيه • طفحت  
منه صرخة العذاب •

– متوحشين • متوحشين •

قهقهة الضابط : نحن متوحشون ؟ نحن ارحم من غيرنا بكثير ،  
لم يأت لك المخصيون بعد !

صرخ : بل انتم المخصيون • واثت المخصى • نعم انت  
المخصى !



كأنما حدثت صاعقة فى الجو . ارتعب لها الضابط وارتعد معه كل اتباعه ، وتوقف الضرب رغم انه لم يحدث أمر بذلك وبصوت كالفحيح ، انما اختلطت به غنة رقاعة .

— ماذا تقول ؟! نحن .. مخصيون ؟! أنا .. مخصى ؟ .

وفجأة ندت عنه قهقهة بشعة ، تبعها قهقهة اتباعه .. كانوا جميعا يقهقهون ساخرين .

— نحن مخصيون ؟ .. ويقهقهون .

ورأى الضابط يضع يده فوق أعلى فخذيه .

— هل أخلع .. وأريك ؟

— ليس شرطاً . أن تكون ذكراً . انما .. انت .. مخصى الرجولة . مخصى الرجولة . كلكم مخصيو الرجولة !

— كأنما ارتجاجه كبرى حدثت فى الكون .. لم ينتظروا الأمر انهالوا عليه مرة أخرى بجنون .

— مخصيون يا أولاد الكلاب .. مخصيون .. مخصيو الانسانية .

واستمعت على الحبة .

كان قد بدأ ينسى الضربات ، ويركز بقدر ما يستطيع فى الحبة وطاف به للحظة شعور سعيد : لقد قال مالم يريدوا ان يقوله .. والآن سيفسد عليهم ايضاً متعة التعذيب .. يا حبوب الخلاص . يا حبوب السعادة .. الآن حل الوقت . سابتلعك فى لحظة وينتهى كل شيء .. وشرع يحرك يده ، أحس فجأة بشعور غريب .. حتى انه لم يصدق .. الضربات لم تعد تؤلم . حدث خدر عجيب فى كل حسده ، هل ماتت الخلايا فلم تحس بالضرب الا كايقاع بعيد ..

واحس برأسه ، وكله ، يطير ٠٠ وان له أجنحة ٠٠ هل عبرت جسر  
الألم ، جسر العذاب عبرته ٠٠ وراح يتتبع الضربات تنهال عليه ٠٠  
أجل ٠٠ لا ألم ٠٠ واذن فلماذا الانتحار ٠٠ وانفرجت أصابعه عن  
الحبة ٠٠ كان يخيّل اليه أنه لا يزال محتفظا بها ، لقد سقطت منه  
من زمن بعيد ٠

وارتممت على شفتيه ابتسامة ، جن جنون الضابط واتباعه  
قمضوا يلهثون وهم يضربون ٠٠ وخيّل اليه أنه يطير من المربعات  
الحديدية ، ليست حديدية ٠٠ بل ضوئية ٠٠ السماء فسيحة وعريضة  
وأرض البشر تموج بالحياة ٠٠ والصغيرة ٠٠ والحببية ٠٠  
والرفاق ٠

واختفت المربعات الضوئية ٠٠ وأطبق الظلام ٠  
لكن حبة صغيرة على الأرض ٠٠ كانت تشع بالنور وبالحياة  
وسط كل هذا الظلام ٠

« ١٩٧٩ »

## الأمل .. والجرح

خرجت من بيتى أعدو فى الشارع بكل سرعتى ، كنت أرتدى  
بيجامة النوم ، لكنى لم أعبأ .. لم تكن هناك لحظة تحتمل تفسير  
ملابسى .. كان المهم أن الحق به ..

كنت قد رأيته فجأة وأنا راقدة فى سريرى ، مستيقظا لتوى من  
النوم .. يمر مسرعا أمام النافذة .. كتلة مجسمة .. برداء فضفاض  
كأنه أجنحة .. وكان لحركته خفق طائر مهيب من طيور الاساطير ..  
أحسست بصوت قدميه المسرعتين على أرض الشرفة ، كأنه موجة  
بحر فى لحظات المد ..

دق قلبى بالفرح ، وانتفضت من على السرير ورحت أعدو فى  
الشارع كى الحق به ، أمسكه بكل ذراعى وأتشبث به .. اعانقه بكل  
الحنين والشوق .. الا يعرف انى من زمن طويل وأنا فى انتظاره ؟  
فلماذا لم يتوقف لحظة عند نافذتى .. بابتسامة لا أكثر ، وتلويفة  
بالذراع : الى اللقاء ..

ويواصل جولته فى المدينة ..  
مضيت أعدو .. كان الشارع طويلا .. وخاليا .. تراه وصل

الى نهايته ودخل شارعاً آخر ٠٠ أم دخل أحد هذه الشوارع الجانبية الصغيرة التي تقضى بدورها الى شوارع أخرى كثيرة ؟

لم يكن هناك وقت للتردد ٠ فلا تتبع احساسى ٠ لمع خط من الضوء فى رأسى ٠ هو بالقطع سيمر على نهر النيل ٠ أول شىء يفعله العائد الى مصر بعد غيبة طويلة يذهب الى ضفة النهر ويأخذ نظرة يروى بها عطش الغربة الطويل ٠٠ أه لو الحق به هناك ٠٠ أخذ يده فى يدي ونهبط جرياً ٠٠ نضحك مرحاً ٠٠ ونغسل وجهينا سوياً بماء النيل ٠ نغترف بقبضاتنا ونشرب ٠٠ ما أحوج أجسامنا وأرواحنا الى طمى ٠٠ الحياة ٠

انحرفت مندفعاً فى اتجاه النهر ٠٠ أعدو بكل قوتى حتى وصلت الكورنيش ٠ لم يكن هناك أحد على الاطلاق ٠ ليس غير الاشجار ٠٠ وضوء ما بعد الفجر الفيروزى يكسو الفضاء ، ومجرى النهر ، والعمارات العالية المطلة على الجانبين ٠

وفكرت : هذا هو غرب المدينة ٠ ربما فضل ، بقوة الشوق ٠ ان يبدأ جولته بناحية الشرق : القلعة والمقطم وزينهم وباب الشعيرة والمقابر ٠٠ مقابر الخفير والوزير والسيدة نفيسة ٠٠ لا ٠٠ لا اظن أنه يتذكر الموتى أول لحظات الوصول ٠ أم أنه الوعى بالتاريخ يولد فى النفس أيام الاغتراب ؟ يقولون ان جذور الوطن تمتد أكثر فى قلب الانسان وهو بعيد عنه ٠ وكلما طال البعاد كلما نمت وامتدت فى قلبه الجذور ٠

فلأواصل العدو فى أى اتجاه ٠٠ سوف أترك حركتى لقدمى ٠٠ أدخل أكبر عدد من الشوارع والحوارى والميادين ٠ ولو استعصى الامر أن أدق على أبواب بعض البيوت سادق عليها واسأل عنه ٠

مضيت أعدو ٠٠ توقفت فجأة وأنا اتأوه وانحنى على قدمى وأمسك بها ٠ أخرجت قطعة زجاج صغيرة مسنونة ٠ ورأيت الدماء

تنزف من قدمي • لم أعبأ • ليس هناك وقت أضيعه في تضاميد الجرح • لو قابلته فهو الذي سيضمد جرحي • وجميل أن يعرف أنني نزفت دماء لكى أراه • ليس دماء فقط ، بل نزفت شهورا وأعواما من عمري • ومضيت أعدو • خفت سرعتي بعض الشيء • وكنت أعرج ناظرا في كل الاتجاه • بشبق الشرق • لو اصطدم به في أية لحظة ، وأعيش زخم العناق • أملا به روحي ، وخلاياي • انتبهت فجأة على يد تمسك بي من الخلف بقوة وعنف

– أعطني بطاقتك •

كان واحدا من عسس الليل •

قلت وأنا أحاول أن أخلص نفسي من قبضته •

– بطاقتي •• تركتها في البيت •

– إذن أمامي الى قسم الشرطة •

لم أكن أريد أن أجرح اللحظة • قلت متجاوبا :

– أمامك الى قسم الشرطة •

وسرنا • في الطريق سألني : اسمك •• وعملك ؟

حين قلت له أسمى وعملى • توقف عن السير وارتسمت على

وجهه الدهشة المتزجة بالريبة • أسرعت قائلا :

– لا تظنني مجنونا • كان الأمر لا بد أن يسير على هذا

الوجه ، لم يكن هناك وقت لاغير ملابسى ولا حتى لارتداء حذائى •

كان لا بد أن أجرى بسرعة لألحق به •

سألني ودوائر الشك تتسع في عيني : من هو ؟

بماذا أجيبه ؟ لو قلت له الحادث بالضبط لن يفهمنى • فليكن

كلامى معه •• بالرمز •• قلت له : انه •• ابنى • منذ سنوات وهو

غائب عني • ولم أكن أعرف له أرضا •• واليوم رأيته • لمحته يمر  
مسرعا أمام النافذة ، فجريت ملهوفاً في الشارع لألحق به •

قال مستنكراً بغضب : أي ابن هذا الذي يمر على بيت أبيه بعد  
غياب طويل كما تقول ولا يدخله ؟

اختلط الخيال بالواقع ، والحقيقة بالرمز •

قلت متنهداً من أحشاء القلب : الحق اني أنا المسئول • لقد  
ربيتته على انه ابن للعالم أكثر من كونه ابناً لى •• كما أقهمته أن  
تحولات رائعة تحدث للكائن الحى ، وأن الانسان يمكن أن يوهب  
قدرات الطيور • وصحت معه المعجزة • انطلق يعيش أولاً كإبن  
للعالم ، وليس فقط كابنى • وما هو اليوم بعد أن عاد بعد الغياب ،  
يعيش أولاً كابن لمصر •• يجوب أفاقها • يحتضنها •• يحتويها •  
ثم بعد ذلك يأتى الى أبيه • ويحتضنه •• يا له من عناق سيكون •

وزادنى الشوق انفعالا : اننى •• منذ لحظة رؤيته ، وأنا  
أتنفس ببساطة • أحس أن عنصراً جديداً حلوا أصبح يسرى فى  
الجو ، وأن الهواء خف وزنه •• وأن ••

ولم أكمل •• كان قد بلغ بى التأثير أن تهدج صوتى ، وقاومت  
دمعة أحس بها الشرطى •• فقال لى :

اسمع • أنت فى حالة غير طبيعية • وستتعذب كثيراً لو ذهبت  
بك الى قسم الشرطة ، وستتعذب أنا أيضاً معك ! امض الآن الى  
بيتك • فلو كان اسمك وعملك حقاً كما تقول ، فماذا سيقول الناس  
عندك ؟ •• ما هى المدينة صحت والناس ملأوا الشوارع •

وانتبهت • كانت المدينة قد بدأت ملحمتها الجهنمية اليومية  
المالوفة • وأدركت حالى ، وأنى بالبيجامة ، وحافى القدمين ••  
والقدم اليمنى تنزف •

تداخلت فى بعضى • سحبت نظراتى عن الناس والاتوبيسات  
والعربات والموتوسيكلات •

التمست طرقات جانبية • سرت بجوار الجدران • وصلت  
بيتى • لحسن الحظ لم يكن البواب موجودا • ولا أحد من السكان ،  
لحظة دخولى •

دخلت حجرتى • ربطت جرحى • عدت الى سريرى • واصلت  
رقدتى كما كنت •

كان جرح قدمى يؤلمنى • لكن ثمة نشوة كنت أحسها فى  
الألم ، وأنا أنظر عبر زجاج النافذة ، مستعيدا ومثبتا المنظر فى  
حدقة عينى •

أجل •• من هنا مر •• بعينى الاثنتين رأيته •• يا لمنظره  
المهيب • بردائه الجليل •• كالومض •• كخفقة طائر من طيور  
الأساطير •• أو كموجة البحر ساعة المد •• أما كان عليه أن يتوقف  
لحظة بنافذتى لحظة واحدة أتملى فيها وجهه ، وتلتقى البسمتان •  
ابتسمت وحدى متنهدا •

ليس هذا هو المهم •

المهم أنه عاد •

المهم أنه الآن يجوب المدينة •

وضعت يدى على الجرح •• ورحمت أنتظر ••

« ١٩٧٩ »

## ذو القرنين

وقع « الشيطان » فى حب رسامة جميلة ، فماذا يفعل كى  
يكسب قلبها ؟

ذهب الى شيطان الفن ورجاه بأسم الأخوة الشيطانية ان  
يمنحه موهبة الرسم كى يرسم لها لوحة تدير رأسها ويكسب بها  
قلبها ٠٠ غير أنه فوجئ بشيطان الفن يضحك مقهقها ساخرا ويقول:  
أو تظننى شيطانا بحق مثلك ؟ لا ٠٠ ياذا القرنين ٠ حقا ان عنصر  
النار هو الذى يجمع بيننا ، لكنك النار التى تحرق وتدمر ،  
وأنا الجنوة التى تضىء وتشع وتلهم ٠ لقد أسمونى شيطانا من  
باب التجاوز ، من فرط دهشتهم لما أوحى لهم به من روائع ٠ انما  
أنا « ملك » ( بفتح اللام ) ملك عظيم أيها الشيطان ٠ تذكر هذا ٠

أحنى له الشيطان رأسه خشوعا وولاء وعاود رجاءه : اذن  
فتكرم على أيها الملك وأعطنى من جذوتك ٠ لسوف تفعل بهذا فعلا  
عظيما ٠ ستقلل من عدد الشياطين شيطانا ٠ وتزيد من عدد  
المحبين ٠ محبا ٠٠ عاشقا ٠



ابتسم الملك وقال له منبها : وماذا انت فاعل فى قرنك ؟ اعلم  
أنك تجيد اخفاءهما مثلما أنت الآن فاعل ، فماذا لو ظهرنا فجأة فى  
جبهتك وأنت واقف معها ؟

قال الشيطان وهو يدعك جبهته الناعمة اللامعة بشدة : لا  
لن يظهرنا بعد اليوم • فقد اجتثتتهما من جذريهما • اطمئن • سوف  
أبدأ بالحب حياة جديدة • فقط امنحنى هذه الموهبة •

قال الملك : ولكن لماذا موهبة الرسم بالذات ؟ لانها رسامة ،  
تريد أن تكون رساما مثلها ؟ أن الناس لا يستهويهم الا الأشياء التى  
لا يملكونها •

قال الشيطان بحماس وتوتر : هذا صحيح • فلتعطينى •  
ماذا تعطينى ؟ أه • اعطنى موهبة الشعر وأصبح شاعرا • الشعر  
ساحر القلوب الأعظم •

ابتسم الملك ابتسامة ذات مغزى وقال له :

— اذهب • • فأنت شاعر • • ولنرى •

\*\*\*

للحظ كانت الرسامة قد أقامت معرضا لرسومها فى إحدى  
صالات العرض المعروفة وسط المدينة • واليوم يقيمون احتفالا  
بمناسبة افتتاح معرضها • وعلى الفور رسم خطته وشـرع فى  
تنفيذها : انتظر حتى انتهت كل الكلمات التى قيلت تحية لها  
ولأعمالها ، ودخل هو مستأذنا خجولا • • بقصيدته • فأحدث جوا  
رائعا فى الحفل • ووجدت الرسامة نفسها مندفعة اليه لتشكره •  
فقال لها أنه هو الذى يشكرها فهو من زمن كان قد توقف عن قرض  
الشعر وجف احساسه بالجمال ، وإذا بجمال خطوطها وألوانها  
وتعبيراتها ، يفجر فيه النبع الراقد ، والشعر يخرج منه بلا شعور •  
ازداد انفعالها وأمسكت بكفيه متأثرة ! حينذاك نظر فى عينيها وقال

بصوت مرتعش : أن قصيدة أخرى تولد الآن فى قلبى ، فهل تتكرم  
الملهمة العظيمة بسماعها بعد انتهاء الحفل ؟  
- ولماذا بعد الحفل ؟ تعال بعيدا عن هذه الضجة واسمعى  
أيها .

وخرجا من صالة العرض .

\*\*\*

لم تمض أيام حتى كانت قصة الحب بين الرسامة المشهورة  
الجميلة ، وهذا الشاعر الموهوب المجهول ، هى حديث أهل الفن .  
فهى لم تنس فقط معرضها ، بل نسيت أيضا أصدقاءها  
وصديقاتها . فرح البعض لها ، لأنها وجدت الحب الذى يروى قلبها  
وحزن البعض الآخر لأن هذا الحب جاء على حساب فنها .  
وصداقاتها ، لكنها لم تكن تشعر بهؤلاء وهؤلاء . كانت تعيش فى  
الحب بكل ما تملك من صدق وحنين واشتياق مع هذا الذى يتفجر  
شعرا من مجرد لمسة من يدها ، أو من نظرة من عينيها . ابهجها  
هذا الشعور الذى لم تحس به من زمن طويل . الشعور بالبهجة  
وحب الحياة . وأن طاقات بداخلها تدعوها للجري والرقص  
والانطلاق . وكأنما ارتدت الى أيام الطفولة . أه . كم هى  
الحياة حلوة وجميلة معك يا شاعرى الحبيب .

أما هو . فكان يمارس مع نفسه نشوة الشعور بالانتصار .  
لقد استطاع أن يحتويها الى الحد الذى نسيت معه كل شىء .  
حتى فنها . وراحت تتعبد فيه .

قال لها : انت من زمن لم ترسمى . أوحشنى منظرک وأنت  
ترسمين .

احتضنته بحنان وقالت : سأعود الى الرسم • وسأبدأ بك •  
سأرسمك •

وتشرعت تعد أدواتها بحماس •

بذل وعى ، رفع يده ومر بأصابعه على جبهته • يطمئن لعدم وجود القرنين ، ثم قال منتشيا سعيدا : هذا مجد عظيم لى • •

— اجلس هنا • أمام النافذة • فى الضوء •

ارتعشت أعماقه لكلمة « الضوء » • عاوده الخوف من أن تكشف الاشعة أثارا قديمة خفية لموقع القرنين فقال لها :

— عيناى تتعبان من الضوء • ( وأستدار بوجهه عن النافذة )  
أرسمنى فى لوحة يكون عنوانها : الرجل فى الظل •

قالت وهى تمسك برأسه وتدير وجهه نحو النافذة •

— لا •• بل سيكون عنوانها « الحب فى الضوء » ابق هكذا  
أرجوك •

جلس وكل وجهه مغمور بالنور • غمست ريشتها فى ألوان الزيت، وبدأت ترسمه • فوجئت باحساس غريب ينتابها • كانت تحس بأصابعها تفتقد خفة الحركة وليونتها وانطلاقها • وجدت نفسها ترسم ببطء • ومشاعرها وهى تختار الألوان غير مؤكدة • أحست بالحزن •• أن يحدث لها هذا من أول لوحة ترسمها لحبيبها : يبدو أننى نسيت الرسم •

وألقت بالفرشاة جانبا وبدأ عليها الاحباط الشديد •

أحس بانزعاج هائل • واستدار سريعا بوجهه عن الضوء •  
تراها أحست بشيء ؟

لقد سمع أحد المحتفلين بها يوم افتتاح معرضها يقول عن

فنها : انها لا ترسم ما ترى • انها ترسم ماتحس • انها لا تتوقف  
بريشتها عند بشرة الانسان ، بل تدخل الى أعماقه وتكاد تص  
بشرابين دمائه ••

تراها أحست بالقرنين اللذين أخفاهما فى أعماقه ؟  
قال لها وقد قرر أن يتخلص من حكاية رسمها له : فلنؤجلها  
عدة أيام ••

قالت بحزن ممزوج بالغضب وبالتحدى : لا •• بل عدة  
ساعات فقط •• هيا نخرج ونقابل بعض الاصدقاء والصدقات • ذلك  
ما سيحرك الريشة والألوان فى يدي • من يوم ان انقطعت عنهم ،  
وانا لم أرسم خطا واحدا •

تجهم : أم من يوم ان احببتنى ؟

— ما هذا الذى تقول ؟ أنت أيضا منذ ان انقطعت عن  
أصدقائك الذين لم أرهم حتى الآن ، وقصائدك بدأت تقل • الفن  
يأخذ لهيبه من الاحتكاك بالآخرين •

— بدأت تضجرين منى •

— لا تقل هذا أرجوك • اياك ان أسمعها منك مرة أخرى •  
أنا أجد حبي لك بالخروج الى الحياة • عندى اقتراح •

— ماذا ؟

— ان نزور بعضا من أصدقائك أنت •• ليس ضروريا ان  
نزور أصدقائى •• وأصدقائك سوف يصبحون أصدقاء لى •  
ما رأيك ؟

أحس بضربة تملأ رأسه •• قال مسرعا •• راسما على  
شفثيه ابتسامة حماس مفاجئة :

— لا أعرف مكانا الآن لأحد من أصدقائي • فلنزر أصدقاءك  
انت • تهلل وجهها : سنزور استاذي الذي اكتشفني وقدمني  
للحركة الفنية • لابد أن أعرفك عليه • أنا واثقة أنك ستحبه •

\*\*\*

كان الاستاذ يعيش وحده في بيته • كتب وأوراق ولوحات  
وأضواء هادئة مرسلة من أباغورات متناثرة في الاركان • وحين  
رأها أول ما فتح لهما الباب تندفع في حضنه وتقبله ، ويقبلها هو  
أيضا ، أحس بالغيره تلسعه • وبثمة صهد يخرج الى حلقه من  
جوفه • فرغم أن الأستاذ يكبرها بما يقرب من عشرين عاما الا أنه  
بدا له بشعره المفضض الهائش وصدره المفتوح ، ووجهه المشع  
بالثقة والمرح والفرح ، بدا له كثور وحشى ضخم •

« كان يجب أن يعمل حساب وجودي فلا يقبلها أمامي •  
حيوان » • وتزايد الصهد في جوفه « هذه العلاقة الحميمة بينهما  
يجب أن تنتهى • تبتر ! » •

وأحس فجأة بالنفز في جبهته • نغزات أوشكت ان تتحول  
الى طرقات فامتلاً بالفزع من أن يندفع القرنان ويظهران أمامها وأمام  
أستاذها فأسرع بسحق مشاعره • أنه يعلم جيدا أن ظهور القرنين  
مرتبط بتحريك الكراهية بداخله •

رسم على شفثيه ابتسامة واسعة وهى تقدمه الى استاذها ،  
فسلم عليه بحرارة • • وقبله أيضا • • ثم لم يلبث ان فوجىء  
بمجموعة من الاصدقاء والصديقات يأتون الى الاستاذ ويملاؤن  
البيت ضحيجا وضحكا ومرحا • • ليس هذا فقط بل أنهم كلهم  
يأخذونها بالاحضان ويقبلونها وتقبلهم • وإذا بوجهها يتورد  
وحركتها تشع بالانطلاق والحيوية • أحس بالخطر • أن تجد كل  
هذه السعادة والبهجة مع آخرين غيره • هو يريد لها هو وحده •

لسوف يعيدها الى حظيرته من جديد • ولكن بعد أن تنتهى هذه  
الزيارة • سوف أبدا عملى •

كان يدرك خطورة المهمة التى هو مقبل عليها • انها مهمة بذر  
الكراهية فى نفسها نحو أستاذها وأصدقائها وحتى أيضا صديقاتها •  
كان كل نضاله ان يستثير فى نفسها الشعور بالكراهية نحو من  
تحبهم دون أن يتحرك القرنان فى داخله •

وبدا له أنه نجح فى ذلك حين وجدها تقول له ذات مساء  
بإكتئاب ••

– لم أعد أستريح مع هؤلاء الناس • لم أعد أحس بأنهم  
يحبوننى مثلما أحبهم • خلاص • قررت الا ارى أحدا منهم • يكفينى  
من الحياة أنت والرسم • لن يكون لى عمل فى الحياة سوى أن  
أحبك •• وأرسم ••

• هيا أرسمك •

رغم أن قلبه زغرد بالفرح لنجاح خطته ، الا أنه أحس بالخوف  
وهى تقول له :

– اجلس كما كنت ، فى الضوء ، أمام النافذة •

– ليس هذا وقت الرسم يا حبيبتى •

قالت مقاطعة ، وقد تلبستها شهوة عارمة لكى تضرب بفرشاتها  
وترسم •

– بل هو الوقت • والضوء فى أشد حالات حدته • أريد أن  
أرى حتى أدق شعيرات أنسجتك • كل ما بداخلك أريد ان احسه •  
أريد أن أعوض فشلى السابق فى رسمك • اجلس •

وصاحت فيه الى حد الصراخ ) اجلس أرجوك • واترك نفسك  
على طبيعتك • فقط أنظر لى • أريد أن أرسمك وعيناك فى عيني •

وإذ مضت تضرب بفرشاتها بقوة على اللوحة ، راسمة فى  
البداء محيط الوجه الخارجى ، كانت تنظر فى وجهه وقد احتشدت  
كل طاقاتها الروحية • فجأة • وهى تنظر فى عينية • إذ بها تحس  
بأن أصابعها تتوقفان منها ، واحساس غريب يدهمها ، ثمّة تموجات  
غريبة فى عينية • ليس معنى واحدا مؤكدا • ليس فقط فى العينين ،  
انما ثمّة تقلصات تحدث فى الجبهة ، كأنما ارتفاعات وانخفاضات  
• مرة تظهر ومرة تختفى • واستنكرت مع نفسها ما ترى : أهى  
أوهام الفن ؟ أم انها فقدت لياقتها الفنية وانتهت كفنانة ؟!

وصرخت فى أعماقها : لن أفشل أمامه • كرسامة • الموت  
أفضل • لن أفشل معه • وارتفعت يدها بقوة الفرشاة وكأنها  
تشهر سيفا تقاتل به ضد الفشل •

– أرجوك • أعطني عينيك • خذ راحتك تماما •

– أنا مستريح •

وراحت تضرب بألوانها بقوة • كان خليطا هائلا صاخبا من  
المشاعر • وإخافه منظرها وهى تنظر فيه • لا حب ولا كراهية •  
بل حالة غريبة • تراه شيطان الفن • أو « ملكه » قد تلبسها ؟ هذا  
اللعين ساهزمه • وأحس بنظراتها تخترق عينيه لترى الاعماق  
وعاودته المقولة « انها لا ترسم ماترى ، بل ترسم ما تحس » •

وجز على أسنانه : لا • القرنان فى الداخل • فى أعماق  
الأعماق • استعملهما فى الوقت المناسب • لم أجتئهما كما قلت  
لك أيها الملك اللعين • أنا لا أرمى بسلاحى الوحيد الذى انتصرت

به • لقد خلصتها من أصدقائها •• وأحبابها •• وأصبحت لى أنا  
وحدى •• وسوف انتصر أيضا هذه المرة •

ورسم على شفتيه ابتسامة يدارى بها ألما فى داخله ••  
أما هى • فقد توقفت على الرسم وراحت تنظر اليه وهى لاتصدق •  
وتعالت دقات قلبها • كانت ترى شيئا رهيبا يحدث • نتوءان  
تبرزان لحظة بلحظة من جبهته •• وهو لا يحس بشيء •• ما  
هذا ؟

وكتمت شهقة : انهما يكبران •• يكبران •• أصبحا قرنين •  
امتألت بالهلع • رمت بالفرشاة وهى تصرخ • ولت هاربة •

« ١٩٨٠ »



## الميلاد

رايت نفسى حاملا نعيشى وسائرا نحو القبور • كنا فى غبشة  
البكور ، ولا قدم انسان أو حيوان تدب على الأرض • الكل  
فى هجة النوم الأخيرة • لم أكن أقصد الا يرانى أحد بنعشى •  
أننى لا أتصرف فى الخفاء • لكنى قصدت ان أنفذ قرارى بسهولة •  
الا يناقشنى أحد فيما اتخذت من قرار !

كان سور المقابر يلوح من بعيد •• هناك على الضفة الأخرى  
من التربة وسط الحقول • مضيت أغذى الخطو بثبات وهدوء !

لفت نظرى فجأة ، قرص الشمس المذهبى وهو يبرز ويطل  
وليدا على الوجود • ابتسمت فى نفسى وشددت من قبضتى على  
نعشى : أننى أموت مع ميلاد يوم جديد • ذلك هو المغزى العميق !

كان ضوء الشمس حادا ، لكنه غير مؤلم ، والافق ممتدا  
ورحيبا وناعم الزرقة ، وحقول القمح المزروعة منذ وقت قريب ،  
ما رأيته أبدا بكل هذه الخضرة الصافية المترعة ، وهذا التمازج  
الراقص لأعواد القمح مع النسيم ، وفكرت أن الطبيعة تودعنى  
بمنظر جميل ، قلت : شكرا ايتها الحياة التى انطلقت فى رحابك كل

كل هذه السنين ٠٠ شكرا ٠٠ ووداعا ٠٠ فلكل رحلة نهاية ٠٠ هذا هو القانون ٠

كنت أود أن أقول كما يقول المحبون لحظة الفراق : « والى اللقاء أيها الأحباب » ٠

لكنه الفراق الأبدى هذه المرة ، والصمت العميق الهادئ المريح ٠

وداعا اذن يا حقول القمح ، ويا أشعة الشمس ، ويا بروتينات الأرض ، ويا ثواب البر ويا عرائس النهر ٠ وداعا يا كل شيء ٠٠ وداعا يا قانون الجاذبية الذى ينتظم ويضم كل عناصر الكون ، فلقد حاولت أن أبقي جزءا من الدورة ٠ حاولت بكل ما منحتنى الحياة من قدرة ٠ لكن القدرة نضبت مرة واحدة ولم أعد قادرا على الحصول حتى على شرف المحاولة ٠ بل أن المأساة وصلت الى قممتها حين رأيت الدورة نفسها فقدت حيويتها ومعناها ٠٠ أصبحت الحركة تأكيدا للثبات وللسكون ٠ ليس الآن أعظم من شرف الموت ٠ وداعا فقد سئمت وأصبحت فى حاجة الى الراحة العميقة ٠٠ الراحة الأبدية بجوارك أيتها الحقول ، ويا أيتها الأشجار الشاخصة الهاجعة ٠

وتنبهت فجأة الى أننى واقف بنعشى وأتكلم مع عناصر لا تنطق ٠ ولأننى كنت قد تعودت الحديث مع النفس طويلا فى الأيام الأخيرة فقد جذبت نفسا عميقا وقلت بحزم : هذا هو آخر الانفاس ، وآخر الكلام مع النفس ٠٠

لقد انتهت الرحلة !

وعدلت من وضع النعش على كتفى ، ومضيت مواصلا السير  
فى اتجاه القبر • غير اننى فجأة وجدتنى أتوقف على صوت :

– دقيقة •• لو سمحت •

رحت أنظر حولى باحثا عن مصدر الصوت ، لكنى لم أر أثرا  
لإنسان غيرى •

وهم اذن ما سمعت • واندفعت مواصلا السير • غير ان نفس  
الصوت عاد •• بغضب وحسم : قلت لك انتظر • مثلما استمعنا  
اليك ، يجب ان تستمع اليئا •• !

واذ أيقنت أن الصوت ليس وهما ، بل بالتاكيد حقيقة ، واذن  
فهو صادر من عالم الخفاء •• تجعدت فى مكانى •• هاجمنى  
خوف كاسح غريزى أوقف حركة جسمى وعقلى • لكنى سرعان  
ما تنبهت لسخرية الموقف وخطورته وقلت لنفسى : انت سائر الى  
الموت • فلماذا •• ومن ماذا الخوف ؟!

يا له من تراث ثقیل وكريه ذلك الذى اسمه الخوف •• يظل  
يلاحقنا حتى ونحن سائرون الى قبورنا • ( وازدادت قبضتائى قوة  
على نعشى ) هذه هى اللحظة التى يجب أن أرى فيها نفسى فوق  
الخوف • ان الذين اختاروا الموت ، لا يصح أن يخيفهم من الحياة  
أى شئ !

– نشكرك انك استجبت ووقفت • ( واحسست بابتسامة ود  
فى الصوت ) وما دمت قد قررت الموت ، فهى ليست بكارثة أو جريمة  
لو أضفت الى عمرك بضع دقائق •• نتكلم فيها •

كان القمح النابت هو الذى يتكلم • لم أتعجب • فقد كنت منذ  
قليل أكلمه وأناجى خضرته وأودعه •

– وفيم تريد أن نتكلم ؟!

– أنزل نعشك أولا الى الأرض .. كى تتكلم براحتك ؟

ازددت تشبثا بنعشى وقلت :

– لقد أصبحت لا أتكلم براحتى ، الا اذا كنت حاملا نعشى .  
وأحب أن انبهك الى حقيقة هامة عنى ، وهى أن عهد المناقشات قد  
انتهى من حياتى .. وشيئا آخر أكثر أهمية : فلو كنت تفكر فى  
اقتناعى بالعدول عما أنا ذاهب اليه فالافضل أن توفر جهدك ..  
وشكرا على مشاركتك الرقيقة . لقد حسمت القضية .

قال ساخرا .:

– حسمتها بالهروب .. أليس كذلك ؟ الحق كان يجب أن  
تكون خجلا من نفسك !

استفزتنى العبارة .. واللهجة ..

– ومم اخجل ؟

– الهارب من الحياة يجب أن يخجل من نفسه !

انطلقت منى ضحكة مقهقهة ساخرة تردد صداها فى فضاء  
الحقول ووصلت الى سور القبور وقلت : قديمة .. قديمة ..

قال بدهشة : ما هى القديمة هذه ؟!

– نغمة الاتهام بالهروب . فلم أكن لحظة اتخاذ القرار بطلا  
أو حتى جنديا فى معركة ثم هربت منها . إنما الحياة بالنسبة لى  
أصبحت دورة عقيمة ، والخلج الحقيقى كان هو أن أبقى مستمرا  
على قيد الحياة . لا تسلى أرجوك عن تفاصيل . لقد ناقشت  
قضيتى طويلا وحسنت أمرى : الموت الآن بالنسبة لى هو الشجاعة  
.. وهو الشرف وهو أعظم المواجهات !

( ندت عنه ضحكة ساخرة مستهزئة ) ..

– تتكلم عن المواجهة ثم تذهب الى الموت • انك حقاً  
لتضحكنى !

قلت مستهزئاً باستهزائه :

ذلك لأنكم معشر النباتات قمة فرحتكم فى مجرد التواجد  
بالحياة ، يزرعكم شخص ويخلعكم آخر ، ولا لوم عليكم ، فأنتم  
لا تعرفون شيئاً عظيماً اسمه « ارادة الحياة » وحين تنعدم هذه  
الارادة يبقى شئ اسمه « ارادة الموت » • ان نحيا باختيارنا  
وارادتنا • فان لم • فبارادتنا واختيارنا نموت • وهذا هو صميم  
موقفى • أظنه اتضح الآن •• ولن ازيد •• معذرة •• سلام ••

كنت قاطعاً فى لهجتى فلم يعاود الحديث • داخلنى نوع من  
السرور • من المؤكد أنه اقتنع بكلامى ، ولسوف يبارك ميتتى  
العظيمة ، ويكون من الشاهدين •

وعاودت الانطلاق بنعشى بثبات ويقين •

غير انى ما كنت أقترّب من السور حتى فوجئت برجلين يظهران  
بغثة ويعترضان طريقي •

كانت هينئتهما غريبة ، واسنانهما بالذات كريهة •• وتوجست  
من التارجح السريع لنظراتهما • كانا يريدان الاطمئنان لعدم وجود  
أحد غيرنا فى المكان • وفكرت على الفور أنهما لسان • ولكن ماذا  
سيسرقان منى ؟ كل الاشياء تخلّيت عنها ، ولم يبق لى غير روحى ،  
وروحى هى الأخرى حالا سأتخلّى عنها !

غير انى فوجئت بهما يمدان أذرعهما الأربعة نحو النعش  
ويقولان :

– عنك أيها الرجل الصالح • لا بد انك تعبت من حمله • نريد  
أن نكسب ثواب مساعدتك !

ودون أن ينتظرا منى ردا أمسكا بالنعش من حوافيه الأربع •  
قفزت متراجع بالنعش الى الخلف وصرخت فيهما : لا • لا • ثوابكما  
أن تتركاني حاملا نعشى • لست متعبا • أشكركما ••

بدا عليهما الضيق • تبادلنا نظرة • قال أحدهما :

– فلتسمع لنا اذن بثواب المشى فى جنازتك •

وأردف الآخر :

– ان جنازة بلا مشيعين شئ يثير الحزن والأسى •

لم تكن فى لهجتهما ذرة صدق • بل وازدادت ريبتى • قلت  
ولهجتى يختلط فيها الغضب بالتوسل :

– لكنى ، ومعذرة ، أريد هذا • لا أريد أن يمشى أحد فى  
جنازتى • كل واحد منا يصنع جنازته كما يشاء • أتركاني وحدى  
لو سمحتما •

عاودا تبادل النظرات • قال أحدهما للآخر وقد كثر عن  
أسنانه الكريهة :

– هذا الأسلوب لا يجدى معه • فلننته من الأمر بسرعة •

وبحركة خاطفة انحنى وجذبني من أسفل ساقى ، فوقعت أنا  
والنعش على الأرض • صرخت وأنا احتضن نعشى بقوة •

– لماذا تفعلان هذا ؟ ما الذى تريدانه منى ؟

– نريد هذا النعش !

تأكد احساسى • انهما لصان • وعلى أشنع مستوى •  
يسرقان نعوش الموتى •

وها هما يريدأن اغتصاب نعشى منى ٠٠ !

تعبأت روحى بالكراهية٠ ورأيت زحف المهانة يدب الى صدرى  
لو أن هذا حدث فعلا ٠٠ تختتم حياتى بهزيمة ٠٠ حتى نعشى  
لا أستطيع المحافظة عليه ٠ صرخت لا ٠٠ والى لا ٠

تحولت أسنانهما الى أنياب ٠

— أيها الأحمق ( وشهر واحد منهما مدية حادة فى وجهى  
وقال ) يجب أن تترك حقيقة وضعك ٠ نحن اثنان ٠٠ وأنت واحد ٠٠  
وأعزل ٠ يجب أن تسلم فوراً ٠

ازددت احتضانا لنعشى : لا ٠ لست وحدى ٠٠ نعشى معى  
٠٠ ولست بالاعزل ٠ نعشى هو سلاحى ٠ اتقهما ٠ نعشى هو  
سلاحى وسأحاربكما به !

كشرا عن انيابهما البشعة وفى لحظة كانت المعركة قد نشبت  
وثارت من الأرض سحب التراب ، وأنا ممسك بنعشى ٠ وإذا  
بالنعش متينا ورأسخا بين قبضتى ويئز فى الجو محدثا ذبذبات  
كهربائية مخيفة ٠ كان فى لحظة درعا يتلقى عنى الضربات ، وفى  
لحظة أخرى سلاحا ٠٠ عمودا ٠٠ جذعا ٠٠ يوجه الضربات ٠٠  
أعنف الضربات ٠

وإن أصاب كل منهما من النعش ضربة دوختها فتمايلا وراحا  
يترنحان ، زغرد قلبى بتباشير النصر ، وبدأ لى النعش الذى كان  
منذ قليل دليلا للموت ، أصبح رمزا للحياة ٠٠  
وأحسست بشحنات تنفجر من داخلنى وتتوالى ٠٠ كانت  
أنفاسى تتدافع ٠

— آه ٠٠ لظالما استرخت عضلاتى أيها الكلاب حتى تشحمت  
ويبست ٠

الآن تندفع الدماء فى عروقى .. ولاحظت ان السزرع فى الحقول يرقب المعركة بلهفة ، فتضاعفت قوتى ، وعلت صيحات الحرب ، وأنات الألم الوحشية .. ثم فى لحظة بدا لى أن قواى نفدت ، وأنى على وشك السقوط الأخير بنعشى .. غير أن سمعت أعواد الزرع تصيح على .. تشجعنى .. ليست أعواد القمح فقط، بل أعواد القطن والأذرة وقصب السكر .. ليس فقط الزرع .. بل بشر أيضا ، فتیان وعرائس جاءوا ليشاهدوا رجلا يحارب بنعشه . لست بطلا فى مسرحية بل بطلا على مسرح الحياة . رجل كان يحمل نعشه ليودع الحياة ، فاذا بالنعش بين يديه سلاحا يصرع به اللصوص والطغاة .

ورأيت الكل يصفق لى .  
 كان اللسان قد سقطا على الأرض بلا حراك ..  
 وقفت التقط أنفاسى .. وأسترجع ما كان ..  
 كان سور المدافن قريبا منى .. والنعش ملقى على الأرض .  
 — لا .. ليس الآن .  
 وأعطيت ظهرى للقبور .  
 ورحلت أخترق الحقول .. متجها الى البيوت .

« ١٩٨٢ »



## البرغوث سفيرا

كل شيء فى ذلك اليوم ، كان يقول بأنه الرجل الوحيد ..  
الرجل المتفرد .. الرجل الذى اختارته الأقدار لكى تتجه اليه كل  
الأضواء - بجوار ضوء الشمس - أضواء كاميرات الصحافة  
والتليفزيون .. وكذلك ميكروفونات الاذاعة ووكالات الأنباء !

ولم يكن فى الأمر أى اصطناع أو مبالغة ، فهو القائد الذى  
يعود الى وطنه بعد أن انتصر على الأعداء فى أخطر وأشهر  
معركة .. وهامى الجماهير منذ الصباح ، بعد أن انتشر خبر  
وصوله ، تزحف اليه فى بيته الصغير المطل على الميدان تهتف  
باسمه .. ياللسحر الذى يحدثه فى النفس الهتاف .. نشوة الطائر  
المرفرف بأجنحة هائلة فى الفضاء .. والقامة ، قامته ، يحس بها  
قد ازدادت واستطالت ، وأن البشرية تبدأ من خلاله عصرا  
جديدا !! انه يحس مع زحف الجماهير واستمرار هتافاتها أنه  
يتعرف على نفسه لأول مرة .. يكتشف ذاته : كائن كنت غائبا  
عن نفسى ، والآن رأيته .. عرفتها .. من خلال أصواتهم وهتافاتهم  
.. اه .. ما أروع أن أصدق هذا الذى يقال .. بل يجب أن أصدق ..  
فها أنا اسمعه خارجا من القلب .. صادقا حارا : « يارسنول

الأقدار ، يامنقذنا ، يامزِيل العار عنا ٠٠ » والتهافتات متواصلة .  
كلما خفت حديثها فى مكان ، تجددت وتعالَت فى مكان آخر من  
الميدان ، تستعجل خروجه كى يطل عليهم ٠٠

لا بأس أن تطول اللحظة ٠ فهاهم يحولون التهافت الى  
أغنيات ، والأغنيات الى رقصات صاخبة مائجة بالفرح ، بينما هو  
فى الحمام يغتسل ٠٠ وبعد الحمام يرتدى أجمل ملابس ٠٠ الملابس  
التي تقتضيها اللحظة التاريخية ٠٠ وثمة جوقة كبيرة تحيط به  
وتشرف على عملية ارتداء ملابس بهماس بالغ ٠٠ الا أن زوجته  
- ذات الوجه الفائق الجمال ، كانت هى التي تختار من الثياب ومن  
الألوان هذا ، وتستبعد ذاك ، بصوتها الأمر الحاسم ، متصرفة  
كزوجة البطل ، ولا بد أن تطمئن بنفسها تماما على منظره العام ،  
وهو يخرج الى الجماهير ٠٠ وتنثنى عليه فى حب ودلال عميقين ،  
ثم تهمس فى أذنه : « أتعرف فيما أفكر الآن ؟! فى أول يوم رأيته  
فيه ٠٠ أول لحظة ٠٠ كان عندي حق أنى وقعت فى حبك من النظرة  
الأولى ٠٠ الآن أغار من التهافتات ٠٠ أغار من هذه الجماهير المتلهفة  
لرؤية طلعتك » ٠

- سيدى ٠٠ وفد من بلاد كاف نون الشقيق يريد مقابلتك  
لتهنئك ٠

- سيدى ٠٠ خمسة سفراء من بلاد الشرق والغرب ، وصلوا  
فى لحظة واحدة ٠

قال فى ضيق : وهذه الجماهير التي تنتظرني من الصباح  
الباكر ؟!

- سيدى ٠٠ كلما طال الانتظار ، ازداد الحب واشتعلت  
الأشواق ٠

– انهم من فجر التاريخ ينتظرونك • لن يؤثر فى الأمر أن يطول انتظارهم ساعة أو ساعتين أكثر !؟

فى تلك اللحظة سمع ضجة صراخ عالية ، وثمة صوت شك باك يناديه ويستغيث باسمه •• نظر مستغريا •• مستفسرا •

– سيدى •• لاتبالى •• منذ انتشرت أخبار النصر والمجانين بك كثيرون •

– ماذا تعنى !؟

– رجل فلاح يدعى أنه قريب لكم • ويدعى أيضا أنه كان صديقا لكم من أيام الطفولة ، وهو يبكى بشدة كى يراك ويسلم عليك •

ثار فضوله ، واتجه من فوره الى الرجل ، وما أن راه ، بجلبابه البلدى الفضفاض ، وطاقيته الصوف المغزولة ، وذلك « السبع الأخضر » المدقوق بالنار على أعلى صدغه الأيمن ، حتى عرفه على الفور ، وصاح عليه باسمه : خضر عبد الحميد خضر !؟ كيف أنت •• وكيف أحوال البلد ومن فيها •• جميعا !

– اه •• يكفيهم فخرا أنك ابن بلدهم !

وفرد له كل ذراعيه فى اشتياق وحب ، وفرد له هو الآخر متأثرا ذراعيه والتحما فى عناق حار ، وانفجر الفلاح فى البكاء فرحا هو يحتضنه بقوة ويربت عليه •

– يالى من محظوظ •• جئت هذا الصباح من البلد لأقضى مشورا •• فلما رأيت المظاهرات فى الشوارع وسمعتهم يهتفون باسمك ، أحسست كأنهم يهتفون باسمى أنا •• أنت تذكر طبعنا أيامنا معا فى البلد •• أه ما أكثر ذكرياتنا وحكاياتنا ••

— لم أنس شيئا ياخضر ٠٠ غير أن الظرف الآن كما ترى  
لا يسمح بتذكرات ٠ سوف يأتى الوقت فيما بعد ونتذكر ٠  
وتوجه الى الجوقة بنظرة خفيفة على أثرها اندفعوا على  
الفلاح جاذبين اياه من ظهره ٠٠ ثم أخرجوه برفق عظيم !!  
كان على البطل أن يخرج الى الجماهير !!

\*\*\*

قبل أن يخرج الى الشرفة ببرهة ، سبقه الى الميكروفون أحد  
افراد الجوقة ، صائحا معلنا وصوله ٠٠ وما أن أطل عليهم ، حتى  
تأججت الساحة واشتعلت الحناجر بجنون الحب تهتف ، وعشرات  
الألوف من الروءوس والعيون اشرابت اليه ، وكل واحد يود لو  
يطوله ويأخذه فى صدره ويحتضنه ، أحس بقوة هائلة تصطفق  
داخل صدره ، وأن ثمة أبراجا بنيت وهو واقف فوقها ٠٠ وفكر مع  
نفسه : كيف كنت غافلا عن نفسى كل هذا العمر ؟ لا على ٠٠ يولد  
الأبطال بين يوم وليلة ، هكذا يقول التاريخ عنهم ٠٠ يكون عصر  
الفراغ ٠٠ والعدم ٠٠ ثم يأتون هم ، فيعطون المعنى للزمان والمكان  
ويمملأنهما — ويتم الاحساس بالوجود !!

وان هو سابح فوق أمواج النشوة ، طائرا محمولا على محفة  
من أجمل الهتافات والتحايا والقبلات والورود الطائرة اليه فى شرفته  
على أجنحة الهواء « والنسيم فى تلك الليلة عذب ورائع ، فلا حر  
ولا برد » كأن الأقدار ترسم لى حتى درجة حرارة الجو ٠

وبينما هو فى هذه النشوة ، اذا بشيء غريب جدا ومتناقض  
تماما مع طبيعة اللحظة يحدث له ٠٠ لقد أحس فجأة بأن شيئا ما  
صغيرا جدا يلذعه قرب ابطه ٠٠ لذعات ليست بالقاسية لكنها  
سخيفة جدا ومقلقة وتدعوه لأن يهرش مكانها ٠٠ فهل يعقل هذا ؟!

هل يصح للبطل الواقف كالأسطورة فى عز مجده أن يهرش !؟ ٠٠ وليتها هرشة واحدة يقوم بها سرا ؟ بخفة ولباقة دون أن يلحظ أحد وينتهى الأمر ، الا أن اللذع كان مستمرا وبطريقة أدرك معها فجأة أنه برغوث !! ورأى أن الموقف فيه بعد مضحك ساخر ، فلا شئ يحرره الآن من حماقات هذا البرغوث التافه الحقيير الا أن يترك الاحتفال والجماهير معتذرا للحظة ، ويدخل الى حجرته ويغير ملابسه ويعود بسرعة ، الا أنه استبعد الفكرة بشكل قاطع : على أن احتمل ٠٠ لقد احتملت أهوال المعارك ، أفلا احتمل سخافات برغوث !؟ ٠٠ ولكن ( وقفز أمامه السؤال ) من أين وكيف جاءنى هذا البرغوث رغم أنى استحممت منذ قليل وغيرت ملابسى الداخلية !؟ ٠٠ آه ٠٠ تذكرت ٠٠ هو ذلك الفلاح اللعين المدعو خضر عبد الحميد خضر وهو يعانقنى ٠٠ انتقل منه البرغوث الى فى بساطة ، دون أن يدري أنه بذلك يفسد على جلال اللحظة التاريخية ومتعتها ٠٠

خاطر كالومض كانت تمر مختلطة برأسه ، بينما كان واحدا من افراد الجوقة يلقي كلمة يقدم بها للخطبة التى سيلقيها بطل الأبطال ٠٠ وثمة صمت مطبق عميق فى انتظار كلمته ٠٠ كانت عيناه حينذاك على كتلة الجماهير الهائلة المتلاصقة ٠٠ رءوس ٠٠ رءوس ٠٠ وعيون ٠٠ عيون ٠٠ لا يمكنه أبدا التوقف عند أحد معين منها وفجأة ، ومن قلب كل هذا البحر الهائج المائج ، اذا بوجه بالذات يتحدد أمامه ، واذا يعينى هذا الوجه ، رغم أنهما فى نهاية الصفوف الخلفية ، اتصاله وتصطدمان مباشرة بعينه ٠٠ أحس بثمة رجة داخلية هائلة قاومها بسرعة وقوة ، وأسرعت دقات قلبه :

— هاقد ظهر ، رغم أنه كان قد اختفى •

وحول بسرعة عينيه عنه ، والا فلتت منه اللحظة التاريخية • ودخل على الفور فى خطبته ٠٠ ومن أول جملة نطق بها تأججت

الجماهير بالحماس والتهيت الأكف بالتصفيق ، اذ ذاك استرد ذاته  
كما كان ، قبل أن يرى الوجه والعينين ، حتى أنه نظر اليه ليراه مرة  
أخرى ، لكنه لم يعثر عليه ٠٠ كان قد اختفى من جديد ٠٠ «أو .  
ربما كنت اتخيل ٠٠ أو ٠٠ فرط حساسية منى » !

واستغرق تماما فى خطابه ٠ عاوده فيض النشوة والاحساس  
بعظمة البطولة وجلال التفرد ، دون أن تشوبه لحظة تشويش أو  
قلق ، ومضى متدفقا ومتجليا فى القاء خطابه ٠٠ مؤكدا أن اليوم  
علامة يبدأ بضوئها تاريخ وعصر جديان فى حياة الشعب العظيم !!

ولولا أنه كان قد مرت عليه أيام طويلة دون أن يحظى بقسط  
وافر من النوم ، لكان قد ظل هكذا حتى الصباح بين الجماهير ،  
يمارس هذه النشوة التى ما بعدها نشوة ، وخاصة أن البرغوث  
كان قد كف تماما عن مناوشته ، أو ٠٠ ربما تركه ومضى !! لكنه  
كان مجهدا وتذكر احتفالات الغد التى تنتظره ، والتى ستكون بمثابة  
التتويج ٠٠ لابد إذن أن يكون فيها على أكمل صورة ، وأطيب مزاج  
٠٠ فليخطف ساعتين أو ثلاثا ، يغلق فيها عينيه ، ورأسه ، ويستغرق  
فى نوم هادئ عميق ٠٠

— ويأيتها الجماهير الحبيبة ٠٠ غدا نلتقى من جديد ٠

\*\*\*

ما أن دخل حجرته حتى أعلن عن احتياجه للنوم ، واحترم  
الجميع ، وأولهم الزوجة هذه الرغبة ٠٠ قالت له هامسة وعلى  
وجهها آيات الرضا : « كنت أحب أن نجلس معا ، هذه الليلة بالذات  
بعض الوقت ٠٠ مجرد الجلوس لا أكثر ٠٠ أفرح بك ٠٠ وأعبر لك  
عن مشاعرى ٠٠ أه ٠٠ كم كنت رائعا ٠

تمدد على السرير بكل جسده الضخم واسترخى : حقا ؟ ٠٠  
كيف ؟! احك لى ، الى أن أنام !

وبدأت تحكى ، بكل الحب والحماس ، غير أنه لم تكد تمر دقيقة واحدة حتى كان قد سقط فى جب النوم العميق ، حينذاك نهضت وأطفأت نور الحجرة ثم أغلقت بابها بهدوء شديد ٠٠ وحل على البيت وعلى الكون سكون عميق !

هى نصف ساعة ووجد نفسه صاحيا ٠٠ ويهرش بعصبية ٠٠ تحت ابطه ٠٠ وعلى الفور أدرك — رغم أنه كان فى نصف أو ربع وعيه ، أنه : البرغوث الملعين !

وأوشك باللاوعى أن يصرخ ، إلا أنه ، بجهد شديد أمسك نفسه : بطل الأبطال يصرخ شاكيا من برغوث !؟ ٠٠ ثم فى وجه من يصرخ ويصيح ٠٠ ١٤ « الذنب ذنبى ٠٠ أنا الذى تركت نفسى لهذا الفلاح اللعين المدعو « خضر » لياخذنى فى صدره ويعانقنى ٠٠ فدفعت ثمن بساطتى وإنسانيتى ٠٠ لقد أفسد فرحتى مع الجماهير وهاهو أيضا يفسد على ساعات نومي ٠٠ أم ٠٠ تراها مؤامرة !؟

وتولته رعدة مفاجئة ، فقد تراءى له الوجه الذى طلع له للحظة من بين الجماهير ثم اختفى — هاهو يطلع له مرة أخرى : مختلطا بوجه « خضر » ، دون أن يعرف أن كان يبتسم له أو يكشر عن أنيابه ٠٠ هل هناك علاقة ما بين الاثنين !؟ وهز رأسه بشدة ، مبعدا الصورة ٠٠ الصرورة المختلطة ٠٠ وتدافعت أنفاسه ٠٠ « كنت قد نجحت فى إبعاد شبحه طوال المدة السابقة ، وهاهو وجهه يعود ، متخفيا ومختلطا بوجه خضر » ٠٠ وفكر فى استدعاء هذا الخضر واستجوابه ، ورأى فى ثورة غضبه أن الأمر قد ينتهى بتعليقه فى فرع شجرة ٠٠ وأزعجته الصورة ، أن يكون أول أعدائه من أبناء بلده ٠٠ وتذكر صورة الخضر وهو يفرد له ذراعيه ودموع الفرح فى عينيه : « لا ٠٠ لا ٠٠ خضر يحبنى ٠ خضر رمز البساطة والصفاء والنقاء ٠٠ وأن كان قد جاءنى حاملا برغوثا ، فلم يكن ذلك بقصد منه ، إنما هى البلدة التى مازالت مليئة بالروث

والقتال والقاذورات ٠٠ بعثت به الى لى تذكرنى !! يالها من طريقة  
سخيفة بل وشريرة ٠٠ كم أنا متعب بسبب عدم النوم ٠٠ أيها  
البرغوث ابتعد أرجوك ٠٠ ان غدا يبدأ عصر جديد ، ليس لى وحدى،  
بل للوطن كله ٠٠ وليس من المعقول أن يفسد مسيرة التاريخ  
برغوث !

ولم يجد مقرا من أن ينهض ويخلع ملابسه قطعة قطعة ،  
بحرص وانتباه شديدين ، مستعدا للانقضاض على البرغوث فى أية  
لحظة ، مثلما انقض على خصمه الخطير وأجهز عليه ٠٠ هنا طالعه  
الوجه من جديد ، فأسرعت أنفاسه وتولته الرعدة الداخلية ٠٠ ووجد  
نفسه يسأل نفسه :

— هل حقا أنا الذى أجهزت عليه ؟! ( وعادت اليه الصورة  
مجسمة ) لقد رأى بأى عينيهِ أحد جنوده الصغار وهو ينازل القائد  
الأكبر لجيش العدو ٠٠ كان الاثنان محصورين فى خندق ، والمركة  
بينهما على أشدها وفجأة وبفعل ضربة من الجندى رأى الخصم  
يهوى مجدلا على الأرض مضرجا فى دمائه ٠٠ بينما الجندى  
استلقى منكفئا ببطنه على الأرض يلهث ويسترد أنفاسه المنقطعة  
٠٠ وقف مذهولا مبهورا بما حدث ٠٠ وأوشك أن يصيح على جنديه  
الصغير صيحة الفرح والنصر ، ألا أنه تجمد فى وقفته ، والصيحة  
أيضا تجمدت فى حلقه ٠٠ اكان يحدث نفسه بحركة : أه لو أننى كنت  
فعلتها ٠٠ كنت أتمنى أن أكون أنا الذى ظفرت به ٠٠ أية ضجة  
وتهاليل وأفراح واستعراضات كانت ستحدث ٠٠ وساورته أمنية  
حارقة جارفة : لو تتوقف أنفاس هذا الجندى الصغير ٠٠ يموت  
بسرعة ومع سره ٠٠ وانحنى عليه ورفع من رأسه ليعرف بالضبط  
حالته ٠٠ حينذاك فتح الجندى الصغير عينيهِ ونظر اليه ، هى نظرة  
واحدة ممترجة بابتسامة خابية ، ثم أغلق عينيهِ من التعب وعاد  
انكفائه الأرضية !



فى تلك اللحظة سمع ضجة آتية من بعيد ، ولم يلبث أن لمح عددا كبيرا من جنوده قادمين ٠٠ وعلى الفور أمسك بجثة العدو وراح يجرجرها حتى أبعدھا كثيرا عن الجندى الصغير ، ووقف على رأسها يلهث لھاث الخارج من معركة رهيبية ٠٠ وما أن وصل الجنود ورأوه واقفا معفرا يلهث ، وقائد الأعداء صريعا غارقا فى دمائھ ، صاحوا صيحة هزت أرجاء المكان : الله أكبر يا بطل ٠٠ بطل الأبطال أنت ٠٠ الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠

حملوه على أعناقهم وساروا به هاتفين مهللين !!

احتلته سعادة كبرى ، أن مخططه الذكى البسيط نجح بكل هذه السهولة وهذه السرعة الخاطفة ، دون أن يقول هو أى شىء ، إنما هم الذين قالوا وقرروا وفرضوا الأمر ٠٠ غير أن شعورا آخر بالتوتر والتحفز كان يتصادم فى داخله مع الشعور الأول ٠٠ كان خائفا من ذلك الجندى الصغير أن يفيق وينهض ويلحق بهم ، ثم يصرخ عليهم بالحقيقة !! ٠٠ تراه يجرؤ على ذلك ؟! لم لا ٠٠ وهو الذى واجه ونازل قائد الخصم الأكبر وصرعه ٠٠ و ٠٠ فجأة تولته رعدة هائلة أوشك على أثرها بالسقوط من على الأكتاف ، لولا أن الأذرع كانت ممسكة به بقوة ! لقد رأى الجندى الصغير وقد راح يشق طريقه مترنحا بين كتلة الجنود المحيطة به حتى تجاوزهم ، وأصبح وجهه لوجهه : تالقت عيناه بعينيھ ٠٠ وأدهشه جدا أن الجندى كان يلوح له بذراع جريئة ويهتف مع الجنود : الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠

لاحظتها تمنى لو يهبط من على الأكتاف ويأخذھ فى صدره ويحتضنه ، إلا أن هذا قد يثير التساؤلات ٠٠ وقد ينكشف السر على نحو ما !! ٠٠ هذا الجندى لابد من تصرف ما ٠٠ معه !! كيف وأنا لا أعرف حتى اسمه ؟!

وسرعان ما تبخرت هذه المشاعر المتناقضة وتبددت مع اندفاع  
المظاهرة • والجندى نفسه تراجع وضاع فى المظاهرة • الا أنه بعد  
قليل وجد نفسه وهو محمول على الأعناق ، ينظر فى كل الاتجاهات  
باحثاً عنه •• لكنه لم يجد له أثراً !! فاستراح لذلك ، لكنها راحة  
مشوبة بالقلق •• أن تنكشف الحقيقة على نحو ما •• فى أية لحظة  
« أه •• من يأتينى بهذا الجندى ؟! لا بد سأحصل عليه بطريقيتى » !

وتراءى له الجندى قائلاً فى مسكنة وضراعة : أرجوك اتركنى  
فى حالى ، وسيبقى السر فى بئر ، وحتى لو قلت ماحدث : فلن  
يصدقنى أحد ، بل وسيكون مصيرى مستشفى المجانين •• لاتقلق ••  
والهمم اننا انتصرنا •• ان الوطن انتصر •• !!

حل عليه بعض الهدوء •• بينما كان ماضياً فى خلع ملابسه ،  
قطعة قطعة ، متربصاً بالبرغوث ، ورأى المرأة قريبة منه ، فذهب  
اليها ووقف أمامها •• ولا حظ أن « ••• » ليس متسقا فى هذه اللحظة  
مع قامته الشاهقة ، فأسرع يغلق باب الصجرة بالترباس ، ثم استند  
بظهره على الباب وقد شغلته حكاية عدم الاتساق هذه •• لقد واثته  
فكرة سببت له قدراً كبيراً من الانزعاج •• فحتى لو كان اتساق فى  
أعضاء الجسم ، فليس هناك اتساق بين كل هذا الجسم الضخم .  
وهذا النصر العظيم الحادث •• و ••

وانتفض فجأة على دقائق خفيفة بباب الحجره ، صاح بغضب  
وعصبية : ماذا تريدون ؟!

— لا شئ ياسيدى •• فقد لاحظنا أن الحجره مضاعة لمدة  
طويلة ، بينما أنتم فى حاجة الى النوم •  
بتر الحوار : أعرف كل شئ •• ( وخفف من عصبية )  
لا تقلقوا •• كنت أقرأ فى بعض الأوراق  
والآن سأعود النوم •

كان قد غير كل ملابسه الداخلية ، وعاد الى سريره واسترخى  
ثم مد يده وأطفأ النور . هذه الهواجس يجب أن تتوقف ، وليسبح  
كل شيء فى الظلام . كل شيء : الحجرة ، والجمجمة ، والخيال  
أن يتلاشى بالنوم لبعض الوقت . ينسحب احساسه عن الواقع  
الموجود ويصبح فى مكن . فى قوقعة مهما علت بها الأمواج  
وهبطت ، الا أن مابداخلها فى مأمن ، حتى يستعيد قواه ، ثم يخرج  
الجان أو العملاق من القمقم !

كان قد وصل الى حالة قصوى من الانهالك الجسدى والنفسى ،  
وفكر مشجعا نفسه : ها قد غيرت كل ملابسى الداخلية ، وتحررت  
تماما من البرغوث للاستسلام للنوم . استعيد أصوات الهتافات ،  
وصوت الأمواج البشرية الزاحفة المشرتبة نحوى . وانام عليها .

واستلقى بكل جسمه ، فاردا كل ذراعيه باسترخاء وأغمض  
عينيه ، مهيناً نفسه ليدلف الى جوف القوقعة ، الا أنه وجد نفسه  
ينتفض بحركة عصبية ، وأصابه ، رغما عنه - تهersh . وكان  
الهرش هذه المرة . فى الفخذ !

أه . عاد البرغوث اللعين بعد أن اختار لنفسه مكننا آخر !  
وكنتم صيحة كادت تكون باكية : لا . ليس هذا بالأمر الطبيعى .  
كيف عاد البرغوث رغم أنه غير ملابسه ؟ أم أنها مجموعة براغيث  
نقلها الى هذا الجلف خضر ؟ ! وبالألوعى طار به الخيال الى تلك  
الأيام التى كان مصاحبا فيها خضر باستمرار . وقفز أمامه وجه  
خضر . ضاحكا . لكنه لم يكن يضحك عليه - بل كان يضحك له  
مداعبا : أهكذا . من برغوث يحدث لك كل هذا ؟ ! خذها لعبة  
يارجل . اعتبر الحادث من باب الفكاهة والمزاح . أنسيت حسك  
العالى فى هذا المضمار . ياما . كانت لك حكايات فى هذا الباب  
. وياما كانت لك عمایل لم تكن تعملها الا من أجل أن تضحك

وتضحكنا ٠٠ أما الضحية فأمرها لله !! ٠٠ هل نسيت يوم أن كنا نستحم في البحر وتسللت أنت خارجا وأخفيت ملابس أحد الأولاد المستحمين ثم عدت دون أن يشعر بك أحد ٠٠ ويالها من ضحكات ضحكناها حين خرجنا من الماء ورحنا نتفرج على الولد العريان الذي لا يجد ملابسه ، ثم بعد قليل ذهبت أنت واحضرتها له ٠ متمما لعبة الضحك والاضحاك !! ٠٠ وأكنت تحب أن تجمعنا حولك في الليل وتحكي لنا عن مغامراتك مع البنات والنساء ، وكنا نتشكك في سرنا فيما نقول ، الى أن رايناك تستولي ببراعتك على عقل أجمل امرأة في البلد ، وجعلتها تتطلق من زوجها ٠٠ حامد النجولي ٠٠ الذي على أثر المهانة ترك البلد واختفى ولم يره أحد بعدها ٠٠

— من قال لك اني اختفيت ؟ !

وانتابه رجفة هائلة ، حتى أنه انكمش في نفسه ، وأحس بأنفاسه تنسحب منه ، فقد رأى وجه ٠٠ « حامد النجولي » ينقض عليه ، ضاغطا على أسنانه ، في غل دفين : « اتحسب أنك قلت مني ؟ لا ٠٠ لقد جاء الوقت ٠٠ وأنه يمهل ولا يمهل ٠٠ لسوف أدمرك كما دمرت حياتي ٠٠ يامن تغربت عن وطني بسبب غدرك ونذالك و ٠٠ »

وهز رأسه بعنف طاردا الشبح عنه ، لكنه رأى وجه خضر مازال يطل عليه ٠٠ ويبتسم بصوت كالفحيح : أيها اللئيم ٠٠ الآن أدركت أنك متآمر ٠٠ هي حملة تقودها على ٠٠ أيها الحقير التافه ٠٠ أنت والبرغوث واحد ٠٠ لكني سأهزمكم جميعا ٠٠ جميعا ٠٠ وراح يجاهد ليمسك بأنفاسه ! ) ٠٠

كان قد وصل الى درجة قصوى من التفكك وانعدام التوازن ٠ ومضى يتسمع أنفاسه وهي تروح وتجيء ٠٠ « لا بد أولا من قتل البرغوث ٠٠ لكن المهم أولا هو الامساك به ٠٠ وقبل الامساك به رصد حركته وضبطه ٠٠ و ٠٠

وتنبه فجأة الى ما هو فيه - راح ينظر الى الصورة من أعلى ،  
 فوجد بطل الأبطال الذى مازال دوى الهتاف باسمه يحدث طيننا  
 وذبذبات فى الجو ، يطارد برغوثا ، ولا يستطيع الامساك به ٠٠  
 وأحس بالخجل الشديد ٠٠ الخجل من نفسه ٠٠ هاهو مرة أخرى  
 يبدأ خلع ملابسه ويتعري ٠٠ وهذه المرة لن يقف أمام المرأة ليرى  
 عدم الاتساق العضوى ٠٠ هذا عدم اتساق تافهة ، وليذهب كل من  
 يهيمه هذا الأمر الى الجحيم ٠٠ هناك عدم الاتساق العام ، وهو  
 الأبتشع والأخطر ٠٠ المشكلة الآن كيف يتخلص نهائيا من البرغوث ٠

- « لا حل الا أن أخلع ملابسى ، واستلقى عاريا ٠٠ العرى  
 الكامل هو الطريق الوحيد للنوم » ٠  
 وفعلها ٠٠

تمدد بجسده العارى على السرير ، مطمئنا الى أن باب الحجرة  
 مقفول بالترباس ٠ وحيث أن الجو لم يكن بردا ولا حرا ، فقد تسرب  
 اليه - مع الارهاق ، شعور ناعم عذب وجميل ٠ وفكر : لو اظلم  
 هكذا ، بكل هذه الراحة الكاملة الناعمة ٠٠ أجل ٠٠ لا أريد  
 مهرجانات ولا هتافات ، فكلها قائمة على كذبة كبيرة ، ولسوف تظل  
 هذه الكذبة تثقل على حتى أموت ٠ »

ورأى نفسه ، وهو بين اليقظة والنوم ، يقف فى الشرفة ويخطب  
 إليها الناس ٠٠ انتباه ٠٠ أن لنا أن نعرف اللعبة أو الخدعة التى  
 كثيرا ما يسير بها التاريخ ٠٠ خدعة البطولة والأبطال المتألهين  
 الذين يحركون بقدراتهم السحرية ومواهبهم النادرة مسار التاريخ ،  
 بينما هم فى الحقيقة لصوص ، سارقون لشجاعة وعظمة وتضحيات  
 الأبطال الحقيقيين الصغار ٠٠ ابناء الشعب الغلابة ٠٠ الصامتين  
 العظام ٠٠ نعم أيها الناس ، واسمعونى جيدا ٠٠ لست انا البطل  
 فى هذه المعركة ٠٠ البطل الحقيقى هو فتى أثر التراجع والاختفاء ٠٠  
 ودعونى أحكى لكم تفاصيل الـ ٠٠

ولم يكمل ، فقد انفجرت فى وجهه عاصفة رعدية من الرفض والاستنكار ٠٠ وكانت الجوقة هى أول من أثار العاصفة ، وفى الحال تبنتها الجماهير : لا ٠٠ لا ٠٠ ليس اليوم يوم التواضع وانكار الذات ، واننا لنعرف سلفا أفكارك عن الشعب وحبك لأولاد البلد وأبناء الشعب الطيبين ، ولكن أن يكون هذا الحب طريقا لكى تتخلى عن المسؤولية التى تنتظرك السنوات الطوال ٠٠

فى تلك اللحظة وجد نفسه ينتفض بفعل قرصة من البرغوث اياه ، رغم أنه كان عاريا بالكمال والتمام ٠ قفز جالسا وراح ينظر فى غيظ ٠ مدققا فى كل اتجاه ٠ لكنه لم يلمح شيئا فى الفراش ، كما لاحظ أن انتفاضته هذه المرة جاءت خفيفة ، وأن الاحساس بالقرصة أصبح ضعيفا ، أضعف بكثير من المرات السابقة ٠٠

كان ثمة خدر شديد ، من فرط الانهاك والتعب ، قد احتل رأسه وكل أطرافه ٠ وبدأ يستسلم ، مهيئا نفسه للذع البرغوث دون أن يهتز أو يقاوم ٠٠ ورأى - بخياله المرهق - زوجته تميل عليه وتستتر جسده العارى ، ثم تهمس له مشجعة :

- أتعرف بماذا أصبحوا ينادوننى ؟ ٠٠ زوجة البطل ٠٠  
زوجة الزعيم اليس ذلك يسعدك ؟ !

- كيف لايسعدنى ؟! على الأقل يخفف عنى هموم عدم الاتساق ٠٠ لكن اتساقا آخر أهم وأخطر هو الذى يجب أن يشغلنا ٠٠ ولسوف أحدثك فى هذا المعنى ٠٠ بعد أن ٠٠

كان الخدر الناعم الشامل قد احتواه ، وطاب له الاستسلام التام ٠ وشيئا فشيئا ، مع فرط التعب ، وتجلط الاحساس ، سقط فى البئر ، وراح يهوى الى القاع ببطء سحرى شديد ٠٠

وحين استيقظ صباح اليوم التالى ، كان قد نسى كل شيء ، وراح بمساعدة الجوقة التى تشرف عليها زوجته ، يرتدى أجمل ملابس ، ويستعد يشغف لتلقى هتافات الجماهير ٠٠

« ١٩٨٩ »

## الباب والوهم

هذا يوم يمكن أن يصبح تاريخيا ، لو صحت الأحلام :  
قالت الفتاة لنفسها وقد انتهت من ارتداء ملابسها ووضع لمسات  
خفيفة لماكياجها ، متهية للخروج ، وصدرها يضيء بالانفعال .

وحين رأت أمها ، صاحت عليها ملتمسة بركتها : ادع لى  
يا أمى ٠٠ ادع لى ٠٠ أن يفتح لى الباب ٠٠ بسطت الأم كفيها  
وراحت تدعو بحرارة أن يفتح لها الرب كل الأبواب ، ليس فقط باب  
« الأستاذ » ، وأوشكت أن تكمل الدعاء : « ويرزقك بابت الحلال  
الذى تجدين معه الهناء وراحة البال ويرحمك من كل هذا الجرى  
وكل هذه المعاناة » ، الا أنها كتمت فى نفسها هذا الجزء الأخير من  
الدعاء ، ليس فقط لأن البنت أصبحت تغضب الى حد الثورة من  
الحاحها على موضوع الزواج ، معتبرة ذلك مساسا بكرامتها  
وكبريائها ، وتهديدا لمشروع حياتها الذى رسمته بعد أن تخرجت فى  
الجامعة ، أن تصبح كاتبة وصحفية ، وهامى لاتزال فى أول الطريق ،  
وانما أيضا لأن الموضوع الصحفى الذى تخرج اليه اليوم ، يبدو  
بالنسبة لها ، هو الأمل والمستقبل ٠٠ وأن هذا الباب الذى ترنو لأن  
يفتح لها هو باب الحياة ، ودعتها بقبلة حنون ، مواصلة لها الدعاء  
بفتح الباب !

أتوبيس أم تاكسى؟! أيهما يأتى أولاً ساركبه • المهم أن أصل الى بيته فى الميعاد •• كان الشارع مزدحماً ومتكدساً بالعربات وبالناس وباصوات الكلاكسات • كما أن الجو كان حاراً ومشبعاً برطوبة خانقة للانفاس ، الا انها لم تعباً •• وفكرت باسممة أن اختيارها كان موفقاً ، حين لبست صندلاً خفيفاً ، وبنطلون « جينز » وقميصاً شمريت كميهِ ، وضمت خصلات شعرها وربطتها على هيئة ذيل الحصان !! •• ذلك يخفف عبء المعاناة •• وان كانت أية معاناة تقابلها اليوم لتبهون أمام خطورة وجلال المهمة الذاهية اليها •• تلك المهمة التى لم يسبقها أحد اليها ، حتى لتبدو أشبه بالمغامرة • وهامى تندفع بجسارة وثقة للقيام بها •• حوار مع أستاذ ومفكر عظيم ، اشتهر بنفوره من عالم الأضواء والنجومية ، ورفضه القاطع الباتر لأية احاديث للصحافة أو الاذاعة أو التليفزيون ! وقد سطعت الفكرة فجأة فى ذهنها بينما هى تقلب فى موسوعته الضخمة الشهيرة بأجزائها الثلاثة عن علم الحضارات الانسانية • والمعروضة فى أحد أجنحة معرض الكتاب الدولى •• واذا وقعت عينها على عنوان الجزء الثالث : الانسان •• بين القمة والسقوط •• اشتعل خيالها ، وتملكتها رغبة أجبتها ، ليس فقط حاستها الصحفية ، بل أيضاً - وهذا بعد هام جداً فى شخصيتها وتركيبتها - موهبتها الأصلية كشاعرة ، تلك الموهبة التى فتحت لها وهى لاتزال طالبة بالكلية ، أبواب النشر فى بعض المجلات ، ثم زكتهها - بعد أن تخرجت - للعمل بهذه المجلة •• تملكها الرغبة فى أن ترى هذا الأستاذ •• صاحب هذه الموسوعة ، وتدير معه حواراً حول هذا العنوان : الانسان حين يصعد ، والانسان حين يسقط •• كيف •• كيف يا أستاذى؟! والا يمكن للانسان أن يتجنب السقوط؟! ولكيلا يكون الحوار ذهنياً ومجرداً وفوق مستوى القراء العاديين ، فلن نتركه يحلق فى الماضى ، عبر مراحل التاريخ ، بل سندفعه بذكاء



الى حياتنا اليومية المعاصرة ، بتناقضاتها ، وأزماتها ، وتفاصيلها الصغيرة الواقعية !

لحظتها طارت فرحا بالفكرة فرحتها بهبوط الوحى عليها بقصيدة شعر جديدة ٠٠ وما أن عرضتها على رئيس التحرير ، حتى التمعت عيناه اعجابا وحماسا وقال : فورا ٠٠ نفذها ( ثم بدا عليه الجدية وكأنه يتكلم فى قضية مصيرية ) سيسجل لك التاريخ - لو نجحت - أنك أول من أنزل النسر من عليائه ، وجعلت سكان القمم يتحدثون مباشرة مع الجماهير ٠٠ والتهب حماسها ، وتلبستها روح التحدى والاصرار !

وما هو الاصرار يتأكد فى نفسها لحظة بعد لحظة ، وهى تحس بخيوط العرق تسيل على جسدها ، ثم وهى ترفع حقيبتها وتغطى بها رأسها تفاديا من ضربة شمس .

ولا بد أن منظرها هذا هو الذى أثار عطف أحد سائقي التاكسى فتمهل وهو يمر بجوارها ، ولاحظت أن معه راكبين ٠ لا يهم ٠٠ صاحت عليه باتجاهها ٠٠ توقف ٠ ركبت ٠٠ ومضى التاكسى يشق طريقه فى قلب الزحام !

لحسن الحظ أن المقعد الخالى كان بجوار السائق ٠٠ تنهدت بارتياح ٠٠ وانطلقت بخيالها خلف مايمكن أن يكون ٠٠ طارت بأجنحة الأمل ٠٠ ورددت فى سرها بابتهاال : أه لو يفتح لى الباب « وأغمضت عينيها عن الزحام ، متناسية الحر ٠٠ والعرق « لو يفتح لى الباب ٠٠ تنفتح الدنيا ٠٠ يظهر قرص الشمس ٠٠ يبدو النسر الذهبى الرابض فوق القمة ٠٠ يرمقنى ٠٠ تعلو دقات القلب ٠٠ أخطو بجسارة « فجأة توقف خيالها ٠ قالت لنفسها بفرح : « هذا مدخل قصيدة ٠ فلأخرج ورقة وأسجلها « إلا أنها استبعدت الفكرة ٠٠ ليس اليوم يوم الطيران بالشعر ٠٠ اليوم يوم المواجهة مع الواقع ٠٠ الواقع الصعب .

لم تكن هذه أول مرة تقطع هذا المشوار قاصدة بيته ..  
ذهبت اليه مرة منذ يومين تستطلع وترتب للأمر .. وأحست من  
الملحظات الأولى بمدى الصعوبة .. حين قال لها البواب العجوز ذو  
الشعر الأبيض : نعم .. هو يسكن هنا .. لكنه لايقابل أحدا أبدا  
قالت باصرار مهذب : أعرف .. ومع هذا عندي أمل .. ليتك  
تساعدنى ..

تأثر الرجل بلهجة رجائها ، وكانت صاحبة وجه بشوش :  
أساعدك كيف يا ابنتى .. هذه طريقته منذ جاء وسكن هنا ، منذ  
أكثر من خمسة عشر عاما .

— أعرف يا عمى .. أعرف .. ولكن اسمح لى أن أحاول ..  
وقلبك معى ..

تحركت عاطفة الرجل .. ودحا لو يساعدها .. أو على  
الأقل يشعرها بأنه متعاطف معها : هى طريقة واحدة .. ليس هناك  
غيرها .. ربما .. سألت بلهفة : ماهى ؟!

اكتبى له ورقة بما تريدين .. ودسيها له من تحت عقب الباب  
فربما يا ابنتى .. ربما ..

وفعلت بالنصيحة .. كتبت له ورقة مهذبة بطلب اللقاء ،  
وحددت له موعدا بعد ثلاثة أيام ، راجية العفو عن هذا التحديد ،  
فلا وسيلة أمامها غير هذا ، ودست له الورقة من تحت عقب الباب .

تراه قرأ الورقة ؟! يقينا قرأها .. المهم أن يرق قلبه ويستجيب  
.. ويفتح لها الباب !

استبشرت من أول لحظة وقف فيها التاكسى أمام البيت ..

فقد رأت البواب العجوز جالسا على دكته الخشبية ، كما لمحت بائعة ليمون كانت قد رأتها فى المرة السابقة ، جالسة على الأرض وأمامها قفص الليمون ٠٠ غمرتها موجة تفاؤل ، وفكرت بحب : سأشتري منها بضع حبات وأجزل لها العطاء بقدر مايمكننى ٠٠ ولكن بعد أن أخرج من عند الأستاذ ٠

واتجهت مباشرة الى البواب محيبة ومسلمة ، ثم سألته ان كان الأستاذ بالداخل ، هز رأسه بالإيجاب وقال : « نشفى عرقك أولا يا ابنتى ٠٠ ثم بعد ذلك حاولى » ٠٠ وأوشكت أن تقول له : ليس هذا وقت تجفيف العرق ٠٠ الا أنها أحببت روحه الأبوية ٠٠ اخرجت منديلها من حقيبتها وراحت تجفف عرقها ، وعيناها على الباب !! جميل أنها وصلت بالضبط فى الميعاد ٠٠ والأجل أنه يسكن الطابق الأرضى ٠٠ وخطت بهدوء الى الباب ٠٠ سمعت البواب يغمغم خلفها : « ربنا يقدرك يا بنتى » ٠٠ رددت لنفسها « يارب ٠٠ يارب قدرنى » ٠

كانت قد لاحظت فى المرة السابقة غرابة شكل الباب ٠٠ كان اقرب مايكون الى باب القلاع : كتلة خشبية هائلة مصممة ليس بها من علامة سوى ثقب صغير للمفتاح ٠٠ الأمر الذى جعلها تفكر بأنه خلع الباب الأسمى وأتى بباب آخر من تصميمه هو ، بحيث يحقق فكرة القلعة والاحتماء !! وابتسمت لنفسها مبهورة بالفكرة : ذلك دليل العبقرية ٠٠ أجل ٠٠ العباقرة العظام لابد أن يدفعوا عن أنفسهم وعن رسالتهم ضد هجوم جحافل المتطفلين الذين أصبحوا يملأون الساحة الثقافية والصحفية ٠٠ وخاطبته فى سرها ، بابتهاال: أنا لست منهم ٠٠ أرجوك ٠٠ وليت كانت بالبواب عين سحرية لترانى منها وتدرك ذلك بلماحيتك وفطنتك ٠٠ فانا فتاة جادة ، وشاعرة قبل أن أكون صحفية ، وأقدر جيدا أهمية خلوتك ، وقيمة كل لحظة من وقتك ٠

ومضت بحماس تفحص بنظراتها ما حول كتلة الباب ، باحثة عن جرس لتضغط عليه وتعلنه بوصولها ، الا انها لم تجد أى شىء  
٠٠ الجدران مثل الباب مصممة ٠٠ لامفر اذن من الطرق بيدها على خشب الباب !

وفى البدء كانت تنقر بأصابعها ، نقرات خفيفة مهذبة .  
حريصة على ألا توحى له بأى ازعاج أو جرح لعالم السكينة الذى يعيش فيه ، الا أنها لم تلبث أن اكتشفت ، أن نقرات أصابعها لاتكاد تحدث أى صوت بسبب غلظة الباب ، فلجأت الى الطرق بكل كفها ، ملتزمة الرقة والتعبير عن الاجلال والاحترام ٠٠ ولكن ٠٠ لارد ولا جواب .

تراه يسمع ولا يعبأ !؟ ولم تشأ أن تتصور الجواب بالايجاب ، وقالت لنفسها : يجب أن أكون أكثر حسما وشجاعة ، فأشدد من وقع المضربات ٠٠ فريما الاصرار يلين قلبه ويقنعه بجدية الطارق ويفتح الباب ٠٠ على الأقل ليعتذر ٠٠ أو ليؤجل لى اللقاء الى يوم آخر ٠٠ انه أولا وقبل كل شىء انسان ٠٠ ولابد أن قلبه أكبر وأوسع من موسوعته الضخمة عن علم الحضارات وتاريخ الانسان !

واذ مضت تطرق بكل كفها بعزم وقوة ، أحست فجأة بالألم ، ينبعث من منطقة الرسغ . وأوشكت أن تصيح متأوهة ، لكنها كتمت الصيحة ، متناسية الألم ، ومضت تدق باليد الأخرى ٠٠ ولكن أيضا لا مجيب !

حط عليها شعور ثقيل بالكآبة والاحباط ٠٠ وبالمهانة أيضا هناك أحست بدبيب الكراهية يتسلل الى نفسها نحوه الا أنها استنكرت بشدة هذا الشعور : يجب أن أكون عادلة ٠٠ فليس هو المسئول عما يحدث . أنا المسئولة . أنا التى استرسلت فى الحلم

وفى التمنى وحددت له موعد المقابلة دون أن أخذ رأيه ٠٠ ولكن كيف كان يتأتى لى غير هذا ؟!

– «يعجبني فيك اختيارك للصعب» - عاودها صوت رئيس التحرير وملامحه المتحمسة ٠ سيسجل لك التاريخ – لو نجحت – أنك أول من أنزل النسرة من عليائه ٠٠ و ٠٠ وعز أن تعود اليه فاشلة ، فمضت باللاوعى تواصل الطرق على الباب بكفها الموجوع ٠٠ فجأة اذا بصرخات استغاثة عالية تشق سمعها وتهز كل كيائها ، وقد خطر لها للحظة أن هذه الصرخات تنبعث من داخل شقته ، الا انها سرعان ما أدركت أنها صادرة من البيت القريب المقابل ، كما ميزت فيها أصوات أطفال يبكون ويصرخون فى ذعر وهلع ٠٠ اندفعت الى الشارع لتستطلع الأمر ، فرأت رجالا يهرولون وهم يصيحون فى نفس واحد : حريقه ياناس ٠٠ حريقه ياناس ٠٠ سقط قلبها الى قدميها ، وامتلأت روحها بالخوف وبالتشاؤم ٠٠ ورأت كل النوافذ والأبواب تفتح والسكان جسيعا رجالا ونساء وصبيانا وبنات يطلون أو يخرجون مندفعين الى مكان الحريق ٠٠ كما رأت البواب العجوز يهرول ، وبائعة الليمون وقد خلعت طرحتها ووضعتها فى القفص ومضت تهرول صائحة ، استر يارب ٠٠ استر على عبيدك يارب ٠

وتأكدت الكارثة حين رأت السنة من الدخان تخرج من احدى النوافذ وتتراقص ببشاعة فى الفضاء ٠٠ تسارعت أنفاسها مع رغبة فى البكاء ٠٠ ماذا يمكن أن تفعل ٠٠ كيف تساعد ؟! وصرخت تليفون للمطافىء ٠٠ أين أقرب تليفون ؟! وجدت نفسها تتجه بنظراتها الى باب الأستاذ وناقته ٠٠ الآن لابد سيخرج ، أو على الأقل يفتح النافذة لينظر ويستطلع أمر هذه الكارثة أو المأساة التى تحدث بجواره ٠

لابد من تبليغ المطافىء ٠٠ عادت تصيح على من حولها ٠٠

بلغناها ٠٠ لكننا لن ننتظر حتى تصل ٠٠ المهم أن نسرع  
بانقاذ الطفلين وامهم ٠ ارتعش قلبها للصورة ٠

واصطدمت برجال ونساء وصبيان يحملون أواني وجراندل  
مملوءة بالماء لينقضوا بها على النار ٠٠ وأضناها أنها لا تقوم بعمل  
تشارك به على نحو فعال ، فدخلت أحد البيوت وراحت تساعد في  
ملء الأواني بالماء ٠٠ وتصورت في لحظة أنها تفاجأ بالأستاذ وقد  
حمل أحد الأواني المملوءة بالماء ، أو يشارك على نحو ما ، الا أنها  
سرعان ما نسيت ونسيت الموضوع الذي جاءت من أجله ٠٠ نسيت  
الصحافة والشعر وعلم الحضارات ، ولم يبق في ذهنها وأنفاسها  
اللاهثة غير شيء واحد ٠٠ انقاذ الطفلين وامهم واطفاء الحريق  
تشارك بقدر ماتستطيع ٠ فجأة وجدت قلبها يزغرد فرحا ، فقد رأت  
البعض ، ومعهم البواب العجوز ، يحملون سيدة مغمى عليها ،  
وعرفت أنها أم الطفلين : « الحمد لله ٠ الحمد لله ٠ كل شيء بعد  
ذلك يهون » ٠٠ وأغرورقت عينها بالدموع !

كانت ملحمة اطفاء الحريق مازالت دائرة ، فمضت تنظر بقلق  
الى النافذة التي تخرج منها السنة الدخان ٠٠ ولاحظت أنها تهدأ  
وتخف بالتدريج حتى انعدمت وتلاشت تماما ٠٠ نجح الناس في  
اطفاء الحريق !

هدأت دقات قلبها ، وراحت تتنفس بعمق وارتياح ٠٠ كانت  
تحس بنوع نادر من السعادة لم تذقه من قبل أبدا ٠٠ لأول مرة ترى  
الناس وهم يتجمعون ويتكلمون ويواجهون معا أبشع أنواع الخطر  
وينجحون ، وجميل أنها شاركت ولو بالروح !! وانتبهت فجأة على  
البواب واقفا بجوارها ، يلهث بهدوء وعلى وجهه آثار الحريق ٠٠  
اندفعت عليه ٠٠ تود لو تعانقه ٠٠ صاحبت بكل ما في داخلها من  
أنفعال : أنتم عظماء ٠٠ وأنت ٠٠ أنت رجل عظيم ٠٠  
— العظمة لله يا ابنتي ٠٠ كان لابد من هذا ، والا فالنار كانت

ستأكل الجميع » تذكرت الأستاذ ٠٠ قالت وهى تكاد تصرخ :  
وكانت ستأكله هو أيضا ، ومع هذا لم يخرج ٠٠ لم يفتح حتى  
النافذة ٠٠ هل أنت متأكد أنه فعلا بالداخل !؟

هز رأسه بالإيجاب ، وقد ارتسمت على شفتيه طيف ابتسامة  
توحى بالسخرية وبالمرارة .

مشغول ياابنتى فى أوراقه وكتاباتہ .

دقت الأرض بقدمها غاضبة : أية كتابات يا عمى . . ملعونة  
كل كتابة تنزع من الانسان انسانيته .

وعاودت النظر الى الباب المغلق ٠٠ كان لايزال شاهقا  
ومصمنا ٠٠ وأصما ٠٠ أحست نحوه بكراهية عميقة ٠٠ واجتاحتها  
رغبة جارفة فى نفسه وتحطيمه ٠٠ وتصورت ماذا لو حدث هذا !!  
لن تجد خلفه غير خرائب وقبور وجردان ٠٠ ارتعدت للصورة :  
غمرها احساس بالخوف والحزن وبالرثاء !! أعطت للباب ظهرها ٠٠  
رفعت يدها بالتحية للبواب ٠٠ ثم مضت مبتعدة تشق طريقها غيرة  
عابئة بالحر وبالزحام .

كانت قد تحررت من وهم كبير .

(( ١٩٨٩ ))

## الخماسين

باحساس مفعم باللحظة .. لحظة تحقيق الحلم .. الحلم الذى ياما عاشته فى الخيال سنوات .. ومن أجله خاطرت وعانت وضحت بالكثير ، وهاهى الآن تراه حقيقة مجسدة ومصقولة لايحكم مكوناتها غير قوانين الجمال ، وانها لتقود الآن لو جاء كل أهل الذوق وأهل الفن ليروا .. ويتفرجوا : لكأنها ليست شقة اثنتها وفرشتها لتعيش فيها ، بل كأنها .. « جاليرى » .. معرض مقتنيات .. كل قطعة منها جديرة بالوقوف والتأمل .. وانها لمستعدة عن كل قطعة أن تحكى قصتها وتاريخها !

أجل .. هنا .. كل شيء ، فى إطاره الجمالى ، له قصة وتاريخ !

وضحكت فى سرها .. « ذلك يرضى أهل الشكل وأهل المضمون » ..

بفعل الفرحة الآخذ طعم الانتصار لم تكن تكف عن الحركة .. حركة دائرية حول نفسها .. وكانت أحيانا ترفع ذراعيها .. بكفيها .. فكانت فى دورتها تشبه راقصة باليه .. وفى دورتها البهيجة



كانت تمر ببصرها على الأشياء ٠٠ على اللوحات المعلقة على  
الحيطان ٠٠ على قطع الأثاث الخشبية التي تحقق فيها عنصر القدم،  
مع صيحات الفن الحديث !! ٠٠ أوه ٠٠ كم كلفها كل هذا ؟! ٠٠  
لكنه يستحق ! ( وطردت نفسا عميقا من صدرها ) ٠

الآن تستطيع أن تهجع وتهدا ٠٠ وتقضى الأيام والليالي في  
هذه الشقة ٠٠ مستمتعة بجمالها ٠٠ لاتريد من الحياة أكثر من هذا  
٠٠ ذلك هو كان خيالها ٠٠ وهامى قد استطاعت ترجمة الخيال الى  
حقيقة !!

غير انها ، فى دورانها حول الاشياء وحول نفسها ، كانت  
نظراتها تتمهل عند آلة التليفون : هذه لحظة لاتحتمل الوحدة ٠٠  
بل أن كل تلك المشاعر المتوهجة يمكن بعد قليل أن تستنفد نيرانها  
وتخمد وتنطفئ ٠٠ لابد أن تكلم أحدا تنتقل اليه الحرارة ٠٠  
يقبلها فرحا ويشتعل بها هو الآخر ؟؟

وقبل أن تفكر : ترى من يكون ؟! ٠٠ وجدته يطل عليها بعينيه  
٠٠ باسم ٠٠ مهنئا فى صدق وشفافية !!

وفكرت : هل هو الذى يقتحمها ؟! ٠٠ أم هى التى تستدعيه  
بخيالها ؟!

وحدثت نفسها « اننى أظلمه ٠٠ فهو لايعرف أى شىء عن هذه  
الشقة ٠٠ ولايعرف أى شىء عن حياتى منذ أن انفصلنا ٠٠ بل انه  
سافر وترك البلد ٠٠ اربع سنوات وهو مغترب ٠٠ لم يعد الا منذ  
شهور ٠٠ فكانت الصدفة هى التى جمعتنا فى ذلك الحفل ٠٠ غير  
أنه كان لقاء خاطفا ٠٠ لم يشف الغليل ٠٠ فلا أنا عرفت شيئا عن  
حياته ٠٠ ولا هو عرف شيئا عن حياتى ٠٠ كانت قصة حب ودخلت  
ذمة التاريخ !!

فلماذا هو بالذات تريده ان يكون أول من يرى الشقة الجديدة  
وتسمع منه كلمات التهنية والاعجاب ؟  
وتبتهت : لأنه كان أول رجل استوعب مشاعري .. وبجواره  
نسيت كل العالم .. و ..

— واذن لماذا طلبت منه الطلاق ؟! تذكرين أنه ياما ناشدك أن  
تتعالى وتنسى فكرة الطلاق هذه .. كان يقول لك يمكن أن يعيش  
كل منا بعيداً عن الآخر ، ولكن بدون طلاق .. هذه الكلمة الكريهة  
لايصح أن تطبق علينا .. لكني ركبت رأسى .. كنت أريد أن أكون  
أنا .. وحدى .. بدون أحد .. بدون رجل .. ومع هذا أمتلك  
العالم .. والمصير .. والرجال يدورون حولى .. ويكون لى بيتى  
الخاص .. على الذى ينتمى لى ، وليس للرجل الذى أنا انتمى  
اليه !!

وماهى قد حققت كل هذا .. دخلت كل هذه المعارك وانتصرت  
فيها .. وأنها الآن لى غاية السعادة والفرح .. ولكن .. مابالها  
تريد شهادة بهذه السعادة وهذا الفرح .. والأعجب .. أنها لاتريد  
هذه الشهادة الا منه هو ؟!

يقولون ان السباح العالمى ، قاطع المسافات الكبيرة ، وعابر  
الامواج والدوامات المهولة ، يقولون أن أكثر مايدفقه ويملاؤه بكل  
طاقات الحماس والتحدى ، ليس فقط منظر الجماهير التى تنتظره  
بالبهتاف والتصفيق ، انما لابد أن هناك وجها بالذات .. وجها واحداً  
متميزاً عن آلاف الوجوه الأخرى .. يتخيله بانتظاره .. النظرة  
الواحدة منه .. تساوى آلاف وملايين النظرات والبسمات .. أنه  
وجه الحبيب !!

وغمنمت مع نفسها : هل ترانى مازلت أحبه ؟! .. لكننى أنا  
التي طلبت الطلاق .. وياطالما ناشدنى بأن انسى طلبى هذا لكنى  
أنا التى اصبررت .. ؟ ! ماذا يعنى هذا ؟!

يعنى انى حقيقة احبه ٠٠ وانها كانت تجربة امتحان اختبرت فيها  
نفسى وعواطفى ٠٠ وماقد اكتشفت اننى حقا احبه ٠٠ وأنه هو  
الشخص الذى ساقضى معه بقية العمر ٠٠ فى هذه الشقة الجميلة  
٠٠ اه ٠٠ ما اجمل هذا ٠٠

واندفعت الى التليفون وأدارت القرص ٠

— الو ٠٠

— الو ٠٠

قرحت ٠٠ انه صوته ٠٠ تفاعلت وبكل طاقة الفرح

— مساء الخير يا حمدى ٠

— من !؟ كاميليا !؟ معقول !؟

— ولماذا غير معقول !؟ أم تراه انت شيئا ٠٠ لامعقولا !؟

— بالعكس ٠٠ من ناحيتى أنا شىء طبيعى جدا ٠٠ انما ٠٠

ربما المفاجأة ٠٠ أربع سنوات الآن ٠٠ وثلاثة شهور ٠٠ كانت أعدها  
منذ قليل ٠٠

— طمأنينى ٠٠ كيف حالك !؟

— تغيرت أشياء كثيرة يا حمدى ٠٠ ومعها حدثت تغيرات فى

الانسان ٠٠ تغيرات جذرية وعميقة ٠٠ يحسها الانسان ولكنه قد

لا يجد تفسيراً لها ٠٠ قلت لنفسى : مع من أتكلم فيها ٠٠ على راحتى

ودون ادنى حرج ٠ ولكنك أنت أول انسان خطر لى

— ذلك شىء يسعدنى ٠٠ شىء أفخر به !

— وانت !؟ كيف حالك !؟

— حالى أنا !؟ ( وضحك ضحكة صغيرة ) حسب الرد

التقليدي ، أنا بخير ٠٠ والحمد لله ٠٠ أما الرد الحقيقي ، فيحتاج  
كلاما كثيرا ٠٠ المهم الآن هو انت ٠٠ احساسى يقول بانك جد  
سعيدة ٠٠ وأراهن على ذلك !!

ضحكت عاليا : كسبت الرهان ٠٠ ؟!

قال متحمسا : ماهو الرهان ؟!

- زيارة منك لشقتى الجديدة ٠٠

- شقة جديدة ؟! هذا خبر عظيم ٠٠ عظيم جدا ٠٠ مبروك ٠٠

- الله يبارك فيك ٠٠ وهذا مادفعنى لأن اكلمك الآن ٠٠ أن  
تكون أنت أول المفتتحين لها ٠٠ وأسمع رأيك فيها ٠٠

- ذلك شيء يسعدنى بحق ٠٠

- مارأيك لو تأتى الآن ٠٠ ان لم يكن لديك شيء سنيغير  
مصير العالم ، تعال ٠٠ الليلة ٠٠ أرجوك ٠٠ لن تندم بأى حال ٠

- أمام كلامك هذا ، سأنسى كل شيء ٠٠ مصيريا كان أم  
غير مصيرى ، وسأتى ٠ صفى لى العنوان ٠٠ وسوف أتى فى الحال

\*\*\*

داخلها اضطراب عظيم ٠٠ وأسرعت ، أول ما أسرعت ، الى  
المرأة ٠٠ تطمئن على منظرها ٠٠ لقد أوشكت أن تقول له ألا يأتى  
الآن ٠٠ بل يعطيها ساعتين أو ثلاثة تعيد فيها رسم جمالها ٠٠ انها  
لا بد أن تكون هى نفسها ، مثل الشقة وما فيها ، جميلة ٠٠ بل تكون  
هى التحفة الحية الأولى فى المكان ٠٠ الا أنها خشيت لو طلبت منه  
هذا الارزاء القليل فى المجيء أن يلغى الفكرة نهائيا من رأسه ٠٠ أو  
يرجئها الى يوم بعيد ٠٠ وهى تريده هذا اليوم ٠٠ هذه اللحظة ٠٠  
وفكرت :

– لقد عرفنى فى جميع أحوالى ٠٠ رآنى فى لحظات ازدهارى  
واشراقى ورآنى فى لحظات كآبتى وذبولى !! ٠٠ أجل ٠٠ فليأت فى  
الحال ٠٠

ومضت تجرى بعض خطوط ولسات فى الوجه ، وبالذات حول  
العينين ٠٠ وهالة خفيفه خضراء تقابل خضرة عينيها ٠٠ و ٠٠  
خصلات شعرها ، تعقدها بالطريقة التى كان يحبها ٠٠ كان يعشق  
رقيتها كلها مكشوفة ٠٠ على طريقة نفرتيتى « تراه مازال يذكر ؟! »

ومضت أمام المرأة ترسم نفسها بعينيها ٠٠ وخطر لها أن أهم  
ما يجب أن تقوله له ، بعد أن ينتهى من جولته بالشقة ، أو ربما خلال  
الفرجة ، لحظة أحد التعليقات له على قطعة ، أو لوحة ، أو خط ،  
أو لون ٠٠ خطر لها مع الحماس أن تقول له خلاصة مشاعرها  
وعواطفها فى السنوات الأربع الماضية ٠٠ سنوات الانفصال : أنها  
وقد رأت عشرات الرجال ، وحاولت جادة فتح قلبها من أجل أن  
تعيش قصة حب جديدة ٠٠ الا أنها لم تستطع ٠٠ لم ينجح أحد من  
كل هؤلاء الرجال ٠٠ ولم تنجح هى نفسها ٠٠

اليس ذلك هو البرهان الأكيد على أنه ٠٠ مايزال ، كما كان  
٠٠ حبها العظيم ٠٠ الأوحده ؟ ! ٠٠ ولو نظر لها بمرارة متذكرا  
الأيام التعيسة ٠٠ وانها هى التى كانت مشغلة للحرائق ٠٠  
ستخفف عينيها معترفة بأنها هى التى كانت حقا المسؤولة عن كل  
ذلك ٠٠ لكن شفيعها أنها كانت تريد أن تتأكد من عواطفها ٠٠  
عواطفها التى أحست بها تجف معه فى فترة وتتييس ٠٠ ولم تر  
حلا فى نظرها غير الانفصال والطلاق ٠٠ كى تتأكد من حقيقة  
مشاعرها !!

وماذا لو أنه لم يقبل هذا المنطق ؟! بل ماذا لو استفزه الى  
حد الغضب فيندفع مهاجما اياها ٠٠ وقد تقلبت عليه مرارة ومهانة

مشهدهما الأخير ٠٠ وهو يبكي حبه بالدموع ٠٠ وهى واقفة كالحجر الأصم ٠٠ مصممة على طلبها ٠٠ بحجة الصدق مع نفسها : يوما ترين الطلاق هو الصدق مع نفسك ، ويوما ترين الرجوع هو الصدق ٠٠ لا ياعزيزتى ٠٠ لا ٠٠ هذا القلب فى المشاعر اكرهه ٠٠

وهزت رأسها بشدة ، حتى أن بعض خصلات شعرها الملمومة انفكت وتبعثرت على كتفيها ٠٠ لاتريد لخيالاتها أن تصل الى هذه المنطقة الكئيبة ٠٠ أجل ٠٠ اليوم فرح ٠٠ والمناسبة فرحة ٠٠ وكل شىء يدعو للفرح ٠٠ ولو حدث أثناء الفرح أن انسابت الدموع ٠٠ لو أن الحنين فى قلبها اختلط بالندم ٠٠ لو أنها أجلسته على هذا المقعد ، ثم جلست على الأرض بجوار قدميه واحتوت ساقيه ٠٠ وقبلت ركبتيه ، لن تجد فى ذلك أبسط مس بكبريائها ٠٠ فليس فى الحب كبرياء ٠٠ و ٠٠ ودق جرس الباب ٠٠

لم تلحق حتى أن تلم شعرها من جديد ٠٠ أسرع ٠٠ وفتحت الباب ٠٠ وكان هو ٠٠

من اللحظة الأولى ، ندت عنه صيحة اعجاب : الله ٠٠ أحب المداخل الواسعة ٠ مساحات الفراغ ٠ كنت واثقا ٠ أعرف ذوقك !

لو تركت نفسها لمشاعرها فى هذه اللحظة لاندفعت عليه وقبلته ٠٠ من قال ان هناك طلاقا حدث بيننا ١٩ لا ٠٠ لا ٠٠ كان كابوسا وانقضى ( واستبد بها الشوق ) ما أجمل أن نعود كما كنا ، زوجين حبيين يعرفان كيف ينسجان معا اروع وأعذب اللحظات !! غير أن شيئا جامدا خفيا أحسته فى نظراته ، وفى شدة قامته ، أوقفها ثابتة فى مكانها !! ورغم هذا ، فقد فرحت بهذه المشاعر واستبشرت ٠٠ « ذلك يسعدنى ٠٠ رأيك أنت بالذات يا حمدى » ٠

صاح فجأة بفرح ، وقد توقف أمام إحدى اللوحات ٠٠ صورة فوتوغرافية لتمثال : آها ٠ عظيم أنك مازلت تحتفظين بهذه اللوحة

٠٠ جميلة ٠٠ موحية ( وغمغم باسمها ) : الخماسين ٠٠ لابن مصر  
العظيم ٠٠ مختار ٠٠ اكم أعشقها ٠٠ فما بالك بالأصل ٠٠ التمثال  
نفسه !!

— تذكر ؟! ٠ ( قالت بطرب ) يوم أن رأينا التمثال معا أول  
مرة ٠٠ فى متحف مختار بحديقة الحرية ؟!

ندت عنه تنهدة مسموعة أفحمت أية كلمات ٠٠ وكانت الصورة  
قد امتصته واستغرقت ٠٠ بتفاصيلها وإيحاءاتها ، وخيل إليه أنه  
يدرك اسرار الخلق فيها لأول مرة ٠٠ هذا الاحساس بجبروت  
العاصفة ، والمتجسد فى الاختباء هربا وطلبا للأمان ٠٠ بل خيل  
إليه أيضا أنه يسمع صفير العاصفة وولولاتها ٠٠ لكأن كل شيء  
يوشك أن يقتلع من أساسه ومن جذوره ٠٠ المباني والأشجار  
والإنسان أيضا ٠٠ وفكر والصورة تأخذ بتلابيبه : ما أقطع العاصفة  
حين تهب على المرء وهو فى العراء ٠٠ فى خلاء ٠٠ لا يجد الا نفسه  
يلوذ بها ٠٠ ينكمش مختبئا داخل نفسه ٠٠ ينكمش وينكمش متلمسا  
أبعد وأعمق جذور قوته كى يبقى ٠٠ ويعيش ٠

وفكر فى سره : ان ماحدث بيننا كان اشبه بالخماسين ٠  
واسترجع ، بلا عمد ، طعم التراب الذى ملأ حلقه ، وسيل الدموع  
التي سببتها ذرات التراب والرمال التي علقت بعينه ٠٠

قالت ، بنفس الحماس ، مشيرة الى لوحة اخرى مجاورة  
اللوحة الخماسين : وانظر الى هذه أيضا ٠٠ انا أعطيها اسما آخر  
غير اسمها الأصلي ٠٠ اسميتها ٠٠ ما بعد الخماسين ٠٠ مارايك ٠٠  
انظرا الى المرأة وهى تنحنى بجرتها على ماء النهر ، ومع هذا  
فحينها على كل النهر ٠٠ بوجهها الصبوح الفرحان ٠٠ سعيدة  
يانتهاى العاصفة ٠٠ ان المساحات والالوان لتوحى بعالم من الصفاء  
وبأغمار من الهواء النقي المنعش يوحي للإنسان بأن يتنفس حتى  
العمق ، طاردا من جوفه آثار أيام الخماسين !!

كانت هي الأخرى تحس بانها تتحدث عن حياتهما ، اكثر مما تتحدث عن اللوحتين ٠٠ ونظرت اليه وقد امتلأ قلبها بالتفاؤل ٠٠ واستقرت عينها في عينيهِ بابتسامة ٠٠ بادلها الابتسام ٠ الا أنه كان يفكر في نفسه : اثبت يا ولد ٠ حذار أن تجرفك العواطف ، هذه الزيادة بالذات أنت أقدمت عليها لكى تخرجها تماما من حياتك العاطفية ٠٠ بلطف وكياسة تحفظ عليها كبرياءها ٠٠ لقد انتهت « الخماسين » بالفعل ، الا أن الصفاء والنقاء الذى حل لم يأت مرتبطا بها هي ٠٠ ( وسرح بعينيهِ الى بعيد ) كان وجهها آخر ٠٠ وجهها مريميا ، يصاحبه في كل خطواته ونظراته وهمساته ٠٠ كان يسترجع كلماتها « قابلها يا حمدي ٠٠ لا بد أن تزورها ، وتبارك لها ٠ وعش لحظاتك وفق ماتحس ٠ لا تجبر نفسك على شيء ٠٠ اذهب ولنتفق على موعد نلتقى فيه ٠٠ بعد الزيارة ٠٠ الليلة ٠٠ أو بعد عام ٠٠ أو ٠٠ فلتقل لى : لقد عدت اليها ٠٠ ووداعا الى الأبد » ٠

وقال لنفسه : فى أى بقعة من بقاع العالم وأقطاره يمكن أن أجد مثلها ؟ ( وخاطب الطيف المريمى فى سره ) : لا ياسهير ٠٠ اطمئننى ٠٠ انت هو انت ٠٠ التى أصبحت مالكة العرش والصولجان !

— يبدو أنك سرحت بعيدا بعض الشيء ٠

— هذا صحيح ( وأشار بذراعيه الى محتويات الشقة ) لكنى لم أخرج من هذا العالم الموحى بالاف المعانى والأفكار ٠٠ طول عمرى ، من يوم أن رأيتك ياكاميليا ٠ وانا أقول عنك أنك فنانة !!

سعدت بكلماته الى حد الاضطراب ٠٠ اختلطت أفكارها بمشاعرها ٠٠ ولم تجد لنفسها خلاصا من الاضطراب الا أن



تعبر له عن أجمل ماتتمناه فى هذه اللحظة ٠٠ اندفعت مقتربة منه  
وأمسكت بذراعيه :

— حمدى ٠٠ هذه الشقة ليست شقتى وحدى ٠٠ انها شقتك  
أنت أيضا ٠٠

نظر اليها مدهوشا ، غير فاهم ، ولم يستطع أن ينطق بكلمة •  
واصلت هى : ننسى ماحدث ٠٠ كأنه ما كان ٠٠ صدقنى  
ياحمدى ٠٠ لقد حاولت أن أحب غيرك فلم استطع ، لقد أيقنت انك  
الوحيد المالك لقلبى وعواطفى • ( وضغطت على كفيه بقوة الرجاء )  
فلتزوج من جديد !

— نتزوج !؟

— نعم ياحمدى نتزوج ٠٠ وننسى ماكان ٠٠ ومن الآن وليس  
الغد ، نبدأ معا حياتنا ، وما أجمل الأيام التى تنتظرنا ٠٠ انا  
واقفة !

تهد ٠٠ كان فمه مغلقا ، فخرجت التنهدة من انفه • ووجد  
نفسه على وشك أن يبتسم ، لكنه قتل الابتسامة فى مهبها ٠٠ كانت  
يداه لاتزالان بين يديها •

— كاميليا ٠٠ أود أن أقول لك شيئا ٠٠

— قل ياحمدى ٠٠

— أنا ٠٠ ارتبطت بانسانة أخرى ٠٠ وهى الآن تنتظرنى فى أحد  
الكازينوهات ٠٠ على النيل ٠٠ سيكون لطيفا لو جئت معى وقضينا  
سهرة جميلة ٠٠ و ٠٠

ولم تسمع شيئا ٠٠ أحست برأسها يدور ، وبأن شيئا كالخماسين  
يهب عليها وعلى شقتها الجديدة • أغمضت عينيها ٠٠ ثم استدارت  
عنه بوجهها فى كبرياء ٠٠ مغالبة البكاء ٠٠ وتسمرت بنظراتها أمام  
صورة الخماسين !

« ١٩٨٧ »

## حبيها

كانت الدنيا بردا ٠٠ والفضاء غائما ٠٠ والشمس الغاربة  
تختفى خلف السحب الكثيفة القائمة ٠٠ ورياح ديسمبر الثلجية  
تطارد في طريقها الناس والعربات وتكتسح أمامها كل شيء ٠٠

وعلى رصيف الشارع الطويل الواسع ، كانت تسير ، واكعب  
حذاءها الأسود يدق أسفل الطريق في أيقاع متتابع سريع ٠٠  
كان جسدها ينتفض ، ويذاها المدسوستان في جيوب «التاير»  
ترتعشان ٠٠

وأمام واجهة أحد المحلات الصغيرة ، توقفت لحظات ، وراحت  
تجيل فيها بصرها على مهل ولم تلبث أن دأبت الى داخل المحل  
في نشاط وابتسامة هادئة ومريحة تعلو شفقتها ٠٠ وحين استقبلها  
واحد من عمال المحل مرحبا قالت له بصوت فرحان ٠

— من فضلك ٠٠ عايزه كرافتة ٠

أسرع العامل فأخرج بعض الصناديق وراح يعرض عليها  
أنواعا والوانا من أربطة العنق ٠٠

كان وجهها أليفاً ، فراح العامل يتأمل فيه وهى تقلب الكرافات ٠٠ ووجد نفسه يتساءل فى سره ، وهو يرى ملامحها الدقيقة الصغيرة البيضاء ترتعش من البرد رغما عنها : ألم يكن من الممكن تأجيل شراء هذه الكرافة الى يوم آخر ، لا يبرد فيه ولا رياح ولا غبار ٠٠ ! يالها من عفريته شقية ، تريد أن تقابل حبيبها فى يوم عاصف مثل هذا ومعها هدية له ٠٠ !!

ولاحظ فجأة ، أنها كفت عن التقلب ، ووضعت اصبعها بين أسنانها وراحت تفكر ٠٠ فسألها فى ود ٠٠ أى لون تريد المدمازيل ٠٠ ؟

قالت وهى تنظر اليه نظرة باسمه وشاردة فى الوقت نفسه :  
- هذا هو بالضبط ما أفكر فيه ٠٠ أن لون بدلتيه بنى ٠٠ وفيها خطوط بيضاء ٠٠ أما هو نفسه ، فلون وجهه أسمر ٠٠

فرحة غريبة أحس بها العامل ٠٠ كان يود لو يسألها ٠٠  
« أسمر مثلى هكذا ٠٠ ١٩ ٠٠ هل الجميلات مثلك يحبن  
الأسمر ٠٠ ١٩ »

وبالطبع كتم رغبته ٠٠ وأحس بفضول يغمره ، فراح يقلب معها فى حماس ٠٠ وفجأة ، قال لها فى شغف :  
- آه ٠٠ هذه مناسبة ٠٠ بنيت ٠٠ وفيها نقشه صغيرة  
بيضاء ٠٠ انظري ٠٠

- فعلا مناسبة ٠٠ ولكن ٠٠ عنده أختها تماما ٠٠

وحانت منها لفظة الى المرأة المواجهة لها ، والمغمورة بانوار النيون ، فلمحت خصلة رفيعة من شعرها الأسود الناعم مائلة على جبينها حتى تصل الى حاجبيها ، فعدلتها وعادت تقلب فى الكرافات من جديد ٠٠ ولم تلبث أن صاحت فجأة .

— أه ٠٠ هذه جميلة ٠٠ جميلة جدا ٠٠ سأشتريها ٠٠  
واهتز العامل لنبرة صوتها وحماسها ، ولم يتمالك أن وجد  
نفسه يسألها فى صوت متردد خافت :

— خطيبك يامدموازيل ٠٠ !؟

ضحكت وقالت فى رنة حلوة :

— لا ٠٠ زوجى ٠٠

وأعطته النقود وهى تبتسم ، وتناولت منه الكرافطة ، ثم  
خرجت الى الشارع فى نشاط ٠

كانت الرياح لاتزال تندفع فى الشارع ٠ وطريق عودتها الى  
البيت كان فى اتجاه الريح ، فأسرعت من خطاها وجسدها يرتعش  
من البرد ، لكنها كانت تحس أنها أسرع من الريح بكثير ٠ وأنها  
تكاد تطير من الفرحة ٠

(( ١٩٥٩ ))

## المشى فى الليل ..

كان على البركان ان يهدأ ..  
قال لها ، عازفاً عن اى كلام : انتهيينا ..  
قالت ، شامخة بصدرها متحدية : انتهيينا ..  
لم تستفزه روح التحدى ..  
- لنذهب الى المأذون ..  
- الآن ، انا مستعدة وما نحن بملايسنا ..  
خرجنا فى صمت وقفلا خلفهما الباب فى هدوء .. كانت قد  
استقرت فى نفس كل منهما فكرة الطلاق بلا اى احساس بالتردد او  
باحتمال الندم ..  
الى هذا الحد يكفى

صرخا فى وجه بعضهما كثيرا .. تبادلوا الالفاظ الجارحة ..  
تملكتها شبه هستيريا وهو تملكته رغبة فى ان يرفع كفه ويهوى به  
على. فيما المتدفق بالصراخ تكاد تسمع كل سكان الحي وليس البيت

وحده • ثم • وفى آخر لحظة ثابا الى عقلهما •• تحكما فى اعصابهما •

ان كانا حقا صادقين ، فليكما عن هذه الترهات ويعلنا الانفصال •

يعلنانه بهدوء واقتناع يتناسب مع نبل حياتهما التى كانت ويمضى كل منهما فى طريق ••

سارا فى هدوء • كانت الدنيا ليلا • والشوارع التى يسيرون فيها معتمة • لم يكن بيت المأذون بعيدا ، ولكنه ايضا لم يكن قريبا جدا • وان لاح لهما تاكسى فارغ قادم احس كلاهما بالعزوف عن الركوب • كان كلاهما يحس بأن المشى فى الليل ، فى هذه الطرقات الهادئة الصامتة متوافقا مع نفسيته • فليستمر فى المشى • ولأحتلها صورة المأذون الذى يتجهان اليه • أنه هو نفس المأذون الذى حرر عقد زواجهما ، وهو نفسه الذى سيحرر الليلة وثيقة طلاقهما •

وفكر فى نفسه بمرارة : ذلك اليوم كان زواجنا انتصارا • كان ختام معارك وتحديات خضناها • اكان كل ذلك وهما ؟!

وقالت فى نفسها وهى تحبس الدموع فى حلقها : تلك الليلة ووجوه الاصدقاء والصديقات من حولنا سعيدة ، وكلمات احدهم : كأنكما تستصنعان بهذا الحب ثورة تشتاقي اليها البشرية ، ها نحن لم نصنع ثورة • بل انتهى الأمر بالفشل وبالهزيمة • لافتر من الاعتراف بالواقع • لكفى خداعا للذات !

وقال فى نفسه ، مانعا تنهدته ان يكون لها صوت : تلك الايام كنا نفرح بأبسط الأشياء • وكانت السعادة ثمنها بسيط جدا •• وكنا ننضج حبنا بالمشى تحت الشمس وعلى ضفاف الانهار وتحت المطر فنسرع من خطواتنا ونجرى ونختبئ ونضدك من الأعماق •

الآن جفت ينباع الضحك من القلب • السعادة أصبح ثمنها غاليا  
جدا فوق القدرات •

وقالت فى نفسها : كان فى تلك الايام سعيدا وضحوكا ونظراته  
متنبهة على جميع الاتجاهات • فقد كان دائما فى معركة ويحكى لى عن  
اخبارها •• الآن تحولت المعارك فأصبحت بينى وبينه كانى أصبحت  
عدوه الرئيسى ويريد ان يدمرنى • لا • لن اسمح له أو لأى انسان  
آخر أن يقضى على •

وقال فى نفسه : لم تعد للحياة معنى ، فكيف يكون للزواج ؟!  
لقد أصبحنا داخل البيت كغريبين • منذ متى لم نمش معا هذه  
المشية • كانت سعادتنا قائمة على الاشتراك فى الاحساس بالمتع  
الصغيرة والبسيطة !

وقالت فى نفسها : كنا نتلاصق فى الحجرة الواحدة • الآن  
نادرا ما نجلس ونتحدث معا •• أو نخرج ونمشى معا هكذا •  
لقد كنا ••

على إيقاع خطواتهما الهادئة فى صمت الليل • كانا يسترجعان  
فتتباطأ خطواتهما أكثر وأكثر ، كأنما يريدان ان يفرغا من استرجاع  
تكريات الرحلة كلها ، قبل أن يصلا الى محطة الفراق •

فجأة وجدا نفسيهما يدخلان الشارع الذى يقطنه المانون • ما  
هو ذا البيت • بيته • خطوات قليلة ويدخلانه •• وينتهى فى دقائق  
كل شىء •• توقف الاثنان عن المشى • اتجهت عيونهما الى البيت •  
عادت عيونهما فتلاقت بلا كلمات : ندخل أم نؤجل ؟

وبلا كلمات ايضا ، عاودا المشى ، وحين حاذيا بيت المانون ،

لم ينظرا اليه ، بل واصلا المسير • كانا لايزالان يحسان بطعم  
جميل للمشى ••

وفكر كل منهما فى نفسه : فلنظل هكذا ولو للصباح •• فمازال  
هناك وقت لجميع الاشياء • كانت عيونهما الى الامام • ومضيا ••  
على ايقاع خطواتهما المتوحدة ، يسترجعان قصة حب •• فى صمت  
الليل ••

« ١٩٧٢ »



## أغنية كونية

ذلك الصباح الباكر ، بادئا يومى كالمعتاد ، باطلالة هادئة  
واسعة من شرفتنا العالية ، مستمتعا بمنظر المدينة قبل أن تبدأ  
ملحمتها اليومية الرهيبة ، قبل أن تصبح غابة وطاحونة •

ذلك الصباح الباكر ، وكل شىء يوحى بالصفاء وبالتفاؤل  
بيوم جديد طيب : الأفق الأزرق الناعم ، والنسمة الرائعة المنعشة  
بعد موجة حر خانقة طالت •• وبضع شجيرات حولى فى الشرفة ،  
أهمها وأجملها شجرة ياسمين هندي ، أهدانى إياها صديق عزيز  
سمعتنى ذات مرة أتحدث عن جمال هذه الزهرة وعطرها  
العميق الاخاذ ، وإذا بى أفاجا به ذات يوم يدق على بابى ، حاملا  
شجيرة صغيرة مزروعة فى أنية فخارية ويقول : كل سنة وانت  
طيب • أليس اليوم هو عيد ميلادك ؟!

اهتز قلبنى بالامتنان وبالفرح • رحلت أعانق الاثنين : الصديق  
والشجرة •

آه •• كم هى رائعة وجميلة • الحياة • بما فيها من بشر ••  
وياسمين !

يومها لم تكن الشجرة أكثر من نبتة صغيرة •• مجرد ساق

صغيرة يخرج منه فرعان صغيران عاريان ، أشبه باصبعين منفرجين  
على شكل سبعة ٠٠ وفكرت جذلانا : كأنهما علامة النصر !

حملتها بشغف وأخترت لها مكانا فى الشرفة ٠٠ وكطفل  
صغير رحت أرهاها وأرضعها محبة وعناية حتى كبرت : الساق  
الصغير المزروع فى الطين تحول الى جذع ذى جذور وراح يستطيل  
ويقوى ويمتد الى أعلى ٠ والفرعان ، علامة النصر ، بدءا ينبتان  
أوراقا جميلة مترعة الخضرة ٠٠

وأنا فى عمق نشوتى باللحظة ، متفتح القلب ليوم جديد طيب ،  
وإذا بالحادث الرهيب يقع فجأة ٠٠ بغلطة حمقاء منى ، ووجدتني  
أشبهق والقلب يكاد ينخلع ٠ فبينما أنا أستدير عن  
سياج الشرفة متجها الى الداخل ، طرق أذنى صوت خافت :  
تـك ٠

نظرت ٠٠ وإذا بى أرى أحد الفرعين فى الياasmine وقد  
انكسر وسقط بأوراقه على الأرض ٠٠ اصطدمت به ساقى دون وعى  
منى ، ولرقتة انكسر وسقط ٠٠

انخطف قلبى واكتسحنى شعور بالتشاؤم ٠٠ وبالخزى ٠٠  
جلست كالمجرم ينظر الى جسم جريمته ٠٠ وتذكرت صديقى  
الذى اهدانى اياها ، واحسست بالخجل ٠٠ كانت أجمل الأشجار  
عندى ٠٠ وكانت رمزا ، فقد جاءتني فى عيد ميلادى ٠٠ أكون  
هذا نذيرا بأيام صعبة وكئيبة قادمة !٩

مجرم أنا ٠٠ غبى أنا ٠٠ غير جدير بامتلاك تلك النباتات  
المزهرة الراقية الجميلة ٠

تحولت الشرفة الى مصدر للاحساس بالكآبة والذنب ، وأنا  
أرى الياasmine وقد أصبحت بفرع ونصف ٠٠ فرع سليم موريق ٠٠  
ونصف فرع مشوه عار وبائس ٠

وفكرت كما يفكر المجرم بعد ارتكاب جريمته ، أن أخفى  
فعلتى ٠٠ أحملها الى الخارج وأتخلص منها ، غير أنى أحسست  
بالخجل من هذا الشعور الوحشى ٠٠ كائى أضيف الى جريمتى  
جريمة أخرى ٠٠ لقد بدا لى وكائى أتخلص من ابن لى أو صديق  
مرض أو أصيب ٠٠

فلتبق فى مكانها ، وسأواصل ربيها فى مراعيدها المعتادة ٠٠  
وان كانت بعد هذا قدرة على البقاء فلتبق ، ولكن ليس كمصدر  
للجمال ، انما وفاء للعشرة ، وللرمز الذى كان : علامة النصر !

بعد فترة غير طويلة ، حدث ما زاد من كآبتى ٠ فقد لاحظت  
ان الفرع السليم المورق يفقد زهوته ونضارته ، وأوراقه أيضا أخذت  
فى الذبول والسقوط ٠٠ ورقة بعد ورقة ٠٠ وفكرت : ايكون هذا  
حزنا منه على أخيه ؟ أم ان الاصابة قد وصلته على نحو ما ، وان  
الشجرة كلها فى طريقها الى الذبول والى الجفاف ؟!

غير أنى فوجئت بشيء بالغ الغرابة يحدث ٠ فبينما كانت  
الحيوية والخضرة تتناقضان فى الفرع السليم ، كنت أرى نوعا من  
الحياة يدب فى نفس الوقت فى الفرع المكسور !

استرعتنى الظاهرة ٠٠ فمضيت أرصدها وأتابعها ٠٠ لعلها  
لا تكون وهما وخيالات تمنى ٠٠ لكنها مع الأيام كانت تتأكد ٠٠ فقد  
رأيت أوراق الفرع السليم وقد جفت كلها وذبلت وتساقطت ، بينما  
الفرع المكسور وقد التأم جرحه ، راح يتمدد من جديد وينمو ٠٠ ثم  
اذا بالمعجزة الساطعة تحدث وأنا أرى تباشير أوراق جديدة تنبت  
وتبزغ وتطل منه على الدنيا ٠ رحت أرقص فرحا فى الشرفة ،  
كائى اغتسلت من ذنبى ٠٠ كائى اغترفت من الحياة جرعة أمل  
جديدة ٠٠ وفكرت أن أجرى الى صديقى الذى أهدانى الشجرة  
وأحكى له كل ماحدث ٠٠

لكنى كنت مشغولا بمتابعة الظاهرة أو المعجزة ، كما أنى كنت  
حزينا للفرع الذى كان سليما وجف .. كنت قلقاً على مصيره ..

غير أن ضوء المعجزة كان يقترب من قمة ذروة سطوعه وبهجته  
واكتماله .. فما أن استعاد الفرع المكسور صحته وقدرته على  
معاودة الحياة ، حتى بدأ الفرع الثانى يستعيد حيويته وقدرته ، وبدأ  
هو الآخر يورق من جديد ..

وبدت الشرفة وكأنها تتغنى بأغنية كونية لا مثيل لها ..  
أغنية عن ذلك القانون الجليل الرائع ، والذى لا تمضى الحياة  
عظيمة وراقية ومتطورة الا به .. فى النبات تماما : كما فى  
البشر .. والقلب ذائب بالوجد .. مبتهج بما يملكه فى هذا العالم  
من جمال البساطة ..

كأنه عيد ميلاد جديد أهدتنه الحياة ، وأنا أرى الياسمين  
تزدهر مرة أخرى بجمالها .. وتلوح لى كل صباح ، كعلامة نصر  
جديدة !

« ١٩٦٠ »

## قلب الحب

لا أحد يعلم كيف وقعت البللورة ، وأى يد أو قوة شريرة  
دفعتها من مكانها الحالى واسقطتها على الأرض تلك السقطة العنيفة  
فتطايرت كتلتها المتماسكة الصلبة الى قطع وأجزاء متفرقة ..  
متباعدة ..

هبت عليهم جميعا رياح التشاؤم والحزن .. من أول الأب  
والأم ، الى أصغر افراد الأسرة .. فقد تحولت هذه البللورة مع  
الأيام الى ما يشبه الرمز أو التميمة .. وقفوا جميعا مذهولين  
مفجوعين يتطلعون الى الشكل الجميل الأسر وقد ضاع وتناثر ..  
ليس فقط الشكل الجميل ، وإنما أيضا تلك القدرات والامكانيات  
الداخلية التى كانت تكمن فيها .. كانت تضىء فى الليل وفى النهار  
تتماوج بألوان الطيف السبعة .. وبين الحين والآخر ترسل الحانا  
موسيقية بهيجة ..

ما من صديق أو غريب كان يراها ، الا ويتساءل مبهورا :  
من أين جئتم بهذه البللورة ؟ وفى أى مصنع صيغت ؟ فيجيبون  
باسمين مزهوين : فى مصنع الحياة والزمن ، صنعت وصيغت  
بللورتنا ..

كان هذا هو بالفعل سرها العجيب ! فقد كانت فى البدء صغيرة ودقيقة حين دخلت هذا البيت لأول مرة مع الأب والأم ، ولم يكونا أباً وأماً بعد ٠٠ كانا عروسين صغيرين رومانسيين التقيا على الحب فأسميها « قلب الحب » وكانت تنتقل معهما من حجرة الى حجرة ٠٠ غير أن شيئاً رائعاً ومدهشاً كان يحدث للبلورة • فمع دورات السنين ومع مجيء أطفال جدد للحياة ، كان حجمها ينمو ويزداد ، مكتسبة جمالا أعظم وقدرات أكثر ٠٠ حينذاك بدا لها مكانا جديدا يليق بها ويحفظها • شيئاً كالمحراب أعلى صدر الصالة فى مدخل البيت مباشرة ٠٠ تبهج عين الداخل والخارج ٠٠

كيف سقطت رغم هذا ؟ أم أن حركتها الذاتية النامية المستمرة هى التى دفعت بها الى الموت والى النهاية ؟!

انتفضوا جميعاً من وقفتهم المذهولة ، وانكبوا على الأرض يتسابقون فى جمع الأجزاء المتناثرة ٠٠ كل واحد ملهوف على ان يكون له منها جزء ٠٠ للذكرى ، وللحظ الطيب جاءت القطع بعددهم تماما • أمسك كل منهم بقطعته وأنفاسه تتسارع ، وراح ينظر اليها ٠٠ والى بقية القطع الأخرى ٠٠

لكانت الأحجام متفاوتة ، لكنها - كلها - كانت تبرق وتشع • قال الأب وقد لاحظ أن أصغر قطعة جاءت من نصيبه : أنا يـكـفـينـى من « قلب الحب » ذرة •

قالت الأم وهى تقاوم فى عينيها دمعة تأثر : وأنا أيضا ٠٠ وتذكروا دائماً يا أولادى أن « قلب الحب » بدأت معنا صغيرة جدا ٠٠ أصغر من أى قطعة من هذه القطع !

وإذا بالابن الأكبر يصيح فجأة مهللاً : قطعتي ترسل لحنا موسيقيا ٠٠ اسمعوا قطعكم جميعا ٠٠ أرجوكم • اسرع الكل بوضع القطع على اذانهم ، وإذا بوجوههم تتفتح

وتشرق ٠٠ فقد كانت القطع كلها ترسل موسيقى ٠٠ تماما كما كانت  
تفعل البللورة الكبرى ٠

حينذاك انجاب عنهم الاحساس الحزين بموت الاشياء ونهايتها  
٠٠٠ وبدا لهم على الفور ان البللورة الكبرى لم تضع أو تتبدد ٠٠  
بل رأوا امامهم الانقسام العظيم الذى يتولد عنه كيانات جديدة ،  
ومهما كانت صغيرة ففيها كل خصائص وجماليات البللورة الأولى  
٠٠ وهتف الأب قائلا ونظراته ذاهبة الى بعيد : أتعرفون فيم أفكر  
الآن ؟ أفكر فى حركة الكون الأولى ، حين كان كتلة واحدة دوارة ٠  
ثم انتثر الى نجوم وكواكب سيارة ٠٠

تصاعد الفرح بالاكشاف العظيم ٠٠ وبأن كلا منهم أصبح  
له بلورته الخاصة يحملها معه حتى لو سافر الى بعيد ٠٠ واعتزتهم  
جميعا نشوة ٠٠

حسبناها النهاية فاذا بها البداية ٠٠ وضم كل واحد بلورته  
الى صدره ٠٠ سعيدا بها ٠٠

ومهما كان حجمها ٠٠ يكفينا من « قلب الحب » ذرة ٠٠

« ١٩٧٨ »

## الأعظم

وقفت فى الصف الطويل انتظر دورى • عشرات من النساء  
والرجال والاطفال أمامى ، وعشرات آخرون خلفى • قدرت انى لن  
أبلغ دورى قبل ساعة • لم أعبأ • المهم أن أحقق هدفى • والأكثر  
أهمية أن يظل هذا الهدوء العميق يسود المدينة • هدوء ثقيل مشحون  
بالريبة واحتمال الغدر فى أى لحظة ••

كانت الغارات الوحشية على غرب بيروت قد توقفت مع أول  
أضواء النهار • انتهزتها فرصة قبل أن يعودوا • حملت « الجيرك »  
الكبير لأملأه بالماء • انجاز عظيم لو تحقق هذا • ان أعود الى  
البيت والى الاصدقاء ومعنى ماء • كان الحصار على أشده • وكان  
أبشع ما فيه قطع الماء عن الاهالى • قطرة الماء نحافظ عليها مثلما  
تحافظ على حبات عيوننا • الجرعة الواحدة نتقاسمها بالعدل حين  
نشرب • اما غسل الوجه وحلاقة الذقن فكان ترفا لا يليق باللحظة •  
بعد أيام بدأت الروائح الكريهة تفوح من البيوت • وشبح الاوبئة  
يلوح • أصبح الماء هو حلم أحلام البشر •

كنت أدرك ونار الغيظ •• بل الحقد ، تأكل فى صدرى ، ان



مدفهم هو الضغط على الاهالى كى يهجروا نصف المدينة المحاصر ،  
ويبقى المقاتلون وحدهم فيه ٠٠ حينذاك يسهل الانفراد بهم والقضاء  
عليهم ٠ لكن الاهالى صمموا على البقاء فازدادت غاراتهم وحشية  
وضراوة ٠

انتهزت لحظات الهدوء ٠ حملت « الجيرك » واسرعت الى  
مكان كنت قد لمحت بالصدفة بعض الاهالى يملأون منه وأنيهم ٠  
سور حديقة أحد البيوت يخرج منه خرطوم ٠ وشخص غير ظاهر  
يتولى توزيع الماء ٠

كانت العملية تتم بنظام وسرعة ٠ ففى أية لحظة يمكن أن  
يعاودوا التحليق وصب الجحيم ٠ أه ما أجمل لوعدت الى زملائى  
ومعى الماء الوفير ٠ نشرب حتى الارتواء ٠ نحلّق ذقوننا التى طالت  
نغسل شعرنا الذى تلبّد ٠ وكذلك أوانينا التى تراكمت عليها أثار  
الطعام ٠

خطوة خطوة كنت اقترب من مكان توزيع الماء ٠ ولأن الشخص  
الذى كان يوزع جالسا ، فلم أكن قد رأيته بعد ٠ وحين لم يبق  
أمامى فى الصف غير ثلاثة أو أربعة ٠ رأيته بوضوح ٠ وكان  
منظره مفاجأة لى ٠ كان فى حوالى الثلاثين ٠ ومن كتفيه العاريتين  
بدالى أنى أمام بطل من أبطال المصارعة أو حمل الأثقال ٠ استرعتنى  
قوته الجسدية ٠ وفكرت أن هذا الذى يفعله بالنسبة لقوته شىء  
تافه وبسيط ٠ حقا ان الماء هو اكسير الحياة ، لكن هذا الذى يقوم  
به ، يمكن أن يؤديه صبى صغير ٠ أما مكانه المناسب هو أحد مواقع  
القتال ويده مدفع يلاحق به هؤلاء المتوحشين ٠

وإن لم يبق على دورى غير شخص واحد ٠ يملأنى الحماس  
والاستيثار ٠ فجأة تبدد كل الهدوء وانفجر البركان من جديد ٠  
لقد عادوا بصواريخهم من البحر ، وقاذفات قنابلهم من الجو ٠  
انتثرنا جريا الى اقرب ملجأ ٠ وفى غمضة عين كان الشوارع

قد خلا من الصف الطويل . الا اننى فوجئت بالشباب الذى كان  
جالسا يوزع الماء ، وقد ظل باقيا على جلسته اسفل السور فى  
العراء . ورأيت ينظر الى أعلى حيث تهدر اسراب الطائرات المغيرة  
ويصرخ : يا كلاب . يا أولاد الزناة . . انزلوا لى . لتكون المواجهة  
بيننا شخصية ( وراح يلوح بكلتى ذراعيه ) بيدى وحدهما .  
سأواجهكم أيها الجبناء . بيدى هاتين .

فى تلك اللحظة ، سطعت الحقيقة . واكتشفت مالم يخطر  
على البال . كان الفتى الجميل القوى مصابا بشلل الاطفال ،  
ولا يستطيع النهوض من مكانه الا بمساعدة . خجلت من افكارى الأولى  
تجاهه . يا لها من مدينة عظيمة . كل من فيها يساهم فى المعركة  
بما يستطيع . وهذا الشاب لا يملك غير ذراعيه . ورأيت سيدة  
وفتاة يجريان عليه ، تحت الجحيم ، ويجذبانه برفق . استند  
عليهما ، ومضى معهما الى أحد المخابىء . وبدأ الشارع بعده خاليا  
تماما من أية حركة للبشر . .

كان الاناء فى يدي فارغا ، لكن مشهد البطل كان قد روى قلبى  
بمياه انهار العالم العذبة كلها .

(( ١٩٨٣ ))

## الحنين الى الفرح

كنت امشى على الرصيف سارحا ٠٠ فيم كنت سارحا ؟  
لا اذكر ٠٠ لكن حين يحدث ويكون المزاج رائقا طيبا ، يحلو للمرء  
الانطلاق خلف فكرة أو قضية معلقة ينشغل بها عن الضجة وعن  
الزحام ٠٠ زحام ساعة الذروة ، تلك التى يخرج فيها عشرات  
الآلاف من الموظفين والعاملين والطلبة والطالبات دفعة واحدة وفى  
ساعة واحدة ، ليصبوا جميعا فى شارع واحد ، الأمر الذى جعلنى  
أطلق على هذه الساعة : ساعة الحشر اليومية !

كنت اشق طريقى بهدوء وسط الجموع ، غير مهتم بالنظر فى  
وجوههم ٠٠ وكنت قد قرأت - قبل أيام - جملة لأحد الفنانين  
التشكيليين أعجبتنى جدا وحرصت على حفظها : « لا معنى لوجه  
يشبه كل الوجوه » ٠٠ ورأيت أن ذلك يتحقق تماما فيما حولى ٠٠  
هذه الكتل البشرية الهائلة التى تبدو الوجوه فيها والرءوس كأنها  
وجه واحد ورأس واحد بتعبير واحد ، وأذن لا معنى للنظر فيها ٠٠

فجأة ، وموجات الوجوه والأجسام تتوالى ، اذا بعينى تتوقفان  
على وجه بالذات ، قادما فى اتجاهى ، واذا بينيوع فرح ينبثق فى  
قلبى ، وهتقت لنفسى بفرح : « منصور السويفى ٠٠ من كم سنة ٠٠

يا الهى • نفس الاستدارة فى الوجه وفى الجسم ، وان كان قد  
سمن بعض الشيء • • ويكل الحنين وكل الاشتياق الى تلك الأيام  
الخالى بصورها واحداثها وذكرياتها ، اندفعت اليه ، فاتحا كل  
ذراعى لآخذه بالحضن • • الا اننى ماكدت اقترّب منه ، موشكا على  
ضمه حتى فوجئت به يجفل ماخوذا ، ويتراجع الى الخلف خطوة !!  
• • اكتشفت على الفور خدعة البصر التى أوقعتنى فيها عينائى ،  
رغم انى كنت أضع نظارتى الطبية !! تجمدت ذراعائى ، ثم تدلتا  
بهدهوء الى جانبي ، وقلت منكمشا فى نفسى مبتسما بحياء وخجل -  
أنا آسف • • العتب على النظر ( وندت عنى ضحكة صغيرة معتذرة )  
يخلق من الشبه اربعين •

أفاق الرجل من المفاجأة • • ادرك الموقف • • كان ينظر فى  
وجهي محاولا جمع شمل نفسه بسرعة ، بينما اتسعت له ابتسامتى  
بانتظار ان يقبل اعتذارى ، ثم أمضى لحالى • • وكررت : آسف  
جدا • •

وإذا بوجهه المستدير يتفتح بابتسامة كبيرة ويقول بحماس ،  
ناظرا فى عيني بود شديد : آسف ليه ؟ ( وبسط لى فجأة كل  
ذراعيه ، بصوت فائض بالحيوية والبساطة • • « تعال ياراجل • •  
بالحضن » واندفع الى ، نفس اندفاعتى الأولى اليه ، اندفعت عليه  
أنا أيضا ، والتحمنا فى عناق حار !!

من منا كان الاكثر طفولة ونحن نربت على ظهر بعضنا بود  
وحرارة وحماس ، كأننا صديقان قديمان التقيا بعد غياب طال ،  
نبتعث من لاشيء ، شيئا رائعا وجميلا يحتاجه كل منا • • عناق  
صديق • • عناق صاف لا تشوبه أية شائبة • • ينصب فيه كل  
اشتياق الانسان للانسان ، ويبدد به وحدته وغريته فى قلب هذا  
الزحام • •

وبينما كنت أحاول استيعاب الموقف الذى يبدو كالخيال أو  
المعجزة السعيدة ، كانت ثمة كلمات تقال ، منى ومنه ، مع اهتزازات  
العناق : هو لازم الناس يكونوا عارفين بعض عشان ياخذوا بعض  
بالحزن !؟ الانسانية واحدة ٠٠

وكلنا أولاد آدم وحوا ٠٠

ومضيئا نضحك فرحا ، كطفلين ، من أعماق القلب ٠٠

« ١٩٨٩ »

## يعود الحب أقوى

حين وضعنا - هو وهى - أقدامهما على سلم الطائرة ليصعدا ،  
خفق القلب فرحا وتبادلا نظرة • لولا الزحام واندفاع الركاب لتمهلا  
فى الصعود كى يطبلا من اللحظة •• يثبتانها على صفحة الزمان  
فى الذاكرة • كانت أعماق الاثنين تموج بانفعالات شتى متضاربة  
•• لكن الفرح كان هو الطاغى ، وثمة لحن بهيج راقص يشيع فى  
الجو ويتبعهما •• ما أجمل أن يعيشا الحب لأول مرة فوق السحب  
•• ولئن كانت سماء القاهرة اليوم صافية وخالية من أصغر ندفة  
سحاب ، نكأنما احتفالا بطيرانهما معا ، فسرعان ما ستدخل بهما  
الطائرة مناطق وأجواء تبدو فيها كتل السحاب كمنشآت المدن ،  
فتخترقها وتعلو عليها ثم تنطلق بهما خفيفة متجالية ! ••

لم يكن طيرانهما معا لأول مرة هو المفجر الوحيد لكل هذا  
الفرح ، انما السبب الأعظم والأخطر فى الحقيقة ، والذى لولاه ما  
كانت هذه المشاعر ولا كانت الرحلة نفسها أنهما عادا الى بعضهما  
زوجين حبيبين ، بعد أن وسوس الشيطان فى صدريهما ، وألهمهما  
شر مايقع بين اثنين مزج بينهما الحب لأكثر من خمسة عشر عاما :  
الطلاق !! وعاشا منفصلين ثلاث سنوات ، كل منهما فى عالمه ،

لا يدري شيئاً عن الآخر رغم أنهما يعيشان في مدينة واحدة ! ٠٠  
لكأنما ، في هذه اللحظة ، ومن فوق سلم الطائرة ، يريدان اعلان  
خبر عودتهما على العالم كله ٠٠ ينثرانه أضواء ملونة وساطعة  
مثل تلك التي تضيء السماء في ليالي المهرجانات والاحتفالات  
السعيدة ٠٠ لكن ضغط الركاب كان شديداً ، فمضيا ، بقوة الدفع ،  
يصعدان بهمة ونشاط ومرح أيضاً : على الحب ألا يعطل من مسيرة  
الرحلة ٠٠ ودخلا الطائرة ٠٠

٠٠ أسرع بعينيهِ عبر صفوف المقاعد متمنيا مقعدين خاليين  
بجوار احدي النوافذ ٠ تلك متعته في السفر بالطائرة ٠٠ رؤية العالم  
من أعلى ٠٠ ما أجمل أن تعيش معه ولأول مرة هذه المتعة ٠٠ وأذ  
لمح مقعدين خاليين أسرع وحجزهما ٠٠ أثرها بمقعده المفضل ٠٠  
« فلنكن هذه هي هديتي الأولى لها في الرحلة : المقعد الملاصق  
للنافذة » ٠٠ وجلس بجوارها - أمسكت يده بانفعال وحنان ٠٠  
أخذت من عينيهِ نظرة مقعمة جياشة ٠٠ الكلام الآن ليس بالآلفاظ ٠٠  
الكلام الآن له لغة أخرى تنطق العيون بها ٠٠ بل ان العيون ليحلو  
لها الآن أن تغلق جفونها ٠٠ هذا العالم الخارجي لا ينبؤنا حقا  
بالحقيقة ٠٠ الداخل هو الأعظم ٠٠ ما يستكن في القلب ، وما  
ترفرف به الروح هو الأجمل والأصدق !

أغمضت عينيها ٠٠ مالت برأسها على ظهر المقعد ، مستقبقة  
يده في يدها ٠٠ ند عن صدرها نفس طويل عميق هادئ : الحمد  
لله ٠٠ انقشعت الغمة ٠٠ ما كان يمكن أن أعيش لحظة سعادة حقيقية  
بدونه ٠٠ وراة نفسها في معرضها الأخير ، بقاعة المشربية ، تتلقى  
التهانئ وكللمات الاعجاب من كل جانب ٠٠ « ومع هذا وجدتني  
انتحي أحد الأركان تحت احدي لوحاتي ويكيت ٠٠ لأنه لم يكن  
معي ٠٠ هو بالذات ٠٠ هو الذي فجر في نفسي موهبة الرسم ،  
ومعظم هذه اللوحات هي حصاد أيماننا معا ٠٠

هاهو الآن معى ٠٠ يده فى يدى ٠٠ طائران فى الأعلى « ٠٠  
وطار بها الخيال الى مرحلة من الماضى البعيد ٠٠ قبل أن تراه  
صبية صغيرة ، فى السادسة عشر ، مبكرة النضوج ولكن كل ما فيها  
مكمور ومغلق عليه بقوة واحكام ٠٠ حتى فتح النافذة كان اخوها  
واقفا له بالمرصاد ، فما بالك بالخروج وحدها من البيت ٠ وعادتها  
صورة بشعة : أخوها وهو يجذبها بوحشية من شعرها ثم يصفعها  
صفعة أنزلت الدم من شفتيها ! ٠٠ فى تلك الأيام جاء هو ٠٠ كفارس  
أطلقها وحررها من السجن والسجان ، ثم أركبها الحصان وطار بها  
٠٠ « رأيت فيه الحياة ٠٠ رأيت فيه الحرية التى طالما تشوقت روحى  
اليها ٠٠ وانطلقنا ٠٠ وتدفقنا ٠٠ وأنجبنا ، وتفجرنا بالآمال  
وبالأحلام ٠٠ من كان يتصور أننا بعد كل هذا نصل الى قرار  
الطلاق ؟! ( وتنهدت فى سرها ) كان لابد أن يحدث هذا ٠٠ كنا وصلنا  
الى طريق مسدود ٠٠ كان لابد أن نفترق ، حتى لو سالت الدماء ،  
كى نعود عبر العذاب الى بعضنا من جديد ! »

وضغطت بقوة على يده ٠٠ « لحسن الحظ أننا لم نركب معا  
من قبل طائرة ٠٠ » وتبسمت ملامحها ، رغم أنها لاتزال مغلقة  
العينين ٠٠ « جميل أن يبقى دائما أمام المحبين عوالم لم يروها ،  
وانجازات واشتياقات لم تتحقق بعد ٠٠ » ٠٠ وهرعت الى ذاكرتها  
بعض أبيات من الشعر ، ضمن ديوان لناظم حكمت ، كان قد أهدها  
اليها فى أحد أعياد ميلادها :

أجمل الأزهار هى التى لم تنبت بعد ٠٠ وأجمل الأنهار هى  
التي لم نرها بعد ٠٠ وأجمل الأطفال هى التى لم تولد بعد ٠٠  
(وأضافت فى سرها تكمل ) ٠٠ وأجمل اللحظات هى التى لم نعيشها  
بعد ٠٠ أجل ٠ هناك لحظات جميلة فى انتظارنا حين نهبط الى  
الأرض ، وننطلق فى مدينة لم نرها من قبل أبدا !! « ٠٠ وعادت



الضغط على يده ، استجابت يده على الفور ٠٠ كفه الكبير احتوى  
كفها الصغير ٠٠ أحست به يقول : أنا أعيش نفس أحاسيسك »

تنبها من سرحتهما على صوت المضيفه ترجو الركاب ربط  
الأحزمة ٠ سحب كل منهما يده من يد الآخر فى نعومة ، ومضى  
يربط حزامه استعداداً لانطلاق الطائرة ٠٠ لحظات قليلة وجاءت  
أحدى المضيفات ومعها جهاز الانقاذ وراحت تقدم عرضاً لطريقة  
استعماله ٠٠ داهمها احساس غريزى بالخطر ٠٠ وارتسمت لها  
صورة مروعة كئيبة فاستبعدتها بقوة ٠٠ وفكرت : « ستمر الرحلة  
على خير ٠ باذن الله ٠٠ » وعادت تمسك بكفه بقوة ٠٠ « وحتى  
لو حدث - لا قدر الله - مكروه للطائرة ، فسنكون معا ٠٠ تكون  
النهاية ونحن معا ٠٠ » ٠٠ واختلست من وجهه نظيرة ، وجدته  
سارحاً ٠٠ لا يتابع عرض المضيفه ، وعلى شفثيه ابسامة خفيفة  
تتم عن الرضا العميق ٠٠ « هو دائماً هكذا ٠٠ يعطيني الاحساس  
بالأمان ٠٠ ما أكثر ما واجهنا معا من شدائد وأخطار ، !! ٠٠ واذ  
انتهت المضيفه من عرضها ، أحست بارتياح شديد ، كأنما الخطر  
زال ٠٠ وبدأت الطائرة فى التحرك ٠٠ ببطء شديد كانت تسير على  
حمرها الأرضى ٠٠ ثم حين بلغت نقطة الانطلاق توقفت وتصادت  
متها فجأة ضجة كبرى ٠٠ ضجة الاحتشاد الذى يسبق لحظة  
الوثوب الى الفضاء ٠ أحست بثمة طاقة هائلة يحتشد بها صدرها  
هى الأخرى ، وفكرت سعيدة ، وخفقات قلبها تسرع : بقوة الحب  
تطير الطائرة هذه المرة « ٠٠ ودوى صوت رعدى هائل أعقبه  
مباشرة انطلاق الطائرة الى أعلى فى يسر ونعومة ٠٠ صمت  
مهيب وعميق يرين على الطائرات فى مثل هذه اللحظات وهى تسبح  
مختركة طبقات الفضاء لكى تصل الى ارتفاعها المنشود ! ٠٠ كأنما  
الطائرة تطير بهما وحدهما ، رغم امتلائها بالركاب ومن بينهم بعض  
أصدقاء وصديقات ، هم أعضاء « الجروب » السياحى الذى انضموا  
اليه ٠٠

نظر اليها .. نظرت اليه .. قال : أحس أنها ليست أول مرة  
لنا معا فى طائرة .. كأننا ركبناها معا من قبل مرات ومرات .

اندفعت مؤكدة بفرح : نفس احساسى - وهو أمر طبيعى ..  
فى كل مرة كنت أطيّر فيها وأنت لست معى ، كنت فى لحظات  
اتخيلك جالسا بجوارى ، أتحدث معك ، وأحاورك ، وأنقل اليك كل  
مشاعرى .

قال : ذلك بالضبط ماكان يحدث لى وأنا طائر بدونك . لكننى  
أحيانا أمد يدى ، كأنما سأجد يدك !

هزتها الصورة . ودت لو تضمه كله . خرجت الكلمة الوحيدة  
التي يمكن أن تعبر عما يموج فى صدرها : يا حبيبى ..  
أحس بالكلمة تصله أنفاسا لأحروفا .. كأوراق ورد مبللة  
بالندى .. ندى الفجر وندى أنفاسها أيضا ..

- يا حبيبتي .. أنت حبي الأول والأخير .. وما بينهما ..

راقها المقطع الأخير .. ليس كثيرا على خيال شاعر .. وفكرت  
وهي تتبسم فى سرها أن تسأله : هل هذا يعنى أنك لم تعرف واحدة  
أخرى خلال سنوات انفصالنا ؟ .. الا أنها استبعدت السؤال  
ضنا بصفاء اللحظة وجمالها .. « لن نبعث من الماضى الا كل ما هو  
شفاء للنفس .. وأننى لوائقة من أنه حتى لو كان قد عرف أخرى ،  
فهو لم يكن حبا .. الحب لى أنا وحدى .. مثلما ظل حبي لى  
هو وحده » .. ومرت بخيالها صور سريعة لأطياف رجال داروا  
حولها ، وتمنوا حبها .. « لقد حاولت بالفعل .. حاولت جادة ، أن  
أحب واحدا منهم .. لكننى فشلت .. لم يكن الحب هو قضيتى ..  
كانت قضيتى هى الحرية »

وانتبهت من خواطرها على صوته ، داعيا بحماس .. ومشيرا  
على النافذة - انظرى ..

توجهت بنظراتها الى النافذة • صاحت بنشوة ودهشة :  
شمس الغروب •• الله •• الله على الألوان •• ألوان الالهية ••

قال فرحانا بفرحتها : اذن فلتملأ الرسامة عينيها ••

قالت ، وليملأ الشاعر أيضا عينيهِ ••

قال : ليتنى أرى هذه الألوان فى لوحة جديدة لك ••  
بسطت يدها متحسرة على العجز ! هذه الألوان •• محال أن  
يجدها أى رسام ••

– أتعرفين ماذا يسمونها فى بلاد النوبة ؟! •• لون المغرب •  
سمعتها مرة من شاعر نوبى كان يتغزل فى وجنات حبيبته :  
« والحدود الشاربة من لون الشفق عند المغرب » •• ورفع أنامله  
ومر بها على خديها ••

سألته وهى تنظر باسمه فى عينيهِ : مايزالا ؟!

ضغط قليلا على خديها : وأجمل مما كانا •

اختلج قلبها بالفرح • هاهى الأشياء الصغيرة واللفطات  
الجميلة البسيطة لم تضع من حياتهما •• وعادت تفكر : « كانت  
تجربة شقية ( وتنهدت ) لكنها كانت ضرورية •• كانت الامتحان  
الذى أنقذ حينا » ••

وسمعه يقول : هاهى الألوان قد تغيرت ••

اسرعت تنظر : تغيرت تماما •• حتى الألوان تتوالد •• مع  
كل لحظة يولد لون جديد •• ( وتنهدت بصوت مسموع ) أجمل  
ما يفعله الرسام أزاء هذا السحر أن يعيشه •• لا أن يرسمه •• بل  
يمتصه ويخترنه •• رصيда للأيام القادمة •  
– هو ذاك •• الآن ليس وقت الرسم ••

— ولا وقت قرض الشعر أيضا ٠٠

— الآن وقت ( وتوقف عن الكلام ، ونظر في عينيها منتظرا أن  
تكمل جملته ٠٠

— الآن وقت الحب ٠٠

فرح أنها أكملت الجملة كما كان سينطلق بها ٠ انتابته حالة مرح  
وثقة ٠٠ ما أكثر ما كان ذلك يحدث بينهما ٠٠ في الأشياء الصغيرة  
والأشياء الكبيرة ٠٠ في الفعل ورد الفعل ٠٠ كثيرا ، بل غالبا ، ما  
كانت الأفكار والمشاعر بينهما متوحدة ٠٠ حتى على البعد ، كان  
بينهما « تليباثي » يرسل الاشارات السرية التي تكشف عنهما  
الحجاب وتوحد الرؤية بينهما رغم حواجز الأمكنة ٠٠ ( وتنهد من  
العمق ) كل شيء يعود كما كان وأجمل ٠

وعادا الى متعة الصمت ، وأوشكا أن يفلقا جفونهما مرة  
أخرى ، لكنهما رأيا بعض الركاب يروحون ويجيئون في ممر الطائرة  
٠٠ أدركا أن من حقهما ٠ فك الأحزمة ٠٠ فكاهما في الحال ٠٠ قال  
مبتهجا ، وقد أحس بحرية الحركة : غريب أن يحس المرء بأنه يريد  
أن يطير رغم أنه طائر ٠

وفوجيء بها تنهض واقفة وتقول : هيا نظير ٠

قال مداعبا : الى أين ١٩

قالت باسمه ، وهى تشير على احدى الراكبات : سأجلس مع  
ليلي بعض الوقت ٠٠

وأفسح لها طريقا للمرون ، ومضت الى صاحببتها ٠ وبقي  
جالسا وحده ٠٠

« هذا هو أحد وجوه الخلاف بيننا ( قال باسمه لنفسه )

لاتطبيق البقاء مدة طويلة فى مكان واحد ٠٠ ان استقرت يوما بأكمله  
فى البيت ، خرجت منطلقة فى اليوم التالى وكأنها حرمت من  
الشوارع ومن الناس دهرًا !! ٠٠ بينما أنا يمكننى البقاء فى البيت  
أسبوعا واسبوعين مع تأملاتى وكتبى وحنينى الى الهام عظيم يهبط  
على خلوتى ! ما أكثر ما تصادمنا بسبب ذلك ٠٠ بل كان ذلك هو  
لب الصدام الذى راح يشتعل يوما بعد يوم حتى أوصلنا الى القرار  
الرهيـب ! وهرعت اليه صورتهما وهما يجلسان فى مكتب الماذون !!  
هز رأسه مبعدا الصورة ، وعاد ينظر من النافذة ٠٠ انتقل الى  
مقعدها كى يرى بشكل أفضل ٠٠ وخطر له من اللحظة الأولى ان  
ينادى عليها لتشهد التطور الأخير فى المنظر ٠٠ كانت الطائرة قد  
أمعنت فى الارتفاع ، حتى لم يعد يبدو فى المحيط الهائل غير قرص  
الشمس الغارب ٠٠ هاهو القرص يلامس خط الأفق البعيد ٠٠ انها  
ملامسة الوداع ٠٠ وفكر : بعد قليل سيختفى قرص الشمس ، ولكن  
سيبقى نور آخر يضىء ٠٠ هو نور الحب !

أبهجته الفكرة ٠ تملكته رغبة عارمة فى أن يخرج ورقة وقلم  
ويكتب ٠٠ يبدأ قصيدة ، أو يفتح قصة ٠٠ ان بحرا من الالهام  
يوشك أن يتدفق من أعماقه ٠٠ الا أنه تذكر اتفاقهما : لاوقت الا  
للحب ٠٠ وهاهو قرص الشمس قد اختفى ، ساحبا معه كل ألوان  
مهرجانه ٠٠ ولم يبق فى الفضاء ثمة شىء أو علامة يمكن أن تتعلق  
بها العين ٠٠ بل فراغ كامل مطبق ، ولا دليل على أن الطائرة تطير  
غير صوت الأزيز ٠٠ أزيز أحسسته فجأة مفرغا من قوة الحركة  
والاندفاع ٠٠ وانتابه الشك فى أن الطائرة تطير ٠٠ شعور رهيب  
ومقبض وغير مفهوم ، عانى منه مرة من قبل ، وهاهو يستبد به  
مرة أخرى ٠٠ أن الطائرة واقفة تعانى ٠٠ تراها على وشك  
السقوط !؟ أم أن الطيار سينجح فى اصلاح الخلل !؟ ٠٠ وعادته  
تذكرى أيام كئيبة ، بدا فيها الحب بينهما قد توقف ٠٠ لفظ أنفاسه

الأخيرة ومات ٠٠ « وكنت أقول معزيا نفسى : هى قوانين الحياة . كل شىء له عمر ٠٠ يولد وينمو ثم يموت ٠٠ كذلك الحب ، له هو الآخر عمر ٠٠ الحب أيضا يتوقف ويموت ٠٠ يجب أن أتقبل هذا ، ٠٠ ومضى يحيا حياته على أنها خلت والى الأبد من الحبيب ٠٠ الذى كان !! ٠٠ لكن الحقيقة كانت غير ذلك ٠٠ لم يكن الأزين مفراغا ٠٠ كان الحب بينهما ينبض مستترا فى الخفاء ٠٠ كان منطلقا بكل قوته ولايدريان ٠٠ تماما مثلما يحدث لهذه الطائرة الآن ٠٠ قبيئنا لم يكن هناك ثمة دليل على حركتها وانطلاقها الا حينما تجتاز منطقة مطبات هوائية ، أو تمر بقطعة سحب تتجاوزها ثم تدخل ثانية فى منطقة الفراغ المخيف ، الا أنها كانت ماضية فى اندفاعها الى الأمام ٠٠

وند عنه نفس ارتياح عميق : « أجل » هناك ثمة حركة متوثبة وجياشة فى الداخل ، رغم أن الخارج يوحى بالفراغ وبالتوقف . كذلك حيننا ٠٠ أيام الفراق ! ٠٠ كل لحظة صدق عشناها فى الأيام السابقة للأزمة ، كانت دون أن ندرى رصيذا لأيام الشدة ٠٠ وكان كلانا بعيدا عن الآخر ، ومع هذا كان يواجه نفسه بصدق وحرارة : هذا الذى حدث بيننا ٠٠ لماذا حدث ؟! لماذا ضاع ماضع ؟!

ولم يكن مفر من الصدق مع الذات ٠٠ واكتشفت أن قدرا كبيرا من المسئولية يقع على ٠٠ لايد من الاعتراف ٠٠ ليس من أجل أن نعود ٠٠ بل من أجل معرفة الذات ٠٠ لقد التقيت بها صغيرة ، واستمرأت أن يظل الملاك صغيرا ، أحمله سعيدا على كتفى وأمضى به ٠٠ أريه العالم بعيونى أنا !! ٠٠ غير أن الملاك سرعان ماكبر ، وأصبح يضيق بأن يحمله أحد ٠٠ يريد أن أن يستمتع بالمشى على قدميه ، وبالنظر بعينيهِ وينطلق وحده وبقدراته هو فى كل اتجاه ٠٠ وفوجئت بها تقفز من فوق كتفى الى الأرض وتنطلق وحدها كما تشاء ! ٠٠ حينذاك ملأنى خوف ساحق ٠٠ أن تقضى عليها وعلى

حبنا تجربة الحرية ٠٠ ورفعت كف الاعتراض ، ثم سيف الاتهام  
 بالعقوق وبالجود ، فكان الصراخ وكان الصدام الذى انتهى ٠٠  
 بقرار الانفصال !! ( وتجهمت ملامحه ) أصبح الفارس المبشر  
 بالحرية ، هو عدوها ٠٠ وسجانها ٠٠ بالضبط هو ذاك ٠٠ كنت  
 أنا فى البدء المبشر والمعلم ، وهى المريد التابع الأمين ٠٠ وكنت أنا  
 الذى أصبحها الى حديقة الأورمان لنجلس على العشب على ضفاف  
 بحيرة صغيرة مليئة بأزهار اللوتس ، وأقرأ لها فى كتاب « النبى »  
 لجبران : مات حدثنا عن الزواج ، فيهمس لنا بموعظته : لا تأكلا  
 من رغيف واحد • فليأكل كل منكما من رغيفه • اجعلوا بينكم  
 فسحات ، ولا تلتصقوا على الدوام ٠٠ كونا مثل عمودى الهيكل  
 متباعدين ، لكنكما تحملان معا السقف الواحد !! ( وندت عنه زفرة  
 حارة ) ٠٠ وحين وصل بنا التطبيق الى أعلى ذراه ، لم أقو ٠٠  
 وبدا لى شغفها الزائد بالحرية يحمل نوعا من الدمار !!

هاهى بالحرية ازدهرت وتآلقت ٠٠ لم يحدث خراب أو دمار  
 عفوا أيها العظيم جبران ٠٠ كان لابد من التجربة كى اسلم  
 بهذه الفسحات بيننا ٠٠ لنرى بعضنا من بعيد ٠٠ ومن جديد !

ولاح له « جبران » دون أن يفتح شفتيه المزمومتين على معنى  
 شجى عميق : لاتندم على تجربة ٠٠ ولا تأس على دم سال ٠٠  
 كآبتنا هى فجر لذواتنا ٠٠ انما ٠٠ لاتنسى انها باصرارها على  
 حريتها ، أعادت اليك حريتك ٠٠ الآن اكتملت الدائرة ٠٠ التقت  
 النقطتان فأصبحتا خطا واحدا ٠٠

فجأة انتبه على شىء غريب ومدهش يحدث فى صوت الطائرة  
 لقد انتهى الأزيز الذى كان يوحى بالتوقف والتخلخل فى

الفراغ ، وعاد الصوت العظيم المهيّب ، الموحى بالقوة وبالقُدرة على  
الاختراق والمضى فى الطيران والتحليق !! ٠٠

فى هذه اللحظة رأها قادمة فى المر نحوه مضيئة الوجهه  
مبتسمة ، رفع لها فى الحال يده محييا ٠٠ وكان يقول فى نفسه :  
محررتى العظيمة ٠٠ أجل « سوف تأتى لحظة الاعتراف !

وحين عاودت الجلوس بجواره ، أحس بالنقطتين تدوران  
وتلتقيان ٠٠ مال عليها وقبلها ٠٠ واكتملت الدائرة الى الأبد !!

« ١٩٨٩ »



## صيد البكور

تعرفين ذلك يا صديقتى ، حين يقابلنا شخص ما ، لأول مرة وعلى غير انتظار ، فإذا به يتلبسنا من الوهلة الاولى ، ويأخذ بجماع أرواحنا وانفسنا ، وتستسلم لهذا الشعور بسعادة ، مبهورين بهذا الحب الذى يرسله القدر إلينا بعد افتقاد طويل ٠٠ كأجمل عطايا الحياة ٠٠

يحدث لنا هذا احيانا مع انسان ، كما يحدث لنا أيضا مع مكان ٠٠ هناك أماكن تأخذ بمجامع القلب وتهز اعطاف النفس بالنشوة والحبور ، ونشكر الحياة على اننا لم نمت قبل ان نراها ونندب بأقدامنا عليها ، ونود لو نقضى بقية العمر فيها ٠٠ أجل يا صديقتى ٠٠ عشق الاماكن ليس أقل خطورة وروعة من عشق البشر ٠٠ حدث ذلك لى حين زرت لأول مرة « شرم الشيخ » فى جنوب سيناء مع بعض الاصدقاء ٠ وكانت اقامتنا فى بيت هلالى الشكل ، شبيه ببيوت الأحلام ٠٠ اقيم فى حضان احدى الهضاب ، تعلوها من الخلف قمم الجبال ٠٠ ومن الأمام تنبسط فسيحة وممتدة ومغرية بالمشى أو الجرى حتى نبلغ حافتها ، فإذا بها تطل على واحد من ارووع خلجان البحر الأحمر ٠٠ ومع دورة الأفق مجموعة

من الجبال ، بالروعة التشكيل ، وبالسحر الألوان وهى تتعاقب ،  
 فاذا بالصخور أرواح تنطق وتقول ٠٠ وتناجى ٠٠  
 هناك يا صديقتى أصمم لنفسى لحظات أعيش فيها المكان ،  
 واضمح روحى بأرضه وهوائه وكتله وفضائه ٠٠

اصبح مبكرا ، والكل نيام ، أخرج الى سطح الهضبة الممتدة ،  
 مسحورا بتلك البكارة الأولى للصباح ، كوجه الوليد فى اطلالته  
 الأولى على الحياة ٠٠ امضى فوق الهضبة بهدوء بالغ ، حريصا  
 على الا تحدث خطواتى فوق الحصى أى صوت ٠٠ لكل شئ  
 مستغرق فى السكون يصلى ٠٠ عرفت فى زيارة سابقة لهذا المكان  
 صديقة كانت تعشق هذا النوع من الصلاة ٠٠ كانت من هواة  
 اليوجا ٠٠ وقفت ذات مرة ارقبها مايقرب من الساعة وهى مستغرقة  
 وحدها على حافة الهضبة فى سكون عميق ، ثم بعد أن ثابت  
 أخيرا الى ماحولها ٠

سألتها : فيما كان تركيزك هذه المرة ١٩

قالت : مع صوت الموج !

ولم يكن صوت أمواج الخليج لحظتها غير وشوشات تهمس  
 لشنطئان الخليج !

ذلك الصباح ٠٠ جلست على الحافة ٠٠ تحتى مباشرة ،  
 بمسقط رأسى مياه الخليج ٠٠ ورحت املأ عيني وروحي ٠٠ لكائنتى  
 كنت نائما من سنوات وصوت ٠٠ ماذا أريد !؟ ٠٠ وقلت لنفسى :  
 أنا أريد ٠٠ ولكنى الآن لا أعرف ماذا أريد ، ولا أريد أن أعرف  
 ماذا أريد ٠٠ يكفينى هذا الثراء الروحي الذى أحس به ٠٠ ليس  
 ثراء روحيا فقط ، بل وثراء ماديا أيضا ( وفكرت مع نفسى بطرب )  
 كل هذه الروائع ملكى ٠٠ الجبال ٠٠ والخليج ٠٠ والألوان ٠٠

والفضاء الرحيب ٠٠ فلاأضمخ بها روحى ٠٠ وأملأ بها قلبى حتى  
يفيض ٠٠

كنت الانسان الوحيد الجالس يستمتع بهذه اللوحة المسحورة  
٠٠ وخطر لى ذلك الشعور الجميل بالتفرد والتميز عن الآخرين ٠٠  
فها نحن مالا يقل عن ثلاثين جنأا معا فى هذه الرحلة ، والمكان  
مبسوط للجميع ، ومع هذا ، فها انا الوحيد الذى يخرج للقاء  
البكور ٠٠

الا اننى فجأة ، تنبّهت الى انى لست الوحيد ، فقد لحت  
طائرا فوق أعلى قمة الهضبة عن يسارى ٠٠ ينظر فى نفس الاتجاه  
الذى كنت أنظر اليه ٠٠ نحو جبال الشرق التى سيعصد من خلفها  
قرص الشمس فى موعده المعلوم ٠٠ وما أغرب وقفته ٠٠ لكانما هو  
واقف فى شرفة ملوكية عالية ٠٠ وأوحى لى هيئته بأنه ملك ينظر  
فى هدوء وعظمة الى مملكته ٠٠ تراه هو الآخر فى صلاة ؟! ٠٠  
احسست أن هناك شيئا ما مشتركا يجمعنا ٠٠ ماهو هذا الشيء ؟!

— صباح الخير ياطائرى العزيز ٠٠ ياشريكى ويا انيسى فى  
هذا المحيط الالهى إلبديع ٠٠ لا أعتقد أن صلاتك تختلف عن صلاتى  
٠٠ وربما كان قصدك هو نفس قصدى ٠٠ فكل مافى هذا الكون  
يتحرك بفعل قوانين واحدة ٠٠

وددت لو تثبتت الدورة عند هذه اللحظة ، وتبقى اللوحة ٠٠  
لوحتنا أنا والطيائر والهضبة والجبال ومياه الخليج وسحر البكور ،  
الا أن ضوء النهار كان ينبثق ناعما فى هدوء وبالتدرج ٠٠ واذا بدا  
قرص الشمس فى الاقتراب وفى الظهور ، انعكست اشعته على مياه

الخليج وتخللتها وكشفت عن أعماقها وعن كل مافى هذه الأعماق  
٠٠ فجأة رأيت الطائر يندفع منطلقا بأسرع من غمضة العين الى  
مياه الخليج ويغوص فيها بكل رأسه ومنقاره ، ثم يخرج ومعه صيده  
ومضى محلقا الى بعيد ، حتى اختفى ٠ ٠

الفيتنى وحيدا من جديد ، ومضيت أفكر بأسى ٠٠ وحنين :  
لقد وجد صيده ٠٠ وأنا ؟ ٠٠ أين صيدى ٠٠ أين صيدى ؟!

« ١٩٨٩ »

## حلاوة البحر المالح

- هل تجمع قواقع ؟!
- وأحجارا ملونة أيضا .
- اقتربت الفتاة منه بحركة طفولية ملهوفة ، وتوجهت بنظراتها  
إلى يديه اللتين تحملان ماجمع ..
- هل يمكننى رؤية ماجمعت ؟
- بكل تأكيد ..
- وراح يريها .. ما أن رأت أول قطعة ، حتى صاحبت يانبيهار  
وفرح : أوه .. كم هى جميلة ..
- قال وقد أسعدته فرحتها : أذن قهى لك .
- تراجعت برأسها قليلا وقالت وهى تنظر فى عينيه بدهشة :  
هل تفرط فى الأشياء الجميلة هكذا بسهولة ؟!
- اذا كان من سيأخذها ، أجمل منها ..

استراحت للاستجابة • مالت برأسها قليلا نحو كتفها وقالت  
بابتسامة : هل ترانى حقا جميلة ؟!

– استغرب السؤال • أو يمكن حقا ألا تكون مدركة لجمالها  
•• كل هذا الجمال •• الشعر الذهبى المفروق من الوسط ،  
والخصلات المنسدلة •• بعضها على الكتف ، والبعض الآخر يكاد  
يخفى احدى الوجنتين المتوردتين والملوحتين بحرارة الشمس ••  
ثم هذا القوام البديع المشدود والمكسو جزء منه بثياب الشاطئ  
البسيطة •• وجذب بصره أكثر قدماء الحافيتان وقد علقت بهما  
بعض ذرات الرمال •• أهى حقا لاتدرك جمالها •• أم هى لابد  
رغبة الأنثى الدائمة أن تسمع بأنها جميلة •• ماتزال جميلة ؟!

– لقد رأيتك من قبل فى كافيتيريا « الشمندورة » •• وكنت  
وسط مجموعة كبيرة ••

هزت رأسها بالإيجاب باسمه ••

وخطر له أن يكمل ويقول لها : الآن ، وانت وحدك على  
الشاطئ ، تكتمل بك سيمفونية الجمال الالهى •• السلام ••  
والخليج •• والجبال المحيطة •• انت قمة من قمم الخلق الالهى •  
وجاشت بنفسه رغبة فى أن يجول بنظراته عبر مساحات قوامها ،  
ويصافح مسام نصف جسدها الجميل العارى ، الا أنه حرص على  
الأ ييدر منه ما يجعلها تسيء فهم قصده •• كما أن لابد لها صاحب  
أو رفيق وربما زوج وحالما سيلحق بها :

– هل معك أحد •• الآن ؟!

هزت رأسها مرة أخرى بالإيجاب – وقد اتسعت ابتسامتها •  
تلقت بعينية فى كل الاتجاهات ، ثم فى اتجاه صف الفتانق  
ومجموعات الخيام والكافيتريات البادية بطول الشاطئ ، لكنه لم ير  
أحدا بالمرءة •• كان المكان كله خاليا •• هو وهى وحدهما على حافة

الشاطئ والأمواج الخفيفة تدور وتلتف حول أقدامها ، تغطى  
الأصداف حيناً ، وحيناً آخر مع الارتداد تكشف عنها ٠٠

قال يستوثق : أين هو ٠٠ صاحبك هذا ؟!

— هو معى ٠٠ هنا ٠

أدرك بما لايقبل الشك أنها تقصده هو ٠٠ وأن لا أحد آخر ٠٠  
وأوشك أن يصيح : يا الهى ٠٠ هذا أكثر مما كنت أتصور ، أو أحلم  
٠٠ ان لم يكن معها حقاً أحد ، فهي لابد واحدة من حوريات البحر ،  
أو شبيهة بها ٠٠

— تقصدين أنك غير مرتبطة بأحد ؟!

فردت ذراعيها بابتهاج ، وجذبت بأنفها نفساً عميقاً ٠

— أنا حرة ٠٠

رنت الكلمة والنبرة فى سَمْعِهِ وفى قلبه ٠ وتراءى له مع  
منظرها ، كما لو أن الموج ارتفع فجأة وهو وسط البحر وعليه أن  
يضبط جيداً حركته ليعرف كيف يسبح ٠٠ أهو الوعد يأتية به القدر  
على غير ميعاد ٠٠ حب جديـد يعوض الذى راح ويجد معه  
السلوى ؟! لا ٠٠ لا ٠٠ أنا لا أطمع فى أكثر من أسبوع الاجازة  
الذى جئت لأقضيه هنا ٠٠ بل يكفى يوماً أو يومين ٠٠ ننطلق معا  
٠٠ ويرتوى القلب الذى أصابه التشقق والعطش !

— منذ متى وصلت شرم الشيخ ؟!

— منذ خمسة أيام ٠ ( وأشارت على مجموعة الخيام ) اسكن  
هناك ٠٠ فى المخيم الحر !

المخيم الحر ؟! ياله من تعبير يطلق الخيال ويفجر فى النفس

عوالم وصور ورغبات تعيش حبيسة فى الأعماق وتهفو للانطلاق  
والرفرفة والزقزقة كما الطيور ..

وواصلت تقول : اسكن فى تلك الخيمة .. الثانية الى اليمين  
.. أمامها كرسيان ومنضدة .. أعيش فيها مع صديقة لى ..

— وأين صديقتك الآن ؟

— ذهبت مع الآخرين ليشتروا ..

قال مجاهداً فرحه : اذن نستطيع أن نقضى بعض الوقت  
معا ..

أسرعت قائلة : بالطبع . ان لم يكن لديك مانع .

أى مانع يا حوريتى الجميلة !؟ لو أن أخطر المهام الآن فى  
انتظارى لطرحتها بعيدا عنى ، لكنى فى الحقيقة رجل وحيد ..  
شريد القلب والفكر ، يعزى نفسه بجمع القواقع والأصداف ، ويوهم  
نفسه بالبحث عن سر التكوين الأول !!

انت قمة من قمم التكوين الالهى .. كيف يكون لدى مانع !؟

نظرت اليه بامتنان ، ثم طافت بعينيهما فيما حولها بسعادة .

— ماذا تحبين أن نفعل ؟ فلتكن الرغبة رغبتك .

— كل مافى هذا المكان يوجه اليك دعوة . الرمال تدعو الى  
الجرى ، والبحر يدعو للسباحة والغوص ، والجبال تدعو للصعود  
الى القمم ..

قال بحماس : أنا مستعد لكل هذا .. بماذا تحبين أن نبدا ؟

قالت : الآن .. أنا سعيدة بجمع القواقع .. فلنواصل ماكنك

تفعل .



وان مضيا يبحثان بأيديهما ويقدمهما فى الرمل وفى الماء ،  
عرف لكل منهما ما هو مهم عن الآخر ٠٠ الاسم ٠٠ والوطن ٠٠  
والعمل ٠٠ وأحب اسمها : لودميلا ٠٠ وردده مرتين فرحا بإيقاعه  
٠٠ وعرف أنها من « أمستردام » وتعمل مهندسة كومبيوتر ٠٠ وعبر  
لها عن دهشته : وتملكين كل هذه الرومانسية ٠٠ وكل هذا الحب  
للطبيعة ؟ ضحكت وقالت : نوع من التعويض ٠٠ مع الطبيعة أجد  
إنسانيتى ٠٠ وانت !! مصرى ٠٠ اليس كذلك ؟

— هو ذاك ٠٠ وأعمل كاتبا باحدى المجلات .

توقفت لحظة عن البحث فى الماء ، ونظرت اليه بدهشة  
واعجاب :

كاتب ٠٠ أوه ٠٠ هذا شيء عظيم ٠٠ لابد انك انسان  
سعيد ٠٠

ندت عنه ضحكة عالية سرعان ما انتهت بتنهد : سعيد بلقائك  
هذا ٠٠ انه لقاء من صنع الأقدار !

لم يكن يريد لأى شيء آخر أن يقتحم عليهما خلوتهما الرائعة  
الطليقة ، ودعا من لكل قلبه أن يرسل اليه البحر احدى أعاجيبه  
ومدهشاتة ، فيهديها اليها ٠٠ وفكر لو أنه عثر فى واحدة منها على  
لؤلؤة كريمة فسيهبها لها على الفور ودون أدنى تردد !!

وانتبه عليها تصيح مهللة : أوه ٠٠ أوه ٠٠ انظر ٠٠ ماذا  
وجدت !

كانت تحمل بين كفيها قوقعة متوسطة الحجم زاهية الألوان .

— آه ٠٠ كم هى جميلة حقا ٠٠ ونادرة أيضا ٠٠ أرىنى  
اياها ٠٠

وقدمتها له وهى تكاد تقفز من السعادة .. مضى يتأملها من  
جميع جوانبها ، ثم ينظر فى عمقها المختفى ..  
- من يدري .. ربما بداخلها للؤلؤة !! ومضى يشخصها ..  
نبهته ضاحكة .. انها فارغة ..

قال : ليس على وجه اليقين .. ربما اللؤلؤة ملتصقة بجدارها !  
- أوه .. لأحب أن أذهب بأحلامى الى بعيد .. يكفينى جدا  
جمالها البادى هذا .. يكفى جدا ..

أحب اجابتها .. قريتها أكثر الى نفسه .. الاكتفاء هو فلسفته  
فى الحياة .. هزلها رأسه ..

- حقا .. يجب أن نفرح بالأشياء كما هى .. انظرى  
( ومضى يمتحن قوة القوقعة ) كم هى صلبة .. هذه الصلابة هى  
ماتدهشنى فى القواقع :

- وفيم الدهشة !؟

- دهشة التحولات .. قانون التحول ، حيث يصبح المشيء  
شيئا آخر مختلفا بالمرة ..

- كيف !؟

- هذه القوقعة .. ألم تكن فى الأصل خلية هلامية بالغة  
الدقة والتكوين .. ثم مضت بالتدريج تكسو نفسها ، وتقيم لها درعا  
من أفراسها .. درعا يحميها من عنف البحر وتقلباته .. ثم حين  
كبرت وأصبحت قادرة على الحركة والانطلاق بنفسها ، ودعت  
القوقعة وانطلقت فى كل هذا المحيط .. لقد أصبحت شيئا ..  
مخلوقا آخر تماما ..

كان يتكلم بحماس ، راجيا الا يكون قد اختار موضوعا ثقيلا

يتناقض مع رومانسية المكان .. يبدد عنها فرحها الطفولى .. وفرح  
اذ وجدها تقول : أحس أنى كنت فى قوقعة وخرجت منها ..

— كيف 19

— الحياة كلها أحيانا تبدو قوقعة ، وتحتاج من الانسان الى  
قوة هائلة ليخرج منها !!

وجذبت نفسا عميقا بأنفها ، فبرز صدرها الناهد مثل شراع  
امتلا فجأة بالريح ويستعد للابحار والانطلاق وقالت : الآن بى  
رغبة شديدة للسباحة .. ننزل الى الماء ..

— هيا ..

وخلع كل منهما سرواله القصير وأصبحا بالمياه .. نظر  
لحظة يتعلق قوامها البرونزى البديع وهى تشب على أطراف أصابعها  
كما لو أنها تريد أن تطير .. اصطفت الأمواج هائلة فى صدره ..  
مهلا أيها القلب مهلا .. فمازال أمامنا الوقت طويلا .. واندفعت  
جريا الى الماء فاندفع خلفها .. وراها تفوص للحظات حتى  
اختفت تماما ، ثم اذا بها تخرج من الماء ، رافعة ذراعيها .. تناديه !  
.. كانت قد ابتعدت قليلا .. وفكر : انا لا أجيد السباحة .. ومع  
هذا ، لن أنكص على عقبي .. أجل .. ولو غرقت فساكون شهيدك  
يا لودميلا .. شهيد اللحظة الجميلة .. لكن الانسان حين يقرر عدم  
الموت لايموت .. ومضى يسبح اليها ..

— لودميلا .. هل تسمحين لى أن اتغزل فيك والماء يقطر من  
خصلات شعرك ؟!

ضحكت : أوه .. أرجوك .. تغزل كما تريد .. ليس أروع  
من غزل الكتاب ! ..

— أنا الآن لست كاتباً .. أنا الآن انسان !

— اذن ففذلك أصدق ٠٠ ( وندت عنها تنهدة ) ليس أجمل من الحرية ، لكن المؤسف أن يجد الانسان نفسه مضطرا للدخول فى القوقعة من جديد !

— أية قوقعة ؟!

.. أنظر ٠٠ ها قد عادوا ومعهم مشترياتهم ٠٠

ورأى مجموعة من الشباب والفتيات قادمين يغنون ويضحكون ٠٠ فرحين بما يحملون ٠٠

— على الآن أن الحق بهم ٠

( وهزت رأسها بأسف ) خسارة ٠٠ لماذا لم نلتق من أول يوم جئت أنا فيه الى هنا ؟! لماذا لا نلتقى الا فى اليوم الذى سأسافر فيه ؟!

انقضت الكلمات عليه كموجة عاتية وحشية أفقدته توازنه ٠٠ صاح بها رافضا التصديق : اليوم تسافرين ؟! مستحيل ٠٠

خرجت من صدرها زفرة حارة : بعد ساعتين ٠٠ لابد أن نكون جميعا على استعداد ٠٠ وبعد اربع ساعات ستطير بنا الطائرة الى امستردام !!

كانا قد اقتربا من الشاطئ ٠ وأوشك أن يصرخ فيها : لماذا ظهرت لى ؟ ٠٠ ولماذا أقبلت على بكل هذا الجمال وهذا التبسط وأحييت فى نفسى مشاعر كنت ودعتها من زمن طويل ؟! لماذا وأنت تعرفين انك راحلة ٠٠ لماذا ؟! وقراءت له — اللحظة فى صورة حواء متأمرة غليظة القلب ، تهوى العبث بالرجال ٠٠ تحيى الجذوة الراقدة تحت الرماد ٠٠ تنفخ الرياح فى القلاع وتعدّها بالابحار ، ثم فجأة تتخلى وتراجع فتتطفىء الجذوة من جديد وتتغصن القلاع ٠٠ وفكر أن يقول لها : أنت مثلها ٠٠ مثل التى راحت ٠٠ ولكن واحدة !!

الا أنه تحكم فى مشاعره ٠٠ كان يدرك من أعماقه ان الحقيقة غير  
ذلك ٠٠ الحقيقة أن منظره وهو يجمع القواقع من الشاطئ هو  
الذى جذبها ٠ اللحظة الساحرة فى المكان الساحر جذبتهما الى  
بعضهما ٠٠

كانا قد عادا الى الشاطئ ٠٠ حيث ترقد القواقع والأصداف  
على الرمل فى انتظارها ٠٠

- لست وحدك الحزين ٠٠ أنا أيضا حزينة ٠ ومع هذا فأنا  
لست بنادمة ٠٠ هل أنت نادم ١٩

- اطلاقا ٠٠ ( وابتسم بحزن ) جميل ان الحياة منحتنا هذه  
اللحظات ٠٠ كان يمكن الا تحدث ٠٠ لكنت ستكون خسارة كبرى  
٠٠ شكرا لله ٠٠

- لحظات لن أنساها ٠٠ ستعيش معى بمثل ما ستعيش هذه  
القطع فى بيتى ٠٠ ( وانحنى ترفعا ، وتضعها برفق فى سروالها  
بعد أن حولته الى ما يشبه الحقيقة ٠٠ وقالت وقد عاودت السعادة  
وجهها : اشكرك على الهدية ٠٠ أوه ٠٠ سيحسدوننى عليها ٠٠ انها  
أفضل من كل ما اشتروه ٠٠ من كل قلبى اشكرك ٠

- اشكرى البحر ٠٠ والقدر الذى جمع للحظة بين  
غريبين ٠٠

- لم نعد غريبين ٠٠ ( ونظرت باسمه فى عينيه ) افعل  
عينيك لحظة لو سمحت ٠٠

استغرب مطلبيها ٠٠ أغلق عينيه ٠٠ فوجيء بشفتيها تطبعان  
قبلة بين عينيه ٠ أسرعت دقات قلبه ٠٠ فتسح عينيه ٠ كانت قد  
ابتعدت قليلا ٠٠ ثم توقفت للحظة ٠٠ ومضت تلوح له مودعة !!  
بقى واقفا مكانه ٠٠ وراح هو الآخر يلوح لها ٠٠ وفجأة استدارت  
وانطلقت تجرى بما تحمل ٠٠

القي نفسه وحيدا ٠٠ عاوده صوتهها : أغمض عينيك ٠٠  
وأغمضهما ٠٠ ورفع يده الى ما بين عينيه ٠٠ يتحسس مكان القبلة  
٠٠ كان يود ألا يفتحهما ، إلا أنه أحس بالرمال تتخلخل تحت قدميه  
وبدوار يشبه دوار البحر ، ففتح عينيه خشية السقوط !! ٠٠  
كان متراوفا بين الحزن والفرح ٠٠ تنهد مغمغما : لا ٠٠ أنا  
لست طماعا ٠٠  
اشكرك ايتها الحياة ٠٠ اشكرك لودميلا ٠٠ لقد منحتماني  
ماسيهج القلب الى الأبد ٠

« ١٩٨٩ »

## موت الموت

### ● واقترب المساء ..

هفت روحه الى الشرفة الالهية : جلسته الاثيرة فى شرم الشيخ ، فوق الصخرة العالية ، اقصى نهاية اللسان الخارج من الهضبة ، ومياه الخليج تحته مباشرة ! .. كان قلبه يخفق بالحنين وبالنشوة المنتظرة .. ذلك هو موعد مهرجان ألوان الغروب ، والتي لاتدوم بهجتها الا لوقت قصير ، فليسرع ليملاؤها عينيه ، ويضمخ بها جسده وروحه قبل الزوال !

صعد حثيثا الى سطح الهضبة ، ثم شرع يسير فوق اللسان الطويل الضيق ، والذي ينحدر من الجانبين بمسقط رأسى حاد ، الأمر الذى . يستوجب غاية الانتباه والحذر .. ان أبسط انحراف يعنى السقوط فى الهوة .. ذلك مايجعل الاغراء أقوى .. والغايات العظيمة دائما محفوفة بالخطر !

قال لنفسه وقد بلغ الصخرة بأمان وجلس على حافتها يستشرف المنظر : الجبال .. والمياه والسماء .. والرمال .. والفنادق والخيمات البعيدة : هنا فى هذا المكان بدأت يومى ،

ورأيت الصبح وهو يتنفس وينشر أول أضوائه ٠٠ وهامى الشمس  
تميل الى المغيب ٠٠ فماذا أخذت من يومى ؟! ٠٠ وتذكر الطائر الذى  
لمحه فى جلسة الصباح واقفا على احدئ القمم المجاورة وفرح به  
لحظتها كرفيق للبكور ، لكنه سرعان ما راه مع طلعة الشمس  
ينقض على الماء ويلتقط صيده ثم طار محلقا مبتعدا ٠٠ تاركا اياه  
وحده ٠٠ ! كما تذكر أيضا « لودميلا » فتاة الشمال التى سطعت  
على حياته للحظات مع شمس الضحى ، ثم لم تلبث هى الأخرى أن  
رحلت بقواقعها وأحجارها الملونة وتركته وحيدا على الشاطئ ٠٠ !  
رحل الاثنان ، لكن صورتها ظلت باقية فى القلب وفى الذاكرة !!  
٠٠ وتنهد : اننى لا أتعزى ٠٠ فهكذا أصبحت حياتى ٠٠ ليس المهم  
ما نملكه فى اليد أو فى الجيب ، بل مايقى فى القلب ويدفئه ٠٠  
وها هو المهرجان قد بدأ !!

ورأى الفضاء وقمم سلسلة الجبال تشع وتتوهج بالألوان  
فانتعشت روحه ٠٠ كان اللون الأعظم والطاغى هو البرتقالى  
النارى ٠٠ لولا الهدوء والسلام الرانين على المكان لحسبه صادرا  
من قلب بركان متفجر فائر ٠ ورأى واجهات الجبال وجناباتها تتخذ  
مع تموجات الألوان أشكالاً وتكوينات جديدة غير تلك كانت عليه  
بالنهار ، فمضى يتتبع الأشكال بفرح طفولى ٠٠ وتراءت له وجوه  
انسانية هائلة حينا ٠٠ وحيوانات ديناصورية حينا ٠٠ ومزيجا  
كونيا غريبا حينا آخر !! كما جذبته بقوة مياه الخليج وقد أصبحت  
هى الأخرى مسرعا لابداعات مدهشة جعلت الموج الفيروزى يصبح  
أخضر ٠٠ ثم أحمر كالعقيق ومخمليا ناعما ٠٠ وراقصا !! ٠٠ وان  
راح يتنقل ببصره فى المحيط اللانهائى ، انتابه احساسى مفاجئ  
بطغيان الجمال ، وأنه أضعف من أن يحتمله هو وحده ٠٠ واشتاق  
لأن تكون معه عينان أخريان تنظران معه ٠٠ ولكن ليس أى عينين !  
وانبثق وجهها أمامه ٠٠ بلمعة عينيها السوداوين الضاحكتين دوما  
٠٠ قبل أن تهب العاصفة على حياتهما ٠٠ « ولم أكن أرى منظرا



جميلا الا واصطحبها معى بعد ذلك لكى تراه معى وأسعد بصيحات  
فرحها المدهوشة ٠٠ ( وندت عنه زفرة ) انتهت تلك الأيام السعيدة  
٠٠ أم تراها تعود ذات يوم وأجدها بجوارى فوق هذه الصخرة ،  
وتعيش معى هذا المهرجان ٠ كنا سنحوه الى عرس زفاف لنا  
بالألوان ٠٠ والحجرة هناك فوق الهضبة تجمعنا ٠٠ ومعنا الألوان  
كلها داخل الجدران الأربع ٠٠ و ٠٠ ( وهز رأسه ) لا ٠٠ ليس الآن  
وقت بعث الماضى ٠٠ والحزن رقد فى الأعماق وأصبح شجنا !!

كان عرس الألوان ماضيا بكل قوته وزهوته ٠٠ واذا رآه  
يقترّب من لحظات الذروة ، والوهج يصل الى أقصى سطوعه ، لاحظ  
فى نفس الوقت أنه بدأ يميل الى الذوبان والى الانحسار ٠٠ قال  
لنفسه : هكذا الأيام ٠٠ تنسحب من عمر الانسان مثلما تنسحب  
ألوان الغروب ، وحالما سيغيب كل شئ فى جوف الظلام ٠٠ ظلام  
الموت !! ٠٠ غير ان الألوان تعود مع دورة الأرض فيتجدد مهرجان  
كل يوم ، أما الأيام التى تروح منا لاتعود ٠٠ كل يوم ينقضى يقربنا  
من نهاية الرحلة ٠٠ من الغروب الأكبر !

الا أن مشاعره رغم هذا لم تكن مفاجئة على أى نحو ٠٠ كان  
قد بدأ - خاصة فى السنوات الأخيرة - يتصالح مع فكرة تسرب  
الأشياء الحميمة من حياته ٠ لا سيما بعد موت أمه ثم بعد ذلك  
عدد كبير من أصدقائه ٠٠ أصدقاء العمر الذين رافقوه رحلة الحياة  
بكل ما فيها رآهم يرحلون بغتة وعلى التوالى ٠٠ يرحلون بالموت أو  
بالسفر والهجرة الى بلاد أخرى بعيدة وغريبة ٠٠ الأمر الذى جعل  
فكرة الموت تختلط فى نفسه بفكرة السفر ٠٠ فبعض من سافروا  
وغابوا لم يكن يعرف على وجه اليقين ان كانوا ما يزالون أحياء أم  
ماتوا ؟!

لسوف يعتبر الموتى مسافرين فى بلاد وأماكن مجهولة ، ولئن  
كان من المستحيل الوصول اليهم ، الا أنه بالخيال يمكننا استحضارهم

•• ننأجهم •• وفى أوقات الأزمة نستشيرهم •• ونستضى  
برأيهم ! •• ولهذا ، كان ، ومايزال ، يرفض زيارة قبر أمه •• وقبور  
أصدقائه •• أنهم مازالوا يعيشون •• أنهم هناك •• مسافرون !

كان كل همه فى الحقيقة أن يهون من وقع احساسه الدائم  
بمأساة الموت •• وأنه لكى يواصل حماسه للحياة ويعمل ويكتب  
ويحب ويسافر ويحلم يجب أن ينساها ، أو يتعامل معها على نحو  
يزيل عنها وجهها المأساوى •• يسيطر على فكرة الموت بدلا من أن  
تكون هى المسيطرة عليه ! •• وساعدته على ذلك جملة قراها ذات  
يوم للحلاج •• شيخ شهداء المتصوفين : « الموت رفيقى » ••  
فتلقفها ، وجعل يديرها فى نفسه وفى عقله حتى خرج منها بفكرة  
ظن معها أنه أمسك بطائر الموت بين يديه ، وانتصر عليه وعلى  
مأساويته : أجل •• أن أحبه •• أحب الموت •• أجعله القالى ••  
وحين يحب الانسان الشئ ويألفه ، ينعدم تماما خوفه منه •• أنا  
والموت رفيقان •• وحين أموت ، سيموت هو الآخر بموتى ••  
سيموت الموت معى !!

وأبهجته الفكرة : موت الموت •• بدت له لكاشف ملهم نادر  
•• ليس فقط كإنسان •• وإنما أيضا ككاتب •• ما أروعها قصة  
أو رواية •• فليمسك بها بقوة ولا يدعها تفلت مثل ألوان الغروب  
•• وأخرج ورقة وقلما يحتفظ بهما دائما فى جيبه •• وكتب : موت  
الموت !! •• ثم أعادهما بحرص الى جيبه !

كان مهرجان الغروب قد انتهى ، وبدأت عتمة الليل تحل ،  
وسرعان ما هبط الظلام ولم يعد يرى أى شئ وهو جالس وحده  
فى قمته •• وفكر فى العودة •• عليه أن يكون أكثر انتباها وحذرا  
حين يمشى فوق اللسان ! كان سعيدا مثل صياد جاد عليه يومه  
برزق طيب •• وفكر مبتهجا بأعظم مافى صيده : موت الموت ••  
قصة يفرح بها عشاق الحياة التائقين لهزيمة الموت هزيمة أبدية !

فجأة ٠٠ أحس بجسم رفيع زاحف يمرق تحت ساقه ، وبشيء  
 حاد كسفن الابرة يلذعه ، فانتفض باللاوعي مرتعبا من موقعه ٠٠  
 ولأنه كان يجلس على حرف الصخرة فقد وجد نفسه ينزلق ويهوى  
 فى فراغ دون أن تطول يداه أى شيء يمكن أن يتعلق به : ما هذا ؟  
 كيف هذا ؟ وجاءه الجواب على شكل دوى هائل أحدثه ارتطامه  
 بالماء ، وأحس بنفسه يتناثر شظايا ٠٠ وبدلا من أن تطير الشظايا  
 فى الفضاء ، راح بكل كتلته يغوص ويغوص ، وقد أفقدته الصدمة  
 والملجة الباردة كل شظايا الوعي الباقية ٠٠ كان يغوص حيناً ،  
 وحيناً يلف ويدور ٠٠ البحر والدنيا واللوان الغروب تدور ٠٠ وقد  
 سيطرت عليه روح استسلامية كاملة ٠٠ وعاد الهدوء يطبق على  
 المكان ٠٠ انتهى الدوى وصداه ٠٠ والدوائر المرتعشة التي أحدثتها  
 السقطة فى الماء خفت وتلاشت ٠٠ وعادت حركة أمواج الخليج الى  
 ايقاعها الرتيب الأول ٠٠ اذن فهو الموت ٠٠ ومهرجان اللوان الغروب  
 كان زفاف عرس لكنه الآن زفاف للموت ٠ للصمت الأعظم !!  
 ٠٠ الا أن هذا الصمت سرعان ماتمزق ، وفزعت أسماك البحر  
 وكائناته وابتعدت ٠٠ فقد أحس صاحبنا بمحض الغريزة لا أكثر -  
 بشيء مروع ومؤلم يحدث له ٠٠ كان الماء يندفع الى فمه ، ووجد  
 نفسه باللاوعي يشبه ويفهق ٠٠ وجاهد أن يزم شفثيه بقوة ٠٠ الموت  
 اختناقاً شيء بشع ٠٠ ومضت يداه تضربان ٠٠ وقدماه أيضا ٠٠  
 ولعلت فى رأسه شظية وعى أدرك بها أنه فى بحر ويفرق ٠٠ لو نفس  
 هواء يستنشقه ٠٠ الهواء فوق ٠٠ واندفعت ذراعاها وقدماه فى حركة  
 غريزية تصعد به الى أعلى ٠٠ نسمة ٠٠ لا يريد غير نسمة ٠٠ الا  
 أن قدميه لامستا بعض النباتات البحرية فتصورها خصلات شعر  
 إحدى الجنيات ستلتف حوله وتجذبه الى الأعماق مرة أخرى ،  
 فعضى بكل قوة الفزع يضرب فى الماء مبتعدا ٠٠ ومصعدا ٠٠ كأنما  
 عمق الخليج آلاف الأميال وعليه أن يقطعها ٠٠ يصعدا ٠٠ ولأن  
 غريزة حب البقاء لاتخطئ أبدا لحظات الخطر ، فقد تراءى له

فجأة ، أن المعجزة تحدث ، فهاهى رأسه تطل من الماء ويستنشق الهواء ٠٠ يستنشق ويستنشق ٠٠ الهواء هو الحياة ، والحياة هي الهواء ٠٠ ولكن عليه أن يضبط جيدا تنفسه وحركته ٠٠ فهاهما ذراعاه تكادان أن تخذلاه ٠٠ ويكاد يهوى الى أسفل من جديد ٠٠ « لا ٠٠ لا ٠٠ مستحيل » يكفينى الهواء « وألهمته غريزته أن يستلقى بظهره على الماء ويطفو ٠٠ مجرد أن يطفو ٠٠ ولا يفعل شيئا الا أن يتنفس ٠٠ ويحاول استعادة بعض شظايا وعيه ان أمكن !

واذ كانت له بعض الدربة السابقة فى الطفو بالظهر على الماء ٠٠ بل تلك كانت أروع لحظات استمتاعه بالبحر ٠٠ بحر الاسكندرية ٠٠ والأصدقاء ٠٠ والأولاد ٠٠ والصيد بالسنانير ٠٠ ومهرجانات الصيف المرححة على البلاج ٠٠ بلال المنيرة ٠٠ وانقلب على ظهره مثلما كان يفعل ٠٠ وفرد ذراعيه بالعرض على آخرهما ٠٠ وطفا !!

داخلته شحنة أمل ٠٠ فاذا كان قد نجح فى ذلك ، فبالامكان أن ينجح فى أشياء أخرى ٠ ومع هذا لم يكن يطمع فى أكثر من هذا ٠٠ أن يبقى طافيا على ظهره ٠٠ يتنفس ٠٠ ويحاول استعادة الوعى بما حدث ! ٠٠ « أين أنا الآن ؟ » ٠٠ واذا رأى السماء وقد امتلأت بالنجوم الى آخر المدى ، خيل اليه أنه يطفو وسط اقيانوس هائل بلاشواطىء ٠٠ أى نجم من هذه النجوم اتخذه دليلى ؟ ٠٠ رغم أنه كان فى الحقيقة قريبا جدا من المشاطىء ومن حرف سفح الهضبة فى التقائها بمياه الخليج !! ٠٠ كان ثمة دوار يثقل رأسه ٠٠ وأحس فجأة بأنه فى حاجة الى النوم ٠٠ وبدأ النوم شيئا ناعما ورائعا وعذبا ٠٠ لو ينام ويستغرق فى النوم ويستريح ٠٠ الا أن شظية الوعى أو الغريزة لمعت : لسوف تكون النومة الأبدية ٠٠ غرقا فى الأعماق !! ٠٠ فلأحرك ذراعى ٠٠ أو حتى كفى ٠٠ بهدوء بالغ وعلى مهل ٠٠ ليس المهم الاتجسأه ٠٠ المهم الحركة ٠٠ حركة تبعد عنى شبح النوم الموت !!

ما كاد يجدف قليلا بذراعيه ، حتى أحس فجأة بأصابع إحدى يديه تلمس جسما أيقن على الفور أنه صخرة ، فأنقلب ملهوقا على بطنه وتشبث بكلتي يديه بالصخرة ٠٠ وإذا به فى نفسى اللحظة يحس بقدميه تصطدمان بأرض صخرية صلبة ٠٠ هتف لنفسه بفرح يكاد يبلغ حد البكاء : انه الشاطيء ٠٠ انها العودة للحياة !

\*\*\*

بعد قليل ، وعبر مساحة من الصخور المختبئة والزلقة ، وجد خطواته الواهنة المترنحة تقوده فى الظلام الى الشاطيء ٠٠ وما أن أحس بلمس الرمل ناعما وحانيا تحت قدميه ، حتى تراخت كل عضلاته المشدودة وتهاوى مختارا ٠٠ وتمدد !! الآن يمكنه النوم ٠٠ ولن يكون النوم الموت ٠٠ بل النوم البعث ٠٠ ومع أنفاسه التى كانت تتردد ببطيء ، بدأ الوعي يعاوده بالمكان والزمان وبما حدث ٠٠ وأراد أن يفرح ، لكن شيئا غريبا أفسد عليه رغبته ، فقد أحس بأحدى ساقيه ثقيلة كصخرة ، ملتصبة كجمرة ، رغم أنه خارج لقوه من الماء البارد ٠٠ وحاول أن يرفعها أو يحركها فلم يستطع ٠٠ بل وجد نفسه يتأوه من شدة الألم ٠٠ وإذا لاحظ أن كل جسده يرتعش ، أدرك أنها حمى ٠٠ وعلى الفور تذكر اللدغة التى جعلته ينتفض ويسببها سقط من فوق الصخرة ٠٠ هى اذن لدغة الأفعى ٠ وربما عقرب : نجوت من الغرق ٠٠ لكنى لم أنج من السم ٠٠ والسم يسرى فى العروق فلا تطوله يد لتمنع سريانه ٠٠ يسرى صعبا حتى يصل الى المخ ٠٠ فتتطفىء جميع الاشارات ، ويسود الظلام المطبق ٠٠ النوم الموت ٠٠ على الرمل ٠٠ على الشاطيء ٠٠ ها هو رذاذ الموج المتناثر يتساقط على وجهى ٠٠ كنفقات طائر ٠٠ طائر الموت ٠٠ ورأى النجوم بقعا وشرارات ضوئية تتعاقب وتتصادم ثم تخبو ٠٠ وأغمض عينيه : وما تدرى نفس بأى أرض تُموت ٠٠ الآن يمكننى قبول الموت ٠٠ ( وعادته الجملة الساحرة ) الموت رفيقى ٠٠ وبموتى

سيموت الموت معى ٠٠ تتحقق الفكرة التى تمنيت أن اكتبها قصة ٠٠  
 آه ٠٠ ماكان أجمل أن أعيش حتى اكتبها ٠٠ ويقرأها الأصدقاء  
 والصديقات ٠ و ٠٠ وجد نفسه ينتفض فجأة من قسوة الألم ٠٠  
 ومضى يتأوه ٠٠ واذ سمع صوت آهاته ٠٠ بدا له أن بداخله كائنا  
 مايزال يعيش ويحس بالألم ويرفضه ويستغيث منه ٠٠ ما الذى  
 أستطيع أن أفعله من أجله ؟ فى تلك اللحظة برقت فى ذهنه صورة  
 قديمة ٠٠ على جسر النيل ٠٠ قرب منطقة الغاب ٠٠ وفلاح لدغه  
 ثعبان فى قدمه فأسرع بشق مكان اللدغة ليخرج السم مع الدم  
 النازف بغزارة من ساقه !! لو أستطيع أن أفعل هذا ٠٠ لو مدية  
 أو سكين ٠٠ أو قطعة صخرية مسنونه ٠٠ أو محارة أو قوقعة  
 مدببة الأطراف ،لقى بها البحر على الشاطئ ٠٠ وراح يتحسس  
 الرمل حانيا ورطبا فمضى بجهد شديد يحفر فيه ٠٠ ورأى أن الرمال  
 تستجيب له فمضى يحفر ويحفر ٠٠ وبدا له فى لحظة أنه يحفر  
 لنفسه قبرا ليتوسد فيه ٠٠ فجأة وجدها ٠٠ قطعة حجر صغيرة ذات  
 حواف مدببة مسنونة ٠٠ فشدد قبضته عليها وأخرجها ٠٠ الآن  
 على بالجلوس لكى أتمكن من الانحناء على الساق وشق مكان اللدغة  
 ٠٠ وحاول النهوض لكنه أحس بثقل جسمه ، وبرأسه تدور : كنت  
 فى جوف الماء واستطعت أن أطفو ، وأنا الآن على الأرض ، أفلا  
 أستطيع الجلوس نصف جلسة ١٩ ٠٠

فى تلك اللحظة رأى شيئا غريبا بالغ الروعة يحدث ٠٠ رأى  
 القمر هلالا طالعا ٠٠ وأحس بأن طلوعه ليس وفقا لدورة ٠٠ بل من  
 أجله هو ٠٠ لينصره فى لحظته : هيا انهض يافتى الترحال  
 والتجوال ٠٠ أجل فانت مازلت فتى رغم أعوامك التى تجاوزت  
 الستين ولم تبق فى رأسك شعرة واحدة سوداء ٠٠ أجل يا بابا ٠٠  
 أجل يا جدو ٠٠ ومررت به أطيفاف الأولاد والاحفاد المتفرقين فى  
 الأماكن وفى البلاد ٠٠ وكنا كثيرا ما نفعلها ونجتمع كلنا فى مكان

واحد وبلد واحد ٠٠ نحن فى انتظارك لتغمرنا بحضنك وبغرائب  
 حكاياتك واسفارك ٠٠ انهض ٠٠ وشد جذعه الى أعلى ٠٠ وجلس  
 ٠٠ الآن أسرع ٠٠ فانت مع السم فى سباق ٠٠ لاتضيع لحظة ٠٠  
 لكنه أحس بيده واهنة ترتعش ، وأن القطعة الصخرية تكاد تنزلق  
 من يده ٠٠ شدد القبضة عليها ، حتى أنه رأى الدم ينبثق من كفه ٠٠  
 داخله الفرح : هذا هو ما أريد ٠٠ ولكن ليس دم اليد ٠٠ وانقض  
 بالقطعة مصويا حرقها المسنون على مكان اللدغة ومضى يشق اللحم  
 ٠٠ لايشقه بل يذبحه بوحشية ٠٠ وأحس بالألم الرهيب يخرج من  
 عينيه كالشرر ٠٠ لكنه لم يعبا ٠٠ مضى يشق فى اللحم ويشق ٠٠  
 ورأى الدم يتفجر من ساقه وينزف ٠٠ مرعى ٠٠ مرعى ٠٠ الموت  
 ينسكب منه ويسيل والرمال تشربه ٠٠ بقى أن يضغط على موضع  
 الندعة كى يصفى كل مابقى من دم ٠٠ آه لو تواتيه القوة ٠٠ أو ٠٠  
 لو يدان أخريان ٠٠ تمدان لى يد العون ٠٠ وانبثق طيفها ، بوجهها  
 الأسمر الضحك والمتفتح للحياة دوما ٠٠ لو أنها الآن هنا ورائتى  
 هكذا نهجت كالوحش وراحت تصفى الجرح ٠٠ ورأها لاتضغط فقط  
 بكفيها ، بل تطبق بشفتيها وتمص الدم وتبصقه ، تمصه وتبصقه ٠٠  
 غير عابئة بأى خطر ٠٠ ويعود الحب أقوى ٠٠ تلك كانت كلماتها  
 ٠٠ وصرخاتها أيام الأزمة : لابد من فتح الجراح وتصفيتها تماما من  
 كل الدماء ٠٠ فيقول لها مستبشعا : هذا منطق المتوحشين ، فتقول  
 بل منطق اصادقين ٠٠ كانت ستفعلها رغم أننا افترقنا ، وتخضر  
 الشجرة من جديد ٠٠ تخضر بدمائى !! ٠٠ كان ماضيا ، دون أن  
 يدري فى الضغط على اللحم المشقوق ٠٠ وثمة قوة غريبة تلبست  
 يديه ٠٠ قوة حب الحياة والتمسك بها ٠٠ حتى لم يعد يرى الدم  
 النازف غير قطرات ٠٠ هل حقا تظهر الجرح ، أم أن حب الحياة  
 أحيانا يدفع الى الموت ٠٠ ووجد نفسه من فرط الانهاك يتراجع برأسه  
 الى الخلف ٠٠ ثم يعتمد بظهره على الرمال ٠٠ فليكن مايكون ٠٠

٠٠ لقد فعلت كل ما كان يجب على أن أفعله ٠٠ وأغمض عينيهِ :  
ما أعذب النوم ٠٠ وغاب عن الوعي ٠٠ !

\*\*\*

بعد قليل ٠ كان فتى وفتاة يسيران ٠٠ يستمتعان بلحظات حب  
على الشاطئ في ضوء القمر ٠٠ وإذ لحاه ممددا ٠٠ مبتلا وغارقا  
في الدم ٠٠ هرعا اليه ٠٠ حسباه قتيلًا ٠٠ لكن صدره كان يعلو  
ويهبط بانتظام : تنفسا الصعداء — أنه حي ٠٠

— أو ربما يلفظ أنفاسه الأخيرة ٠٠

وأمسكا به ٠٠ وراحا يهزانه برفق : أنت ايها الصديق ٠٠  
ماذا حدث ٠٠ قل لنا ٠٠ من أنت ٠٠ يجب أن نعرف من أنت ٠٠

وصاحت عليه الفتاة وهي تكاد تبكي : هذا المكان الرائع ليس  
للموت ، بل للحياة !!

وامتدت يد الفتى الى جيب قميصه المبتل ، فوجد ورقة صغيرة  
وقلما ، كامنين أسفل الجيب ! ٠٠ اخرجهما على الفور ٠٠ كانت  
الورقة مبتلة ومطوية ٠٠ فردها الفتى بحذر وعناية ٠٠ ربما يجد  
فيها الدليل الى شخصيته ٠٠ وانكب عليها الاثنان يقرأنها في ضوء  
القمر ٠٠ لم يجدا غير كلمتين اثنتين لم يفهماها ٠٠ لأنهما كانتا  
بالعربية ٠٠ كانت الكلمتان : موت الموت !!

(( ١٩٨٩ ))



## الفهرس

### الصفحة

٥	...	...	...	...	تقديم . . . حياتي والقصة القصيرة
٣٣	...	...	...	...	في ضوء القمر
٤٦	...	...	...	...	الأرنب
٥٧	...	...	...	...	جفت الأمطار
٧٣	...	...	...	...	الفانوس
٧٩	...	...	...	...	النهاية السعيدة
٩٣	...	...	...	...	أو نجلش
١٠٤	...	...	...	...	داود الصغير
١١٢	...	...	...	...	ابتسامة الرجل الكئيب
١٣١	...	...	...	...	الصورة
١٤٣	...	...	...	...	الصيد
١٥٧	...	...	...	...	هدد؟ لا . . . انهيار
١٧٠	...	...	...	...	الرجل الذي ضحك
١٨٥	...	...	...	...	شاطر يا عبد الستار أفندي

## الصفحة

١٩٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	في شارع السد
٢٠٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	وردة
٢١٤	...	...	...	...	...	...	...	...	...	شجرة
٢٢٠	...	...	...	...	...	...	...	...	...	حفلة عشرة
٢٢٨	...	...	...	...	...	...	...	...	...	العصفور لعبة
٢٣٨	...	...	...	...	...	...	...	...	...	ابن العالم
٢٥٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	الموتوسيكل
٢٦٦	...	...	...	...	...	...	...	...	...	الكلب عض لطيفة
٢٧٤	...	...	...	...	...	...	...	...	...	حد المحراث
٢٨٤	...	...	...	...	...	...	...	...	...	بحر الذنوب
٢٩٤	...	...	...	...	...	...	...	...	...	النمل الأسود
٣٠٧	...	...	...	...	...	...	...	...	...	العاصفة
٣١٥	...	...	...	...	...	...	...	...	...	التفاحة
٣٢٧	...	...	...	...	...	...	...	...	...	كوميديا في اتوبيس
٣٣٥	...	...	...	...	...	...	...	...	...	على المقعد الرخامي
٣٤١	...	...	...	...	...	...	...	...	...	جرح في وجه المدينة
٣٥٩	...	...	...	...	...	...	...	...	...	ما نملكه نحن الفقراء
٣٦٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	قوة الجذور

## الصفحة

٣٧١	...	...	...	...	...	...	البحر يكشف كل الأفعنة
٣٨٨	...	...	...	...	...	...	هولاكو .. والطفلة
٣٩٢	...	...	...	...	...	...	أغنية اليمام
٤٠٨	...	...	...	...	...	...	الطبقات العليا والطبقات السفلى
٤١٥	...	...	...	...	...	...	هو الذي سقط
٤٢٦	...	...	...	...	...	...	سباق مع القدر
	...	...	...	...	...	...	الخروج من المربعات الضوئية
	...	...	...	...	...	...	الأمم .. والجرح
	...	...	...	...	...	...	ذو القرنين
	...	...	...	...	...	...	الميلاد
	...	...	...	...	...	...	البرغوث سفيرا
	...	...	...	...	...	...	الباب والوهم
٤٩٨	...	...	...	...	...	...	الخماسين
٥٠٨	...	...	...	...	...	...	حبيبتها
٥١١	...	...	...	...	...	...	المشي في الليل
٥١٥	...	...	...	...	...	...	أغنية كونية
٥١٩	...	...	...	...	...	...	قلب الحب
٥٢٢	...	...	...	...	...	...	الأعظم

٥٢٥	...	...	...	...	...	...	...	الحنين الى الفرح
٥٢٨	...	...	...	...	...	...	...	يعود الحب اقوى
٥٣٩	...	...	...	...	...	...	...	صيد البكور
٥٤٣	...	...	...	...	...	...	...	حالة البحر المالح
٥٥٣	...	...	...	...	...	...	...	موت الموت



رقم الايداع ١٩٩١/٣٥٨٧

---

الترقيم الدولي 5 — 2748 — 01 — 977 I.S.B.N.

---

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



عشت حياتى كانى اكتب قصة  
رقتبت قصصى كانى اعيش الحياة الحقّة .  
« عبد الله الطوخى »